

068.569

M23mA

v. 1

C. 1

محاضرات  
المجمع العلمي العربي  
بدشو

الجزء الاول

وفيه قسم من المحاضرات التي القيت في ردهة المجمع العلمي  
الكبرى في المدرسة العادلية بدمشق سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ م  
(المواقفة لسنة ١٣٣٩ و ١٣٤٠ و ١٣٤١ هـ)

طبعت على نفقة المجمع العلمي العربي

و حقوق اعادة طبعها وترجمتها محفوظة له

المطبعة الحديثة في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ و (١٩٢٥) م

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اما بعد فان مجمعنا العلمي العربي بدمشق مازال منذ اول عهده يقيم في ردهته الكبرى حفلات اسبوعية للمحاضرات يشهدها جمهور كبير من اهل الفضل والادب ثم عزز محاضرات الرجال بمحاضرات اخرى تلتقى على السيدات وجعل لها مواقيت معلومة. ولم يخص المجمع اعضاءه باللقاء هذه المحاضرات بل كان يدعو احيانا كثيرة غيرهم من الفضلاء المقيمين بدمشق والطارئين عليها ممن عرف بالاخصاء في الفنون المختلفة ان يتفضلوا بمحاضرات يلقونها على من يجتمع في ردهته كل اسبوع للاستفادة. وكلما كان المجمع يجتهد في تنظيم هذه المحاضرات وتنويع موضوعاتها كان الجمهور يزداد اقبالا عليها. واعجابا بفائدتها. حتى تمنوا لو تنشر في المجلة او في كتاب على حدة وما كان يتيسر للمجمع نشرها في المجلة لكثرتها وضيق مجلته الشهرية عن استيعابها. ولم يكن يستحسن نشرها على حدة لان طبعها كلها يقتضي نفقات طائلة. ولان معظم هذه المحاضرات لم تكن اثرًا من آثار المجمع الخاصة وانما

هو محصول عقول الطبقة المستنيرة من فضلاء ابناء الوطن . على  
ان كثيراً من هذه المحاضرات كان يكتب بلغة مراعى فيها حالة  
الجمهور المستمع . وفيهم من يعسر عليه فهم الكلام الجزل . والاسلوب  
الفحل . فطائفة من هذه المحاضرات - وحالها ما وصفنا - لا يمكن  
طبعه ونشره الا بعد حذف ما طال من ذبوله .

غير ان المجمع اخيراً لما لم ير عذراً لهذا مقبولاً لدى الفضلاء الذين  
كانوا يلحون في طبع محاضراته قرر في جلسته المنعقدة في ٣١ تشرين  
الاول سنة ١٩٢٤ ان يكتفي بطبع ما وصل اليه من نسخ المحاضرات  
الجديرة بالنشر وها هو يقدم لقراء العربية الكرام الجزء الاول  
منها وفيه سبع عشرة محاضرة راجياً تحقيق ما يؤمله من النفع العام  
والله المستعان .

دمشق : في رجب ١٣٤٣ هـ و كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م

المجمع العلمي  
العربي

Handwritten text in Arabic script, likely a historical document or manuscript. The text is arranged in approximately 10 horizontal lines, though it is significantly faded and difficult to read. The script appears to be a form of Maghrebi or Ottoman Turkish script. The lines contain various characters and words, but the overall meaning is obscured by the fading and the cursive nature of the handwriting.

Handwritten text in Arabic script, possibly a date or a specific reference, located below the main block of text.

Handwritten text in Arabic script, possibly a signature or a name, located at the bottom of the page.

## معلقة طرفة بن العبد<sup>(١)</sup>

أيها السادة !

كُلِّفْتُ ان اتكلم على مئة بيت شعر ونيّف من كلام عرب الجاهلية . وضُرِبَتْ لي مدة للكلام لا أراها تكفي لذلك لان الابيات تحتاج الى شرح وتفسير معني . ومن دون ذلك لا يكون للحاضرة معني . مئة البيت هذه هي التي تسمى ( معلقة طرفة بن العبد ) .

ومعلقة طرفة واحدة من معلقات سبع . والمعلقات السبع بعض شعر الجاهلية . وشعر الجاهلية طائفة من الشعر العربي . والشعر العربي فن من فنون الاداب العربية . فاذا حاولنا ان نلم بهذه المقدمات نغد الوقت قبل الوصول الى ( معلقة طرفة ) . فالاجدر بنا اذن ان نعمد الى تلك المعلقة التي هي موضوع محاضرتنا ونهجم عليها تَوّاً من دون تعريج على شيء آخر سواها :

### ( لما ذا سميت المعلقات معلقات ؟ )

غير ان هناك أمراً احببت التعرض له وهو لما ذا سميت هذه القصائد بالمعلقات ؟ المشهور انها سميت بذلك لانها كانت معلقة على جدران الكعبة او مرقومة على ستائرها وانكر قوم ذلك . ومنهم ( ابو جعفر النحاس النحوي ) من رجال القرن الرابع للهجرة . فقالوا — في سبب التسمية — كان الملك في الجاهلية اذا اعجبته قصيدة قال لهم علقوا لنا هذه . يعني اكتبوها لتبقى محفوظة في خزانته مع الاعلاق النفيسة . وربما أيد هذا القول ان قريشاً كانوا قوماً حمساً اي شديدي الحماسة والتعصب لديانتهم . وناهيك بمنزلة الكعبة وقد استها في نفوسهم . فبعد ان يستمحووا بتعليق شعر فيه تصريح بالنحش والعهبر احياناً — على كعبتهم المقدسة .

(١) اول محاضرة ألقيت في قاعة مجمعنا العلمي لاحد اعضائه «المغربي» وذلك

مساء الاحد الواقع في ١٧ نيسان سنة ١٩٢١

وزد على ذلك أن كتاب السيرة النبوية ذكروا ان النبي (صلم) والصحابة في فتح مكة دخلوا الكعبة وحطموا الاصنام التي فيها وأزالوا عنها كل معالم الجاهلية حتى انهم كانوا يحملون الماء بتروسهم ويصبونه على جدرانها لمحو الصور المنقوشة عليها بالاصباغ . ولم يذكروا ان المعلقات كانت مما أزيل أو أنزل عن الجدران .

### (الاسباب التي نظمت معلقة طرفة من اجلها)

ليست محاضرنا في ( طرفة ) نفسه لنسب في ترجمته . وانما نلم من سيرته بما له تعلق في سبب نظم المعلقة .

كان ( طرفة ) من قبيلة بكر بن وائل التي يضرب بها المثل في العزة والكثرة وكان بيته في الذروة والسنام من تلك القبيلة . وكان هو شاباً جميلاً فصيحاً جريئاً . ومن كان في مثل حالته ومنزلته لا يلبث ان يتصل بالملوك فيكون نديماً لهم وجليساً . وكانت ملك العرب اذ ذلك عمرو بن هند . وعاصمته ( الخيرة ) . فاتصل به طرفة ونادمه . ثم نقم منه الملك بعد ذلك اشياءً وحقد عليه من اجلها :

قالوا : رآه يوماً يمشي بين يديه وهو يتخلىج في مشيته اي يتمايل ويتجتر غير حاسب للملك حساباً .

وكان مرة يشربان فرأى طرفة في الجام ( اي الكأس ) الذي بيده خيال اخت الملك وكأنها كانت تطل عليهم متوارية فانشد طرفة :

( يا بآبي الطيبي الذي تبرق شفتاه ولولا الملك الجالس الثمني فاه )

ويروي ( شنفاه ) مكان ( شفتاه ) فسمع الملك قوله فسكت على غيظ .

وبدرت من الملك بوادر منكرة في سياسة بلاده : منها اليومان الملعونان : يوم البؤس الذي كان يقتل فيه كل من يصادفه . ويوم النعيم الذي كان يكرم فيه كل من يصادفه . فنظم طرفة قصيدة انتقده فيها — وكان جريئاً على النقد — منها قوله :

( فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثاً حول قبتنا تدور )

( لعمرك ان قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير )

و ( الرغوث ) الناقة او النعجة الخلوب . و ( النوك ) الحمق . فصمم الملك على قتله

فحذره بعض رجاله عاقبة الامر . وخوفه عشيرة طرفة وخاله التمس الشاعر الكبير المشهور : فإن هذا اذا هجاه أسقطه في القبائل .

فرأى الملك ان يتخلص منهما جميعاً فدعاهما اليه واعطاهما كتابين الى المكعب عامله بالبحرين يأمره بقتلها وأوهمها انه يأمر لها بصلة وجائزة . ثم فطن التمس للامر فمزق كتابه في حكاية ليس هنا محلها وقال لابن اخته مزق كتابك انت ايضاً وانج معي . فعملت طرفة غرارة الشباب على عدم المبالاة وقال لخاله : « لئن كان اجترأ عليك فما كان ليحترى علي » ثم ذهب طرفة الى عامل البحرين فأطلعه العامل على جلية الامر . وفسح له مجال الحرب . فلم يفعل أنفة واستكباراً . وأشار على شبان عبد القيس — وهي قبيلة بالبحرين — ان يسقوه النحر وان يفسدوا أكلكه وهو تميل . والاحكل عرق في القدم . ففعلوا فمات . وكان في حدود العشرين من العمر . ولذلك يقال له ( ابن العشرين ) وقيل انه بلغ ستاً وعشرين بدليل قول اخته في رثائه :

( عددنا له ستاً وعشرين حجةً فلما توفاهما استوى سيداً ضخماً )

( فُجِعنا به لما رجونا إياه على خير حال : لا وليد ولا قحماً )

و ( القحم ) المنتهي في السن .

وفي معلقة طرفة ابيات اشار بها الى حادثة شربه النحر في البحرين مع قتياب عبد القيس :

لكن ليس هذا كل السبب الذي حمل طرفة على نظم معلقته . فإن هناك سبباً آخر هاج من قريحته . وحرك من أنفته :

كان لطرفة أخ اسمه معبد وكان لمعبد ابل ضلت فذهب طرفة الى ابن عم لم اسمه مالك يسأله ان يساعده في استرداد الابل . ولا ينبغي ما يكون في بعض ابناء الاعمام احياناً من الصلف والجفاء اذا رأوا ابن عم لم يدانهم ويتحجب اليهم من اجل قضاء أمر ما . فانتهره ابن عمه وقال له « فرطتم في ابلكم ثم جئتم تُعبونني في طلبها » فتأثر طرفة من قوله . وهاجت شاعريته . فقال معلقته . ومن أحسن ما جاء فيها ابياته في معاتبة ابن عمه مالك كما سيجيء .

والتحقيق ان كل ابيات معلقة طرفة لم تُنقل في سبب واحد . ولا في زمن واحد  
ومثلها المعلقات الاخرى : فكان الواحد من اربابها يعرض له السبب الآن فينظم  
فيه ابياتاً . ثم يعرض له سبب آخر فيقول فيه قطعة من البحر والقافية . حتى اذا  
كثرت الابيات ضم بعضها الى بعض . او فعل هذا بعض رواة شعره . وبهذه  
الصورة تتألف المعلقة وتبرز الى الوجود . ومن قلب نظره في المعلقات وسياقاتها  
وجد الامر كما قلنا .

وقد ذهب اكثر علماء الادب الى ان ( طرفة ) في الطبقة الثانية من ارباب المعلقات :  
اي انه بعد امرئ القيس وزهير والنابغة . لكن ( عمرو بن العلاء ) — وهو اكبر علماء  
اللغة — كان يقول : ان طرفة اشعرم واحدة . يعني اشعرم معلقة . بل ذهب ابن  
مقبل الى ابعده من هذا فقال : ( ان طرفة اشعر الناس ) .

اما مذهب ( طرفة ) في الشعر وحسن تصرفه في فنونه وشعاب اساليبه ومنزلته في  
ذلك بين رفاقه اصحاب المعلقات — فيتجلى لنا من اعمال مقارنة اجمالية بين معلقته  
ومعلقة امرئ القيس . وحبذا لو اتسع الوقت للمقارنة بينها وبين سائر المعلقات .

### ( مقارنة اجمالية بين معلقتي طرفة وامرئ القيس )

معلقة طرفة مئة وثلاثة ابيات . ومطلعها :

( خولة اطلال ببرقة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهرا اليد )

هلوا بنا ايها الافاضل نقف مع طرفة على اطلال محبوبته ( خولة ) ثم نسير معه  
فنتطوف حيث طاف . ونسمع منه ما آتى على ذكره من الاحوال والوصاف :

ها نحن نسمعه يصف اطلال خولة ببنتين من الشعر .

ثم نسمعه يصف نياق الظعائن فيشبهها بالسفن بثلاثة ابيات .

ثم وصف محبوبته — بخمسة ابيات .

ثم الناقة التي ساعدته على نيل مقاصده — بثلاثين بيتاً .

ثم الفلاة التي اجتازها وانها مهلكة — بثلاثة ابيات .

ثم نفسه بنشاط العزيمة وكفاية المعهم — بستة ابيات .



ثم عاد الى ناقته ووصف سرعتها — بثلاثة ابيات .  
ثم عاد الى نفسه فوصفها بالجود والشرف وانه يجمع بين الجد والهزل — بثلاثة ابيات ايضاً .

ثم وصف مجلس لهوه مع قيننه وندمائه — باربعة ابيات .  
ثم ذكر رأيه في هذه الحياة الدنيا وقال : انما هي شرب ولعب ومسرات . ودم البخل والبخلاء الذين يضمنون باموالهم فلا ينفقونها في هذا السبيل . ورد على الذين يلومونه في رأيه هذا — كل ذلك بستة عشر بيتاً .

ثم عاتب ابن عمه (مالك) وقص ما وقع بينهما — باربعة عشر بيتاً .  
ثم رجع الى وصف نفسه وسيفه ونحره النياق في سبيل الله وما نصحه ابو به — باحد عشر بيتاً .

ثم انتهى الى نهاية كل حي وهي الموت فاستوقفنا على مصرعه . وعلم ابنة اخيه (معبد) كيف نندبه . وتبكي عليه . وتهيئ بما هو جدير به من القول : لا بما تربي به لئام الناس وذوي البخل والشح منهم — بتسعة ابيات .

ثم ختم معلقته بابيات حكيمه بليغة سارت مسير الامثال .  
ويمكن إرجاع هذه المواضيع كلها الى موضوعات ثلاثة كبرى :

(١) وصف نفسه واطواره — باربعة وثلاثين بيتاً .

(٢) أخلاقه خاصة . وآداب عامة . بثلاثة وثلاثين بيتاً .

(٣) وصف الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً .

بهذه المواضيع يمكن ان نعرف الفرق الادبي بين معلقته ومعلقة امرئ القيس : فان امرأ القيس لم يضرب بسهم في وصف الاخلاق وتقرير الحكم والآداب كما فعل طرفة وانما هو اسهب في وصف أمور قد لا تكون مفيدة كالأفاداة التي نشعر بها في معلقة طرفة .

لنقف مع امرئ القيس بسقط اللوى بين الدخول فحومل . ثم نطوف مطافه . ونسمع اوصافه :

(١) أسهب امرؤ القيس في وصف النساء ووقائعه معهن — بسبعة وثلاثين بيتاً .

(٢) وفي وصف فرسه - بثمانية عشر بيتاً .

(٣) وفي وصف السحب والامطار - بثلاثة عشر بيتاً .

هذه هي أمهات الموضوعات التي اتى عليها امرؤ القيس في معلقته وقد استغرقت سبعة وستين بيتاً من الواحد والثمانين بيتاً التي هي مجموع ابيات معلقته فبقي اربعة عشر بيتاً : وصف نفسه بيت . والاطلال بستة . والليل باربعة . والمفاوز بثلاثة . ولم نسمعه قال بيتاً واحداً في الآداب العامة ولا الاخلاق ولا الحكم . على العكس من طرفة الذي أسمعنا من ذلك الكثير الطيب . وكان من اكبر مزايا معلقته ما تخرمته من هذه الحكم والامثال .

ففائدنا الادبية والاجتماعية من معلقة ( طرفة ) اعظم وأجزل منها في معلقة امرئ القيس . اللهم الا ان يدعي مدعي بافضالية هذه من حيث الصناعة الشعرية . وربما كان في هذا التفضيل ايضاً نظر بتحقيق لكم أيها السادة بعرض نموذجات عايكم من معلقة طرفة مفصلة وممايزة بعناوين خاصة بها .

( توارد المعلقة اي موافقتها غيرها )

توارد طرفة مع امرئ القيس في قوله :

( ووقفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لانهلك أسي وتجأد )

وقال امرؤ القيس :

( ووقفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لانهلك أسي وتحمل )

فهل هذا من قبيل توارد الخواطر على معنى واحد من دون ان يسمع احدهما ما قاله الآخر . او هو سرقة . وبعبارة أنزه اقتباس ! وأيها الذي اقتبس من الآخر ؟

ووفاة طرفة كانت سنة ٥٥٠ للميلاد . وفي دائرة المعارف الفرنسية سنة ٥٧٠

وهي السنة التي ولد فيها محمد «ص» . اما امرؤ القيس فكانت وفاته سنة ٥٦٠

( أرق بيت في معلقة طرفة )

( ووجه كأن الشمس ألت رداءها عليه . نقي اللون . لم يتجدد )

اي لم يتشقق ويخفف ويلتصق لحمه بعظمه . بل هو بض ممتلي سمناً .

( تشبيهاتها البديعة )

هي كثيرة وأحلاها موقعاً قوله يصف النياق والطعائن :

( كأن حدوج الماكية غدوةً خلايا سفين بالنواصف من دد )  
يريد بالحدوج النياق وما عليها من الهواج . وبالخلايا السفن العظام . والنواصف  
الاماكن الرحبة او الاباطح . و « دد » مكان .  
وقوله في وصف السفائن :

( يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد )  
« حباب الماء » سطحه او فقاقيعه . و « حيزوم السفينة » صدرها وجوؤها .  
و « المفايل » اسم فاعل من « الفيايل » ضرب من اللعب عند الاعراب : يجمع اللاعب  
التراب ويدفن فيه شيئاً كحاتم مثلاً . ثم يقسمه باليد نصفين . ويسأل الآخر عن الدفين  
في ايهما ؟ فمن أصاب قمر . ومن اخطأ قمر . فالفيايل على هذا مشتق من مادة  
( الفأل ) .

وقوله في صفة عيني الناقة :

( وعينات كالملاويتين استكنتا بكهني حجاجي صخرة قأت مورد )  
« الملاويتان » المرأتان و « استكننا » استقرتا و « الحجاج » بفتح اوله العظم الذي  
ينبت عليه شعر الحاجب وال « قأت » نقرة في الصخرة يستنقع فيها ماء المطر .  
يقول ان عينيها صافيتان كالمراأتين . وقد اودعتا حجاجين من رأس كصخرة ذات  
نقرة كالنقرة التي تجتمع فيها ماء المطر : فيكون قد شبه عينيها بالمراأتين اولاً ثم بماء  
القلات « جمع قلت » ثانياً عدا ما فيه من تشبيه حجاجيها بالكهفين ورأسها بالصخرة .  
وقوله في صفة يجتر الناقة في المشي :

( فذالت كما ذالت وليدة مجلس تري ربه اذبال سحل ممدد )  
« ذالت » مأخوذ من الذيل وهو ان يمشي المرء وهو يجر ذيله و « السحل » ثوب  
قطن ابيض .

كانت ناقة طرفة اذا ضربها بسوطه ذالت اي نشرت ذيلها على بطنها . كما  
تفعل الوليدة وهي الجويرية في مجلس تسي في ربهها اي سيدها الخمر . او انها تفعل  
ذلك حين ترقص أمامه . فهي تجر ذيل ثوبها من القطن الابيض .

وقوله في صفة وثاقه خلق الناقة .

( كقنطرة الزومي اقسام ربها لتكتنن حتى تشاد بقرمد )

بقرمد متعلق بتكتنن . وتشاد ترفع . اي لا يزال بناؤها الرومي يحيطها  
بالاجر حتى ترتفع .

وقوله في وصف ذنبها .

( كان جناحي مضرحي تكتنفا حنافية شكاف العيب مسرد )

( المضرحي ) النسرا الابيض و ( حنافية ) اي في جانبي الذنب و ( العيب )  
عظم الذنب و ( المسرد ) المخرز .

وقوله في صفة القينة . وهي المغنية

( اذارجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب اظار على ربع ردي )

يقول اذا رددت تلك القينة صوتها وهي تغني حسبته لحسنه حين نياق تجاوب  
من أجل فصيل لها مات .  
ومما تفحش به قوله .

( ندأماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين يرد ومجد )

( رحيب قطاب الجيب منها رفيقة يجس الندامي بضة التجرد )

( الجسد ) قميص يلي الجسد او قد صبغ بالجساد وهو الزعفران و ( قطاب الجيب )  
مخرج الرأس منه .

يقول ان شق جيب صدرها واسع حتى اذا مدت الندامي أيديهم للجس رفقت  
ورضيت . وهذا كل ما جاء فيها من الهنات .

ومن تعابيره الرشيقة قوله في صفة اسراع الناقة وأدبها وخوفها من لدغ سوطه .

( وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوي من القيد محصد )

( ترقل ) تسرع و ( الملوي ) يعني به السوط و ( محصد ) محكم القتل

( وإن شئت سامي واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد )  
 ( سامي ) بلغ في الارتفاع ( واسط الكور ) أعلى الحدج . والحدج للبعير كالسرج  
 للفرس و ( نجاء الخفيدد ) أي مثل اسراع الظليم وهو ذكر النعام .  
 ( تباري عتاقاً ناجيات وأتبع ) وظيفة وظيفاً فوق مورٍ معبد )  
 ( تباري ) تعارض وتسبق ( ناجيات ) نياقاً سرعات و ( الوظيف ) مستدق  
 عظم الساق و ( المور ) الطريق المستوي الموطوء .  
 وقوله في صفة حالته مع ابن عمه ( مالك ) .  
 ( فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني ويبعد )  
 وقوله في صفة سيفه :

( حسام اذا ماقت منصرفاً به كفي العود منه البدء : ليس بمعضد )  
 ( منصرفاً به ) أي منتقماً به لنفسه ، يقول : ان الضربة الاولى به تغني عن  
 ضربة ثانية . وليس هو بمعضد أي سيف يمتن ونقطع به الاشجار .

( ما فيها من الشؤن التي تهتم الباحث في تاريخ العرب )

( يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد )  
 مرشح هذا البيت وهو يفيدنا شيئاً مما كانت عليه العرب في ألعابهم وملاهيهم .  
 وقوله :

( كقنطرة الزومي أقسم ربها لتكنننن حتى تشاد بقرمد )  
 يفيدنا هذا البيت ان اليونانيين كانوا مشهورين بالحدق في فن المعار لدى عرب  
 الجاهلية بحيث يضرب بهم المثل .  
 وقوله في صفة الناقة :

( وأتلع نهتاض اذا صعدت به كسكأن بوصي بدجلة مصعد )  
 ( وخذ كقرطاس الشامي وشنفر كسبت الياني : قدته لم يجرّد )  
 ( وأروع نباض أخذ مملم كمرداة صخر في صفيح مصمد )

( اتلع ) عنق ( سكتان ) دفعة السفينة ( بوصي ) معرب ( بوزي ) السفينة او النوتي  
 ( مشفر ) شفة ( سبت ) الجلد المدبوغ ( قده لم يجرد ) اي لم يقع في قطعه اضطراب  
 ( اروع ) يعني به قلب الناقة الذي يرتاع من كل شيء ( أخذت ) سريع الحركة  
 ( مرداة ) حجر مستطيل يكسر به الصخر ( صفيح ) حجارة رقيقة ويعني بها اضلاع الناقة .  
 وقد استفدنا من هذه الايات اموراً من الاعمال والصناعات :

الملاحة في دجلة . وصنع الورق في الشام . والجلد المدبوغ في اليمن . وأن العرب  
 قبيل الاسلام كانوا يكسرون الصخور بالمرداة كما كان شأنهم في الدور الحجري .

### ( ما في المعلقة من الادب والحكمة )

هذا الضرب من الشعر استوفاه طرفة وأجاد فيه ، ونقسم ايات الادب في  
 قصيدته الى اقسام : منها ما جرى مجرى الامثال :

( ألا أيها هذا الزاجري أحضر الوغي وأن أشهد اللذات هل أنت مخلي )  
 ( لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتي — لكلا طول المرخي وثنياه باليد )

( ما ) هي المصدرية التوقيتية . اي ان شأن الانسان في هذه الحياة الدنيا  
 كشأن ناقة لها زمام مرخي أطيل لها لترعى . ولكن طرفيه مثنيان في يد صاحبها فهو  
 لا يلبث ان يجذبها اليه . وهكذا الموت ما دام هو لا يصيب الفتي لا يقال انه ناج  
 منه . فهو في صدد أن يجذبه اليه : كصاحب الدابة والدابة :

( وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند )  
 ( أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً : ما أقرب اليوم من غدا )

( أعداد ) جمع عدت بكسر العين وهو الماء لا ينقطع مدده . ومراده بالغد المستقبل  
 الذي يموت فيه الانسان . يقول ان الموت كالمنهل للوراد : يردونها واحداً بعد  
 آخر . وهي لا ينفذ مددها .

( سبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزود )  
 ( ويأتيك بالاخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد )  
 ( تبع له ) تشتري وتبتاع لاجله ( بتاتاً ) هو كساء المسافر وأداته . ويروى أنه

( صلعم ) أنشد هذا البيت ( ستبدي الخ ) بين يديه فقال : ( هو من كلام النبوة )  
اي على طريقة كلام النبوة .

( أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد )  
( أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما نقص الايام والدهر ينفد )

( يعتام ) يختار وهذا على حد قوله والموت نقاد الخ ( الفاحش ) المبالغ في البخل  
و<sup>١</sup> عقيلته ماله العزيز عليه . والمعنى أن ايام العمر كالكنز من المال : يؤخذ منه للنفقة  
كل يوم . وما كان هذا شأنه لا بد ان ينفد أخيراً .

### ( التمدح والفخر )

( اذا القوم قالوا : من فتى ؟ قلت أني عنيت فلم أكسل ولم أتبدد )  
( اتبدد ) اي التحير او أخمل . وهذا على حد قول الحماسي : -

لو كان في الالف منا واحد فدعوا من فارس ؟ خالم إياه يعنوننا  
( فان تبغني في حلقة القوم تلتني وان تلتمني في الحوانيت تصطد )  
( وان يلتق الحى الجميع تلاقني الى ذروة البيت الشريف المصمد )

قوله « في حلقة القوم » اي للسامرة او لأدارة الرأي و« الحوانيت » يريد بها  
الحانات . وقوله « وان يلتق الخ » اي يلتقون للفاخرة في أعمال المجد . وقوله « الى  
ذروة » اي في ذروة فيلى ثابت مناب ( في ) كما هي في كقول النابغة :

فلا تتركني بالوعيد كأنني الى الناس مطلي به القار أجرب

فقوله « الى الناس » اي في الناس . ومنه قولهم « جلست الى القوم » اي فيهم  
وقوله المصمد ) اي المقصود كثيراً .

( أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد )

( الضرب » اي الماضي الندب واصله الخفيف اللحم . وقوله « خشاش » اي  
كثير الدخول في الامور الصعبة .

وقال موصياً ابنة أخيه « معبد » ومعرباً بأخريين من منافسيه :

( فان مت فأتعيني بما أنا اهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد )

( ولا تجعليني كأمريء ليس همه كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي )

( بطيء عن الجلي سريع إلى الخنا ذلول بأجماع الرجال ملهد )

قوله « ذلول بأجماع » أي أذلته أو ذلته كثرة ضرب الرجال له بجمع أيديهم

فهو « ملهد » أي كثيراً ما يضربونه في ظهره أو صدره بقبضات أيديهم .

( فلو كنت وغلاً في الرجال لضررتني عداوة ذي الأصحاب والمتوحّد )

« وغلاً » أي لئماً جباناً .

( ولكن نفي عني الرجال جراء تي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي )

قوله « نفي عني الخ » أي كشفهم ونجاهم عن مباراتي في حبة المجد .

( لعمرك ما أمريء عليّ بغمّة نهاري . ولا لي عليّ بسرمد )

أي لا تعمي عليّ وجوه إنفاذ أموري وقضاء مصالحتي في النهار . كما أنه لا

يطول لي لي في الغم والحسرة على ما فاني قضاؤه : لاني أكون قد قضيت ونفدت كل

ما يلزمي عمله . فلم يفني شيء اتجسر عليه .

( رأيه في الحياة أو مذهبه الإبيكوري )

« أبيكور » فيلسوف يوناني مشهور . وخلاصة فلسفته أن اللذة أساس السعادة

في الحياة الانسانية . وأنه يجب علينا أن نبذل كل مساعينا في سبيل نيلها

والحصول عليها .

قال فينيلون « الافرنسي » مؤلف كتاب تليماك : ان الناس نظروا إلى « أبيكور »

كرجل يرى الانغماس في اللذات وتقمع الشهوات ولو كانت سافلة — مذهباً له —

وهذا ناشئ عن عدم فهم حقيقة فلسفته .

وحقيقتها ان الملدود عنده يجب ان يساعد على ترقية الفكر البشري وان يكون

تناول اللذات ضمن دائرة الفضيلة والحكمة .

ومع هذا فقد فهم معظم الناس ان أبيكور يقول بتناول الملدودات على أية



صورة وقعت • واخذوا يطلقون كلمة ابيكوري على كل رجل منغمس في اللذات والشهوات من دون مبالاة فضيحة أو عار •

و يظهر ان ( طرفة بن العبد ) كان ابيكورياً بدليل ابياته الآتية :

( وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبعي وإنفاقي طريفي ومتلدي )  
اي ما زال هذا دأبي وديني •

( الى ان تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد )  
( رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولأهل هذا الطرف الممدد )

( بني غبراء ) عني بهم الفقراء الذين ينامون على الغبراء وهي الارض • و( اهل هذا ) الخ عني بهم الاغنياء و ( الطرف ) الخباء من جلد • يقول ان اكبر دليل على شرفه ومجده وحسن طريقته ان فريق الفقراء والاغنياء بألفونه ولا ينفرون منه: الاولون لغمره لم بالعطايا والصلوات • واما الآخرون فمشاركته لم في الشرب واقتطاف اللذات • وما بقي من الناس غير هذين الفريقين فهم حسدة أغياء •

( فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي )  
( فان كنت ) أيها اللائم الحاسد من الفريق الثالث •

( ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم احفل مئى قام عودي )

( هن من عيشة الفتى ) اي عيشته اللذيذة او المعنى هن مما نتوقف عليه لذة

عيشه يقول :

لولا هذه الاشياء التي هي منهي لذة الحياة وسعادتها عندي لما باليت الموت  
واذا كنت أرغب في الحياة واتمنى طولها فذاك لاني مولع بهذه الاشياء الثلاثة :

( فمهن سبقي العاذلات بشربة كمت مئى ما تملء بالماء تزبد )

( وكرمي اذا نادى المضاف - مجنباً كسيد الغضا تبته المتورد )

( المضاف ) الخائف المدعور و( مجنباً ) فرساً في عظامه انعطاف و ( السيد )

الذئب و ( المتورد ) العطشان و ارد الماء •

( وانقصير يوم الدجن والدجن معجب بهيكنة تحت الخباء المعمد )

( كريم يزوي نفسه في حياته : ستعلم إن مننا غداً ايّنا الصدي؟ )  
ويظهر من هذا ان عرب الجاهلية كانوا يتأثمون من شرب الخمر ويعتقدون ان  
من يشربها في الدنيا يعطش في الآخرة .

( أرءى قبر نجّام بجنيل بماله كقبر غويّ في البطالة منسد )  
( النحام ) الجنيل لانه بنجم اي يسعل كما سئل صدقة . و ( الغوي ) المستهتر لا يبالي  
اللائمين . و ( المفسد ) المبدّر .

( ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صمّ في صفيح منضد )  
( الجثوة ) كومة الحجارة وقوله في ( صفيح ) اي انك ترى القبرين في جملة قبور  
منضدة كثيرة . واذا كان قبر الجنيل كقبر المنفق في لذاته . وكان مال كل منهما  
أن تكون كومتان من صفائح على قبر يها فلماذا بسجل الجنيل ولا يحذو حذو الغوي؟

( عتاب ابن عمه مالك )

( يلوم وما أدري على م يلومني ؟ كما لامني في الحي قرط بن معبد )  
( فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني و يبعد )  
( وأيا سني من كل خير طلبته كأننا وضعناه الى رأس ملحد )  
قوله ( كأننا وضعناه الخ ) اي كأننا وضعنا طلبنا وقدمناه الى ملحد اية ميت  
مدفون في اللحد .

( وان أدع للجلي أكن من حمايتها وان يأتك الاعداء بالجهد أجهد )  
( أدع ) أي إن دعوتني يا ابن عمي و ( الجلي ) الخطب العظيم . بالجهد اي  
بمشقة لا تطيقها أنت و ( أجهد ) أجتهد . في دفعها عنك .

( وان يقدفوا بالقذع عرضك أسقمم بشرب حياض الموت قبل التهدد )  
اي اذا سبوك أبدرهم فاسقممهم من مشروب الموت وأوردهم حياضه قبل ان  
أهددهم بالاقوال . اي ان فعلني يسبق قولني .

( فلو كان مولاي امراء أهو غيره لفرّج كربني أولاً نظرنني غدا )

( مولاي ) اي ابن عمي وقوله ( لانظرفي ) اي لامهاني .  
 ( ولكن مولاي امرؤ هو خاني على الشكر والتسال أو انامفتدي )  
 يقول ولكن ابن عمي خاني وآخذ باكظامي على كل حال : سواء شكرت له .  
 او سألته العفو . او افتديت منه بما .  
 ( وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند )  
 ( فذرني وخطي اني لك شاكر ولو حل بيتي نائياً عند ضرغد )  
 اي اتركني على ما أنا عليه من الاخلاق والطباع : فانا راض بها . ولا طاقة لي  
 بتغييرها . واذا فعلت هذا يا ابن عمي أكون شاكرًا لك . مهما كنت بعيداً عنك .  
 ولو في جبل ضرغد .

( حال ابيه معه وصبره عليه )

( يقول — وقد تر الوظيف وساقها ألت ترى أن قد أتيت بمؤيد )  
 ( تر ) سقط و ( الوظيف ) مستدق الساق و ( مؤيد ) داهية يثقل وقعها على النفس  
 ( يقول ) اي ذلك الشيخ . وقدم ذكره في الابيات السابقة . قال الزوزني هو ابوه .  
 لكن ورد في ترجمة طرفه ان اياه مات وتركه صغيراً . وعلى هذا يكون المراد بالشيخ  
 عمه او وصي ابيه عليه .  
 ( وقال : الا ! ماذا ترون بشارب شديد علينا بغيه متمعد ؟ )  
 اي وقال عمه ايضاً لجلسائه المشاهدين عقر طرفه للنياق . و ( ترون ) اي  
 تسيرون .

( وقال : ذروه إنما نفعها له وإلا تكفوا قاصي البرك يزد )  
 كأن الشيخ بعدما استشار جلساءه عاد فقال : دعوه فان النياق ارثه ونفعها عائد  
 اليه . فدونكم ردوا عليه تلك النياق القاصية الشاردة البعيدة عنه . او التي أبعدها  
 وأقصيناها نحن عنه . واني أخشى ان لم تفعلوا أن يزداد غضبه فيعقر النياق كلها .  
 ولا يبقى على شيء منها تشفياً وانتقاماً .

## ( الأبيات المعلقة في المعلقة )

ما كان من هذا القبيل في معلقة طرفة قليل جداً ويمكن أن يُعدَّ منه قوله :

( جالية وجناء تردي كأنها سفنجة تيري لاذعمر بد )

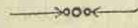
( كأن علوب النسع في دأياتها موارد من خالقاء في ظبور قردد )

( وتبسم عن ألمي كأن منورا تجلل حُر الرمل دعص له ندي )

هذه هي النمودجات التي أُجبت عرضها على مسامعكم أيها الأفاضل — من معلقة طرفة وهي نصف أبياتها . واذا لاحظنا معها أن طرفة لما تألما كانت في حدود العشرين من عمره حكمتنا مع (ابن مقبل) بان طرفة اشعر الناس . أو لافع (عمرو ابن العلاء) بانه أشعر اصحاب المعلقات .



## الحسبة في الاسلام



لم يقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة لاعصارهم وكلما ارتقت حضارة الغرب وتوفر العاملون من ابنائه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الاسلامية نقيح لنا امور منها ما كنا نحن اصحاب تلك المدنية نعلمه من قبل . من المعلوم ان المدنية انتقلت الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الاسلام بما فيه من العوامل القوية والنظام المدني البديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول من روح الكتاب والسنة باجمل مدينة عرفها البشر وما نظنه مها ارتقى في الازمان التالية يخرج عن حدها الا قليلاً .

لم يترك العرب باباً من ابواب المدنية الا وطرقوه ولا علماً من العلوم والصناعات الا وعانوه وبرزوا فيه . وقد تجلت مدنيتهم باجلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والاندلس اكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام وكانت العرب اساتذة ابنائها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار كان من اول الدواعي الى تجويد مدنيته ورفع شأنها بين الامصار على اختلاف القرون والاعصار وللأقليم وطبيعته دخل كبير في ثقيف العقول وتعويد القرائح الابداع والاختراع . ضاعت وأسفاه اوضاع مدينتنا القديمة ومشيخاتها لان العرب تفرقوا وتفرقوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على بلادهم كانوا دونهم في سلامة الذوق وجودة الفطرة فافسدوا اخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم وثقافتهم المختلفة حتى اوصلهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخير الدين باشا في تونس ومدحت باشا في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم .

وبعد فان الناظر في اصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة يعلم ان اجدادنا هيأوا لمدنهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء وحاولوا ان يبعثوا عنها

ما امكن الجور والشقاء . والحسبة بالكسر الاجر وهو اسم من الاحتساب اي احتساب  
الاجر على الله نقول فعلته حسبة واحتسب فيه احتساباً والاحتساب طلب الاجر  
وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو  
فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ  
الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على  
المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الخالمين راهل السفن  
من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها وازالة ما يتوقع  
من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها من الابلاغ  
في ضربهم للصبيان المتعلمين — قاله ابن خلدون وقال ابن تيمية: وبنو آدم لا يعيشون  
الا باجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد ان يكون بينهما اثار  
بامر وثناء عن امر واولو الامر اصحاب الامر وذوو القدرة واهل العلم والكلام  
فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صالح الناس واذا فسدوا  
فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه للاحمسية لما سأته ما بقاؤنا على  
هذا الامر قال : ما استقامت لكم ائمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ واهل الديوان  
وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر .

وقال ابن الاخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ائمة الصدر الاول  
باشرونها بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي  
عن المنكر اذا ظهر فعله واصلاح بين الناس والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر  
في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحهم وبياعاتهم وما كولههم ومشروبيهم  
وملبوسهم ومسكنهم وطرفاتهم وامرهم بالمعروف ونهيبهم عن المنكر .

وكانت الحسبة ( المقتبس م ٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩ ) في الحكومات العربية وحكومات  
الطوائف ضرباً من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من  
تسند اليه الا من وجوه المسلمين واعيان المعدلين ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته  
اذا رآها والولاية تشد معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة اقسام :  
احداها ما يتعلق بحقوق الله تعالى والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين والثالث ما يكون

مشاركاً بينهما ويمكن ان نقسم الحسبة الى دينية ومدنية فالديني منها بطل من بلاد الاسلام منذ اصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية استعيض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالمجالس البلدية وبقيت الحسبة معروفة في مصر الى اواسط القرن الثالث عشر . ولا عجب فمصر آخر ما اضمحل من اقطار العرب واول من نهض .

فالحسبة والحالة هذه اشبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات لعهدنا وكان المحتسب او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ويجازي عليها في الحال فينكر ما يجده مثلاً من المنكرات في الاسواق ويشدد على السوق والباعة في صحة القناطير والارطال والمتاقيل والدرهم والموزين والمكاييل والاذرع ويجري قواعد الحسبة على الطحانيين والعلافين والفرانين والخبازين والشوائين والنقائين والكبوديين والبواريين والجزاريين والرواسين والطباخين والشرابيين والمهراسين وقلائي السمك والزلايسية والحلاويين والشرابيين والعطاريين والشماعين واللبانين والبخاريين والدلالين والحلابة والخبازين والرفائين والقصارين والحرييريين والصباعين والقطانين والكتانين والصارف والصاغة والنحاسين والحدادين والاساكفة والبيطرة وسماسرة العبيد والجواري والذواب والذبور والحمامات والصدارين (١) والفسادين والحجامين والاطباء والكحالين والمجبرين وموذي الصبيان والقومة والمؤذنين والوعاظ والمنجمين وعلى اصحاب السفن والمراكب وباعة قدور الخبز والكيزان والفاخرانيين والغضاريين والاباريين والمسلاتيين والمرادنيين والحناويين والامشاطيين وعلى معاصر السرج والزيت الحار والغرابليين والندباغيين والبططيين واللبوديين والحصريين والتبانين والخشابين والقشاشيين والنجاريين والشاريين والبنائيين الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات وتدليس ارباب الصناعات .

(١) السدارون الذين يطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون اذا غش يضر ولا ينفع والناخرايون والغضاريون وهم الذين يصنعون الصحف (الزبادي او السلطانيات) والمرادنيون الذين يعملون المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب الساسم او من سنط الاحمر والمسلاتيون صناع المسلات .

وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها ارافقة الخمر كلها وكسر المعازف واصلاح الشوارع وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاو حال والارداغ والدكانجة على الباب ومنع جلوس الباعة عليها ومنع سوق الخمر والبقر للخشابين والآجر بين ونحوهم ومنع ربط الناس دوابهم فيها ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ومنع شغل هواء الشارع بالجناسح ويسمى ( برون داشت ) ومنع المبرز في الجوار بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ومنع الظلة الى غير ذلك من المصالح مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك كغصب قطعة من الارض ومنع اسبال الازار وشهود على الكعابين وزجر الرجال عن التشبه بالنساء ومنع النساء عن التشبه بالرجال وامر الثنيوليين بطهارة مائهم وثنيقية نورتهم عن الحصة ومنع الناس عن تطهير الحمام ومنع البغايا وتعزيرهن ومنع اوليائهن ومواليهن وازواجهن وامر غير المسلمين بتطهير الاراضي التي يبيعون فيها المائعات من النهن واللبن وامر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى وحفر القبور والحمل وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور وتفحص الجامع يوم الجمعة والمصلى يوم العيدين داخلوا وما عن البيع والشراء ومنع الفقراء عن التجطي ومنع القصاص عن القصاص المفتراة ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ومنع الصبيان والمجانين منه ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كمتحدث الرجال مع النساء في الشوارع ومنع النقاشين والصباغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح (١) وكبر الصور ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الاصنام والمعازف والصنح وبيع النبيذ والبخنج (٢) ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة وخروج الناس الى زيارة بعض المتبركين او بعض المساجد على مشابهة الخروج الى الحج ومنع النساء عن التبرج والذئرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ومنع الناس عن التصرفات في المقابر

(١) المنهي عنه الصور المحسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها .

(٢) البخنج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية ميمجنه .



بلا ملك ومنع المطلسة والسحار والكهان عن منكراتهم ونهي اصحاب الخلمات عن منكراتهم بتطهير المياه واخلاء الحمام عن المرء ودخول العراة فيه وامرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج اليه في الدين وتصديق الناس الكهان والنجميين ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ومنع الناس اللعابين بالترد والشطرنج وتفريق جمعهم واخذ بساطهم وتمائيلهم ومنع القوابل عن اسقاط جنين الحوامل ومنع الجراحين عن الجب والخصاء في الناس ومنع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الامتعة فيها ومنع النبي اصابه اللم عن التكلم بالغيب واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في اخباره بالغيب ومنع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو باجر عن الجلوس في المساجد ومنع المعلم عن اخذ شيء باسم النيروز والمهرجان وينذر المحتسب على الكتاتيب ان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا يهتفوا بمقتل وكذلك معلم العلوم بتقديرهم من التفرير باولاد الناس وبقفون من يكون نبي المعاملة فيهنونه بالزردع والادب .

وكانت وظائف المحتسب تزيد وتقص بحسب البلد ولا تعدو وظائف المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل مجتمع فالمحتسب في بيروت يقضى عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً ففي بيروت يعني المحتسب بالاحتمساب على السماكين والملح والصير والبوري وقلاتي السمك والطيور وصيادها ونجاري المراكب ونقديرات المراكب وجميع المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والاشربة والمعاجين والقلانسبين والخرارزين وصناع الشرك والاساكفة وصناع الخفاف وصناعة السرايات والزفاتين والنجساتين والدهانين وغشهم والمكارين وغشهم وكساحي السباد وحمالته والغراييل ومناخل الشعر والوراقين والمهرجين وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط والولاية والقضاة وتدليسهم والميازيب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولايم والحامل وصناعها والروايا والقرب الى غير ذلك مما كان يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنيتهم .

وليس هذا كل ما يطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه ان يسيطر على العقول ذكر ابن الاثير في المثل السائر من تقليد انشاء لمنصب الحسبة : ٠٠٠٠ واعلم ان

الناس قد اमतوا سنناً و احيوا بدعاً ، و تفرقوا فيما احدثوه من المحدثات شيعاً ، و اظلم منهم من اقرهم على امرهم ، و لم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البسدة رضا بمكانها ، و ترك النهي عنها كالامر باتيانها ، و لم يأت بنا الله الا يعيد الدين قائماً على اصوله ، صادقاً بيحكم الله فيه و حكم رسوله ، و نحن نأمر ان ننصح احوال الناس في امر دينهم ، الذي هو عصمة مالم و امر معاشهم ، الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ أولاً بالنظر في العقائد ، و اهد فيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد ، و تلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا موطن الحق فاقاموا ، و قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، و من عداهم شعب دانوا ادياناً ، و عبدوا من الالهواء و اوثاناً ، و اتبعوا ما لم ينزل به الله سلطاناً ، و لو نشاء لارينا كهم فلعرقتهم بسميهم و لتعرفتهم في لحن القول و الله يعلم اعمالكم ، فمن انهي من هؤلاء الى فلسفة فاقتله و لا تسمع له قولاً ، و لا تقبل منه صرفاً و لا عدلاً ، و ليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، ما بين حاضر و باد ، فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته ، و لا تدنست علومها بمثل اثر جهالته ، و المنتمى اليها يعرف بنكره ، و يستدل عليه بظلمة كفره ، و تلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالابصار ، و تظهرز يادتها و تقصها بحسب ما عند رائيها من الانوار ، و ما تجده من كتبها التي هي سموم ناقعة ، لا علوم نافعة ، و افاعي ملقفة ، لا اقوال مؤلفة ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، و افعل بها ما يفعله الله باهلها من التمزيق ، و لا يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، و الكشف عن مكان من اسرارها ، فمن وجدت في بيته فليؤخذ جهاراً ، و لينكل به اشهاراً ، و ليقل هذا من استكبر استكباراً ، و لم يرج لله وقاراً ، . . . . .

قلنا و تطبيق هذه الشدة في بعض الحكومات الاسلامية و باللاسف قد دعت الى النقول على كل مخالف و ذهب كثير من ارباب العقل و الفلسفة طعمة الضغط و الاستبداد فتأخرت بذلك الامة و اشبه المسلمون في كثير من ايامهم المسيحيين في القرون الوسطى بما منوا به من دعوى السحر و الكفر فأهلكوا باحكام دواوين التفتيش الديني الوفاً ذهبوا جزاء عقولهم التي ارادت ان تخرج عن مستوي محيطهم الضيق .

و من اجمل التقاليد تقليد رشيد الوطواط في الحسبة و فيه ان اولى الامور بان تصرف اعنة العناية الى ترتيب نظامه و تقصر غايات العهم عن تنمية اتمامه امر يتعلق به ثبات الدين و يعطف عليه صلاح المسلمين و هو امر الاحتساب فان فيه تثقيف الزائفين

عن الحق وتأديب المنهمكين في الفسق ونقوية اعضاء ارباب الشرع وسواعدها ،  
واجراء اعمال الدين على قوانينها وقواعدها ، وينبغي ان يكون منقلد هذا الامر موصوفاً  
بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مرأصد الريب ، بعيداً عن مواقف التهم والعيب ،  
لابساً مدارع السداد سالكاً مناخج الرشاد ٠٠٠٠٠ وامرناه ان يجعل الزهد شعاره ،  
والتقوى دثاره ، والعلم معلمه والدين مناره ، ثم يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر و يقيم  
حدود الشرع على موجب النصوص والاخبار ، ومقنضى السنن والآثار ، من غير ان يتسور  
الحيطان ، ويتسلى الجدران ، ويرفع الحجب المسدولة ، يكسر الابواب المسدودة ، ويسلط  
الاو باش على دور المسلمين ، وحرّم المؤمنين ، حتى يغيروا على اموالهم ويمدوا الايدي الى  
عوراتهم واطفالهم ، ويظهروا ما امر الله بستره واخفائه ونهى عن اشاعته وافشائه ، فان عبادة  
الاوثان خير من ذلك الاحساب ، والعقوبة الابدية اولى بمباشرة من الاجر والثواب .  
قال ابن فضل الله في التعريف وصية محتسب : وقد ولي امر هذه الرتبة و وكل  
اليه النظر في مصالح المسلمين حسبة لله فلينظر في البقيق والجليل والكثير والقليل  
وما يحصر بالمقادير وما لا يحصر ، وما لا يؤمر فيه بمعروف او ينهى عن منكر ، وما يشتري  
و يباع ، وما يقرب بتخريزه الى الجنة وبعده من النار ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها  
الا قدر باع او ذراع ، وكل ما يعمل من المعاش في نهار اوليل ، وما لا يعرف قدره  
الا اذا نطق لسان الميزان او تكلم فم الكيل ، وليعمل لديه معدلاً لكل عمل ، وعياراً  
اذا عرضت عليه المعاير يعرف من جار ومن عدل ، ولينفقدا كثر هذه الاسباب ، ويجذر  
من الغش فان الداء اكثره من الطعام والشراب ، وليتعرف الاسعار ، وليستعلم الاخبار ،  
في كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعار ، ليقم عليهم من الامناء من ينوب عنه  
في النظر ، ويطمئن به وان غاب اذا حضر ، ويأمره باعلامه بما عضل ، ومراجعتة مها  
امكن فان رأي مثله افضل ، ودار الضرب والنقود التي منها ثبت ، وقد يكون فيها  
من الزيف ما لا يظهر الا بعد طول اللبث ، فليتصد لها بصدرة الذبي لا يخرج ،  
وليعرض منها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ، وما يعلق من الذهب المكسور  
ويرو بص من الفضة ويخرج ، وما اكلت النار كل لحامه ولا بعضه و يقيم عليه من  
جهته الرقباء ، وليقم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من الشمس الحرباء ، وليقم

الضمان على العطارين والطرقية في بيع غرائب العقاقير الا امن لا يستراب فيه وهو معروف، ويخط مطيب ماهر لمريض معين في دواء موصوف، والطرقية واهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة الى ساسان، ومن يأخذ اموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان، وكل انسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا انسان، امنعهم كل المنع، واصدعهم مثل الزجاج حتى لا ينجبر له صدع، وصب عليهم النكال والا فما تجدي في تأديبهم اداة التأديب والصفع، واحدم كل هذه المواد الخبيثة، واقطع ما يثير ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرثيثة، ومن وجدته قد غش مسلماً، او اكل بباطل درهما، او اخبر مشيراً بزائد، او خرج عن معهود العوائد، اشهره في البلد، واركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وطالقات النساء وغيرهما من الانواع (?) ممن يخاف من ذنبه العائث في سرب الظباء والجاذر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر، ارشقهم بسهامك، وزلزل اقدامهم باقدامك، ولا تدع منهم الا امن جربت امانته، واختبرت صيانه، والنواب لا ترضى منهم الا امن يحسن تقاضا، ويحسب لك اجر استنابته اذا قيل لك من استنبت فقلت هذا . وثقوى الله هي نعم المسالك، وما لك في كل ما ذكرناه بل اكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

ولقد حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يتولون الحسبة بانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل كل بلد لانتم الا بدفع الاذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق والجاهل في ذمة العالم والضعيف من حصة القوي . واهل البلد الواحد متضامنون معنى وضمناً اذا لم يتضامنوا هلكوا وهيبات ان تم للفرد فيه سعادة لانتناول المجموع .

نعم ان تلك الاوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغاً عالياً من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال وكثرة الاختصاصين في كل فرع من الفروع التي تشتد حاجة المدينة اليها ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع دافعة عنق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به اهلها في القرون الوسطى وهذا سر الفرق بيننا فسبحان الملهم العظيم .

محمد كرد علي

## الوبالة ( الملاريا )

« كيفية الوقاية منها ( ١ ) »

ايها السادة :

انندبني حضرة استاذنا الكبير رئيس المحمع العلمي المحترم لاحادثكم في هذا المساء فلم اجد بداً من الامثال لرغبته فأتيت أفقتش في حقيقتي عن موضوع يدور عليه محور كلامي فوجدتها حافلة بالمواضيع الطبية والعلمية والصحية . ولا عجب فهي بضاعة الطبيب ومنها ينفق ويفيد . وقد كنت اود لو انفسح لي الوقت فالتي على مسامعكم سلسلة من المحاضرات في الفلسفة الطبية والعجائب النسيولوجية والتشريحية التي تترأى للمدقق حين تجري كل خلية من الخلايا التي يتركب منها هذا البناء البشري والنظر اليها وهي تتبع نظاماً دقيقاً لا تخرج عنه حتى ليتمثل للانسان عندئذ ان في جسده عالماً آخر جديداً يتبع انظمة انى لعالمنا هذا الظاهر ان ياتلها دقة وانتظاماً . ولكن البحث في تلك الموضوعات يستغرق طويلاً من الزمن ويستدعي عشرات من المحاضرات ارجي القاءها الى زمن آخر لانني أرغب رغبة شديدة بان اطلع ناشئنا الجديدة التي يرحى منها تقدم البلاد ورقبها على ما يجري فيهم من الاسرار والعجائب الخارقات التي يقف عندها ا كبر مفكري العالم وهم لا يجدون حل الغازها سبيلاً وطار على الانسان ان يطمع بعقله الى إدراك ما يحيط به ومعرفة ما هو بعيد بالنسبة اليه وهو يجهل ما فيه من الغوامض وعليداني اترك هذه المواضيع الى وقت آخر واختار موضوعاً لكلامي في هذا المساء « الوبالة وكيفية الوقاية منها »

\*\*\*

موضوع رجب متسع الاطراف يتمكن الباحث من الجولان فيه ساعات طويلة

( ١ ) محاضرة الدكتور مرشد بك خاطر احد أعضاء المحمع العلمي ألقاها

في اول تموز سنة ١٩٢١

وموضوع جزيل الفائدة إذا روعي كأن سبباً لنجاة مئات الألوف في هذه البلاد السورية وحدها على الرغم من قلة سكانها - ولست أريد أن التي عليكم الآن درساً طبياً في هذه الحمى واعراضها وكيفية تكونها وعاملها المرضي واختلاطاتها وغير ذلك من الابحاث التي يطول بنا شرحها ولا يلذ لكم سماعها لانها من الاختصاصات الطبية الصرفة ولكنني أحصر كلامي فقط بالقسم الصحي من الموضوع اي بالنقطة التي يجب على كل فرد من الامة طبيباً كان أم غير طبيب ان يعرفها ويراعيها لان من الواجب على كل انسان أن يكون طبيباً صغيراً أي طبيباً في بيته يدخل اليه من العادات كل حسن ويستأصل منه كل فاسد فاذا حصرت موضوعي بنقط ثلاث اكون قد بلغت الغاية التي اتوخاها فاولى هذه النقاط : حد الوبالة وأضرارها وانتشارها الجغرافي . وثانيتها : طريقة انتقالها ولمحة في حيوة العامل الناقل . وثالثتها : كيفية الوقاية منها .

الوبالة او (المالاريا) مرض عفني ناتج عن دخول الطفيلي - الذي كسفته لافران سنة ١٨٨٠ وسمي باسمه - الى دم الانسان وهذا العامل أيها السادة متى وجد في الدم لا يرضى غذاء له الا اشرف ما في الانسان . لا يرضى الا بذلك العنصر الحيوي الاساسي ، تلك الكريات الحمراء التي تأخذ بنحواها الدموي (هاموغلوبين) او كسجين الهواء متممة في الانسان وظيفته التحض والاحتراق وهي اس لكل حيوة بشرية وحيوانية ونباتية ومتى التهمت هذه الجرثومة تلك الكريات الحية الناشرة الحيوة في البناء البشري حدثت اعراض في البنية يطول بنا وصفها واهمها فقر دم عميق يليه ضعف كل وظيفه جسدية لان الاعضاء التي في الجسد تحتاج الى غذائها وقوتها . وغذاؤها وقوتها يقومان بنقديهما الكريات الحمراء فاذا نقصت هذه الكريات عدداً أو اختلف تركيبها الكييمي فنقصت جوهراً مع محافظتها على عددها ضعفت الاعضاء جميعها التي تقص غذاؤها فبدت في البنية اختلالات في الوظيفة اهمها ضخامة الطحال الذي يبلغ احياناً عشرة اضعاف حجمه العادي فيملاً البطن ويصل حتى حدود السنلى وترافقه غالباً ضخامة الكبد وهي وإن تكن أخف من ضخامة الطحال لان الكبد لا تبلغ إلا نادراً ثلاثة اضعاف حجمها الفسيولوجي ، لا يزال حجمها المطاق أكبر من حجم الطحال لان وزنها يعادل اربعة كيلو غرامات مع ان وزن الطحال حين ضخامته

الكبرى لا يزيد على كيلو غرام واحد . هذا عدا التشوشات العظيمة التي تظهر في السكايتين والتي ( المخ العظمي ) والمراكز العصبية فيمتنع بسببها لون الوجه ويعلوه شحوب شديد فتدبل نضرة الوجنتين ويشبه المصاب بهذه الوبالة انساناً نشر من بين الاموات .

هذه هي الوبالة أيها السادة وهذا تأثيرها بالبنية وهذه هي أضرارها الجسيمة وهذه هي أثارها التي يرزح تحت وقرها جسدنا الحي فاذا صورتها لكم بهذه الصورة القبيحة أو مثلتها لكم بصورة سنالك عظيم يفتنك بمليارات الكريات في الحقيقة الواحدة فانني لا أدرك الحقيقة . وكما ان ضحاياها في الجسد الواحد تعد بالملايين فلست أبلغ اذا قلت ان ضحاياها في جسد المجموع البشري لا نقل عدداً عن ضحاياها في البنية الواحدة من ذلك المجموع فكم من القرى التي انقرت بتأثير الوبالة وكم من الجيوش التي أهدت حلولاها في البطائح والحرب التي مرت هي اكبر بردان على صحة ما أقول ولعل عدداً غير قليل منكم أيها السادة رافق الجيوش التركية في غزواتها ووجد معها في تلك المستنقعات السورية والفلسطينية والاناضولية والعراقية فرأى بأمر عينه تلك النوب الخبيثة التي لم تكن لتمهل المصاب بها الا عشرات من الساعات . وكم من المدن التي وهبتها الطبيعة من مائها وجمالها ما ضدت به على سواها فلم تستفد من هبات الطبيعة بل شودتها فجعلت الماء مرتعاً للبعوض فكانت تلك الهبة من البلايا العظيمة على سكان تلك المدينة .

ولو نظرت نظرة عامة أيها السادة الى الكرة الارضية لوجدتم ان الوبالة مستعمرة في كل قارة من القارات فهي لم تترك مملكة الا غرست فيها علمها وشادت قلاعها وان من الممالك ما نواها وأعلن عليها الحرب الحامية الوطيس وأضعف سيطرتها وحصرها حتى كاد يخنقها ويقلص ظلمها من بلاده ومثال هذه البلاد البلاد الاوربية فان فرنسا مثلاً بعد ان كانت تدفع للوبالة الضرائب الشديدة توصلت اليوم الى نزع نيرها والقائه بعيداً وبعد ان كانت ولاياتها الواقعة في الوسط لاسيما ( السولويه ) ( Sologne ) من البلاد التي نفضت فيها الوبالة أصبحت اليوم آمنة منها بفضل علماء الصحة الخبيرين وهمة الحكومة ونشاطها وهكذا فان اوروبا جميعها قد خطت خطوة

كبيرة في هذا الامر فما يقال عن فرنسا ينطبق ايضاً على انكثرة والمانية وسواها حتى اننا لو زرنا البلاد الاوربية لا نرى الا اصابات قليلة لا تكاد تذكر في كورسكة ( Corse ) وساردانية واسبانية واليونان ولم يبق من البلاد الاوربية مملكة متأخرة عن خنق الوبالة الا البلاد الايطالية التي تكثر فيها المناقع ولا تزال هذه الحمى ضاربة فيها اطنابها ومزيلة من وجنات شبيبتهما نضارة الحياة .

وكذلك اميركة فينبا قد حذت حذو اوربة في خطتها لا سيما الشمالية منها وهي، وان تكن لا تزال متأخرة في هذا العمل عن مجارة اوربة القديمة العهد والعريقة في العلم ، قد أزلت قسماً كبيراً من سيطرة هذا البلاء في اميركة الشمالية لم تعد تذكر الوبالة الا في مقاطعات لوزيانا ( Lousiane ) وفلوريدا ( Floride ) وتاكساس ( Texas ) واركنساس ( Arkansas ) وجورجيا ( Géorgie ) واما في المكسيك فانها لا تزال مستولية استيلاءً غربياً كما انها في بناما وغواتمالا ( Guatémala ) وجزر الانتيل لا تزال شديدة الوطأة .

واما اميركة الجنوبية فلا تزال وكراً للوبالة فان البرازيل والبيرو عدا الصرود منها ، وغيوانه ( Guyanes ) وفنازويلا و كولومبية وبوليفية ننشى فيها الوبالة نفسياً شديداً .

والقارات الاخرى من الكرة تلك القارات التي كتب لها الشقاء لا تزال متأخرة ترزح تحت نير هذه الحمى وسواها من الاوبئة المنفسية فأفر يقية على الرغم مما يبذل فيها من العناية لا تزال مرتعاً للوبالة ولا ينجو منها الا المدن والقرى الواقعة على المرتفعات وان للحيط تأثيراً كبيراً في نمو بفض البعوض الذي ينقل هذه الحمى ويجعل تلك البلاد رغم اليد العاملة فيها من اكبر الينابيع التي يتدفق منها هذا البلاء على البشرية لان هذه الحمى تهوى البلاد الحارة اكثر من الباردة .

واما اوقيانية ( جزائر الاوقيانوس الكبير ) فان اكثر جزرها لا تزال معرضة لهذه الحمى اخصها مالازية ( Malaisie ) وجاوا ( Java ) وسوترا وبورنايو وموليك ( Moluques ) وفيلبين .

واما آسيا هذه القارة التي نجن فيها وتحت سماءها نجيا فانها القارة التي لم تخط حتى



الآن خطوة تذكر في سبيل التخلص من ربقة هذا المرض فان الكوشانشين وتونكين والقسم الشمالي الشرقي من الصين وكامبودج والعجم وهندستان وسيلان ملوثة بالوبالة تلوثاً لا يرجى منه شفاء الا اذا بدلت الحكومة اقصى ما في وسعها في هذا الصدد . ولو نظرنا الى المحيط الذي نحيا فيه بعد ان أرسلنا بنظرنا الى أطراف الكرة الارضية لوجدنا أنفسنا في تأخر عظيم ولست أقصد ان أضع لكم الآن إحصاء عن الوبالة في كل مقاطعة من البلاد السورية فان هذه الاحصاءات لا وجود لها لسوء الحظ واذا وجدت فلا تكون حقيقية بل لا تكاد تبلغ عشر الارقام الحقيقية لان كثيراً من الاصابات لا يذكرها الاطباء فضلاً عن ان العدد الكبير من المرضى يتداوى عند الدجالين او عند نفسه فلا تصل اسماءهم الى ادارة الصحة العامة لتضع احصاءها الحقيقي . ولكني اقول كلمة موجزة تحققت صحتها بنفسني وبواسطة زملائي وهذه الكلمة تهكم معرفتها كما انها تهكم كل سوري ضنين بصحة اهل بلاده وهي ان ثلث سكان هذه المدينة وثلثي سكان القرى الجاورة لما يصابون بهذه الحمى .

ولو اخذت مقياساً لكلامي لفيفكم المجتمع هنا أيها السادة وسألت كلاً منكم اذا كان أصيب بنوبة وبالة فمر بادوارها الثلاثة الناض (العرواء) والحرارة والعرق لما وجدت عشرة في المائة سالمين منها مع انكم من الذين يحافظون على صحتهم ويراعون القواعد الصحية مراعاة دقيقة ولكن ليس الذنب ذنبكم . ولو اخذتم انتم على سبيل الاختبار اي مجتمع كان كما لو اخذ اب الامرة افراد أسرته ورئيس المدرسة عامة تلامذته ورئيس البدائرة جماع مأموريه ورئيس النادي جميع اعضائه ومدير المعمل لفيف مستخدميه لرأيتم ان النسبة تبقى محفوظة او تكاد . إذا اذا جعلت نسبة الاحصاءات ٣٣ بالمائة اكون قد وضعت رقماً دون الحقيقة .

هذا هو انتشار الوبالة في الارض أيها السادة رسمته لكم بايجاز فما هو السبب ياترى في انتقالها وما هو عاملها الناقل ؟ ان السبب الوحيد في انتقال هذه الحمى البعوض والشرط الاساسي في حياة البعوض هو المستنقعات والمياه الراكدة او ذات السير البطيء فاذا أرسلنا الشرط الثاني اتلفنا بيوض البعوض وقضينا على هذه الحمى وخلصنا هذه البلاد من شر عظيم يهددها ويذهب بقوة ابنائها . أجل : المستنقعات هي النقطة

الاساسية التي يجب ان نوجه اليها انظارنا ولو أخذت مدينة دمشق مثلاً على كلامي  
وذكرت لكم البطائح المتعددة الفسيحة المحيطة بهذه المدينة والموجودة في داخلها الماعجبتم  
بعد ذلك لكثرة الوبالة وشدة انتشارها ما بيننا .

في دمشق مستنقعات فسيحة مملوءة سماً زعاقاً تنشر في النضاء ذلك العامل الناقل  
فلا يدع منزلاً إلا يدخله ويلقح سكنه بلقاحه المضر ففيها مستنقع (الجبذانة) وجنينة  
النعنع والمرج و(الدقردار) والزفتية والساحة والقاعة والمستنقع الواقع خارج بوابة الله  
قرب القدم والمستنقع الواقع في جوار مدافن النصارى واليهود والنهر الابيض الذي  
يبتدىء من الشاغور ويمر بالحقلية والزفتية والساحة حتى المنزل — وخرج الغوطة  
الواقع شرقي الشام . وفي ضواحي دمشق مستنقعات عديدة وبطائح تنفسد هواء القرى  
الواقعة قربها منها ثلاث بطائح قرب بحيرة العتيبة والقرية المسماة باسمها تباعغ مساحتها  
٢٤٠٠ متر مربع .

ومستنقع قرب قرية حران العواميد والمستنقعات المتكونة في سفح جبل حردون  
كالمستنقع الواقع على بعد خمسة كيلو مترات من قطنا في ذلك الوادي الخصب .  
ومستنقعات عرطوز وسعسع المتكونة من نهر الاعوج وغير هذه من المستنقعات  
الصغيرة التي لا تعد وكلها ناتجة عن اختلال قنوات الانهر وتسرب المياه منها الى  
الاراضي المنخفضة ومتى عرفنا أيها السادة ان المستنقع يمتد ضرره الى مساحة لا يقل  
قطر دائرتها عن ثلاثة كيلومترات وهي المسافة التي يقوى البعوض على قطعها اذا  
كان الهواء هادئاً ادر كنا اذ ذلك ان دمشق وقراها جميعاً دخلت ضمن  
نطاق الوبالة .

ولا نظن ان بقية المدن السورية اكبر حظاً من دمشق فلو أرسلت بنظري الى  
حمص وحمه وجسر الشغور وقراها ولم أتجاوز حدود دولة دمشق لوجدت من  
المستنقعات عدداً عديداً يثبت جراثيم هذه الحمى الفتاكة ويميت الالوف ومئات الالوف  
من سكان القرى المجاورة منها :

مستنقع الغاب : ويسمى ايضاً غارة وجه الحجر دعي غالباً لكثرة ما ينبت فيه من  
الاعشاب المائية والتصب حتى أصبح حرجاً كثيفاً تأوي اليه الوحوش وهو بورء الوبالة

تجيش فيه جيوش البعوض فننشر على الجهات المجاورة وتبعث بين سكانها سمومها .  
طوله ستة كيلو مترات وعرضه كيلومتران ونصف كيلومتر ومساحة سطحه الف  
وخمسة مائة هكتار وسبب تكونه ارتفاع سطح المياه التي طغت من بحيرة القطينة على  
الاراضي المنخفضة الواقعة في الجهة الغربية .

ومستنقع نهر السبخ : الذي ينبع تحت خرابة اسمها معين قائمة على سفح جبل  
لبنان الشرقي ويمتد هذا المستنقع على طول مجرى النهر البطي\* ويحتاز قري مطرية  
وسفرجه والناعم والبويزة الغربية ودبين وينتهي بمستنقع الغاب فيسمم هواء هذه  
القرى كلها .

ومستنقع كائن قرب حمص بن سد\* أنشئ حديثاً للعاصي والجسر الحديدي الذي  
ير فوقه قطار حمص وطرابلس الحديدي طوله خمسمائة متر وعرضه خمسون متراً .  
ومستنقع الميلاس : وهو منزله مدينة حمص وسبب وبالتيها .

ومستنقع السبخ : وهو مستنقع آخر يكونه النهر متسع الاطراف ببلع طوله عشرة  
كيلومترات وعرضه عشرة أيضاً ومساحة سطحه عشرة آلاف هكتار تحيط به  
قري العشارنة والعونية وحلة وتريمسة وصلبا والصفصافية . وهي من اعمال حماه  
وسلب وجبرملة وديمو من اعمال قضاء العمارانية من منطقة العلو بين .

ومستنقع الغاب : وهو بطبيعة أخرى غير البطيحة الاولى المسماة بهذا الاسم  
واقعة قرب جسر الشغور واسمها القديم بحيرة افاميا مساحتها اربعون الف هكتار  
وطولها ٤٠ كيلومتراً وعرضها عشرة كيلومترات وهي كائنة في الاراضي الفاصلة بين  
حكومة دمشق وحلب وجبل العلو بين تقع في اولها قرية العشارنة وهي من اعمال حماه  
وفي آخرها قرية قرقور من اعمال قضاء الشغور ويحدها قري جلاب وعمورين  
والسقبيلية وقلعة المضيق ( وهي مدينة افاميا القديمة ) والشريعة وحوير والتويني  
والناصرية وقرقور وتل الغار وحوارات ورسم الجرن وتل كثرني وكريم والبارد  
ورصيف شطه . ومما زاد في الطين بلة إقامة سد في معبر المستنقع قرب قرية قرقور  
سمحت بانشاءه الحكومة العثمانية اشركة ملتزمي الصيد منعاً لمرور الجري (الخنكليس)  
من الفرار .

خطر عظيم يتهدد الامة ونحن عنه متغاضون وبلاء جسيم سببته المياه الغزيرة ذلك العنصر الحيوي الذي يلقي الحياة حيث مر اذا احسن استعماله و يسبب الامراض والابوئة اذا لم ينذبه اليه ونحن عنه لاهون . خير لسورية ان تكون ظمأى وبنوها اشداء اقوياء من ان تندفق الجدول في كل منعرجاتها وتسيل المياه في دورها وبنوها مرضى شاحبون — وعارء علينا ان ندع تلك الهبة التي خصت الطبيعة بها مدينتنا الزاهرة ننتقل الى بلاء وخطر . عارء علينا نحن أحفاد الامو بين ان نتقف وقفه المنفرج إزاء هذا الخطر الخفي كأن الدم الذي يلمتهم ليس بدم ابائنا والقوة التي نثبعر ليست بقوة نسلنا ، لابل يليق بنا ان نضع حدا لهذا الداء وان نحمل اولي الامر على اتمام ما لا طاقة لنا بصنعه منفردين .

المستنقعات مضره أهبها السادة لانها البيئة التي ينفو فيها البعوض و يلقي فيها بيوضه فلا تلبث هذه البيوض متى وجدت من الحرارة وركود الهواء ما يلائمها ان تنفقس وتنتقل الى سرفة فحشرة فيالغمة . فتصبح قادرة على الطيران . وبهذه المناسبة أنبهكم الى امر اساسي خوفاً من الالتباس وهو ان البعوض يقسم نوعين مهمين وان نوعاً واحداً منها يجيما فيه عامل الوبالة وهذا النوع يسمى ( الانوفال ) . والنوع الآخر عديم الخطر يسمى ( كيلاكس ) . واليك بعض الاوصاف المميزة للانوفال عن الكيلاكس البالغتين : يكون جسم الانوفال عندما تحط على سطح مائل مكوئناً مع السطح الذي تستوي عليه زاوية تبلغ أحياناً الدرجة التسعين . واما الكيلاكس فان جسمها يكاد يكون موازياً للسطح فاذا رأيت بعوضة حاطة على حائط او سرير ووجدت ان رأسها أكثر انخفاضاً من ذنبها اي اذا وجدتموها مائلة فاعلموا ان في خرطومها سمازاعافاً وان لدغها لا يقل خطراً عن لدغ الافعي واذا رأيتموها موازية للحائط او لسطح السرير فلا تتخافوها فهي تلدغ وتوالم مكان اللدغة ولا ينتج عن لدغتها الام موضعي لا يلبث ان يزول وما قلته لكم من الاوصاف المميزة بين النوعين البالغين من البعوض نجد شبيهاً له بين الحشرتين والسرفتين الا انني اضرب صفحاً عنها لان ما يقع تحت اعينكم من البعوض هو البعوض البالغ وقلما تندفعون الى تتبع البعوض في وكره والنظر الى سرفاته وهو على وجه المياه — فالانوفال اذا بعد ان تصبح قادرة على الطيران يبقئ الذكر منها قريبا من

المكان الذي ولد فيه فيتغذى بعصير بعض الاشجار واما انثاء فلانها نهمه لا ترضى بسوى الدم غذاء لها فتغتنم فرصة الليل واستغراق الانسان في نومه فتهاجمه وتمتص من دمه غذاءها ولما كانت لا تميز بين السليم والريض فانها متى امتصت من دم مريض مصاب بالوبالة تأخذ مع الدم طفيلي الحى وبعد ان ير هذا الطفيلي بادوار متعددة في جسمها تلقح به السليم مع اللعاب حين غراز خرطومها فيه لا اغتذاء بدمه وهكذا يتم انتقال هذه الحى من المريض الى السليم . وبدون البعوض لا سبيل الى العدوى وبدون المستنقعات لا سبيل الى حيوة البعوض .

وبان الانوفال هي العامل الناقل وهي الملقح الوحيد الذي ينقل العامل الرخوي من العليل الى السليم رأيت من الواجب ان اعطيكم حكمة عن حياتها واخلاقها فاقول :  
 للبعوض دور من الحيوة يسمى الدور السرفي وهو الدور الذي يلي فقس البيضة ويسبق زمن البلوغ وهذا الدور من ادوار حياة الانوفال ما ي صرف اى ان الانوفال تقضيه في الماء . اذا لا أنوفال بدون ماء .

تلتخب الانوفال المستنقعات الصغيرة حيث الماء نقي صافٍ لتلقى بيوضها فيها غير ان ركود الماء ليس شرطاً لازماً فان الماء اذا كان هادئاً أو خفيف الجريان كان موافقاً لها ايضاً وعليه فان قسماً كبيراً من الانهر التي تتحرك دمشق مارة في بقع مستوية من الارض او خفيفة الميل يكون سيرها هادئاً جداً حتى انه يخيل للناظر اليها انها بركة لاجريان فيها فهذه الغدران جميعها ملائمة كل الملائمة للانوفال وفيها تلقي بيوضها وتنتج نسلها بمئات الملايين وما يقال في هذه الغدران يقال ايضاً في ضفاف الشواطئ التي تنمو عليها الاشجار المائية فتعوق سير الماء السريع وتولد قرب جذع كل شجرة مستنقاعاً صغيراً لا بل تفضل الانوفال هذه المستنقعات الصغيرة على تلك نظراً الى قلة عمقها وضآل مائها وهذه كثيرة بدمشق تعد بمئات الالوف لان كثرتها معادلة لعدد الاشجار النامية على الضفاف .

وكذلك المستنقعات المعشبة والمستنقعات المائية الواقعة في الاراضي الخريفية وكل مستنقعات دمشق التي ذكرت اسماءها منذ حنيفة هي من هذين النوعين ، هي وسط موافق كل الموافقة لنمو الانوفال . ولا ننس ان البرك والحباري الصناعية التي تتحدر

في الجنائن والمنعرجات الواقعة في جوار الجداول وثقوب الحوافر الملقاة حول المسالخ والافناق التي يحفرها السرطان المائي والمجامع المائية مهاصغرت لاسيما ما ينتج عن فيضان خزانات الماء كما هي الحالة قرب خزان من خزانات ماء الفيحة في دمشق وكسرات القناني وآية الازهار وشقوق الصخور كل هذه اذا اجتمع الماء فيها كانت موافقة لفقس بيض البعوض وبكلمة واحدة فان الانوفال لا تترك بقعة ماء هادئة او راكدة الا تلتقي فيها ببوضها .

ولا ننجبوا أيها السادة اذا أضفت الى كل ماضى ماشاهده بعض علماء الصحة المدققين في فلسطين ولعلنا نشاهده نحن ايضاً اذا جرنا حب الاختبار الى التدقيق بان بعض الآبار البيئية نجتزها الانوفال مقرأ لها وتلقي فيها ببوضها فتأملوا اذا ما أعظم صولة هذا العدو الخفي الذي يتهددنا وكم ينبغي ان نعد من العدد لمقاتلته وتغريب معاقله المتعددة . ولكن متى عرف الانسان مكان عدوه وادرك طريق عيشته ودرس اخلاقه جيداً سهل عليه الفتك به ففهما كانت الوظيفة شاقة فان من الواجب اللازم علينا ان نقوم بها لاننا بدونها لا نتوصل الى قطع شأفة الانوفال واذالم نمنح البعوض من هذا المحيط بقي هوأونا ملوثاً واجسادنا عليه مما توفرت الاسباب الصحية الاخرى لدينا فكلكم يعلم ذلك المصيف الجميل الذي يؤمه الشاميون لصرف اشهر الصيف فيه وما هي عليه بلودان تلك القرية التي بنيت على علو شامخ فاخذت من الهواء نقيه وأتلت بعنقها الى السهول المنبسطة على اقدامها فاخذت من ازهارها ذلك الشذا الشذي فعطرت به هواءها وانعشت صدور ساكنيها ومع ذلك فلم يغنها موقعها الطبيعي ولا جودة هوائها شيئاً بعد ان أهملت مياهها فولدت مستنقعات في اراضيها أصبحت مأوى للانوفال ومصدراً للوبالة التي نفشت بين السكان والمصطافين في السنة الماضية حتى ان السواد الاعظم من الذين قصدوا تلك البلدة طلباً للصحة عادوا منها وقد علا وجناتهم اصفرار فقر الدم الوبالي ونهكت قواهم تلك الحمى الشديدة الوطأة . فاذا لم نندرك الحكومة امر هذا المستنقع ونجمره او تجففه في هذه السنة كانت نتجاع تلك القرية خطراً عظيماً على المصطافين .

وها انا امرٌ على النقطة الاخرى من موضوعي وهي كيفية الوقاية من هذه الحمى .

الوقاية من الحمى تقوم بامور ثلاثة : اولها اتلاف سرفات البعوض وثانيها توقي البعوض البالغ حين وجوده وثالثها ادخال علاج الى الدم لا يتمكن طفيلي الوبالة من ان يعيش فيه وبكيفة أخرى جعل الوسط الدموي غير ملائم لحيوة العامل المرضي .

اما الامر الاول اي اتلاف سرفات البعوض فيقسم قسمين قسم منه وهو الاكبر يترتب على الحكومة القيام به والقسم الآخر وهو الصغير يترتب على كل فرد من افراد الامة اتمامه . فواجبات الحكومة ان ترسم مصوراً مفصلاً للبلاد التي تُنولى شؤونها وان تدرس درساً دقيقاً مجاري الانهر وما يتولد عنها من المستنقعات فتصلح القنوات اصلاً منقناً وتجعل بناء السدود محكماً كي لا يتسرب المياه منها في الاراضي المنخفضة الواقعة تحتها ونظر في امر المستنقعات المنفصلة عن مجاري الانهر فاذا كانت المياه التي تصل اليها قابلة للتحويل ، حولتها عنها فخففتها واذا لم تكن قابلة للتحويل ملأتها او ردمتها او حفرت فيها خنادق عميقة متصلة بمجرى من المجاري النهرية الاكثر قرباً منها ثم غرست فيها اشجاراً سريعة النمو محبة للماء كشجر الاوكالبتوس مثلاً فلا يمر عليها وقت قصير الا تجف وتصبح الانوفال عاجزة عن ان تجد لها مقراً لتلقي فيه بيوضها . ومن واجبات الحكومة ايضاً ان تصلح ضفاف الانهر وتجعل مجرى النهر عميقاً وثقلع الاشجار التي تعوق سير الماء فلا تدع سبيلاً لتولد تلك المستنقعات الصغيرة التي ذكرتها لكم قرب جذع كل شجرة من الاشجار . ومن واجباتها ايضاً معاينة المساخ وجوارها والمعامل وما يحيط بها والشوارع والازقة وخزانات المياه فلا تدع فيها مجماً صغيراً من الماء يتمكن الانوفال من إلقاء بيوضها فيه . ومن واجباتها وضع قانون يقضي على كل ملاك او مستأجر او مزارع ان يضع في البركة التي في داره او ملكه من زيت الكاز او التربينينا كل اسبوع كمية تناسب سطح تلك البركة اي كمية كافية لتكوين طبقة من الزيت على سطح الماء تمنع السرفات عن استنشاق الهواء وتقضي عليها وهي في اوكارها ونقدر هذه الكمية بعشرين سانتيماً مكعباً من الكاز في المتر المربع من الماء . وعليها ان تعين مأورين صحيين لهذه الغاية وان تعاقب العقاب الشديد كل من يجزأ على المخالفة . وعليها ايضاً ان تعين مياه الآبار وترى اذا كانت سرفات الانوفال عائشة فيها فتأمر ما ينجفها او بوضع الكاز فيها عادة اياها كالبرك الملوثة .

فواجبات الحكومة كبيرة أيها السادة وإذا هي لم تبدأ بالعمل أولاً وتقوم  
بواجباتها فإن ما يصنعه افراد الامة منفردين لا يأتي بالفائدة وان حكومتنا الحاضرة وان  
لم نتم حتى الآن واجباتنا من الواجبات الصحية المسؤولة عنها فانها قد وضعت القضية تحت  
الدرس ورسمت الخطط المنوي تطبيقها ولعل الغرامة الحربية التي جعلتها الحكومة المنتدبة  
تحت تصرف الحكومة الوطنية تصرف لهذه الغاية وكل آت قريب .  
اما واجباتنا نحن أيها السادة فبسيطة للغاية يجب علينا ان نساعد الحكومة على اتمام  
ما تضعه لنا من القوانين الصحية . يجب على كل فرد منا ان ينظر نظرة دقيقة الى بيته  
فلا يدع في بستانه او داره مجمعاً من الماء الا ملاءه والقي فيه كزراً . يجب علينا ان  
ننظر الى المراحيض فان الانوفال وان تكن ترغب رغبة شديدة بالماء الصافي فانها  
لا تستنكف عن المالح او القذر فاذا وجدنا تلك المراحيض قد ولدت مجامع مائية فيجب  
ذاتنا ان نلقي كمية من الكاز فيها . يجب علينا ان نعتبر الاقسام المحيطة ببيوتنا كأنها  
ملك لنا يترتب علينا ان نحافظ عليها محافظتنا على مساكننا فنعاملها معاملة دورنا ذاتها  
ونخفف عن الحكومة قسماً من الاعصاب . هكذا يصنع الشعب الراقي المتمدن في كل  
قطر من اقطار العالم .

واما الامر الثاني من الوناية وهو انتقاء البعوض البالغ حين وجوده فاننا لا نحتاج  
اليه الا اذا أهملنا الامر الاول كما هي الحالة اليوم في مدينتنا العاسية ويقوم هذا  
الامر بوضع شبكة من الخيوط المعدنية الرفيعة على الابواب والنوافذ لا يتمكن البعوض  
من المرور منها ووضع كلات ذات شبكات رقيقة ايضاً على الاسرة ويجب ان تكون  
هذه الكلات طويلة كي تصل الى الارض وان ثبتت حول السرير يقطع من الرصاص  
كي لا يرفعها الهواء فيدخلها البعوض ويجب علينا ايضاً ان نعين الكلات في كل  
يوم فاذا حدث فيها ثقب صغير يجب ان يرثق حالاً لان البعوض لا يدع منفذاً  
مهما كان صغيراً الا دخله . ان الكلمة أيها السادة كافية في حالتنا الحاضرة للتوقي من  
شر هذه الحمى الشديدة فمهما غلا ثمنها ومهما قيل فيها فان اهمالها يعد جريمة لا تغتفر .  
ومهما الخبت عليكم بتعميم هذه العادة الحسنة في المحيط الذي انتم فيه فلا آفي واجب  
التبشير بهذه القضية حقه . فليكن كل منكم رسولاً في بيته وبين اصدقائه ومبشراً



في كل مجتمع ومعلماً للسذج الذين لا يقدرون هذا الامر قد دره فلا تمر مدة قصيرة الا يعم استعمال الكلات عند الفقير والغني فنتحسب اذ ذاك الحالة الصحية تحسناً يذكر يعود الفضل فيه اليكم .

وأما النقطة الاخيرة من الوقاية فنقوم بادخال علاج الى الدم لا يتمكن طفيلي الوبالة من النمو فيه . وهذا العلاج ايها السادة يعرفه جميعكم ولكن قل من يستعمله منكم . هذا العلاج هو الكينين هو الدواء الذي يحق لنا أن نجفل اليوم به وبه المماشي لان السنوات التي مرت على كشفه مائة سنة وسنة . وهذا العلاج الذي اوجده العناية الالهية شفاءً للوبالة له خاصة واقية أيضاً . فكما انه يطفي نار الحمى حين تأججها فانه يجعل ايضاً المحيط الذي يدخله غير قابل للاشتعال . فهو رحمة للبشرية جاء بها بالاتي وكافانو سنة ( ١٨٢٠ ) وان التاريخ الطبي يحفظ مع الفخر اسمي هذين الكاشفين الجيدين اما استعمال الكينين للوقاية ففضلي طريقه طريقة لافران كاشف الطفيلي وهي تقوم باخذ عشرين سانتغراماً من كبريتات الكينين في كل يوم او اربعين سانتغراماً كل يومين مادام الفصل الخطر موجوداً . والفصل الخطر حسب تحديد علماء الصحة هو خمسة اشهر اولها حزيران وآخرها تشرين الاول هذا ما أريد أن أقوله لكم ايها السادة عن الوبالة وقاتكم الله منها بفضل ما أسدي اليكم من النصائح المفيدة والسلام عليكم .



## الجبائية في الشام (١)

أهم مسألة في قيام الدول وسقوطها ان تفرض الاموال على الرعايا بالعقل وتجي منهن بالعدل ويحسن التصرف في انفاقها على المصالح العامة . وقد كانت الحكومات الاسلامية تعني بهذا الشأن كل العناية وكانت اذا غفلت عن هذا الامر المهم ايام ضعفها تكثر الثورات أو تنقطع عن العمل الرغبات فتحترق البلاد وتنتشر الفوضى وتعم البلوى .

اعتمدت العرب أول النخ في تنظيم دواوين اموالها على الروم في الشام ينظرون لهم في مسائل الدخل والخرج ووضع التوازن بحسب عرف تلك الايام وذلك لان العرب كانوا لاول امرهم نصف أميين او نصف متحضرين وأهل الشام اعرق منهم في الحضارة وما ينبغي لها حتى كان زياد يقول ينبغي ان يكون كتاب الخراج من رؤساء الاعاجم العالمين بأموال الخراج .

ولقد كان الاسراف يبدو في الاموال ايام الترف والنعيم وتبجلى الاقتصاد فيها على عهد الجد والاصلاح وذلك يرجع على الاغلب الى من يتولى امر الامة من خليفة او سلطان او ملك او امير فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله . واذ كانت دواعي الانفاق محصورة داخل البلاد وكان النقد أقل من هذه الايام بالطبع والنهني في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الاخيرة وحركة المعاملات والمقايضات محدودة وأضعف من العصور الحديثة كانت المسائل المالية لعهد العرب الى السداجة لاول الامر شأنهم في عامة أمورهم .

والجبائية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة فان كانت الدولة على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة

(١) ألفت في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٣٩ هـ و ٢٦ آب سنة ١٩٢١ م .

من المال قليل وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تُعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصبة فلا بد من البداوة سيفاً ولها . والبداوة تقتضي المسامحة والكرامة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر . قال والدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلاً ويكون في الجباية حينئذ وفاءً باز يد منها بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تلبث ان تأخذ بدین الحضارة في الترف فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ويستحدث أنواعاً من الجباية يضر بها على البياعات وينرض لها قدرأ معلوماً على الاثمان في الاسواق وعلى أعيان السلع في المدينة .

وعد فلم يتصل بنا سند صحيح عن مقادير الجباية في هذه الديار قبل العرب أما على عهد حكومتهم فكانت الجباية في الصدر الاول تجمع من الخراج والعشور والصدقات والجوالي أي الجزية أي ان لها اربعة موارد رئيسة ثم صارت اصول جهات الاموال السلطانية عشرة الجزية والخراج والعشور والاجور والزكوات واثمان المبيعات والمقاسم والغنمية والني والمعادن . وزادت أنواع الجباية على عهد انحطاط هذه البلاد ونسي المتغلبون أو الفاتحون « ان تكثير المالك ماله بأموال رعيته بمنزلة من يحسن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه » .

قال الظاهري : ان كثرة الاموال وقتلتها بقدر المعرفة باجتلابها من جزى مقررة ، ومتاجر معشرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفي من جهات غير منحصرة ، هذا الى زكوات واجبة ، وأجور لازمة ، وديات دماء زاهية ، ومحرر مباحات راتبة ، ومستخرج معادن غير ناهية ، وعداد نعم سائمة لاسائبة ، ووظائف على أكرة عاملة ناصبة ، الى غير ذلك من تريع مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتريع مواضع ، وترجيع طوالع ، فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها ، وممكن من استيفائها بسلوك طريقها ومنهاجها ، وفوض فيها حقوقاً تجب رعايتها ، عند صرفها واخراجها ، اه .

وقال الغزالي : وكل ما يحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية

قسان قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنمية المأخوذة بالقهر والنفي وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال والجزية واموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسان الموارث وسائر الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك والاقواف التي لا متولي لها اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان — اي في القرن الخامس — وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرشوة كلها حرام . وقال ايضاً ان اموال السلاطين في عصرنا حرام كلها او اكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والنفي والغنمية ولا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ بنوع من الظلم لا يحل اخذها به فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ثم اذا نسبت ذلك الى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشره .

واول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل وهي في طرف الشام ومعدودة منه يعرف من الكتاب الذي ارسله النبي صلى الله عليه وسلم مع حارثة بن قطن الكبي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى اهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب لنا الناجية من النخل ولكم الصامتة من النخل على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر لا تجمع سارحتكم ولا تعد فاردتكم نقيمون لوقيتها وتوتون الزكاة بحقها لا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم عشر النبات لكم بذلك عهد الله والميثاق وانسا عليكم النصح والوفاء وذمة الله برسوله شهد الله ومن حضر من المسلمين اه .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور وكان لاول الفتح ضرب الخراج على الارض والجزية على الرقاب وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده راعى في كل ارض ما تحمله وكانت الجزية في بدء الامر ديناراً في كل حول على كل جمجمة (١) ثم وضعها عمر بن

(١) يقول لامنس ان الرومان ضربوا الجزية على اهالي سورية على الذكور من سن الرابعة عشيرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم

الخطاب على الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغني الغني وإقلال المقل وتوسط المتوسط وقيل جعل على كل رأس موسم ثمانية وأربعين درهماً ومن الوسط أربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً والجزية تؤخذ من غير المسلمين والخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً . وصالح ابو عبدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان اترك لهم كنائسهم وبيعهم وعلبيهم ارشاد الضال وبناء القناطر على الانهار من أموالهم وأن يضيفوا من مرائبهم من المسلمين ثلاثة أيام وصالحهم عمر على ضيافة من مرائبهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبيح شاة اودجاجة وتبيت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن .

خراجاً جبوه من الاملاك يبلغ في المئة واحداً ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عازق السوريين من المغارم والسخر التي حملهم اياها ملوكهم سابقاً وكانوا ينقضونها دون نظام معلوم وفي أي آن شاؤوا اه .

وقال غيره كان أهل الولايات الرومانية يؤدون للرومان الجزية وعشر غلاتهم وإتاؤه من المال ورسمًا على كل رأس وعلبيهم أن يخضعوا لجماع مايو مروون به قال شيشرون ان الولايات أملاك الشعب الروماني فاذا اخضع هذا الام بأسرها لسلطانها فذلك طمعاً بفائدتها لا لاجل منفعة الشعوب ولذلك لا يتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استثمارها . قالوا وكان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين يتناعون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني ويتناول هؤلاء العشارون اكثر مما يجب لهم أخذه يسلبون الاهلين وكثيراً ما كانوا يبيعونهم كما يباع الرقيق . قال سنيوبوس وكثيراً ما كانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب وجمع الرومان في بلادهم ثروات الام المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة كل الندرة في الولايات واضطر سكان الولايات أن يبيعوا حتى التجف والطرف . وقد شوهد ابوان يبيعان ابناهما وبناتها .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب (١) عامر او غامر يتاله الماء بدلوه او  
 بغيره زرع او عطل درهماً وقفيزاً (٢) واحداً والغى عمر النخل عوناً لاهل السواد  
 واخذ من جريب الكرم عشرة دراهم ومن جريب السمسم خمسة دراهم ومن الخضر من  
 غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ومن جريب القطن خمسة دراهم ثم حمل  
 الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً  
 وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل  
 الف اصل كرم مما بعد ديناراً وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل  
 مائتي شجرة مما بعد ديناراً وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك  
 ومادون اليوم فهو في القرب وحملت الشام على مثل ذلك . وقد ذكر عن بعض اهل  
 المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الخضر من اثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم .  
 ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو  
 المسلمين وعوناً للمسلمين على اعدائهم فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين  
 المسلمين رجلاً من قبائلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم فكتب ابو عبيدة الى  
 كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها يأمره ان يرد ما جبي منهم من الجزية  
 والخراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رد دناؤكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجوع

(١) الجريب عشر قصبات في عشر قصبات والقفيز عشر قصبات في قصبية والعشير  
 قصبية في قصبية والقصبية ستة اذرع فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة  
 واما الذراع فسبعة اصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر . (٢) القفيز مكيال  
 ثمانية مكايك جمع مكوك وفي القساموس المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً او نصف  
 رطل الى ثمان اواقي او نصف الوببة والوببة اثنان وعشرون اربعة وعشرون مداً  
 بمد النبي صلى الله عليه وسلم او ثلاث كيلجات والكيلجة تسع مئاً وسبعة اثمان مئاً والمئاً  
 رطلان والرطل اثنان عشرة اوقية والاقوية اوقية استار وثلاثا استار والاستار اربعة مئاقيل  
 ونصف والمتقال درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان  
 والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس ثن درهم وهو جزء من ثمانية  
 واربعين جزءاً من درهم .

وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا تقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم  
ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا  
عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا  
علينا شيئاً واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ليس على المسلمين عشر وانما  
العشور على اليهود والنصارى وقال يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عنكم  
العشور . ولا تؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الامام فضلاً . وفرض  
عمر سنة خمس عشرة الفروض ودون الدواوين واعطى العطايا على السابقة في الاسلام  
وفرض لاهل الشام الفين الفين وكانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الا قباض ويقسمونها بين  
الفاتحين . و امر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمسخ السواد ان لا يمسح تلاً ولا اجمة ولا  
مستنقع ماء ولا مالا يبلغه الماء ولما فرض على الرقاب وجعل على من لا يجد اي الفقير  
اثني عشر درهماً في السنة قال درهم في الشهر لا يعوز رجلاً وكان يأخذ الجزية من  
اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي . ذكروا في  
الني والخراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم وان احتملوا اكثر من ذلك  
فلا يزداد عليهم وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ووضع ذلك الصلح  
عليهم جميعاً بقدر ما يطيقون في اموالهم وارضيتهم ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات  
ولا لاسلام من اسلم منهم ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطيقونه ويحتملونه  
قاله يحيى بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك  
تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم وما افاء الله عليهم فاذا اتاك كتابي هذا  
فانظر ما اجلب الناس به الى العسكر من كراع او مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين  
واترك الارضين والانهار لعراها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك ان قسمتها  
بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء . وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام  
فمن اسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لم وله سهم في الاسلام  
ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل المسلمين وماله لاهل الاسلام لانهم  
قد احرزوه قبل الاسلام . ولما ولي عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حمص

وما يليها من الشام كتب اليه كتاباً يوصيه فيه بتقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه . ويأمره بوضع الخراج والرفق بالرعية فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه . ولما طعن عمر قال : أوصي الخليفة من بعدي بأهل الامصار خيراً فانهم جباة المال وغيظ العدو وردء المسلمين وان يقسم بينهم فيئهم بالعدل وان لا يحمل من عندهم فضل الا بطيب انفسهم . واوصي الخليفة من بعده بأهل النمة وان يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكفوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله ويجعل اموالهم في بيت المال فمن صدر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه اجاز رجالاً اتبعوه منهم الاشعث بن قيس اجازه بعشرة آلاف وسأله عمر من اين هذا الثراء قال : من الانفال والسهان ما زاد على ستين ألفاً فلك فقوّم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال .

قال الصولي في ادب الكتاب : ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة الف دينار فلما أفضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى الاردن مائة وثمانين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى فلسطين مثل ذلك ثم جعل بعد ذلك يسطفي الارض الجيدة ويدفعها الى الرجل بخراجها وعلاجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء .

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث لانه نشأت له ثروة واعطى بعض ولائه حريتهم ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال وبيذرونه وقد دفع هو الى ثلاثة انفس من قريش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي لكل واحد مائة الف دينار واقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لان تلك الضياع كانت خراباً لا عامر لها فسلمها الى من يعمرها ويؤدي الحق عنها واقنتى هو وجماعته الضياع والدور وكان في نهاية الجود والبذل في القريب والبعيد فسلك عماله وكثير من اهله طريقته وتأسوا بفعله وكان عثمان على ما يظهر على شيء من السعة قبل الخلافة وكثرت في ايامه اموال الانفال والغنائم بكثرة الفتوح .



والغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة والفيء ما صولحوا عليه من الجزية والخراج . قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كان النرس يشتري بمئة الف وحتى كان البستان بالمدينة بباع باربعائة الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والاموال والناس يجي اليها خراج الممالك وهي دار الامارة وقبة الاسلام فبطر الناس بكثرة الاموال والخيل والنعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمأنوا وثمرغوا اه .

واراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العمال الى طريقة الشيخين ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك واستأثر معاوية بامارة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة وما كان لعلي بل ولا لعثمان حكم على هذه الديار مع معاوية الداهية الذي دعي بكسري العرب لكثرة أهنته ونفقتة وكان يبذل المال لمن وافقه ولمن خالفه فانشأ للأموالين ملكاً بالشام توارثوه وبنوا القصور والمصانع والمرافق وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتطلع ولو بعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الاموال والاغضاء عن بعض الحقوق ولا مجال للانكار ان من خائساء الامو بين من كانوا يجورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون انفسهم او بعض ابناء بيتهم او خاصتهم الاقطاعات الكثيرة . والجباية كانت تكثر في عهد العادلين اكثر من زمن الجائرين وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية . والاتطاع اقطاعان اقطاع تمليك وهو موات وعامر ومعادن واقطاع استغلال وهو عشر وخراج . واللقاح البلد الذي لا يؤدي الي الملوكة الاربان والاربان هو الخراج وهو الاتاوة . قال مكحول : كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهله فاقطعه المسلمون فاحيوه وكان مواناً لا حق فيه لاحد فاحيوه بأذن الولاة . واول من اقطع الارضين وباعها عثمان ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي .

اوصى الخليفة الرابع احد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبين لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضرب احداً منهم سوطاً واحداً في درهم ولا تنممه على رجله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عرضاً في شيء من الخراج فانما أمرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : ونفقد امر

الخراج بما يصلح اهله فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله وليكن نظرك في عمار ذالارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعبارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم امره إلا قليلاً فان شكوا ثقلاً او علة او انقطاع شرب او وبالة او إحالة أرض اغمرها غرق او أبحف بها عطش خفت عنهم بما ترجوا ان يصلح به امرهم ولا يثقلن عليك شيء خفت به المؤونة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزبين ولايتك مع استجلاب حسن ثنائهم وتبجحك باستناضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجرامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم فر بما حدث من الامور ما اذا عوت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة انفسهم به فان العمران محتمل ما حملته وانما يوتي خراب الارض من اعواز أهلها وانما يعوز أهلها لاشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبء اه .

هكذا كان قانون آخر الخلفاء الراشدين وهو من اهم القوانين في اصول الجباية الا ان الامور بين الذين قلبوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا يهتمون بتوفير الجباية مع الظلم ليتمكنوا من اعمال العمران التي اناموها واطعام الجيوش التي فتحوا بها القاصية وكانت الجباية ثقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شيء كبير منه لثقل او زلزال او وباء . ولقد كان عمال معارية يحملون اليه هدايا النبروز والمبرجان فيمحمل اليه في النبروز وغيره وفي المبرجان عشرة آلاف الف . وهدايا النبروز والمبرجان مما رده عمر بن عبدالعزيز كما رد السخرة والعطاء على قدر ما استحق الرجل من السنة وورث العيالات على ما جرت به السنة غير انه اقر القطائع التي اقطعها اهل بيته والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد اهل الشام في اعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى ان ينكسها وسماها مظالم . وكتب الى عماله عامة : « اما بعد فان الناس قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء فلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حالة حتى تقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص .

وبينا كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامة بن زيد وكان على ديوان الجند  
بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسامة انك  
تأتي قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت ان تنعشهم فانعشهم كن  
سليان يقول لعامله أسامة : احلب حتى ينفيك الدم فاذا نفاك فاحلب حتى ينفيك الفحيح  
لا تبقىها لاحد بعدي . فحمل أسامة في مصر اعمالاً جائرة حتى استخرج من اهلها  
اثني عشر الف دينار .

اما عمر بن عبد العزيز فانه لما ولي الخلافة جعل لا يدع شيئاً مما كان في ايدي اهل  
بيته من المظالم الا ردّها مظلمة مظلمة خطب على المنبر ذات يوم فقال : اما بعد ان هو لاء  
يعني خلفاء بني أمية قد كانوا اعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها منهم وما كان  
ينبغي لهم ان يعطونا ايها واني قد رأيت الآن انه ليس عليّ في ذلك دون الله حسيب  
وقد بدأت بنفسي والاقربين من اهل بيتي اقرأ يا مزاحم فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً  
فيه الاقطاعات بالبيع والنواحي ثم يأخذ عمر بيده فيقصه بالجم اي المقراض .

ولقد اجتمع اليه بنو أمية لما عنزم عمر بن عبد العزيز على اخذ ما في ايديهم من حقوق  
الناس ورده على اهلهم وكلوه فقال : انكم اعطيتم في هذه الدنيا حظاً فلا تنسوا حظكم  
من الله واني لاحسب شطراً موال بني الدنيا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في  
يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهد الا رددته . قال ابن سعد لما ولي عمر بن عبد العزيز  
وضع المكس عن كل ارض ووضع الجزية عن كل مسلم وابع الاحياء كلها الا النقيع وفرض  
عمر بن عبد العزيز للناس الاللتاجر لان التجار مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين  
وسوى بين الناس في طعام الجار وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف  
لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استبرئ الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قبلي  
من حق مسلم او معاهد فردها عليه فان اهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى وراثتهم  
وما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية الى ان استخلف . اخرج من ايدي  
ورثة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن  
ارطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارفق بهم واذا  
كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه فان كان له حميم فرحميه بنفق عليه وقاصه من

جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بعد من ان تنفق عليه حتى يموت او يعنق .  
وكتب اليه ان ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس ولعمري ما هو بالمكس ولكنه  
البخس الذي قال الله ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين فمن  
أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يأت فأنه حسيبه . وحرّم عمر بن عبد العزيز الكلا  
في كل ارض . وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيته والذي يشير به علي من ولي هذا الامر  
من اهل بيته توفير هذا الخمس على اهله فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر  
فيه فوضعه مواضعه الخمسة وآثر به اهل الحاجة من الاخماس حيث كانوا فان كانت  
الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس وانه ربما اعطي المال من يستألف على  
الاسلام وانه اعطي بطريقاً الف دينار استألفه على الاسلام . وامر ان لا يؤخذ من  
المعادن الخمس وتؤخذ منها الصدقة وانكر التسخير في سلطانه وضرب احداهم اربعين  
سوطاً لانه سخر دواب النبط . ومما كتبه الى احد عماله : اما بعد فخل بين اهل  
الارض وبين مبيع ما في ايديهم من ارض الخراج فانهم انما يبيعون في المسلمين  
والجزية الراتبه . وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء انبته الله فليس احد احق  
به من احد . دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال كم جمعت من الصدقة فقال  
كذا وكذا قال فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمي شيئاً كثيراً من ذلك  
فقال عمر : من اين ذاك قال : يا امير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن  
الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله نال لا والله ما القيته  
ولكن الله القاه . وكتب اني ظننت ان جعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا  
الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء ما أمروا به وقد رأيت ان اجعل سيفي كل  
مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من اهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب الى  
عامله ان لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم الى  
الاسلام فان قبلوا فكفف عنهم وان ابوا فالجزية فان ابوا فانبذ اليهم على سواء .  
وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد أصبحت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار  
والآفاق بأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل  
بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يجلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها

دينار ولا درهم الا أخذ بيقه وانه فضل اعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية بعد ان اخذ كل ذي حق حقه « اي فضل اعطيات الاجناد وفرائض الناس . قال ابن ابي الحديد: رد عمر بن عبدالعزيز المظالم التي احنقها بنومروان فابغضوه وذموه وقيل انهم سموه فمات . امامن جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا اشكالا ومشارب منهم الجماعة ومنهم المبدد فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعة وسبعون الف دينار . ففرقها يزيد عن آخرها .

وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد فقد اخذ المنصور اموال الناس حتى ما ترك عند احد فضلاً وكانت مبلغ ما اخذهم ثمانمائة الف درهم وعدل ابو جعفر المنصور ارض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمي وكان اداء الناس على ذلك وكان الخلفاء من بني العباس يعمدون الى ابطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها ولا يقطعون امراً بدون اخذ آراء جلة الفقهاء في عصرهم فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سهام الموارد الى ذوي الارحام وابطل ديوان الموارد . وخلف المعتضد هذا في بيوت الاموال تسعة آلاف دينار ومن الورق الف الف درهم . ومن خلف هذه القناطير المنقطرة من الذهب لا بدله ان يظلم أمة وان لا يصرف اموالها في وجوه مصالحها وقد كنت ترى في ايام العباسيين عدلاً شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلماً شائناً في دور آخر فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر والمتوكل كان عجباً في العدل وانتظام الجباية . فقد كتب المأمون سنة ٢١٨ الى اسحق بن يحيى بن معاذ عامله على جنود دمشق في التقدم الى « عماله في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الاذى » عن اهل عمله قائلاً فنقدم الى عمالك في ذلك اشد النقدمة واكتب الى عمال الخراج مثل ذلك . وكتب الى جميع عماله في اجناد الشام جنود حمص والاردن وفلسطين بمثل ذلك . والمهدي مثلاً أفتح امره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فاذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستائة الف الف درهم واربعة عشر الف دينار سوى ما جباه في ايامه . والمأمون العباسي أقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة اراضي الشام واجتنب لتعديله مساح العراق والاهواز والري وكان جده ابو جعفر المنصور تشبث بذلك فلم يتم له فبعث ببيعة بن الوليد ليمسح اراضي دمشق كما كان بعث اسماعيل بن عياش العنيسي الحمصي

الى دمشق فعدل ارضها الخراجية وعدل احمد بن محمد ارض دمشق والاردن وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل ارض ما تستحقه . والخلفاء الأول من بني العباس كانوا اقرب الى الرفق بالزعية فقد كان اسماعيل بن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد انه قال للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد : وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر نكفأً مواجها على رياض كالزراي واردة منها كفايات المؤمن الى بيوت اموالي فابرح بك التعدي لارفاقهم فيما امرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر ووحش من القفر قال : والله يا امير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهته ولكني وليت اقواماً ثقل على اعناقهم الحق فنفرقوا في ميدان التعدي ورأوا المراغمة بترك العمارة اوقع باضرار الملك وانوه بالشنعة على الولاة فلا جرم ان امير المؤمنين قد اخذهم بالحظ الاوفر من مساءتي . والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقررأً ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والشجر . واعاد الظاهر بامر الله سنة ٦٢٢ سيرة العمرين . قال ابن الاثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز مثله لكان القائل صادقاً فانه أعاد من الاموال المغصوبة في ايام ابيه شيئاً كثيراً واطلق المكوس في البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ما جده ابوه وكان كثيراً لا يحصى وفي ايام ابيه خربت العراق ونفرق اهله في البلاد .

خربت العراق وما اليها من الامصار والاقطار للشدة في نقاضي الجباية والنفن في الضرائب وعدم اطرادها على وتيرة واحدة . كتب علي بن عيسى الى عامل ديار ربعة وقد ورد الحضرة قوم من اهلهما يتظلمون من حيف لحقهم في معاملاتهم : « بسم الله الرحمن الرحيم . في علمك اكرمك الله بما امر الله به من العدل والاحسان ونهي عنه من الجور والعدوان وعاقب به الظالمين في سالف الازمان غنى لك عن التنبيه والتوقيف والوعظ والتخويف وفيما رسمته لك مشافهة ومكاتبة في انكار الظلم وازالته واظهار العدل وافاضته كفاية وبلاغ . وقد ورد الحضرة اكرمك الله جماعة من جوه التناء والمزارعين بديار ربعة متظلمين مما عوملوا به في سني ثلث عشرة وثلثائة من اكراههم على تضمين غلات ببادرهم بالحزر والتقدير والزامهم حق الاعشار في ضياعهم على التربيع واستخراج الخراج منهم على اوفر عبءة قبل ادراك غلاتهم وثمارهم واكراه وجوههم وتجارهم على

ابتياح الغلات السلطانية بأسعار مسرفة مححفة فاقلقتني ما افاضوا فيه من الشكوى  
وآلتي ما انتهوا الي وضعه من عظيم البلوى ووجدته مع قبح ذكره وعظيم وزره عائداً  
بجرب الضياع ونقصان الارنفاع فينبغي اكرمك الله ان تجري سائر رعيتهك على  
المعاملات القديمة وتحملهم على الرسوم السليمة حتي يعودوا الي افضل حال عهدوها  
واجمل سيرة حمدوها وتزيل السنن الجائرة وتبطلها ونقطع اسبابها وتحسمها وتكتب  
الي بما يكون منك في ذلك فاني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله . »

ولو رجعت الي كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل وفي  
الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة الي الخليفة هرون الرشيد  
صورة لطيفة من تल्प العلماء في نصيح الملوك والخلفاء . وكتابه دستور في الجباية  
تستدل به على ترقى العقول في عصره . وما خلا عصر من علماء يتعون على العمال اعمالهم  
وتجانبهم عن طرق الحق في معاملة الامة وقلما كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين  
للخير من الخلفاء فمن دونهم .

وكثيراً ما كان الناس يعذبون في الخراج وقد وقع ذلك في اوائل دولة الامويين  
بالشام فاخذ جباة الجزية يعذبون بعض اهل الذمة ويجعلونهم في الشمس ساعات  
عقوبة لهم فنهي عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم . ونص  
الفقهاء انه لا يؤخذ شيء من نصراني التجر في بلاده من اعلاها الي اسفلها ولم يخرج  
منها واذا خرج من بلاده الي غيرها من بلاد المسلمين تاجرأ لم يؤخذ منه مما حمل قليل  
ولا كثير حتى يبيع وقال مالك في النصراني يكري ابله من الشام الي المدينة يؤخذ  
منه في كرائمهم العشر بالمدينة قال لا . فان اكرى من المدينة الي الشام راجعاً يؤخذ  
منه ويؤخذ من اهل الحرب ما صالحوا عليه في سلعمهم ويؤخذ من عبيدهم كما يؤخذ  
من ساداتهم . ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون  
الي المدينة : ان تجرتم في بلادكم فليس عليكم في اموالكم زكاة وليس عليكم الا جز يتكم  
التي فرضنا عليكم وان خرجتم وضررتم في البلاد وادرتم اموالكم اخذنا منكم وفرضنا  
عليكم كما فرضنا جز يتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كما قدموا  
من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الي الحول فيأخذ

منهم كلما جاءوا وان جاءوا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم .  
 زاد الاجحاف بحقوق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل ملك او  
 امير يستولي على اقليم صغير من الارض ويخنف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكاً  
 من ذلك بنو حمدان في حلب وما اليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لجوا  
 في الظلم والاستئثار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لا تنقطع فاستأثر القضاء بهلاك  
 العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجمين ( كما سنقف على ذلك في الكلام  
 على حلب ) . ولي خلافة الرازي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من  
 تولى امرة الامراء تحمل اليه الاموال فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للخليفة  
 ما يريد وبطلت بيوت الاموال وكانت الشام اذذاك في يد محمد بن طغج . وبينما كانت  
 الشام تدافع القرامطة وتشغل بفتن بني حمدان لقع في ايدي الاخشيدية اصحاب  
 مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذ كانت هي العاصمة فاحر بالاطراف ان تكون  
 اسوأ حالاً .

وهكذا اختلفت احوال المملكة العربية وطرق الجباية فيها لما نال الناس من المغارم  
 والمظالم والحكومات لا تعرف واجبها ولا تدري ان الجباية في البوالة اجرة الحماية  
 ولذلك تأفف ابو العلاء المعري في النصف الاول من المئة الخامسة من ملوك عصره فقال :

وارى ملوكاً لا تحوط رعية	فعالام توأخذ جزية ومكوس
وقال : عجم وعرب دائلون وكننا	في الظلم اهل تشابه وجناس
وقال : ارى امراء الناس يمسون شرهم	اذا خطفوا خطف البزاه اللوامع
وفي كل مصر حاكم فموفق	وطاغ يجابي في اخس المطامع
وقال ايضاً : يقولون في المصر العدول وانما	حقيقة ما قالوا العدول عن الحق
ولست بمختار لقومي كونهم	قضاة ولا وضع الشهادة في رق
وقال : بكل ارض امير سوء	يضرب للناس شر سكة
وقال : ان العراق وان الشام مذممن	صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة	في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خص الناس كلهم	ان بات يشرب خمرأ وهو مبطان



وقال : وجدت غنائم الاسلام نهباً      لاصحاب المعازف والملاهي  
 وقال : ملّ المقام فكم أعاشرامة      امرت بغير صلاحها امرأؤها  
 ظلموا الرعية واستباحوا كيدها      فعدوا مصالحها وهم اجراؤها  
 ومن قوله : فشأن ملوكهم عزف ونزف      واصحاب الامور جباة خرج  
 وهم زعيمهم إتهاب مال      حرام النهب او إحلال فرج

وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية على اربعمائة وخمسين الف دينار  
 واستقر خراج الأردن على مائة وثمانين الف دينار وخراج دمشق على اربعمائة الف  
 وخمسين الف دينار وخراج جند حمص على ثلاثمائة وخمسين الف دينار وخراج قنسرين  
 والعواصم على اربعمائة الف وخمسين الف دينار وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن  
 مثل ما فعل بالعراق من استصفاً ما كان للملوك من الضياع وتصبيرها لنفسه خالصة واقطعها  
 اهل بيته وخاصته وهو اول من كانت له الصوافي في جميع البلاد . قال البلاذري وكانت  
 وظيفة الأردن التي اقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثلاثمائة  
 الف وخمسين الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مع قنسرين  
 والكور التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة الف دينار ويقال سبعمائة الف دينار . وكان  
 ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة وجد حسابها في الدواوين بالحضرة لان الدواوين  
 احرقت في الفتنة فتنه الامين على مارواه قدامة — ثلاثمائة الف وستين الف دينار ارتفاع  
 قنسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانية عشر الف دينار وارتفاع جند  
 دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند الاردن مائة الف وتسعة آلاف دينار  
 وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة وخمسين الف دينار .

قال اليعقوبي ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلاثمائة الف دينار وخراج جند  
 الاردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار و يبلغ خراج جند فلسطين مع ما صار في  
 الضياع ثلاثمائة الف دينار وخراج حمص سوى الضياع ايضاً مائتي الف وعشرين الف  
 دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين الف دينار  
 وكان خراج قنسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حمل  
 وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار وخراج الاردن سبعة

وتسعين الف دينار وخراج فلسطين ثلاثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت  
ثلاثمائة الف رطل .

ولما تغلب الموالي من الاترك وبنائهم سلك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في الترف  
وقوي عامل كل جهة على ما يليه كثرت النفقات وقلت المجابي بتغلب الولاة على الاطراف  
قال المقدسي كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن  
حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلاثمائة الف وستين الف دينار وعلى الاردن مائة  
الف وسبعون الف دينار وعلى فلسطين مائة الف وتسعة وخمسون الف دينار وعلى  
دمشق اربعمائة الف وبنيف .

وانت ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والتقلبات  
الجوية ومن الاراضي الخراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما فتحه المسلمون عنوة  
قال ابو يوسف : كل ارض اقتطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج الا ان يصيرها  
الامام عشريه والشام في ذلك كعصر والعراق ولانها كلها فتحت عنوة وفي التتارخانية  
ان السلطان اذا دفع اراضي لامالك لها وهي تسمى الاراضي المملكة الى قوم ليعطوا  
الخراج جاز وطريق الجواز احد شيئين اما اقامتهم مقام الملاك في الزراعة واعطاء  
الخراج او الاجارة بقدر الخراج ويكون المأخوذ منهم خراجاً في حق الامام اجرة  
في حقهم وقال ابن عابدين ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والشامية ويؤخذ من  
هذا انه لا عشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لهم لان  
ما يأخذه منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعيم او التيماري ان كان عشرأ فلا شيء  
عليهم غيره وان كان خراجاً فكذلك .

قال الغزالي ان الاموال المنصبة الى الخزائن المعمورة اربعة اصناف الصنف الاول  
ارتفاع المستغلات وهي مأخوذة من اموال موروثه له والصنف الثاني اموال الجزية  
والصنف الثالث اموال التركات والصنف الرابع اموال الخراج فهذه هي الاموال  
المأخوذة واخذها جائز وبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها اربع  
جهات وفيها ننحصر مصالح الاسلام والمسلمين . الجهة الاولى المرتزقة من جند الاسلام  
الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين

بالدليل والبرهان كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان والجهة الثالثة محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية . الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل والخرج .

ولم تكثر الاقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقرئ يزي : وكانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان تجبي اموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم فغير هذا الرسم وفرقت الاراضي اقطاعات على الجند واول من عرف انه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او اكثر واقل على قدر اقطاعه فعمرت البلاد وكثرت الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من اعوام بضع وثمانين واربعائة الى اوائل القرن التاسع .

وكانت اقطاعات الشام اقل من اقطاعات مصر في القرن الثامن والتاسع وليس في الشام من يبلغ شأوا كابر الامراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقار بهم في ذلك . وخاصة الامراء المقدمين انواع من الانعامات ماعدا المقررات من المشاهرات والاكل والعليق والكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة الف دينار . قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه وقد جرت عادة الشام بان من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة والحال في غير الشام اشد منه فيها وكل ذلك لايجل اعتماده والبلاد تعمير بدون ذلك بل انما تجرب البلاد بذلك لانهم يضيقون على الناس .

وماعد الاراضي التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها ار بابها قدرأ من الممال مرة واحدة فتعفى من الخراج وماخلا الاقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من ار باب الدولة ولايؤدون عنها خراجاً وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا الصوافي واحدها

صافية وهو ما يستخلصه السلطان خاصته او هي الاملاك والاراضي التي جلا عنها  
اهلها اوماتوا ولا وارث لها — ماعدا هذا كان هناك نوع من الاراضي يسمى الجاء اي  
يلجأ صاحب الارض الى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعززا به من عمال الخراج  
حتى لا يجوروا عليه فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذلك الكبير .

قال ابن ابي الحديد : ان من اهل الخراج من يلجئ بعض ارضه وضياعه الى خاصة  
الملك وبطانته لاحدا من اهل الامتناع من جور العمال وظلم الولاة وتلك منزلة يظن بها  
سوء اثر العمال وضعف الملك واخلاقه بما تحت يده واما للدفاع عما يلزمهم من الحق  
والتيسير له وهذه خلة نفسديها آداب الرعية وينقص بها اموال الملك . وكان العادلون  
من الملوك يعاقبون المتجسسين والمجاليهم ولكن الناس يلجئون املا كهم عند باب الصولة  
وكم من مرة خربت سورية او وقع كبير من اصقاعها بظلم ظالم من عمالها . ذكروا ان الخليفة  
الحاكم اعنى ولاية حلب من الخراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة  
وان الب ارسلان لما ولي امرة حلب رفع عن اهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم  
وان نجم الدين ايل غازي بن ارتق ( ٥١٤ ) رفع المكوس عن اهل حلب والمؤمن  
والكلف وابطل ما جددته الظلمة من الجور والرسوم المكروهة وبالغ الامير حصن  
الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادر  
وارتكب المظالم فلم يلق اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن  
الصمصامة في ولايته مالمقوه من ظلمه وسوء فعله فخرت اعمال دمشق وجلا عنها اهلها  
وخلت الاماكن من قاطنيتها والغوطة من فلاحيتها .

والغالب ان المكوس والضرائب كثرت اواخر حكم العباسيين والعباسيين في  
الشام وبقي في البلاد رسوم كثيرة حتى ابطها نور الدين وابطل ابق الصوفي  
الاقساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة وابطل صلاح الدين  
مثل مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غلة تحمل اليه كل سنة وتعين ضياع موقوفة  
عليها بالديار المصرية . قال ابن ابي طي : ان الذي اسقطه السلطان صلاح الدين والذي  
سامح به لعدة سنين آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف الف دينار  
والفي الف اردب سامح بذلك وابطله من الدواوين واسقطه من المعاملين وكذلك فعل

اخوه ابو بكر بن ايوب فانه ابطال كثيراً من المظالم والمكوس وطهر بلاده من الفواحش  
والخمور والقمار وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار الا ان المكوس  
عادت فأحدثت . واما داخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ ازال المكوس وكانت  
الولاية في اهلها قد ساءت وأسرفت واليد المتعدية قد امتدت الى اموالهم وأجحفت .  
قال العماد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الخراج  
والاجور والزرع . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع  
ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطنج وسوق الغنم والكيالة وغيرها وكان والده  
زنكي ينهي اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فأني حاجة لكم الى  
الاملاك فان الاقطاعات تغني عنها وان خرجت البلاد من ايدينا فان الاملاك تذهب معها  
ومثي صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم املاكهم .  
قال ابو يعلى : تجتمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على اعادة  
ما كان ابطال وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطنج وعرصه البقل والاثار وصانهم  
من اعنات شرار الضمان وصوله الاجناد وكرروا لسخف عقولهم الخطاب وضمنوا القيام  
بعشرة آلاف دينار بفض وكتبوا بذلك حتى أجيبوا الى ما راموا وشرعوا في فرضها  
على ارباب الاملاك من المتقدمين والاعميان والرعايا فما اهتمدوا الى صواب ولا نجح لهم  
قصد في خطاب ولا جواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا واكثروا الضجيج  
والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر في هذا الامر ففتحت له السعادة وايقار  
العدل في الرعية الى اعادة ما كان عليه فأمر باعادة الرسوم المعتادة الى ما كانت من  
امانتها وتعفية ارضياتها وأضاف الى ذلك تبرعاً من نفسه ابطال ضمان الهريسة والجن  
واللين ورسم بكتب منشور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية  
ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان المكوس حرام فان ضم الوزير الى اخذها الاجحاف في  
ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراماً الى حرام .

ومع كثرة احتياج البلاد للمال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على  
قتال الصليبيين كانت الجباية الى الرفق في الجملة ببلاد الشام فاطلق نور الدين المكوس  
والضرائب واكتفى بالخراج والجزية . واسقط صلاح الدين فرضة الاتيان المقسطة على

اعمال دمشق وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور والعقيبة  
ومزارعها ولما فتح حلب اطلق المكوس والضرائب وسامح باموال عظيمة « ومنها  
ما هو على الاثواب المجلوبة ، ومنها ما هو على الدواب المركوبة ، ومنها ما هو في  
المعايش المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور ان اشقى الامراء من سمن كيسه واهزل  
الخلق ، وابعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وكان هذان الملكان  
من ازهد الناس فلم يخلفا في خزائنها الا التافه وقد خلف الملك العادل ابو بكر بن  
ايوب اخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في خزائنه وكان يجب ادخار المال  
ليصرفه حين الحاجة — سبعمائة الف الف دينار وخلف الملك الافضل ستمائة الف  
الف دينار عيناً ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ومائة مسمار من ذهب وزن كل  
مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير وصندوقان كبيران  
فيهما ابرذهب يرسم الجوارى والنساء عدا الثياب والطرائف والقطعان والخيول والبغال  
والرقيق . وهذا ما لا يمكن ان يجوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً  
لاستخراج هذه الاموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومرافقتها . وقد استعمل  
ملوك الطوائف الشدة في تكثير الجباية وكان ينال المنكر لها من العلماء اذى من  
ذلك ان نجر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تضمين المكوس والخمور فعاقبه  
بان ائزع منه المدرسة النورية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك  
طغرل الظاهري صاحب حلب فقد امر سنة ٦١٨ برفع الجبايات ومحو اسمها واهراق  
كل خمر في المدينة ورفع ضمانها وكتب الي النواحي . قال القفطي : وكان المحصول  
من ضمان ما اطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان اضيف اليه ما يستغل  
في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل ضماناتها وقلة دخلها بهذا السبب كانت  
الف الف درهم او ما يقاربها .

ولم نعثر لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة وقد قال ابن ابي طي : حدثني  
كريم الدولة بن شرارة النصراني وكان مستوفى دار حلب يومئذ انه عمل ارتفاع  
سنة تسع وستمائة في الايام الظاهرية دون البلاد الخارجة عنها والضياع والاعمال  
فبلغ ستة آلاف وتسعمائة الف واربعه وثمانين الفاً وخمسة مائة درهم قال : ومما

احطت به علماً في ايام الملك الناصر ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه كان على ما يفصل . ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً وسطر المجموع بـ ٧٦٣٠٥٦٠٠٠ درهم . وكان مسافة ما يهد مالك حلب في ايامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان قال ياقوت الحموي : اوقفني الوزير صاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي ادام الله تعالى ايامه وختم بالصالحات اعماله وهو يومئذ وزير صاحبها ومدبر دواوينها على الجريد بذلك واسماء القرى واسماء املاكها وهي بعد تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم قال لي الوزير الاكرم ادام الله تعالى علوه : لو لم يقع اسراف في خواص الامراء وجماعة من اعيان المفاريد لقامت بارزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية المفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر الف درهم ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس وفي اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخايرها وارزاق مستحفظيها خارجاً عن جميع ما ذكرناه وهو جملة اخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عنباً وجوباً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم وقدر نفع في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجبي فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا مهتضم ولا مهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية اه .

ومن هذه النقول تعرف درجة الجباية والثروة في تلك العصور . ولما قبض الاتراك والجزا كسة على زمام الاحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كثيرة جداً وزادوها هم وفتنوا في ضروريتها حتى صعب احصاؤها وحفظها وكانت الخجور في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وكان صاحب امين الدولة في مدة وزارته للملك الصالح اسمعيل حصل له اموالاً عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض على كثير من

املا كهيم وابطل الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ضمن الحشيشة وامر باحراقها والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمر والمكيفات بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير فقد ابطال الظاهر برقوق في جملة ما ابطال من المظالم والمكوس في بر الشام ضمن المغاني اي المغنين والمغنيات في الكرك والشوبك . وضمن المغاني كان معروفاً في مصر فابطل سنة ٧٧٨ زمن الاشرف قلاوون ابطله من جميع اعمال مملكته وكان عبارة عن مال كثير مقرر على المغاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة . وابطل الناصر قلاوون ضمن المغاني ايضاً وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البغايا وذلك لو خرجت اجل امرأة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة واقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها لما قدر اكبر من في مصر ان يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة وكان يتحصل من ذلك جملة كثيرة من المال .

لاجرم ان دولة الترك والجزا كسة في مصر والشام تشبه في كثير من الوجوه دولة الترك العثمانيين التي جاءت بعدها وكانت مراسيم ملوكها تصدر الحين بعد الاخر بابطال بعض الرسوم والضرائب ولكن مع هذا تجد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير دع سائر اسباب الثروة من ناطق وصامت . والدولة التي تخفف عن رعاياها بالاقوال، والافعال على خلاف ذلك، هي دولة سيئة ادارتها المالية فقد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين اخرجوا غالب البلاد الشامية وحدث في ايامه اشياء كثيرة من ابواب المظالم لما كان يخرج الى التجار يد . والخروج الى التجار يد او الحملات كانت من جملة الاسباب التي نتهيا لملوك الجزا كسة ليسلبوا الناس اموالهم ولا تكلف التجار يدة اقل من نصف مليون دينار فاذا جرد السلطان في حياته عشرين تجر يدة كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الى خزانة السلطان حتى يجي مثلها من الرعايا المساكين .

وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالاً عظيماً من جميع الاملاك والاقواف بدمشق وظاهرها فكان من داخل دمشق حق اربعة اشهر واخذوا من الغوطة من كل قرية تكثير اموالها ثلث ضمائمها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والشعير والقطن والحبوب على نسبة مغل سنة ثمان وتسعين وستائة فعظم ذلك على الناس وهرب



خلق كثير واستخفى جماعة والذين وقعوا بأيديهم قطعوا اشجار الباقين وابعوها  
حطباً بحيث اباعوا القنطار النمشقي بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب  
ومن شدة الطلب وكثرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ اصدر الملك المؤيد صاحب حماة امراً الى جميع نوابه ان لا يقبل  
احد حماية لاحد بل الكل متساوون في الحقوق ودفع ما عليهم وذلك لان الاسماعيليين  
كانوا في مصياف لا يدفعون لسلفه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت الاموال من الجميع .  
وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بان يروك البلاد الحلبية  
اي مسحها ويعين عليها مالا كما فعل في البلاد الشامية فراكوا جميع البلاد الحلبية  
وجميع البلاد الشامية والحلبية والمصرية في الروك الناصري وابطل في هذه السنة مكوس  
الغلة بالشام وكان مبلغاً عظيماً يؤخذ من ثمن الغرارة ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما ابطالوه في ادوار مختلفة من الرسوم وهو ما نوردته مثلاً من حالة تلك  
الايام ما ابطله برفوق مما كان منقراً على البردارية في كل شهر من المال وما كان  
ياخذ السامسة على الغلال والكيالة وعن الملح في عين تاب وعلى الدقيق في البيرة وما كان  
مقررراً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاية بغلة او ثمنها  
خمسة دراهم . وابطل المنصور قلاوون من جملة ما ابطل من المظالم وظيفه ناظر الزكاة  
وهو ان يؤخذ من عنده مال زكاته فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله ببقى ذلك  
القدر المقرر عليه في الدفاتر يؤخذ من اولاده او من ورثته او من اقاربه ولو بقي منهم  
واحد . وابطل الاشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجابية  
بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس بل ابطل المكوس والضرائب عن سائر  
اصناف الغلة بجميع الشام وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء . وتجد الى اليوم على  
السواري الرابع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من الغرب اربع وثائق في  
ابطال المكوس كتبت كل وثيقة على سارية . تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد قايتباي  
الحزوي كأقل الممالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على الاسواق والطواحين وغيرها  
من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر ابوسعيد بن  
جقمق بابطال المكوس على الاقشة الحمصية وفرع الاردية وفرع القطن وغيرها والثالثة

بتسار يخ سنة ٨٥٢ تقول بأنه ورد مرسوم شريف من مولانا السلطان الملك الظاهر ابوسعيد جقمق بابطال بعض المكوس ومنها الثمر والعفص والسمنك البوري والحنا والقماش المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة ! والرابعة فيها ذكر القلي والخروع والقلقاس وجلود الجاموس والماعز .

وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم فنقش الملك الظاهر ابوسعيد ططر رخامة والصقها على باب الجامع الاموي في هذه المدينة بابطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة وكذلك ابطل في القدس ما كان يجبي لنائب القدس في كل سنة من المال ونقش ذلك على رخامة والصقها بباب الجامع الاقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع ما مضمونه : مساححة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة وهذه مساححة مجال عظيم وكتب بالمساححة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس وهذا التفاوت ايام الدوران ما بين السنين الشمسية والقمرية . وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الجراكسة بجمع الذهب اذا قل او الفضة وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة ونقوداً وكثر في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ويصاب الناس في الشام ومصر بنحسائر فادحة وكثيراً ما كانوا يجسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يغشون الفضة وينزلون عيار الذهب فكانت المصيبة بالفضة والذهب لعهدهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا كل يوم في ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآل في هذه الديار تُخبط بدون قاعدة مستقرة والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين و يتولى الممالك امره لا يصدر منها اكثر من هذا كما وقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فار كبه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو يزعم من البكاء ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير وهو في حجر المرضعة وقبلوا الارض امامه ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار احول العين .

وكانت ايام الجراكسة فريدة بثروة عمالها والغالب ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف او مئتي الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل اربعين سنة ولكن

الثروة كانت شيئاً كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد فقد اخذ تيمور من دمشق لما جاءها سنة ٨٠٣ عدا المأكول والمشروب وغيره الف الف دينار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة فلم يرض تيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ولما حمل الى تيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظهر لي انكم عجزتم ثم اخذ اموال المصر بين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير وصغير عشرة دراهم شامية وافرد على اوقاف الجوامع والمساجد اجرة ثلاثة اشهر فتزايدت البلايا وكانت دمشق يومئذ احسن مدن الدنيا واعمرها على ما قال ابن تغري بردي ولذلك هان عليها ان تجمع عشرة ملايين دينار وهو اذا قيس اعتباره بنسبة هذه الايام لا يقل عن مئتي مليون ليرة .

رجع الى الرسوم والمكوس في القطر الشامي فقد تنوعت انواعها في عهد الجراكسة ومنها ما كان الخلف يلغيه على غير ارادة السلف فقد وضعوا على اهل محلة قبر عاتكة ومحلة القبيبات وقرية القابون في دمشق سنة ٨٣٢ رجلاً على جاري عادة الفتن فبلغ علاء الدين البخاري احد صلحاء المدينة فانكره وارسل الى النائب فأبطله وفي سنة ٨٣٦ ركب السلطان برسباي الاشراف الى صالحية دمشق لزيارة الشيخ علاء الدين البخاري فوعظه الشيخ وكلمه كلاماً غليظاً فرسم السلطان بابطال طرح السكر ونودي سيف المحرم سنة ٨٣٧ برسوم السلطان بان يبطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الاموسيه والقلعة ودار السعادة قال الاسدي فنقش ذلك وعلى الظن الغالب انهم لا يفوا بذلك لما علم من عادة السلطان . وتري الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في الغاء الرسوم فالسارية الاولى كتب عليها ان الملك دمرداش أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية . الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلاماً من الدالين في سوق الحراج . الثالثة في سنة ٨٤٦ بابطال الملك الظاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة سنة ٨٤٦ بابطال ما كان يؤخذ من اهل سرمين . الخامسة بتاريخ سنة ٨٥٧ بابطال مكس الزيتون من قري عزاز . السادسة سنة ٨٦٤ بابطال ما تجدد

على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية . وغيرها بابطال مكس السلاح في جميع سوق السلاح ومنها ما كتب سنة ٨٨٢ بابطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ومنها بابطال ما على الدباغين بدير كوش من المكس ومنها ما صدر سنة ٨٩٣ بابطال ما كان يأخذ ناظر الخنة من سوق الحناءية ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال مكس المسك والزعفران ومنها بابطال مكس السماق ومنها ابطال ما هو معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقدسسي . ومعظم هذه الاوامر المسطورة على الاعمدة مشفوعة بجملة ملعون ابن ملعون من جددها او يعيدها الى غير ذلك من استيلا ب اللعنات على من يجدها ومنها كان الله ورسوله خصمه يوم القيامة الى غير ذلك من القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستنتج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف البلاد فما كان في طرابلس لا يجبي مثله في حمص وما كان في القدس لاعهد لطلبه وما في دمشق لا مثيل له في المدن الاخرى . وهالك أمثلة أخرى من هذا القبيل في مدخل جامع طرابلس امر بابطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التججير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والفراخ وغير ذلك وذلك في ايام ابي النصر شيخ سنة ٨١٧ وفي مدخل هذا الجامع امر من صاحب طرابلس بابطال منع استيفاء رسم الدخا ن وما يستأديه من يكون متكلماً في ديوان الحجوبة الكبرى واستاد دارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك ومن طرح الصابون والزيت والبلس ( البوتاس ) ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكلف والخادم الجارية بها العادة قديماً والحادثة مستقبلاً وعلى حائط مدرسة الشمسية امر كتب سنة ٨٢٦ بابطال الملك اشرف برسباي ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالبريد ورسم الملك الاشرف بابطال التحكير بالخانات والمكوس على الحطب والتبن وغيره وجبر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الاموي ونقش به رخامة وفي سنة ٨٤٦ سوح عوام القدموس بما على انوال الحياكة وخراج الكروم بالقدموس مسامرة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير وفي سنة ٨٥١ ابطل ما تجدد على عوام القدموس

والكهف والمنيقة والعليقة والخوابي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستاددار . وفي مدرسة طرابلس رسم بابطال ما على النخيرة ( المسلخ ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم ثمانون درهماً وباطال معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ومعلوم الحجو بية ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بابطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح من التجار والمتسبين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك وفي سنة ٨٨٨ ابطال مكس الدواليب الحرير والقضابة بالكهف والقدموس واطل مكس نخيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الاسا كفة بالقدموس والخوابي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بابطال المظالم والحوادث عن فلاحي الوقف ان لا يكرهوا فلاحي الوقف الا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ ابطال ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس الشام وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٧٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لا غير وان لا يتناول الاجرة الا من باشر العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة وان لا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال . والغني قانصوه الغوري المكس عن حاكة حمص .

وبذلك رأينا ان الغاء المظالم والمغارم كان على اشده في آخر ايام الجراكسة وكان من اسوأ ملوكهم شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطلعاً الى جمع المال واقام ديواناً برأسه للبدل وفتح باب قبول البدل في الاقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البدل في المناشير وهو مبلغ ثلثمائة درهم فما فوقها والخلاصة فان الجراكسة نفقوا في طرح المكوس ومن غرّبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شخصاً من المالك الجراكسة كشف رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو اقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك: اجعلني والي القرعان يامولانا السلطان فاجابه السلطان الى ذلك واخرج له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخلع عليه خلعة فصار يدور في الاسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس فمن وجده اقرع يأخذ منه ديناراً حتى اعيان الناس فضج منه الناس وشكوه للسلطان فضحك ونادى

بالامان للقرعان وان كل شيء على حاله و كسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالا عظيماً .

\*\*\*

انتهى دور الجراكسة المحزن المرمض واملت الامة بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ان ترى ايام رغد وسعادة لانها دولة جديدة نتجamy ما امكن الاغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ما تراه . لما فتح السلطان سليم العثماني الشام ومصر بعد ان كان في ضائقة شديدة اضطر معها الى الاستدانة من بعض التجار قال وقد ملأ خزائنه من اموال الجراكسة : اني ملأت الانابيب بالذهب وكل من يستطيع من اخلافي ان يملأها دراهم فليتم عليها بطابعه والا فتبقى الخزينة السلطانية محتومة بطابعي . هذه كانت وصيته ولذلك كانت خزينة « الاندرون » محتومة بخاتم سليم . لاجرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ولذلك كانوا يرجحون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت اغنى في نظرهم وعلى شيء من الانتظام في الجملة تسد مغامها نهمة جيوشهم وخواصهم وفيها من الجمال ما يكفي الاتعاب فيتمتع السلطان واهل دولته بمن شاؤوا من بنات المغلوبين وبنيتهم ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشناق والارناؤد والرومان والصرب والبلفار والمجر والطيلىان والروس والبولونيين وغيرهم من ام اوربا .

ولما فتح السلطان سليم دمشق ( ٩٢٢ ) فوض نيابة دمشق وما اليها من بلاد الشرق الى عرش مصر الى جان بردي الغزالي على مال معين قال ابن طولون قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار . وذكر النجم الغزي ان هذا السلطان نفن في ضرب المكوس ومن جعلتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكبر الامر اهل الدين والورع . ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبدأ تغلبه على البلاد يجب عليه ان يريها شيئاً من العدل ينسبها مظالم الدولة الجركسية فحدث ما شئت ان تحدث عما احده اخلافه من البدع في الارتفاعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم ان خراج ايلة الشام كله كان يعطي للمرأة السابعة من نساء السلطان ابراهيم وكان الجاني يأتي دمشق فيجيبها بنفسه لان نساء القصر لم يكن يأمن احداً

من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الأمة . فتأمل ايلة بل مملكة كهذه تعطي جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر لتنفقها على زينتها وازيائها كيف تكون مجايبها عادلة مصروفة في سبلها !

وذكر مؤلفو الترك ان اقطاع الشام كله كان مسانحة مليون اقچه (١) ولا مير لوائها من مئين الى ثمانمائة الف اقچه وفيها ١٢٨ زعامه و ٨٦٦ اقطاعاً وعدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان . وكانت ايلة طرابلس وارتفاعها السنوي خمسة يوكات (٢) ولديوان الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف اقچه وحاميتها من الفرسان ١٤٠٠ وايلة حلب وخارجها ثمانمائة وسبعة عشر الف اقچه وديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف اقچه وفي هذه الايلة ١٠٤ زعامات و ٧٩٩ اقطاعاً وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام اذنة . وكانت الدولة تستوفي نصف ايراد الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٦٠٠٠ دوكا والدوكا عشر اقجات والبارة ثلاث اقجات وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحافظتها وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ريعها وتصرف النصف الآخر في حمايتها .

(١) كل ثلاث اقجات بارة وكل ٤٠ بارة قرش واليكس خمسمائة قرش ذهباً او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في سورية نحو خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب ان نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت مملكة عظيمة مستقلة وكان وزن كل مئة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم اما نقود الفضة فكانت من صنف الريال الجرمانى الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيمته ٨٠ اقچه . واول من استعمل الاقچه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠) اما استعمال البارة فاشتهر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأى ان كل ٤٠ بارة تحسب قرشاً وكانت البارة تساوي ثلاث اقجات اما اليكس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرشاً ذهباً او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .

(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

وما برحت الحال المالية في هذه الديار في ادبار وهي تبع للوالي الذي يتولى زمام الحكم فقد ذكر وان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل المكوس الزائدة فابطل مكس الخمرات وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على بر الشام ثم ابطل اليسق من باب صاحب الشحنة . واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للاغا وللباشا ويكون في باب صاحب الشحنة يقطع الجرائم ويدفع المال عن اربابة يربح ديناراً عثمانياً كل يوم فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عمن ألزم بها وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً فاذا بقيت عليه اياماً حتى يسعى في تحصيلها تضاغت عليه حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها فان كان له اسباب او عقار او وقف او غير ذلك باعها او ملكها لذلك اليسق كيف اراد فادى ذلك الى تمول الانكشارية وتملكهم كثيراً من الاملاك وابطل اليسق من باب القاضي ورتبت الانكشارية مالا على البضائع المجلوبة . وابطلت المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخل الى دمشق وعلى الموازين .

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الزراعية بعوارض سنين جديدة وعتيقة وطالبوا الامراء ائيليين بمال عظيم . وهذا كثيراً ما كانت تعمد اليه حتى الى عهد قريب تطلب المال قبل استحقاقه وتسلب اموال الصيارف والمرابين بحجة الاستدانة منهم وحدث ان بعض الامراء والملوك صادر والنصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الاشرف قايتباي فصادرهم مرتين في ايامه . وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باشا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها وجعل كل سلطاني بثمانين قطعة جديدة زنة كل قطعة قيراطان ونصف قيراط وهبطت الاسعار وحصل الرخاء . وذكر بعضهم ان نجر الدين المعني كان يجبي تسعمائة الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة فكان دخل صيدا يأتي الدولة سنوياً بمائتي الف ليرة . ويدفع من جبايته للسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط وكان الامير بشير كالا مير نجر الدين يحب البندخ وقد ضاعف خراج لبنان اربعة اضعاف . وغرّم احمد حافظ باشا سنة ١٠١٨ وكان كافل الشام اموالاً طائلة وصادر جماعات في دمشق واخذ اموالاً منهم بغير حق ولذلك كانت المصادر عامة تتناول من في صندوقه مال اياً كان مذهبه .

وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في سلسلة مغارم



ومظالم فقد تولى احمد باشا الجزار دمشق لأول مرة سنة ١٢٠٠ و كانت مدة حكمه فيها خمس سنين لم يرتح شهراً واحداً من طلب المال ظلماً ومن طرح النقود وطرح البضائع المتنوعة ينهاها من جهات و يطرحها على أخرى بأسعار زائدة ومن مظالمه انه اذا وجد قتيلاً في احد الانهار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذلك النهر و يأخذون منهم مالا غزيراً وكان لا عمل له الا القبض على الاغنياء ومصادرتهم على البشع صورة فصدق فيه قول الشاعر :

قد بلينا بامير ظلم الناس وسبح فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح  
قال ابن آق بيق في حوادث سنة ١٢١٧ شغل الشام بالظلم واكرامية الباشا من  
البلاد واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وارهاق القرى بالطردحة والاكراميات  
واقراض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق .  
وفي سنة ١٢٤٧ كانت محاولة سليم باشا والي الشام وضع «مصريتين» ضريبة على كل  
سكرة اي عقار في دمشق من جملة اسباب قتله حرقاً مع جماعته .

وقال ابن عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان ( اي في  
اوائل القرن الثالث عشر ) ليست لحفظ املاك ولا لحفظ ابدان وانما هي مجرد ظلم وعدوان  
فان غالب مصارف الوالي واتباعه وعمارات منزله ومنزل عساكره وما يدفعه الى رسل  
السلطان الواردين باوامر ونواهٍ وامثال ذلك كله يأخذه من القرى ويسمون ذلك  
بالذخيرة تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين ويزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لاعوانه وحواشيه  
من اعيان البلدة وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدان القرية وتارة يقسمونه على  
مقدار حق الشرب بالساعات الرملية فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه او من له  
ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً او امرأة او صبياً وكذا يجعلون منها على رقاب  
الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها .

ومما اخترعه العثمانيون « الزعامة » وهي عبارة عن قرى يقطعها من يعطاها وتخمن  
على الاقل بعشرين الف درهم عثماني كل سنة واخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية  
تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة ويقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس  
اشار اليها الاكرمي بقوله :

لما الله ايام العوارض انها هموم لرواها تشيب العوارض  
يضيق لها صدري واني لشاعر ضليع وبيتي ما عليه عوارض  
قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انتقلت بها في القرن الماضي قرى رمازاع كثيرة في  
سهول الشام وجباله الى ارباب النفوذ فخرج اهلها عن ملكها ورضوا بالاستعباد على ان  
يكونوا احراراً مالكين وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتخلصاً من الضرائب الثقيلة التي  
لا تحمّلها نفس بشرية وكثيراً ما كان الشيوخ يقصون علينا قصة الطلبة يوم تدق في  
قريتهم ويحيي اعوان الظلمة لاخذ المظالم من اهلها وهناك كنت تسمع من الموملات  
وضروب الظلم في طرق الجباية ما تسأل الله معه السلامة وتستغرب كل الغرابة  
من جنس هذا الناطق المتمرد ومن طرز ادارة العثمانيين التي تعرف كيف تستنزف  
دماء الامة واموالها وقلما فكرت فيما يجلب لها الثروة ويحفظ عليها الحق وقيم  
بينها قسط العدل .

ولما فتح جيش محمد علي باشا المصري بلاد الشام كان الاجنبي اذ ذاك يعطي رسوم  
كإرك وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكثير ولذلك اضطر بعض التجار الى ابتياع  
حماية الاجانب حتى يستطيعوا ان يتجروا وهذا كان مبدءاً اشتداد الامتيازات الاجنبية .  
كتب اللورد دوفرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف  
الادارة العثمانية في الشام ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات  
كأىالة اجنبية يقتضي الانقاع منها ما يمكن ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها  
الا الزائد الاخير ومن الطبيعي ان كل وال جديد لم يكن يفكر الا في تعويض ما دفعه  
من المالك وجمع الثروة فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله مبتزاً منهم الاموال ومثقلاً  
كاهلهم بالضرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرشي جماعة الاستانة  
لتسليم له الولاية مدة يواصل فيها استنزاف الاموال واملاء جيوبهم بها . قال :  
فنشأ عن ذلك مظالم لا تطاق وابتزاز اموال لا تحصى وتعاقب على الايالة ولاة  
غير اكفاء للمنصب جائزون مرتشون طماعون في جمع المال لا تشعب بطونهم خالون  
من ادنى اهتمام بالمصلحة العامة اه .

تبدلت الاوضاع الادارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢ هـ

كانت تقسم الى ايلتين ايلة دمشق وايلة صيدا ودخل الاولى التي هي عبارة عن دمشق ومرج الغوطة ووادي العجم ووادي بردى وجبل قلمون وحماة وحمص وبعليك ومعرة النعمان وعجلون والبقاع وحاصبيا وراشيا وهوران وجبل الدروز وحصن الاكراد والقنيطرة وايلي قبولي من الخراج والاعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة ٤١٨٠٥ اكياس يضاف اليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة الى الاوقاف وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وهوران وحمص وجبل الدروز وحصن الاكراد ومعرة النعمان وعجلون عيناً من الاعشار والرسوم وهو ١٨٢٥٩ اردباً من القمح و٢٥٨٨٤ اردباً من الشعير و٩٥١ من الذرة و١٣٣٩٣ اوقة سمن و٣٢٠ اوقة حرير و١٣٠٠ رأس غنم . وكان دخل ايلة صيدا وقائم مقاميتي لبنان الدرزية والمسيحية ويدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عتليت والاقضية الشمسية ٣١١٥٤ كيساً ماعدا المستوفى عيناً من القمح والشعير والذرة والكرسنة والسمن والعدس والسمن والزيت والفيالج والقطن .

وكان مجموع دخل ايلة دمشق ١٨٥ الف ليرة على ذلك العهد وايلة صيدا ٥٠ الفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً ٣٥٠٠ كيس جزية وخراجاً . كتب المستر برانت فنصل انكلترا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة عن حالة ايلة دمشق في ٤ احرزيران ١٨٥٨ من كتاب مايا تي : «ان الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية على ان استنباب الامن وعدم بخل الحكومة على الشعب كانا يكفيان لاقنصاعه ان في وسعه تحمل وقرها دون ان يرزح تحتها وكان الدخل يدار بنزاهة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد وثقوم بكل نفقات ادارة الايالة المتوقع ازديادها تدريجياً اماحالة اليوم ( اي على عهد الحكم التركي ) فهي على عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبث ثقيل لا يطاق (١) مع انها اقل من ذي قبل والامن مفقود والدخل يقل كل يوم لاهمال القرويين حراسة الاراضي وكل ما يتم جمعه ينفق باسراف او يسرقه

(١) قال بيريه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على السور بين كانت شديدة وما كان القوم يتحملونها لولم يكونوا من عناصر واديان مختلفة قلنا ومن حسنات ابراهيم باشا انه ابطل الرشى والاصطناع وابطل المصادرات وقرر حق التملك .

الموظفون والاموال اللازمة لادارة الحكومة تطلب من الاستانة وصار من الجلي ان المالية تزداد اختلالاً وفساد الادارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ قرشاً الى ٥٠٠ قرش حسب حالة كل انسان وكانت مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية ولمعاد الاتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها فابدلوها بضرية على البيوت تستوفي دون حدوث اضطراب كبير او قتال على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية وقد جرت بعض احتسارات وفرضت ضرائب جديدة على البنائات المحدثنة للاستعاضة عن الدخل الذي اسرفوا به وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كيس ولايتأخر لها بارة وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فهبط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كيس قيمتها ١٤٣ الفاً وخمسمائة جنيه يجبي منها عشرة آلاف كيس ويبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي وهذه يتعذر جباية قسم منها .

هذا ما قاله رجل غريب عن البلاد واصرح منه ما كتبه مدحت باشا ايام كان والياً على الشام بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لائحة في سياسة الشام واموالها ومما قاله : ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجنود فقط وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية وفتحت ابواب سوء الاستعمال وماعدت بعض الرجال من الموظفين اصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون الى غير مصالحهم فطراً على المعاملات خلل و بسوء تأثير ذلك فسدت اخلاق الناس وكثر القتل والنهب والغارة على الاموال والعروض في كل مكان واختل الامن كل الاختلال . قال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج والاموال قد نزل ارتفاعها الى النصف وخربت مسائل الاعشار البلاد وقل البدل العسكري وحدث ما شئت عن بلية « القائمة » فمن اجل سقوط اسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لان الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين وبالطبع كانت فلسطين اقصى

الجنوب وحلب في اقصى الشمال على هذه الصورة او اشد لان روح المملكة كانت واحدة وهي المركزية الشديدة وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها اشبه بالفوضى . ولم تنغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة الى آخر سقوط الشام ورحيل الاتراك عنها وان كانت الارتفاعات زادت في العقود الاربعة الاخيرة لانتشار الامن في الجملة بتأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء وكفت البادية عن العيث في البلاد القريبة من العمور بعد ان كانت تأتي لاختد اخوة من القرى القريبة من الحواضر الكبرى ولزيادة النفوس بقله الاوبئة وتجنيف بعض البطائح وسد العجز المالي ولا سيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من ابناء الشام فكانوا وما زالوا يحملون الى هذه الديار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتزاد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كما سلخت عنها الولايات النائية تزيد في مقدار الجباية والمظالم على بلادها فالدخل ينقص على الدوام بسلب الممالك من جسمها والخروج يزيد لان اهل الاستانة عالة على اهل الولايات يشقى هؤلاء لينعم اولئك وبنوا القصور وبنتمتعوا بالولدان والخور .

ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العصور حتى بلغت ثلاثة عشر اربعا في المئة تؤخذ من الحاصل والمحصول عدا ما يلحقها من ظلم الملتزمين والعشارين وهو قد يبلغ عشرين في المئة في بعض الانحاء ولم يكفها زيادة الاموال والضرائب الاخرى الى ضعفين بل الى اضعاف ما كانت قبل عشرين سنة بل زادت في العشر والخراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة دع ما حدثته من التكاليف الحربية واستلبته من اموال الفلاحين وعروضهم ومواشيهم ولولا ارتفاع الاسعار ودخول ملايين من الليرات التي افترضتها الدولة من المانيا لتنفقها على الجيش الذي جمعه وجلبته من القاصية لولا ذلك لبقى عشرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامراً ولا ضت الحال اتعس مما كانت قبل ستين او سبعين سنة ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم لقله الايدي العاملة فيجلبون أناساً من العبيد يستخدمونهم في الحرث والكرث .

وبعد الحرب كثرت الجباية والمغارم في بلاد الشام خصوصاً لقله الذهب في الايدي والاستعاضة عنه بالورق النقدي فزادت الجباية في بعض المحال اربعة اضعاف فعات

الشكوى واخذت اسعار البهائم تعلو وتسفل في المدة القليلة والمقرر على الرعايا ينزل ويرتفع على تلك النسبة فتضرر الناس من ذلك وكان البلاء في ذلك عاماً في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة او لم تواز قيمته قيمة الذهب واضطرت حكومات الشام الى الانفاق اكثر من ذي قبل على صغار عمالها وكبارهم لئلا تتركهم بحالا الى الرشي والتلاعب يحقن المساكين والضعفاء وان تقوم ببعض الاعمال اللازمة في الحكومات المتمدنة فانقرجت مسافة الخلف بين الدخل والخرج ثم تعادلا واخذت الحكومة تفكر في الغاء طريقة الاغشار والاستعاضة عنها بما لم تقطوع وزادت الضرائب على العقارات بنسبة اجورها .

لاجرم ان الاموال اذا جيت كما تجي في البلاد المتمدنة بالرفق وبحسب طاقة المكلفين يتوازن مع الزمن الدخل والخرج بل قد يزيد الاول على الثاني اذا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات كأن تكثفي الشام بما تخرجها ارضها ويفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية ورصف الطرق وتعبدها في المدن وبين القرى وعلى الاسلاك البرقية والكهربائية والهاتفية وتجنيف البطائح واصلاح طرق الري واقامة معالم العلم ودور التهذيب . وكل مملكة تسد عجزها بالاقتراض ولا تستثمر بايدي رجالها ما في سطحها وبطنها من الخيرات يكون مصيرها الى الاستعباد الاقتصادي وهو اشع ضرر الاستعباد في هذا العصر . وما لا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يحمله اليك . وكل امة لا تفرض الجباية بالعقل ، ولا تجيبها بطرق العدل ، ولا تبذل على المرافق العامة منها الفضل ، نخل بل تضخم .

محمد كرد علي



## القضاء في الاسلام<sup>(١)</sup>

رأيت امها السادة ، ان يكون الحديث في هذا الاجتماع ، عن القضاء في الاسلام  
لاسباب اربعة :

اولاً — ان القضاء هو افضل مظهر يتمثل به العدل . وهدل العدل الذي جعل به  
ارسطو « قوام العالم » الاركـن المـلـك الوطيد ، لا يثبت له بنيان الا عليه .  
ولا يستقيم للدول امر الا معه . ولا سيما ان تأسيسها واوائل نشأتها كالحلنا  
الحاضرة . فاذا لم يكن قضاء حر ، مستقل ، تزيده . فلا عدل . واذا لم يكن  
عدل ، فلا سبيل الى البقاء .

ثانياً — ان هذا القضاء كان منذ كان . الى ان جعلوا يخرجونه عما وضع له . ويتأولونه  
على غير ما أريد به ، خبز قضاء عرفه الناس . ممثلاً لروح العدل ، متكيفاً  
مع المكان ، متمشياً مع الزمان . وكان قضاة حتى منتصف العصر العباسي ،  
انزه قضاة عرفهم التاريخ ، لامستنياً احداً من مشارق الارض ومغارها .  
في حاضر الايام وضايرها .

ثالثاً — ان النهضة العلمية الاخيرة ، قد حدرت اللثام الذي كانت سدلته القرون الوسطى  
— قرون الخمول والجمود — على حضارتنا السابقة ، فعرفنا كثيراً عن اسلافنا  
مما يدعو الى الاعجاب والمناخرة غير . ان اكثر ما عرفناه فملاً ناه الكتب  
الحديثة ، كان في الادب ورجاله . والآداب الرفيعة وذويها ، وما الى ذلك .  
اما القضاء ورجاله فقد ظل خبرهما مجهولاً عندنا ، الا قليلاً مما لا يغني الغناء  
كله ، بل مما قد تكون معرفته شراً من جهله . فاذا كانت الناشئة اليوم ،  
تعرف رجالات الادب . والتاريخ في العرب . فخري بها ان تعرف شيئاً

(١) أقيمت هذه المحاضرة يوم الجمعة ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٩ هـ و ٢٩ تموز ١٩٢١ م .

صحيحاً عن القضاء وتاريخه ورجاله . وكيف كان ، والى اية حال صار . اتماماً  
للتأديب وخدمة للتاريخ .

رابعاً — انا وان كنا نعلم ان الامجاد التاريخية القديمة ، لا تكفل للامة ارتقاءها  
وتعزيز مكانتها ، ان لم يميز الابناء على سنن الآباء ، و يضيفوا الى تليد  
المجد طريقه . فلسنا نتكر ان نتحدث بالمجد ، داع الى النشاط . باعث  
للهمم من مراقدها . نزاع بالنفوس — وقد عرفت سابق عزها وباسق  
غرسها — الى الاقتداء بالسلف الصالح ، والجري على آثاره . ولعل النبي  
العربي الكريم لم يرد غير ذلك يوم قال : « الشرف معوان » .

\*\*\*

ولا ارى لي بدأ قبل ان اخوض في هذا الموضوع من ان اقول : ان هذا  
القضاء قائم بنفسه ، لاصلة له البتة بالشرعية الرومانية . اما الذين يذهبون الى ان الشرع  
الاسلامي ، هو في جملة الشرائع التي استمدت اصولها واحكامها من هذه الشريعة .  
فانما يذهبون مذهباً لا تنهض به حجة ، ولا يؤيده دليل . ومع هذا فقد اصاب  
مدعاهم شيئاً من القيمة في بعض العقول والنفوس . ولكي لا ينجي قولنا مجرداً عن البرهان  
كما جاء قول المخالفين ، نعززه بالادلة الآتية :

١ — ان القضاء في الاسلام . وان كان اختبر في مدة لم تبلغ القرنين . فليس  
يصح ان يقال فيه ، انه نقل عن الشريعة الرومانية ، ما دام لم يوضع دفعة واحدة .  
بل نما مع الحاجة وعلى الايام . حتى ولا ان يقال : انه استمد منها ، ما دامت مصادره  
معروفة : الكتاب ، والسنة صراحة او استنتاجاً او قياساً . ثم اضيف الى ذلك  
الاجماع .

فهل يصح في شرع عرفت مصادره ، و بينت فيه طرق الاستنتاج ووجوه القياس .  
ان يقال فيه : انه شرع نقل عن غيره او استمد منه ؟

٢ — ان التاريخ ذكر لنا ما اخذه العرب في النهضة العباسية عن غيرهم من الامم .  
من العلوم بعضها او كلها . كالفلسفة والطب والفلك والتنجيم ، وسائر العلوم الكونية .  
فعرفنا اسماء المترجمين والمربين . في كل فن وعلم . وعرفنا المصادر التي اخذوا منها . واللغات



التي نقلوا عنها . ولم يذكر انه حصل شيء من مثل ذلك في القضاء .  
 ٣ — ان العلوم المنقولة بقيت عليها في لغتها . سحرة من العجمة ، وفي مفرداتها الفاظ  
 غريبة عن العربية . خلا هذا القضاء . فقد جاء عربياً صحيحاً مفرداً ومركباً . فاذا  
 وقع فيه لفظ غريب . فليس اكثر مما هو في بعض الفنون العربية البجته كالادب مثلاً .  
 وهذه الالفاظ اكثرها فارسي . جاء به المؤلفون الفرس . ثم انتقلت منهم الى من اخذ  
 عنهم . او كانت مما اقتضته الصناعة والتجارة والزراعة .

٤ — اذا كان بين الشريعتين تشابه في بعض الاحكام ، فذاك ان الشريعة في  
 كل امة تعتمد في مصادرها ايضاً على العرف والعادات ، والحالات الطبيعية . ويكثر  
 ان تشترك كثير من الامم ، في كثير من هذه الامور . وليس ادل من ذلك مما عند  
 اهل البداوة من الاحكام التي يكاد يكون بعضها ، كالقوانين الموضوعية .

ثم لو صح ان تكون الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني ، لما كانت سلمت  
 من ان يتسرب اليها او الى عقول اصحابها ، شيء من الخزعبلات التي كانت تجري في  
 مواطن هذا القانون ، لذلك العهد وما بعده . كمثل محاكمة الحيوانات ، والقضاء عليها بنفي  
 او بتعذيب او بصلب . وكنيش الموتى ومحاكمتها ، واصدار الاحكام عليها . وهذا ما تعالت  
 عنه هذه الشريعة علواً كبيراً .

٥ — لو صح ان يكون القانون الروماني ، من مصادر الشريعة الاسلامية . لحق ان  
 يكون موطن الاشتراع الاسلامي ، او احد مواطنه — في اقل ما يكون — بلداً  
 من البلاد التي كانت خاضعة لسلطان روما ، نازلة على احكام تانونها . وهذا ما لم يكن  
 شيء منه .

وثمة وجه آخر لا يجدر السكوت عنه . وهو ان القانون المعروف بالقانون الروماني ،  
 كان من قبل مشوشاً معقداً . لم يظهر بشكته الاخير الا بعد ان لابت الفرنجة العرب  
 في الاندلس ، واخذت العلم عنهم . وقد قال بهذا كثيرون ووردوا عليه أدلة عقلية  
 ونقلية . ليس من غرضنا الآن ان نأتي بها . واذا نحن وازنا بين هذين الرأيين : رأي القائلين  
 بان الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني — وهو رأي قد تكشفت مقائلته —  
 ورأي القائلين : بان الشريعة الاسلامية هي التي امدت هذا القانون فصيرته ما هو .

لكانت كفة هذا الرأي هي الراجحة . وحجة القائلين به ، أقرب للعقل . وأوزن في النقل .  
 لذلك نستطيع ان نقول : ان القضاء الذي نتكلم عنه ، هو قضاء لا اثر للنقل فيه .  
 ولا فضل في وضعه لغير ذويه . ولسلفه من قبله .  
 وسيدور بحثنا على أربعة أمور :  
 (١) القضاء في العرب قبل الاسلام .  
 (٢) القضاة ، والقضاء وما يؤخذ عليه .  
 (٣) آداب القضاء والقضاة .  
 (٤) مقارنة بين القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام .

\*\*\*

القضاء قبل الاسلام — كان العرب يسمون القضاء حكومة . والقاضي حاكماً .  
 ولم تكن الحكومة عملاً مستقلاً الا في قريش . فكانت عندهم في جملة المناصب الخمسة  
 عشر التي كانوا يتولونها قبل الاسلام . وكان ممن تولى الحكومة فيهم هاشم بن عبد مناف ،  
 وابنه عبدالله ، وابو طالب بن عبدالمطلب ، والعاص بن وائل .  
 واما في سائر القبائل ، فقد كان الحكم صاحب الرأي فيها . فاذا وقع خصومة  
 احتكوا اليه ، فيفصل بينهم بما أوتيته من الحكمة والعقل ، وبما جرت عليه العادة .  
 كما كتبت بن صيقي ، الذي كان يعد من رؤساء المحكمين . والحاجب بن زرارة ، والاقرع  
 ابن حابس في تميم .  
 وكانوا يرجعون ايضاً في خصومتهم الى الكهان . اذ كانت الحكومة تدرج تحت  
 عملهم الذي هو الكهانة . كسطيج الذئبي ، المعروف بسطيج الكاهن . وشق انمار .  
 اما حيث كان يكون ملك او امير ، فكان اليه مرجع الامور كلها وفي جملتها  
 الحكومة . الا ان يكمل ذلك الى غيره .  
 وكانت الحكومة عندهم فطرية ساذجة ، كحالتهم الاجتماعية . ليس لها قوانين  
 موضوعة ، ولا شرائع متبعة ، الا ما كان من قبيل العرف والعادة . ولعل الحكومة  
 كانت بجملة عندهم في القول المأثور عن قس بن ساعدة « البينة على من ادعى واليمين على  
 من انكر » وهو قول لم يبتدعه الرجل ابتداءً ، ولكنه استخلصه من الحكومة التي كانت

جارية في ايامه وقبلها . وحي انهم كانوا يسألون البينة من ادعى ، واليمين على ادعى عليه .

\*\*\*

القضاء . والقضاء في الاسلام -- فلما جاء الاسلام ، ظلت الحالة في بادىء الامر على ما كانت عليه من قبل . فلم يكن في ايام الرسول حكم غيره . وكذلك كانت الامر ايام خليفته ابي بكر .

والسبب في ذلك ان الاسلام كان لذلك العهد قليلاً ، منحصرأ في جنوبي الجزيرة . وكان قد نثفت في روع الناس آداباً سامية . وبعث فيهم أخلاقاً عالية . خلقت لب من دخل فيه إعجاباً وافتناناً . وحركت قلوبهم رحمةً وحناناً . وملكتم عليهم عواطفهم . فقلت الخصومات في تلك الفترة . وخف اعتماد هؤلاء الناس بعضهم على بعض . وكان اذا وقع شيء من ذلك اختصموا الى صاحب الرسالة فيقضي بينهم ، او استفتوا أصحابه ، ونزلوا عند فتياهم .

بل بلغ الامر فوق ذلك ، فكان الرجل اذا اجترم جاء من ذات نفسه ، يقول : يا نبي الله : لقد كان مني كيت وكيت .

ان زماً هذا شأنه ، لا يحتاج الى قضاء اخضاء . ولا الى قوانين محددة . بل كان حسب ما كان فيه . من كتاب الله وسنة نبيه .

فلما امتد سلطان الخلافة الى العراق والشام . واتسعت رقعة الملك . انثمت تلك الصراحة التي كانت في نأنة الاسلام . بعد ان دخل فيه كثير من الاقوام رهبة او رغبة . لذلك ، ولاشتغال الخليفة عمر بتدبير امر هذا الملك ، رأى ان يجعل القضاء عملاً مستقلاً خاصاً . فعهد فيه الى ثلاثة تختيرهم من اهل الدين والعلم . فجعل ابا الدرداء معه في المدينة . وبعث شريحاً الى البصرة . وولى ابا موسى الاشعري بالكوفة . فكانوا اول قضاة في الاسلام ، كما كانت عمر -- على اصح الروايات -- اول من دفع القضاء الى غيره .

وكتب عمر الى عمرو بن العاص ، عامله في مصر ، ان يولي على القضاء كعب

ابن يسار بن ضنه العبسي ، وكان حكيماً في الجاهلية . فابي كعب (١) . فولى عمرو ،  
 عثمان بن قيس بن ابي العاص (٢) فاتخذها عمال مصر سنة . فكانوا هم يولون القضاة .  
 واستمر ذلك الى ايام بني العباس . فلما قام ابو جعفر المنصور جعل لنفسه هذا الحق ،  
 فولى عبد الله بن طيعة الحضرمي على مصر سنة ١٥٥ . اما الوظيفة (٣) التي كان يجريها  
 عمر على القاضي ، فمئة درهم كل شهر ، وموئنه من الخنطة . وهكذا فعل عثمان وعلي .  
 فولى الاول زيد بن ثابت . وولى الثاني شريحاً ، واما الاسود الدؤلي .  
 وجاء بنو أمية فمضوا على ذلك ، فجعل معاوية على قضائه فضالة بن عبيد الانصاري .  
 فلما مات . استنقضى ابا ادريس الخولاني . غير ان وظائف القضاة زادت ايام بني أمية  
 زيادة مذكورة ، فبلغت الف دينار في السنة .

وكان عدد القضاة ، يكثر ويقل حسب الحاجة . حتى ان بغداد لما تكاثرت عدد  
 سكانها . وكثرت خصوماتهم . ولى عليها الرشيد جماعة من القضاة . وجعل ابا يوسف  
 المشهور ، قاضي القضاة — وهو اول من تلقب بهذا اللقب — وفوض اليه تولية  
 قضاة بغداد . ثم قضاة سائر الامصار . وجعل ابو يوسف للقضاة لباساً خاصاً يتميزون به .  
 اما وظائف القضاة في ايام بني العباس فقد كانت اقل منها في عهد بني أمية . اذ هبطت  
 الى ثلاثين ديناراً في الشهر . حتى بلغت ايام المأمون مائتين وسبعين ديناراً في السنة . فلما  
 ملك ابن طولون ، أعادها الى مثل ما كانت في عهد بني أمية . اي الف دينار في السنة .  
 غير ان المطلب بن عبد الله الخزاعي ، والي المأمون على مصر ، أجرى على قاضيه الفضل  
 ابن غانم مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر . وهو اول قاضٍ أجرى عليه هذا . وكان  
 عيسى بن المنكدر مقلداً . فأجرى عليه عبدالله بن طاهر ، والي مصر سبعة دنانير كل يوم ،

(١) وفي « اخبار قضاة مصر » : ان عمراً قال لكعب لا بد من السمع والطاعة  
 لامير المؤمنين فاقض حتى اكتب لامير المؤمنين فقضى كعب حتى اعفاه عمر . وكان  
 قضاؤه فيها شهرين .

(٢) وفي اخبار القضاة قيس بن ابي العاص بدلاً من عثمان بن قيس ولعل ما نقلناه  
 هنا اصح لانه عاد فيما بعد فقال عثمان بن قيس .

(٣) الوظيفة ما يقدر لصاحب العمل من طعام او رزق .

او اربعة آلاف درهم في الشهر . وهو اول قاضٍ أُجري عليه ذلك . واجازته بالف دينار . واجرى المتوكل على بكر الثقفي في الشهر مائة وثمانية وستين ديناراً . وكان ابوالجيش خمارويه بن احمد بن طولون يجلب قاضيه محمد بن عبدة بن حرب ويعظمه ويجري عليه كل شهر ثلاثة آلاف دينار . ثم اخذت وظائف القضاة — وقد وقع في الدولة من الضعف والوهن ما وقع — فنقل من حال الى حال . حتى اصبح القضاء تجارة واصبح القاضي يضمن القضاء على مال معلوم يقدمه كل سنة .

\*\*\*

مصادر القضاء : — قلنا ان للقضاء في الاسلام مصادر خاصة استقى منها واعتمد عليها وهي :

- (١) الكتاب الكريم . وهو القرآن
- (٢) السنة الشريفة : وهي اقوال الرسول وفعاله .
- (٣) الاجماع : وهو اتفاق مجتهدي الامة بعد النبي في عصر من العصور على امر من الامور .
- (٤) القياس : وهو حمل معلوم على معلوم : اي الحاقه به في حكمه لمشابهة بينهما . وهو انما يستنبط من الثلاثة الاول .

كان الرسول يرجع في قضاائه في الامور الدينية والدينية الى الكتاب الكريم، والى ما تنتج له فطنته ويوحيه اليه الحق . فلما توفي : كانت اقواله واعماله هدى لمن قضى بعده . فاضيف بذلك الى الكتاب — وهو المصدر الاول للقضاء — المصدر الثاني وهو السنة . ثم كانوا اذا اشكل عليهم امر فلم يجدوا له نصاً في كتاب ولا سنة . فاسوه بما شابهه : فكان القياس وهو قد بدى به قبل الاجماع : وان اخروه بالترتيب عنه لما ذكرنا من انه يستنبط ايضاً من الاجماع . يؤيد ذلك ما قاله الامام عمر في كتابه المشهور الى ابي موسى : يوم ولاه الكوفة :

« الفهم : فيما يتلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه : وقس الامور بنظائرهما . »

فنحن نرى ان القياس بدى به منذ ذلك التاريخ او قبله . يوم لم يكن اجماع بل

يوم كانت القضاة السابقون والخلفاء الراشدون، يحكمون كل حسب رأيه واجتهاد وقياسه . وكثيراً ما كانت تختلف احكامهم واقوالهم . لاختلاف في الآراء : او طرق الاجتهاد : او مناهج القياس .

### وقد جاء في الوسيط :

« انقضى زمن الخلفاء الراشدين : ولم يدون فيه كتاب : الا ما كان من امر كتابة المصحف . وكان مرجع الناس في امر دينهم ودينهم كتاب الله وسنة رسوله . فاذا اشتبه عليهم امر من الامور ، رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة ، او استخاروا الله فيه ، واستهظروا باجتهادهم رأياً عملوا به . وقد كانوا لا يكتبون اقوال النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتاوى الصحابة ، خشية ان يجرم ذلك الى الاعتماد على الكتب ، واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة . ولان الكتاب عرضة للضياع والتصحيف والتجريف . »

« ثم لما حدثت الفتن ، وتعددت المذاهب والنحل ، وكثرت الاقوال والفتاوى ، والرجوع فيها الى الرجال والرؤساء ، وماتت كثيرا الصحابة . خافوا ان يعتمد الناس على رؤسائهم ، ويتركوا سنة رسول الله . فاذن امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لابن بكر محمد بن حزم — نائبه على المدينة في القضاء والولاية — ان يدون الحديث ، بعد ان استخار الله اربعين يوماً . فدون ما يحفظ عن الرسول في كتاب بعث به عمر الى الامصار . فلم يكن للقضاة الى ايام ابي جعفر المنصور مراجع مدونة ، يستمدون منها ويقيسون عليها ، غير القرآن وكتاب ابي بكر هذا . »

فلما كان العصر العباسي ، نهض ابو جعفر المنصور نهضته المباركة . وجعل يبحث الأئمة والفقهاء على تدوين الحديث والفقهاء . ولم يدخر وسعاً في الجوائز السنوية في هذا السبيل . فمضوا فيما رغب فيه . واقبلوا على الجمع والتدوين والتصنيف في العلوم الاسلامية ، ومنها القضاء . وكانت القراءة والفقهاء والتفسير والحديث في اول الاسلام علماً واحداً . فجعلت تميز على توالي الايام ، الى ان اصبح كل علم مستقلاً عن الآخر . فلما استقل الفقهاء سمي اصحابه الفقهاء وكانوا قبلاً يعرفون بالقراء ، تعظيماً لشأن القراءة التي كان يجيهاها العرب في اول امرهم .

قال العلامة ابن خلدون :

« وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة اهل الرأي والقياس ، وهم اهل العراق . وطريقة اهل الحديث ، وهم اهل الحجاز . وكان الحديث قليلاً في اهل العراق فاستكثر واومن القياس ومبروا فيه ، فلذلك قيل لهم اهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي اصحابه ، ابو حنيفة . وامام اهل الحجاز ، مالك ابن انس ، والشافعي من بعده . »  
ثم دخل اهل الحجاز العراق . ونقلوا اليه الحديث . فتساوى الفريقان في معرفته . ونشأ عن ذلك عدة مذاهب . اشهرها : مذهب الشافعي ، ومذهب الحنبلي ، فكانا والمذهبيين الاولين : الحنفي والمالكي ، والمذاهب الاربعة المشهورة ، التي رخصها الأمة في امر دينها ودنياها الى يومنا هذا .

وجاء في الوسيط :

« اما الامام الاعظم ابو حنيفة (١) فقد اخذ كل علمه عن شافه الصحابة ونقل عنهم . واستنبط فقهه من القرآن الكريم . وما صح عنده من الحديث على قلبه ، مع استعمال الرأي والقياس »  
« وتابعه في ذلك كثرة العراقل لقله رواة الحديث الصحيح بينهم »  
« واما الامام مالك (٢) فقد اعتمد في فقهه على الحديث »  
« والشافعي (٣) استنبط مذهبه من القرآن والحديث والقياس والرأي . فكان مذهبه وسطاً بين اهل الرأي من اصحاب ابي حنيفة . وبين اهل الحديث من امثال مالك واحمد »  
« واحمد بن حنبل (٤) استنبط مذهبه من السنة مشوباً بشيء من القياس والرأي »  
المواطن التي انتشرت فيها هذه المذاهب

قال ابن خلدون :

« اما احمد بن حنبل . فقلده قليل . لبعده مذهبه عن الاجتهاد . . . . . واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم اكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث . واما ابو حنيفة فقلده اليوم اهل العراق ومسلمة الهند والصين ، وما وراء النهر وبلاد العجم

(١) ولد سنة ٨٠ — وتوفي ١٥٠ (٢) ولد سنة ٩٥ — وتوفي سنة ١٧٩ (٣) ولد سنة ١٥٠ — وتوفي ٢٠٤ (٤) مولده سنة ١٦٤ ووفاته سنة ٢٤١

كلها لما كان مذهبه اخص بالعراق وكان تليذه (١) صحابة الخلفاء من بني العباس ، فكثرت تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم مستظرف وانظار غريبة . »

« واما الشافعي فقلدوه بمصر اكثر مما في سواها ، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر . . . ثم درس ذلك كله بدروس المشرق واقطاره . »

« واما مالك فاخص بمذهبه اهل المغرب والانديس . وان كان يوجد في غيرهم . الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل . لما ان رحلتهم كانت غالباً الى الحجاز ، وهو منتهي سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج الى العراق . ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقتصر واعن (٢) الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ و امامهم مالك ، وشيوخه من قبله وتليذه من بعده . فرجع اليه اهل المغرب والانديس وقلدوه دون غيره ، بمن لم تصل اليهم طريقته . وايضاً ، فالبداوة كانت غالبية على اهل المغرب والانديس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل ، لمناسبة البداوة . ولذلك لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم ولم يأخذوا بتفحيز الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب »

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون ، بياناً لمواطن هذه المذاهب الى يومه . وتعليلاً لانتشار بعضها دون بعض .  
اما في يومنا هذا :

فان المذهب الحنفي ، منتشر في ما كان يعرف بالبلاد العثمانية الاوربية والاسيوية . وفي تركستان ، وهندستان ، وبلاد التتر .

والمذهب المالكي في المغرب كل اقصاه واوسطه وادناه  
والشافعي في مصر والهند .

والحنبلي في بعض بلاد العرب وفي مدينة بلخ

(١) لفظة صحابة وردت في النسخ الثلاث التي وقفنا عليها وهي مصدر في الاصل . فيجوز ان تطلق على المفرد . ولكن الكلام الوارد بعدها بصيغة الجمع ، يرشح كون تليذ وردت من خطأ النساخ ، وكان حقها ان تكون تلاميذ . (٢) هكذا ورد في الطبعة البيروتية .



بقي ان ما اورده ابن خلدون ، تعليلاً لانتشار مذهبي ابي حنيفة ومالك — مع ما فيه من وجوه الصواب — ليس بالسبب الذي استقل بهذا الامر . بل لعل السبب الذي اتى به الفيلسوف ابن حزم اوجه واقوى نال : (١)

« مذهبنا انتشرافي مبداء امره بالرئاسة والسلطان . مذهب ابي حنيفة : فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف يعقوب : صاحب ابي حنيفة . كانت القضاة من قبله . فكان لا يولي قضاء البلدان من اقصى المشرق الى اقصى افريقية الا اصحابه والمنتسبين اليه والى مذهبه . ومذهب مالك بن انس عندنا فان يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة ، فكان لا يولي قاض في اقطار الاندلس الا بمشورته واختياره . ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا . فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به . على ان يحيى لم يل قضاء قط ولا اجاب اليه . وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم : وداعياً الى قبول رأيه لديهم »

ومثل ذلك ما انفق لمذهب الشافعي : من نصرة محمود بن سبكتكين ونظام الملك له في بلاد المشرق . وصلاح الدين الايوبي في مصر

\*\*\*

فلما وضع هؤلاء الائمة الاربعة قواعد الفقه . وقف النقاء بعدهم . ونظروا الى ما وضع كانه قطعة من الوحي . لا يجوز تعديله ولا تبديله ولا الخروج عنه ولا الزيادة عليه . وصرفوا همتهم الى وضع الشروح والتعليق والحواشي . على ما كانت كتب من قبل . فكان ذلك حجر عثرة في سبيل طلب الفقه : لما فيه من التطويل الممل : والاجتاه العقيمة : مما يضيع على الطالب فكره ووقته .

ولم يقف ضرر هذه المطولات عند التشويش على الافهام : والتضييع في الاوقات . بل كان علة من علة الجمود والانحطاط . قال السيد عبد الله جمال الدين : قاضي قضاة مصر في كتابه « السياسة الشرعية » وهو يعدد اسباب الانحطاط :

« سادساً تمحق الاجتاه وتضيق الكتب حتى خرجت بالشريعة الحنيفية السمحاء عن الرفق والسذاجة »

(١) ابن خلكان .

وفي هذا الصدد والمعنى: يقول بن قيم الجوزية في كتابه «الطرق الحكيمية»: معترضاً على الذين قصر واعقولهم واعمالهم على ما كان من احكام السلف: غير مراعين تبدل الاحكام وتغير الازمان:

« وهذا موضع مزللة اقدم ومضلة افهام . وهو مقام ضحك : ومعترك صعب فرط فيه طائفة فعضلوا الحدود وضيعوا الحقوق . وجرأوا اهل الشجر على الفساد . وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد : محتاجة الى غيرها . وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والنفية لئلا . . . . . ظناً منهم منافاة بقواعد الشرع »

وهو يقول في موضع آخر من كتابه المنوه به :

« ولقد كان عبد الله بن عمر اذا احتجوا عليه بابيه يقول : ان عمر لم يرد ما تقولون فاذا اكثروا

عليه قال : افرسول الله احق ان يتبع ام عمر ؟

والمقصود : ان هذا وامثاله سياسة جزئية : بحسب المصلحة : تختلف باختلاف الازمنة .

فظنها من ظنها شرائع عامة لازمة الى يوم القيامة »

ومن هذا الباب : ما ذكره الطحاوي قال : (١) « كان ابو عبيد علي بن حسين البغدادي

قاضي مصر — يذاكرني بالمسائل فاجبته يوماً في مسألة فقال لي : ما هذا قول ابي حنيفة . فقلت

له : ايها القاضي او كما قاله ابو حنيفة اقول به . قال ما ظننتك الا مقلداً . فقلت له : وهل تقلد

الاعصي . فقال لي او غي . فطارت هذه الكلمة في مصر حتى صارت مثلاً »

وكان ابو عبيد من قبل يذهب الى قول ابي ثور ثم صار يختار . فجميع احكامه

بمصر باختياره .

فغريب : ان يضيق الناس بعد ذلك على انفسهم هذا التضييق . فيزعموا

ان ليس لهم ان يروا رأياً لم ينص عليه من سبقهم . ولا ان يستنبطوا حكماً لم يقل به من كان

قبلهم . ولو انهم نظروا نظرة صادقة ، لراوا ان الاحكام انما توضع تبعاً للحاجة . ولو انه جاز

للسلف ان يضع للخلف احكاماً في امور دينهم ثابتة راسخة . لا تتغير ولا تتبدل . لكان ذلك

حقيقاً بأئمة الصدر الاول من الخلفاء الراشدين . بل بالرسول نفسه . اما وانهم لم يفعلوا ولم

يفعل . فذاك ان لكل زمان حوادثه . ولكل حوادث احكامها

واهم مما قدمناه وادل على مخالفة الرأي حتى مع من هم فوق الأئمة والمجتهدين :  
ما جاء في كتب السير :

« اراد النبي — صلى الله عليه وسلم — في بعض الحروب ان يعطي نصف اثمار نخيل مدينة لقبيلة من قبائل العرب لثلاثي ياربوه مع قريش . فلما سمع السعدان : سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، وسعد بن معاذ رئيس الاوس . قالا : يا رسول الله . هل ذلك بوحى من الله ام رأي رأيت . قال بل رأي رأيت . فقالا : لا وحقك لا نعطيهم نصف ثمرة . فاجابهما الرسول الى ما رأيا .

ومن ذلك يعلم ان ما كان يراه الصحابة وجميع المسلمين واجب التنفيذ غير قابل للنقض والتعير . انما هي السنة المنفذة للنصوصات » .  
ومن هذا القبيل :

« ان القافة (١) دلت عليها سنة الرسول . وعمل خلفائه الراشدين . والصحابة من بعدهم منهم : عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وابوموسى الاشعري وابن عباس وانس بن مالك ولا مخالف لهم في الصحابة . وقال بها من التابعين : سعيد بن المسيب وعطاء بن ابي رباح والزهرى واباس بن معاوية وقتادة وكعب بن انس واصحابه . ومن بعدهم : الشافعي واصحابه واحمد واصحابه واسحق وابو ثور واهل الظاهر كلهم »  
فلم يمنع هذا الاجماع المتصل المتسلسل . اباحنيفة واصحابه من بعده ان يخالفوه فيقولوا : ان العمل بالقافة تعويل على مجرد الشبه . وهو قد يقع بين الاجانب . وينبغي بين الاقارب .  
واحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن عقيل :

« السياسة الشرعية ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد . وان لم يضعه الرسول . ولا نزل به وحى . فان اردت بقولك — الا ما وافق الشرع — اي لم يخالف ما نطق به الشرع . فصحيح . وان اردت — ان لا سياسة الا ما نطق به الشرع — فغلط . وتغليط للصحابة .

لقد سمع المتأخرون تلك الاقوال التي فيها من الرخص والاستقلال ما فيها . ورأوا تلك الاحكام التي أقدم عليهم سلفهم مخالفة لسلفه . فلم يجروا مع هذا كله

(١) الطرق الحكيمية . والقافة : الحاق الابن بابيه لمشابهته له .

على شيء من مثلها . وان قضت به حالة زمانهم . بل جبنوا عما ليس فيه مخالفة .  
ولكنه مجرد اجتهاد في الرأي .  
لقد خاف الائمة على الناس ان يذهبوا قبائل في آرائهم . ويفسروا الشريعة  
حسب اهوائهم . فاحتاطوا للامر بان جعلوا للاجتهاد باباً محدداً لا يفتح على  
مصراعيه . ولكن الناس كانوا على انفسهم اشد تضييقاً فصاروا الى ماصاروا اليه .  
واستمر القوم في جمودهم هذا وتقليد الماعمي . حتى ضاقت حلقات الاحكام .  
عن ان تتسع لحاجات الايام . والزمان يتجدد احواله . والعالم يتغير اوضاعه . سنة الله  
في هذا الكون . فاضطر السلطان عبدالمجيد في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية . و ٣١  
تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ ميلادية . ان يصدر مرسوم الاصلاح المعروف ( بخط  
كلخانة ) . فانشئت منذ ذلك الزمن المحاكم النظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية .  
واخذت الدولة تقلد اوربا في قوانينها بل ترجمها قانوناً قانوناً . وفي كثير من الاحيان  
فصلاً فصلاً ومادة مادة . وانحصرت الاحكام الفقهية في المحاكم الشرعية وفي نماك  
الحقوق ايضاً . غير انهم الفوا من الاحكام الفقهية خلاصة موجزة . سموها « الجلة  
العدلية » ثم قيدوا ذلك وبينوا وجوه المحاكمة فيه ، بكتاب نقلوه عن الفرنسية  
— كماكثر ما نقلوا من القوانين — عرف بـ ( اصول المحاكمة الحقوقية ) .

\*\*\*

٣ آداب القضاء والقضاة — هذا مجال يقف فيه القلم عاجزاً . واللسان قاصراً .  
واي امريء مهماً أوتي من ضروب البيان . يستطيع ان يصف ما هو عليه هذا القضاء  
من العدل . وما كان عليه ذووه من قبل من النزاهة والفضل . وحسبنا ان نقول : انه  
قضاء هو العدل بعينه بل العدل نسخة عنه .

يكثر — في كل أمة وفي كل زمان — ان يدعي الناس لانفسهم كثيراً من فضائل  
الاخلاق وهم منها براء . وينسبوا لوضاعهم الشرعية والاجتماعية انها المثل الاعلى  
في الكمال وهي اوضاع خرقاء . وقد ينفق ان تكون الانظمة عادلة فاضلة من حيث  
الوضع فحسب . ويكون بين القائميين بها وبين العدل والفضل . ما بين الشرق والغرب  
لذلك لا تقف عند ذكر ما اوردته هذا القضاء من الفضائل بل تتعداه الى ذكر

آداب القضاة انفسهم . حتى يعرف هذا الخلف العاثر حقيقة ذلك السلف الناهض  
فلقد شرطوا على القاضي ان يكون :

موثوقاً به في عفافه وعقله وفهمه وصلاحه ، وعلمه بالسنة والآثار . واقفاً على المسائل  
الفقهية ، مقتدرراً على فصل الدعاوي . مهيباً وقوراً . وحكياً وجيهاً صبوراً . يثق الله  
ويقضي بالحق . ولا يقضي هوى يضل به ، ولا لرغبة تغيره ، ولا لرهبة تزجره .  
لا صغيراً ولا معتوهاً ولا اعمى ولا اصم .  
وجعلوا من آدابه .

ان لا يطلب القضاء بقباه ولا يسأله بلسانه .  
وان لا يكون فظاً غليظاً . بل شديداً من غير عنف . ليناً من غير ضعف .  
وان لا يجلس للقضاء وحده ، لان ذلك يورث التهمة .  
وان لا يسلم ، ولا يسلم عليه في مجلس الحكم .  
وان لا يقدم رجلاً جاء غيره قبله .  
وان لا يسار احد الخصمين ولا يشير اليه ، ولا يكلمه بلغة لا يفهمها خصمه .  
وان يقضي — اذا امكن — من غير ان يوغر الصدور ، وان يبين للقاضي عليه وجه قضائه .  
واوجبوا عليه رد الهدية . ولو تأذى المهدي بالرد ، يعطيه مثل قيمتها . ولو تعذر  
الرد لعدم معرفته ، او لبعده مكانه . وضعها ( اي القاضي ) في بيت المال .  
ومن آداب هذا القضاء واصوله . انه جعل القاضي ضامناً اذا اخطأ . وهذا الضمان :  
يكون تارة في بيت المال ، وهو اذا اخطأ في حد ترتب عليه تلف نفس او عضو . وتارة  
يكون في مال المقضي له ، وهو اذا اخطأ في قضائه في الاموال . وتارة يكون هدرراً وهو  
اذا اخطأ في حد ، ولم يترتب على ذلك تلف نفس او عضو . كحد شرب مثلاً . وتارة  
يكون في مائة ( اي مال القاضي ) وهو اذا تعمد الجور .

وهذه قطعة من كتاب عمر ( رض ) الى ابي موسى الاشعري حين ولاه قضاء  
الكوفة . ولعله من امتع الكتب في هذا الباب . واجمعها لآداب القضاة والقضاء .

« ان القضاء فرضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلي اليك ، فانه لا ينفع تسكلم  
بحق لانتاذله . وآس بين الناس في وجهك ومحاسك وعدلك . حتى لا يطمع شريف في

حيفك ، ولا يپأس ضعيف من عدلك . . . لا يمنعك قضاء قضيته امس ، فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، ان ترجع الى الحق ، فان الحق قديم . ومراجعة الحق خير من التادي في الباطل . . . واياك والقلق والتجبر ، والتأفف بالخصوم ، فان استنقرار الحق في مواطن الحق ، يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر »  
ومن ذلك ما كتبه الامام علي ، الى الاشر النخعي عامله في مصر :

« ثم اختر للحكم بين الناس ، افضل رعيته ممن لانضيق به الامور . ولا تمحكه الخصوم . ولا يتادي في الزلة . ولا يحرص من النفي الى الحق متى عرفه . ولا تشرف نفسه على طمع . ولا يكتفي بادنى فهم دون اقصاه . او قفهم في الشبهات . واخذهم بالحجج . واقلم تبرماً بمراجعة الخصم ، واصبرهم على تكشف الامور ، واصرمهم عند اتضاح الحكم . ممن لا يزدهيه اطراء . ولا يستميله اغراء . . . ثم اكثر تعاهد قضائه . وافسح له في البذل ما يزيل علقته ، ونقل معه حاجته الى الناس . واعطه من المنزلة لنديك ، ما لا يطمع فيه غيره . من خاصتك ، ليا من بذلك اغتيال الرجال له عندك »

هذه طائفة من الآداب ، التي اوجبها الشرع وحماته على القضاة . بقي علينا ان ننظر الى هؤلاء فنرى ، اقاموا بحق هذا الامر ؟ ام كان غايته ان سطرته بطون الكتب وظل العمل به من قبيل الخيال ، او تصوير الخيال ، شأن العالم شرقه وغربه ، في كثير من الامور ولا سيما ما يتعلق منها بالفرائض والآداب .  
جعلوا من شروط التولية — كما سبق فذكرناه — ان لا يطلب القاضي القضاء بقلبه ولا يسأله بلسانه .

ولكن قضائنا السابقين ، لم يقفوا عند هذا الحد ، بل تحاموا القضاء . واحتملوا في ذلك كل عذاب وبلاء .

فلقد كتب عمر بن عبدالعزيز الى نائبه بالعراق وهو عدي بن اربطاة :  
« ان اجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الحرشي . فول قضاء البصرة انفذها . فجمع بينهما .

فقال له اياس : ايها الامير ! سل عني وعن القاسم فقيهي المصر : الحسن البصري ومحمد بن سيرين . وكان القاسم ياتيها واياس لا تاتيها . فعلم القاسم انه ان سألها أشارا به

فقال له لا تسأل عني ولا عنه ! فوالله الذي لا اله الا هو ان آياس بن معاوية افقه مني وأعلم بالقضاء . فان كنت كاذباً فما يجعل لك ان توليني وانا كاذب . وان كنت صادقاً فينبغي لك ان تقبل قولي . فقال له آياس انك جئت برجل وقفته على شذير جهنم فنجسي نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها ويخجو مما يخاف . فقال عدي بن ارضاة اما از فهمتها فانت لها . واستنفضاه « (١) »

واراد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري — امير العراقين ، ايام مروان بن محمد آخر بني أمية — اباحنية على قضاء الكوفة ، فابى فضر به مائة سوط وعشرة اسواط : كل يوم عشرة اسواط ، وهو على الامتناع . فلما رأى ذلك منه غلى سبيله .  
وقال الربيع :

« رأيت المنصور ، ينازل اباحنية في امر القضاء ، وهو يقول : انق الله ! ولا ترع عني امانتك الا من يخاف الله . والله ما انا بما مؤمن الرضا ، فكيف اكون ما مؤمن الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ، ثم تهددني ان تغرقني في الفرات او نلى الحكم . لا اخترت ان اغرق ، ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ، ولا اصلى لذلك . فقال له كذبت انت تصلح . فقال له : لقد حكمت لي على نفسك . كيف يجعل لك ان تولي قاضياً على امانتك وهو كذاب ؟ (٢) »  
ثم دعي ابو حنيفة الى القضاء مرة ثالثة ، فقال حتى استشير اصحابي ، فاستشار ابا يوسف . فقال لو تقلدت لنفعت الناس فنظر اليه ابو حنيفة نظر المغضب وقال : ارأيت لو أمرت ان اعبر البحر سباحة ا كنت اقدر عليه ؟ ومات وهو على الالباء .  
ودعي محمد الشيباني الى القضاء فابى . حتى قيد وحبس واضطر فنقلد .

ومن نكروا من القضاء عبد الله بن وهب بن مسلم اجتهد عباد بن محمد بن حيان والي المأمون على مصر سنة ١٩٦ ان يوليه قضاءها فاستبرمته . قال احمد بن عبد الرحمن وتغيب عمي في منزل يحيى بن حرملة فهدم عباد بعض داره . قيل وسمع ابن وهب اثناء ذلك يقول : يارب يقدم عليك اخواني غداً علماء حلما فقهاء واقدم عليك قاضياً لا يارب ولو قرضت بالمقاريض .

وكان جمع آخاه واهله فشاورهم فقالوا له : لعل ان يحيا الحق على يدك فقال لهم :

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي وابن خلكان (٢) ابن خلكان .

أكلة في بطونكم اردتم ان تأكلوا ديني .  
 وحيوة أرادته على القضاء يزيد بن حاتم امير مصر من قبل المنصور فقال حيوة : لست  
 أفعل فافعل ما انت صانع . فتركه وولى ابا خزيمه الرعييني وسمع حيوة يقول بعد ذلك :  
 ابو خزيمه خير مني اختبر فصيح ولم أختبر .  
 وسعيد بن ربيعة اخذه الوايد بن رفاعه بالقضاء فامتنع فقيل لسعيد : استعجم عليهم  
 حتى يكون لنا عذر ففعل ولم يقض بين اثنين .  
 وسفيان الثوري ، كتب له المهدي عهداً على قضاء الكوفة ، وان لا يعترض عليه  
 في حكم ، فرمى به في دجلة وهرب . وعلي بن معبد بن شداد العبدي عرض عليه المأمون  
 قضاء مصر فابى . والشارح بن مسكين عرض عليه الفضل بن مروان وزير المأمون قضاء  
 مصر فامتنع ثم اراده المتوكل على قضاء مصر فابى ايضاً فأكرهه اصحابه .  
 وفي هذا الايام عن تولى هذا المنصب - على ما كان من رفعتة وعظيم شأنه وسعة  
 وظيفته - دليل على ما كان في قلوب هؤلاء الناس من التخرج والتأثم ، ان يشبه لهم ، فيخرجوا  
 في احكامهم عن محبته الحق والصواب . وتخوفاً على نفوسهم مما ناله الرسول ( ص ) :  
 « من ولي القضاء ، فقد ذبح بغير سكين » . ولقوله :  
 « القضاة ثلاثة ، اثنان في النار وواحد في الجنة : رجل عرف الحق ففرض به  
 فهو في الجنة . ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار .  
 ورجل لم يعرف الحق ففرض للناس على جهل فهو في النار . »  
 اما وقد نوهنا بهذا النفر من ابو ان يتولوا القضاء فقد حق لنا ان نذكر قطعة من  
 اخبار من ولي هذا الامر لتدل على مبلغ العدل من نفوسهم ، وكيف انهم تقيدوا بالآداب  
 التي اشترطها عليهم القضاء تقيداً تاماً . وعدلوا عدلاً تقصر المهمة عن ان تطلع الى  
 ما وراءه . بل تعجز النفوس - مهما بلغ منها العدل - ان تطمع في مثله .  
 وقع خلاف بين امير المؤمنين ابي جعفر المنصور وزوجته ام المهدي بنت يزيد  
 الحميرية - والغوث بن سليمان الحضرمي على قضاء مصر - فاستقدمه الخليفة وقال له :  
 « يا غوث ! ان صاحبكم الحميرية ، خاصمتني اليك في شروطها ، قال غوث :  
 فقلت ايرضي امير المؤمنين ان يحكميني عليه ؟ قال نعم . فقلت : ان الاحكام لها



شروط أفيجتملها امير المؤمنين؟ قال نعم . قلت يأمرها امير المؤمنين ان توكل وكيلا  
وتشهد على وكالته خادمين حرين يعدلها امير المؤمنين على نفسه ففعل . فوكلت خادماً  
وبعثت معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالته . فقلت قد تمت الوكالة فان  
رأى امير المؤمنين ان يساوي الخصم في مجلس فانحط عن فرشه ، وجلس مع الخصم .  
قال غوث ودفع الي الوكيل كتاب الصداق ، فقرأته عليه وقلت . يقر امير المؤمنين  
بما فيه ؟ قال نعم . قلت ارى في الكتاب شروطاً مؤكدة بها تم النكاح بينكما ارايت  
يا امير المؤمنين ، لو خطبت اليهم ولم تسترط لهم هذا الشرط اكانوا يزوجونك ؟  
قال لا . قلت فهذا الشرط تم النكاح : وانت احق من وفي لها بشرطها (١)

وعن يحيى بن عبد الصمد قال :

« خوصم امير المؤمنين الهادي الى القاضي ابي يوسف في بستان . وكان الحكم في  
الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك . فقال الهادي لابي يوسف — ما صنعت  
في الامر الذي تتنازع اليك فيه ؟ فقال خصم امير المؤمنين يسألني ان احلف امير  
المؤمنين : ان شهوده شهدوا على حق . فقال له الهادي وترى ذلك ؟ قال فقد كان  
ابن ابي ليلى يراه . فقال اردد البستان عليه . وانما احتال عليه ابو يوسف لعلمه ان  
الهادي لا يحلف (٢)

وكان ابو يوسف على ما مر بنا قاضي الرشيد ، بل قاضي القضاة في ايامه . ولقد  
نال عنده المنزلة التي لا يتعلق بها درك . ومع هذا في فقد نضي عليه خصومة بينه وبين  
نصراني . وروي انه قال حين ادركته الوفاة :

« اللهم ! انك تعلم اني وليت هذا الامر فلم امل الى احد الخصمين ، حتى بالقلب  
الا في خصومة نصراني مع الرشيد لم اسو بينهما وقضيت على الرشيد ، وبكي (٣)  
وشهد عنده يوماً من الايام ، الفضل بن الزبيح وزير الخليفة فرد شهادته فعاتبه  
الخليفة في ذلك قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال :

« سمعته يقول لك انا عبدك فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد وان كان كاذباً  
فكذلك » (٤)

(١) اخبار قضاة مصر (٢) الطرق الحكيمة (٣) حاشية ابي عابدين (٤) ابن خلكان

واقبل صاحب خراسان يشهد عند اياس فقال له : مالك وللشهادة ؟ انما يشهد  
السوقة . قال صدقت وانصرف ، فقبل له خدعك انه لا يقبل شهادتك . (١)  
ولما ولي القضاء على مصر ، توبه بن نمر الحضرمي مستهل صفر سنة ١١٥ دعا  
امراًته عنيرة الأشجعية وقال لها : (٢)

يا ام محمد ! اي صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب واكرمه .  
قال فاسمعي ! لا تعرضن لي في شيء من القضاء ولا تندكرني بخصم ، ولا تسألني عن حكومة ،  
فان فعلت شيئاً من هذا فانت طالق . فاما ان تقيمي مكرمة ، واما ان تذهبي ذميمة . «  
فكانت لترى دواته قد احتاجت الى الماء فلا تأمر بها ان تمد ، خوفاً من ان يدخل  
عليه في يمينه شيء .

وشرط محمد بن صالح الهاشمي العباسي لما ولي قضاء القضاة ببغداد وأضيف اليه  
قضاء مصر والشام وغيرها ، شروطاً منها ان لا يتناول على القضاء أجراً ولا يقبل شفاعة  
في فعل ما لا يجوز ولا في اثبات حق .

وقد بلغ من استقلال القضاة في آرائهم ، وعدم اتقيادهم الى اصحاب الشأن والسلطان  
ان احدهم كان يربأ بنفسه ، ان ينزل على امر سلطانه ، اذا خالف معنقه . فقد ذكرنا  
عن احمد بن طولون صاحب مصر انه كان يبالغ في اكرام قاضيها بكار بن قتيبة الثقفي ،  
حتى انه كان يدفع له كل سنة الف دينار غير المقرر له . فكان بكار يتركها بيمينها ولا  
يتصرف فيها . فلما داهه الخلع الموفق بن المتوكل ، وهو والد المعتضد ، من ولاية العهد .  
امتنع بكار (٣) فاعتقله احمد ، ثم طالبه بجملة المبلغ الذي كان يأخذه كل سنة ، فعمله

(١) العقد الفريد (٢) اخبار القضاة (٣) وفي ذيل اخبار القضاة ان بكاراً اجاب  
الى خلع الموفق من ولاية العهد وسماه الناكث واشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والثغور  
ولكنه امتنع عن لعنه وكان احمد قد امر به . فألح عليه فاصر بكار على الامتناع الى ان قال  
الا لعنة الله على الظالمين . فقال ابن طباطبا وكان تقيب الطالبين بمصر : ايها الامير انه  
عاداك . فغضب احمد و امر بتزيق ثيابه وجروه برجله وليس عليه الاسراويل وخفان  
وقلنسوة ، مسلوب الثياب ثم حمل من بين يديه الى السجن . واقامه للناس يطالبونه بمظالم  
يدعونها عليه وكان الطحاوي يقول ما تعرض له احد فالفح بعد ذلك .

اليه بختمه ، وكان ثمانية عشر كيساً . فاستمى احمد منه . وكان يظن انه اخرجها  
وانه يعجز عن القيام بها . (١)

هذا قليل من كثير عن عدل هؤلاء القضاة ومتين اخلاقهم ، واتي يخاف امرؤ  
ان يضيع عندهم حقه وهم وهم وحالمه ماراً بنامع الخلفاء واصحاب السلطان الذين اليهم مرجع  
الامر . بقي ان نرجع بصرفنا قليلاً الى ذلك العهد . لنرى ماهي الاسباب التي سمت بهذه النفوس  
فرفعتها الى ذلك المستوى الباذخ . حيث نزهت عن الإغراض وتجردت عن المآرب .  
ان ذلك يرجع الى اسباب عدة . منها :

- ١ — الفطرة المخلصة التي كان قرباً عهدها .
- ٢ — الدين وما كان من اثره في النفوس من حيث التريبتين الدينية والدينية .
- ٣ — ما كان عليه ذوو السلطان : خلفاء وامراء ولا سيما في الصدر الامر ،  
من العدل الصحيح الذي كان مثلاً لقضايتهم ولذين جاؤا من بعدهم على الاثر :
- ٤ — ما كانت عليه الامة من الانفة ان تستكين الى جور او نمام على مظلمة .
- ٥ — تخير القضاة من رجالات لم من إباء النفس وشرف الصيت وصحيح  
العلم ، ما يخافون معه على عرضهم ان يناله لسان بحق .  
ونحن نقص على مسامعكم شيئاً يؤيد ما قلناه .

« جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن . ففرقها بين المسلمين . فخرج في نصيب  
كل رجل برود واحد . ونصيب عمر كنصيب واحد منهم . قيل ، واعتلى عمر المنبر  
وعليه البرد وقد فصله قيصاً . فندب الناس الى الجهاد . فقال له رجل لا سمعاً ولا  
طاعة . قال عمر : ولم ذلك ؟ قال الرجل . لانك استأثرت علينا : لقد خرج في  
نصيبك من الابراد اليمنية برود واحد ، وهو لا يكفيك ثوباً ، فكيف فصلته قيصاً .  
وانت رجل طويل ؟ فالنفت عمر الى ابنه قائلاً : اجبه يا عبد الله . فقال عبد الله لقد  
ناولته من بردي فاتم قيصه منه . قال الرجل : اما الآن فالسمع والطاعة (٢) . »

وحديث من اراد ان يقوم اعوجاجه بجحد سيفه مشهور .

ولما ضرب ابن ملجم علياً جمع الامام ابنائه وقال لهم :

(١) ابن خلكان (٢) الفخري .

« يا بني عبد المطلب ! لا التينكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً ، تقولون : قتل امير المؤمنين الا لا تقتلن بي الاقائي . انظروا اذا انامت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة . ولا يمثل بالرجل . فاني سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور . »

ودخل علي بن ابي طالب مع خصم له ذمي ، الى القاضي شريح فقام له . فقال : « هذا اول جورك »

وشكته ذمية الى عمر بن الخطاب فقال له قم يا ابا الحسن الى خصمك فقام مغاضباً فقال له وقد قضى بينها — اساءك يا ابا الحسن ان ادعوك الى خصمك وانت مكذوب عليك ؟ قال كلا يا امير المؤمنين لم يسؤني هذا وانما ساءني ان تدعوني يا ابا الحسن ، لعل الخصم يداخله شيء من الرهبة او التحفظ ان كنت كنييني .

ومثل ذلك ، ما وقع للأمو ، في قضية رفعتها اليه امرأة على ابنه العباس في حديث طويل مشهور . ونجى نجتزى بهذا القدر حتى لا يطول نفس الكلام

ولقد بلغ من تحفظ اولياء الامر والقضاة ، انهم رأوا ان قضاء احدهم بعلمه موجب للتهمة ، فجعلوا ينصرفون عنه فلقد روي عن ابي بكر انه قال : لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري

وعن القضاة ان عمر اختصم اليه فيما يعرفه فقال للطالب ان شئت شهدت ولم اقبض . وان شئت قضيت ولم اشهد وعن الشعبي . انه قال : لا اكون شاهداً وقاضياً (١)

\*\*\*

٤ ما يأخذونه على القضاء — اكثر ما يأخذونه على هذا القضاء — حتى بالنسبة

الى الصدر الاول —

الشهادة : فيما يتعلق بالمرأة ، وبغير المسلم

أشهادة المرأة : يقولون : ان القضاء الاسلامي اهتم المرأة وصغر من شأنها

اذ جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل

ومن نظر نظراً صحيحاً رأى ان ذلك لم يكن احتقاراً لها ولأنها اعجز في ذاتها من

(١) الطرق الحكيمية

الرجل — واقل ثقة منه . بل لان النساء يتعذر غالباً حضورهن بمجلس الحكم . وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم . قال ابن قيم الجوزية :  
 « انا لانسلم ضعف شهادة المرأتين اذا اجتمعنا . ولهذا نحكم بشهادتهما مع الرجل . وان امكنه ان يأتي برجلين . فالرجل والمرأتان اصل لا بدل ، والمرأة كالرجل في الصدق والامانة والديانة . الا انها لما خيف عليها السهو والنسيان ، قويت بمثلها . وذلك قد يجعلها اقوى من الرجل الواحد او مثله . ولا ريب ان الظن المستفاد من رجل واحد دونها ودون امثالها . »

وقبل كثير من ائمة الفقهاء ، شهادة النساء ليس معهن رجل . ولقد سئل الامام احمد في الرجل يوصي ولا يحضره الا النساء ؟ قال أجيز شهادة النساء . فظاهر هذا انه يثبت الوصية بشهادة النساء على الانفراد اذا لم يحضره الرجال .

وذكر الجلال عن احمد : انه سئل عن الرجل يوصي باشياء لا فار به ويعتق ، ولا يحضره الا النساء هل تجوز شهادتهن ؟ قال نعم تجوز شهادتهن في الحقوق .

وقد حكا وبشهادة امرأتين و يمين المدعي . في الاموال وحقوقها وهذا مذهب مالك . فانظر ! اين هذا من قول العابثين على هذا القضاء ازدراء والمرأة . ثم اليس هذا الذي يأخذونه على هذه الشريعة . يرد على غيرها من الشرائع والقوانين ؟ أليست هذه الشهادة هي اليوم ايضاً موضع بحث رجال القانون في اوربا ؟

وهذا المسيو ( كيلر مه ) المحامي امام محكمة باريز الاستئنافية ، عقد في كتابه ( السر في خطأ القضاء ) فصلاً خصيصاً للمرأة ابان فيه ما يعرض لها من الوهم . وما ينبعث عن ذلك من الخطأ في الحكم . وتوسع في ذلك توسعاً لا يقف عند تحديد شهادة المرأة . ولكنه يقضي على هذه الشهادة من حيث هي .

٢ شهادة غير المسلم : اما شهادة غير المسلمين على المسلمين . فقد غلب فيها المنع . لانه اشترط في الشاهد ان يكون عدلاً ، ولما كان لكل دين آداب خاصة . فقد يكون العدل في دين ، غير عدل في دين آخر . وعلى هذا استند القائلون بانه « اذا اختلفت الملل لم تجز شهادة بعضهم على بعض » ( ١ )

( ١ ) روى ذلك بن ابى شيبة عن ابن عيينة بن يونس عن الحسن .

يؤيد ما قلناه ان القضاة كانوا يقبلون شهادة النصارى على النصارى  
واليهود على اليهود و يسأل عن عدالتهم في اهل دينهم (١)  
ولكن هذا المنع لم يكن جازماً باتاً في كل حالة . فلقد قال مالك « تجوز شهادة  
الطيب غير المسلم على المسلم للحاجة » (٢)

وفي الكتاب الكريم سورة المائدة : « يا ايها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر  
احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم . او اثنان من غيركم ان اتمت ضربتم في الارض »  
قال ابن قيم الجوزية : في كتابه (الطرق الحكمية )

« قال شيخنا رحمه الله : وقول الامام احمد في قبول شهادتهم ( يريد غير المسلمين )  
في هذا الموضوع . هو ضرورة ، يقضي هذا التعليل قبولها في كل ضرورة : حضراً وسفراً  
وعلى هذا لو قيل : يحلفون في شهادة بعضهم على بعض ، كما يحلفون في شهادتهم على  
المسلمين في وصية السفر لكان متوجهاً . ولو قيل : تقبل شهادتهم مع ايمانهم ، في كل  
شيء عدم فيه المسلمون . لكان له وجه . ويكون بدلاً مطلقاً . »

فيرى المنصف ، ان امر هذه الشهادة ، سواء اكان في حق المرأة ؟ ام غير المسلم ؟  
لم يجيء ازدرأً وتعصباً ، ولكن كان له مواضع خاصة . وعلل واسباب لا ينكرها امرؤ  
او قي الرشد والنصفة .

وهل ادل على ان هذا الشرع ، انما شرع للعدل المطلق ، وان الاولين لم يقيدوه  
بقيود تجرجه عن الطريق اللاحب والصراط القويم ، من قول ابن قيم الجوزية :  
« والمقصود ، ان البينة في الشرع تكون اربعة شهود . وتارة ثلاثة بالنص في بينة  
المفلس . وتارة شاهدين . وشاهداً واحداً . وامراً واحدة . ونكولاً وبميناً . او  
خمسين مميناً . او اربعة ايمان . »

الى ان يقول :

« فاذا ظهرت امارات العدل . واسفر وجهه باي طريق كان . فتم شرع الله  
ودينه . والله سبحانه اعلم واحكم واعدل من ان يخص طرق العدل وامارته واعلامه  
بشيء . ثم ينفي ما هو اقوى دلالة ، واين اماره . »

(١) اخبار قضاة مصر (٢) ابن قيم الجوزية .

٤ القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام — جاء هذا القضاء بكثير من الاصول والاحكام التي يزعم اكثرنا انها كانت مجهولة لولا القوانين الحديثة . واذا كان في هذا الشرع الذي اقبل بابه منذ مئات من السنين ، نقص عن حاجات هذا الزمن ، فان فيه كثيراً مما يوافقها ، بل فيه ما قصرت عن مثله هذه القوانين . واليكم ادلة على ما نقول .

الادعاء العام — فوض القانون الى المدعي العام ، ان يتبع الجرائم ، فيقيم الدعوى على فاعلها . وان يدافع عن الحق العام . ويخاصم كل من يعيث به . وهو يكاد يتدخل في كل دعوى جزائية . واما في دعاوي الحقوقية . فقد نص على خطته في المادة (٦٥) من اوضاع المحاكم النظامية . وخلاصتها : انه يتدخل في كل ما يندرج تحته اسم الحق العام ، صراحة او ضمناً . كأموال الدولة ، والمؤسسات العامة ، وصكوك الوصية التي تعود لجهة البر . وورد الحكم . والشكوى منهم . ودعاوي من هم قيد الوصاية ، والغائبين . الخ

وهذه الخطة لم يغفل الشرع امرها . وقد سماها الاصوليون حقوق الله . وعرفوها بانها ما تعلق نفعه بالعام ، ويجب على ولي الامراقامتها : مثل جزاء السارق ، وقاطع الطريق ، واللص وغيرهم من اهل الفسق والنجور .

قال ابن تيمية في كتابه ( السياسة الالهية ) مانصه :

« الحدود والحقوق هما قسمان : فالاول الحدود والحقوق التي ليست لتقوم معين ، بل منفعتها لعمامة المسلمين ، او نوع منهم ، وكلهم يحتاج اليها وتسمى حدود الله ، وحقوق الله مثل : حد قطاع الطريق ، والسراق ، والزناة ونحوهم . ومثل الحكم في الاموال السلطانية ، والوقوف ، والوصايا التي ليست لمعين . فهذه من اهم امور الولايات . »  
ففي هذا الكلام خطة المدعي العام . فالشق الاول حدد وظيفته في الامور الجزائية . والشق الثاني اشار الى ما ينبغي عليه في الامور الحقوقية « المدنية » . وهي تكاد تكون — ووظيفته في هذه الايام — وظيفة واحدة . ثم قال :

« وهذا القسم ( اي الحد الذي يتعلق به حق الله ) يجب على الولاية البحث عنه . واقامته من غير دعوى احد به . وكذلك نقام الشهادة فيه من غير دعوى احد به . وان

كان الفقهاء قد اختلفوا في قطع يد السارق، هل ينقر الى مطالبة المسروق بماله . اكنهم  
 مذنبون على انه لا يحتاج الى مطالبة المسروق بالحد . بل اشترط بعضهم المطالبة بالمال  
 لئلا يكون للسارق فيه شبهة »

نزيد على ذلك ان المدعي العام يسمونه في القوانين التي نقلنا قوانيننا عنها ( وكييل  
 الامبراطور ) او ( وكييل الملك ) . فهم قد جعلوا هذا الحق الى ولي الامر وكذلك هو  
 الشرع الاسلامي واذا كان الامبراطور او الملك ، قد وكل عنه من يتولى خطة  
 الادعاء العام . فقد سبق للخلفاء ففعلوا ذلك ، وسموا وكييلهم في هذا الشأن صاحب  
 الشرطة . وجعلوا اليه المطالبة بمقوق الله . وهي ما قلنا عنها انها الحق العام نفسه .  
 وكما ان المادة ال ١٥٥ من اصول المحاكمة الجزائية ، فوضت الى المدعي العام ،  
 ان يطلب تنفيذ الحكم من الجهة التي تعلق به ، فكذلك كان امر صاحب الشرطة  
 في تنفيذ الاحكام .

الحق الخاص والعام — ليس رجوع المدعي عن دعواه بموجب ، في ما يتعلق به  
 الحق العام — الا في امور معينة — وكذلك في الشرع لم يجعل رجوع المدعي عن  
 دعواه سبباً يترك من اجله او الحق الالهي الذي هو الحق العام جاء في (السياسة الالهية) :  
 « وفي الصحيحين عن عائشة (رض) ان قر يشاً اهمهم شأن الخزومية التي سقرت .  
 فقالوا من يتكلم فيها عند رسول الله (ص) فليل : ومن يجترئ عليه الا اسامة بن  
 زيد . قال يا اسامة ! اتشنع في حد من حدود الله ؟ انما هلك بنو اسرائيل انهم كانوا اذا  
 سرق منهم الشريف تركوه . واذا سرق فيهم الضعيف اتاموا عليه الحدود . والذي  
 نفس محمد بيده ، لو ان فاطمة بنت محمد سقرت . لقطعت يدها . »

ومثل ذلك ما رواه بن تيمية ، في كتابه هذا قال :

« كان صفوان ابن أمية نائماً على رداء له . فجاءه لص فسرقه . فأتى به الرسول .  
 فامر بقطعه . فقال يا رسول الله . اعلى ردائي تقطعه ؟ اني اهبه . قال فهلا قبل ان تأتيني  
الاستنطاق — وكذلك يقال عن الاستنطاق ، فلقد كان الامام علي اول من  
 اجراه على ما يقرب من اصوله الحاضرة ، بل على هذه الاصول عينها . ذلك ان شاباً  
 شكاه اليه نقرأ فقال :



« ان هو لاء خرجوا مع ابي في سفر ، فعادوا ولم يعد ابي . فسألتهم عنه فقالوا مات . فسألتهم عن ماله فقالوا ما ترك شيئاً . وكان معه مال كثير . ورافقنا الى شريح ، فاستلمتهم وخلي سبيلهم (١) فدنا علي بالشرط فوكل بكل رجل رجلين . واوصاهم ان لا يمكنوا بعضهم ان يدنوا من بعض ، ولا يمكنوا احداً يكبره . ودعا كاتبه . ودعا احدهم فقال : اخبرني عن ابي هذا الفتى ، اي يوم خرج معكم وفي اي منزل نزلتم ، وكيف كان سيركم ، وابي علة مات ، وكيف اصاب بماله ؟ وسأله عن غسله ودفنه . ومن تولى الصلاة عليه واين دفن ؟ ونحو ذلك . والكاتب يكتب . ثم دعا آخر بعد ان غيب الاول عن مجلسه ، فسأله كما سأل صاحبه . ثم الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع فوجد كل واحد منهم يخبر بصدقه ما اخبر به صاحبه . فضيق عليهم . فاقرروا بالقصة . فاغرمهم المال ، واقاد منهم بالقتيل »

النفرتين بين الشهود — وكان الامام علي ، يفرق بين الشهود ، ويستشهد كلا على حدة . وهذا وفاق المادة القانونية القائلة « ان الشهود يؤدون الشهادة فرداً فرداً »

السجن بالدين — وكان لا يجبس بالدين ، ويقول انه ظلم — الا ان يظهر بقريظة انه قادر مماطل — وهذا ما جرت عليه القوانين الحديثة . وكذلك كان خير بن نعيم الحضرمي قاضي مصر يسجن بالديون ثم يكشف عن امره اذا ادعى العدم فان شهد له به اطلقه من ساعته .

الاوراق الرسمية — ان الاصول الحديثة ، تعد المحاضر والاعلامات والاوراق الرسمية صحيحة ، الى ان ثبت تزويرها . وهذا ما كان يفعله القضاة . فقد قال ابن قيم الجوزية : « وقد كان القاضي يجيز كتب غيره من القضاة ، بغير محضر الشهود . فان قال الذي جيز عليه بالكتاب ، انه زور . قيل له : اذهب فالتمس الخرج من ذلك »

الترجمان — في اصول الحماكمة الجزائية المادة ال (٢٨٦) ما نصه :

(١) وفي لسان العرب : ورفع الى علي رضي الله عنه امر رجل سافر مع اصحاب له فلم يرجع حين قفلوا الى اهلهم فأتتهم اهل اصحابه فرفعوهم الى شريح فسأل الاولياء البينة فمعجزوا عن اقامتها . واخبره اعلياً بحكم شريح فتمثل بقوله :

اوردها سعد وسعد مشتمل ياسعد لا تروي بهذاك الابل

« اذا لم يحسن المتهم او الشهود او احدهم ، التكلم باللسان الذي يتكلم به الآخرون . فرائس المحكمة يعين ترجماناً رسمياً يكون له من العمر لا أقل من احدى وعشرين سنة . ويحلف انه يترجم واقع الحال الخ . »  
وفي الفتح : اذا كان الحاكم يعرف لسان الخصم يكفي له ترجمان واحد . فاذا لم يعرف لسانه فلا يقبل فيه الا عدلان كالشهادة »

وفيه عن مالك : « ويشترط في الترجمان ان يكون ثقة ، عدلاً ، أميناً ، عفيفاً . »  
فالشروط التي اشترطها الشرع تشمل الاغراض التي رعى اليها القانون ، ونفصالها من وجوه .  
انواع الجرائم — جعل الفقهاء الجرائم وعقوباتها على نوعين :

« العقوبة المقدره للجرائم الكبيرة . وهي تكون بالقود والتصاص والحد — ويغلب عليها اسم الجناية — والعقوبة غير المقدره لما دون ذلك . ويرجع امر تقديرها للحاكم . ويكون التأديب فيها : بالحبس او الضرب او الصفع او الكلام العنيف وما اشبهه . وأطلق بعض الفقهاء عليها اسم الزلة — وكذلك قسموا القتل الى عمد وشبه عمد وخطأ . وعرفوا كلاً منها تعريفاً جميلاً . »

درجات المحاكم — جعلت القوانين المحاكم درجات ، صيانة للعدل .

« وكان الامام علي قد انشأ ديواناً سمي ( ديوان المظالم ) كان يلجأ اليه المتظلمون من الاحكام التي تصدر عليهم . وتابعه في ذلك بنو أمية ثم بنو العباس . غير ان عبد الملك بن مروان أفرد لهذا الديوان يوماً معلوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين وكان اذا وقف منها على مشكل رده الى قاضيه ادريس الاودي فينفذ فيه الحكم . وكان ادريس المباشر وعبد الملك الأمر (١) . وكان سائر الخلفاء بين من يجلس هذا المجلس بنفسه ، كما فعل علي بن ابي طالب وعمر بن عبد العزيز من بني أمية والمهدي والهادي والرشيدي والمأمون ثم المهدي من بني العباس . »

وفي المنهج السلوك : لما افضى ملك الشام الى الملك العادل نور الدين بن زنكي بنى له داراً في قلعة دمشق سماها دار العدل ، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين ويفصل بين المتنازعين ولديه الفقهاء وأئمة الدين فيرجع اليهم ما أشكل عليه من امور الشرع (٢) .

(١) المنهج السلوك (٢) المنهج .

وبين من يكفه الى قاضيه »

الظنين واليمين — حضرت القوانين ان يحلف الظنين او المتهم . وعدت ذلك أثراً من آثار الهمجية . لان الرجل يقف عندئذ بين احدى خطتين : كذب كاسر من نخوته ، او صدق مضيع لحرته ، متلف لنفسه .

وقديماً قال ابن القيم الجوزية ، في كتابه ( الطرق الحكيمية ) :

« وقد استثنى من التحليف في الحدود صورتان : احدها اذا قذفه فطلب حد القذف . فقال القاذف حلفوه انه لم يزن فذكر أصحاب الشافعي فيه وجهين . والصحيح قول الجمهور انه لا يحلف ، بل القول بتحليفه في غاية السقوط . فان الحد يجب بقذف المستور ، وليس من شرطه ان لا يكون قد اتى الفعل في نفس الامر . ولهذا لا يسأل الحاكم عن ذلك ولا يجوز له سؤاله . ولا يجب عليه الجواب . وفي تحليفه تعريضه للكذب واليمين الغموس ، ان كان قد ارتكب ذلك . او تعريضه لفضيحة نفسه ، واقرارها بما يوجب عليه الحد . او فضيخته بالنكول الجاري مجرى الاقرار . »

ادغام العقاب — لما ارتقت الهيئة الاجتماعية رقت قوانينها — فكان من وراء ذلك ان جعلت الجزاء اصلاً وتأديباً . لا انتقاماً وتعذيباً — وجاءت المادة الـ ( ٢٩٩ ) من اصول المحاكمة الجزائية تقول في شقها الثاني :

« اذا ارتكب المتهم عدة جنائيات وجنحات معاً . فتجزم بالجزاء المعين للجرم الاشد عقوبة . ومثل ذلك ما قاله ابو يوسف في كتابه ( الخراج ) . »

« وان لم يكن القاذف ضرباً للاول ، حتى قذف آخر ، فانه يضرب لها جميعاً واحداً . »

« فان كان القاذف عبداً ، ضرب حد العبد اربعين . فان لم يكن ضرب بعدما قذف حتى

اعتق ، ثم قدمه الى الحاكم فانه لا يزيده على الاربعين لانها هي التي كانت وجبت عليه يوم قذف . »

وهذا وفاق ما ننظر اليه الاصول الحديثة ، اي الى الحالة التي كان عليها المجرم يوم وقوع الجرم

« فان لم يكن ضرب بعدما اعتق ، حتى قذف آخر . ضرب الاول وللثاني ثمانين . اي انه

عوقب للمجرم بعقوبة أشدهما فقط . وكذلك لو ضرب من الحد اسواطاً ، ثم قذف آخر . كمل

له الحد فقط . ويحتسب بما مضى . ولا يضرب ثمانين مستقلة ما بقي من الحد سوطاً . فان كملت

له الثمانون ، ثم قذف آخر . ضرب لذلك ثمانين أخرى بعد ان يجلس حتى يخف الضرب . »

« وكذلك لو سرق غير مرة ، قطع مرة واحدة لتلك السرقات كلها . »  
السرقة وانواعها — للمادة (٢٣٠) من قانون الجزاء ذيل جعلت احدى فقراته للسرقة  
 وسوء الأئمان واخذ المال بالتحيلة مما يقع على الاشياء الخسيسة . عقوبة دون غيرها .  
 « وفي الشرع لا يقطع السارق في الشيء التافه » وفي الحديث لا قطع في الدغرة :  
 وهي اخذ الشيء اختلاساً .

فيكون الشرع جعل الاختلاس أخف عقوبة من السرقة . وهو ما جرت عليه القوانين  
 الحديثة . اذ ثبتت على السرقة نفع ( اخذاً ونشلاً ) جزاء اخف من السرقات العادية .  
 ومن هذا القبيل الفرق بين السرقة نفع في مكان محرز ، وبينها نفع في مكان غير  
 محرز . فواجبوا القطع في الاولي فقط . وهذا وفاق تقسيم السرقة الى جنائية وهي  
 ما صاحبها خلع او كسر او فتح بألة خصيصة . والى جنحة وهي السرقة العادية .  
 على انهم اشترطوا في القطع ان تبلغ قيمة المسروق عشرة دراهم فصاعداً . وهذا  
 القيد خير من الاطلاق الذي جرى عليه القسانون . لان رجلاً يدفعه الجوع فيفتح  
 باباً بمفتاح او آلة فيسرق رغيفاً يدافع به الموت عن نفسه كما كان يقع ايام الترب .  
 يكون من الجنائية ان يعد فعله جنائية .

السرقة بين الاصول والفروع — في قانون الجزاء .

« اذا اخذ الزوج او الزوجة مال الآخر في حالة الاجتماع او الافتراق . او اخذ الاولاد  
 وسائر الفروع مال آبائهم وامهاتهم وسائر اقربائهم من الاصول . او اخذ الاباء والامهات  
 وذوي القربى من سائر الاصول مال الاولاد وسائر الفروع . يسترد المأخوذ ويعطي  
 لاصحابه . »

وقال ابو يوسف في كتابه ( الخراج ) :

« ولا يقطع احد بسرقة من ابيه . ولا من أمه . ولا من ابنه . ولا من اخيه . ولا من أخته  
 ولا من زوجته ، ولا من ذي رجم محرم منه . ولا تقطع المرأة في السرقة من مال زوجها . »  
المحاولة — جعل القانون لمن صمم على جنائية — ثم حالت اسباب قاهرة دونها —  
 عقاباً خاصاً هو دون ما يترتب على تلك الجنسية لو انجزها خرجت الى حيز الفعل . وهذا  
 ما يفتن له الفقهاء من قبل . فقد قال ابو يوسف في كتابه ( الخراج ) :

«ومن وجد قد نقب داراً او حانوتاً . ودخل فجمع المتساع ولم يخرج . حتى ادرك . فليس عليه قطع . ولكنه يوجع عقوبة ، ويجبس حتى يحدث توبة »  
ومثل ذلك ما قاله ابن تيمية في كتابه ( السياسة الالهية ) .

« واما اذا اشهروا السلاح ، يريد الاعراب وفسقة الجند وغيرهم ) ولم يقتلوا نفساً ، ولم يأخذوا مالاً . ثم اغمدوه او هربوا . وتركوا الحرب . فانهم ينفون . واختلفوا في النفي فقيل هو تشريدهم فلا يتركون في بلد . وقيل هو حبسهم ، وقيل هو ما يراه الامام اصلحة من في او حبس او نحو ذلك .

المشاركة — جاء في المادة (٤٥) من قانون الجزاء :

« اذا ارتكب عدة اشخاص متحدين ، جناية او جنحة . او كانت احدهما مؤلفة من عدة افعال . فاتي كل منهم فعلاً او بعضاً من هذه الافعال قصد حصول الجرم . عدوا مشتركين في الجريمة وعوقبوا كلهم عقاب الفاعل المسنقل »  
وقبل ذلك جاء في تنوير الابصار ، باب السرقة :

« تشارك جمع ، وواصاب كلا قدر نصاب ، قطعوا . وان اخذ المال بعضهم . وفي الدر المختار : ( ولو فيهم صغير او مجنون او معتوه او محرم لم يقطع احد ) وزاد في الحاشية قوله : قال في الفتح ( وانما وضعها في دخول الكل ، لانه لو دخل بعضهم لكنهم اشتركوا بعد ذلك في فعل السرقة ، لا يقطع الا الداخل ان عرف بعينه . وان لم يعرف عزروا كلهم وابد حبسهم الى ان تظهر توبتهم )

وفي هذا الاستدراك ، الذي استدركه صاحب الدر ، من الرحمة والصواب ما فيه .  
الرشوة — في المادة ( ٧٧ ) من قانون الجزاء .

« اذا اكره انسان ، واضطر اضطراراً صحيحاً ، ان يرشو آخر ، صوتاً لنفسه وماله وعرضه . وبالاجمال لكل منفعة مشروعة . ثم اعلم الحكومة بامره . استردت تقود الرشوة واعيدت لصاحبها . وعوقب أخذها عقاب المرتشي . »  
وهذا وفاق ما ورد في السياسة الشرعية قال :

« وللرشوة نوع آخر ، هو دفع شيء الى الظالم بالاضطرار لرفع ظلمه ، او لتخليص المال والنفس من شره . وهذا لاشك في انه حرام على الاخذ الظالم ، واما الدافع

المظلوم فلا يدخل تحت الوعيد ، اذ الرجل مأمور بجعل ماله وقاية لنفسه ودينه ، في مواضع الضرورة . كما يدل الحديث الشريف : اجعل مالك دون نفسك ، ونفسك دون دينك . فالرشوة من هذا القبيل ، لما كانت لا تستند الى سبب شرعي من اسباب الملك ، تسترد من المرتشي وترد الى صاحبها .

اسقاط الحق العام — رأى اصحاب القانون في الفترة الاخيرة انه كثيراً ما يقع خلف بين ذوي العلاقة والقربى ، فتحمل الطرفين او احدهما نزوة من نزوات الغضب ، فيرفع الامر الى الحاكم . فاذا انتهت القضية اليه ، فلا بد من حكم يكون في غالب الاحيان ، سبباً في توسيع الخرق واستحكام حلقة العداة . فاستدر كوا الامر ابقاءً للمودة وحفظاً للحقوق ، بان جعلوا للمادتين الـ (١٧٩) والـ (٢١٤) فقرتين اجازوا فيها اسقاط الحق العام ، تبعاً للحق الخاص ، في كثير مما تشمله هاتان المادتان .

واذا دققنا في اقوال الفقهاء ، وجدناهم ما يقرب من هذا كثيراً ، بل ما يرد واياه شرعة واحدة . ففي حاشية ابن عابدين . يبحث ( هل للقاضي العفو عن التعزير ) :  
« قال : لا خير يا زاني ! فقال الآخر بل انت . حداثاً لغلبة حق الله ( الحق العام ) فيه . بخلاف ما لو قال له مثلاً يا خبيث فقال بل انت . لم يعزرا . لانه حقها ، وقد تساوا يا اما اذا تشامتا بين يدي القاضي ، او تضاربا ، لم يتكافأ لهلك مجلس الشرع »  
الاقرار — في الاصول القانونية لا يكون مداراً للحكم .

« وقد قال ابو يوسف — من ظن به او توهم عليه سرقة ، او غير ذلك فلا ينبغي ان يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من اقر بسرقة او يجد او يقتل وقد فعل ذلك به فليس اقراره ذلك بشيء . ولا يحل قطعه ولا اخذه بما اقر به . وعن عمر انه قال ليس الرجل بمأمون على نفسه ، ان اجعته واخفنه او حبسته ، ان يقر على نفسه . »

« وكذلك لا يعتبر اقرار الرجل عما وجب عليه فيه الحد ، ما لم يردده . ثم يسأل عنه ، هل به لم ؟ هل به جنون ؟ هل في عقله شيء ينكر ؟ فان لم يكن في عقله شيء من ذلك وجب عليه الحد »  
الاتهام والتبرئة — ولقد منعت الاصول الحاضرة ، ان يحكم على رجل اتهمه بتهمة بها ، او بينة قليلة ترد عليه . وواجبوا في كل قضية يتردد فيها وجدان الحاكم بين البراءة والحكم

بل بالغوا في ذلك، حتى قالوا: ان تبرئة جماعة من المجرمين اولى من تجريم بريء واحد .  
ولقد جاء في هذا الشرع :

« ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم . واخلطوا في العفو خير من اخلطوا في العقوبة .  
وقال عمر لئن اعطل الحدود في شبهات . خير من ان اقيمها في شبهات . »  
تخليه السبيل والكفالة -- شرعت تخليه السبيل بالكفالة، صيانة للحرية الشخصية ان  
نقضي عليها شبهات . ورحمة بالظنين او المتهم في بعض الحالات . وهو تدبير عدل جرت عليه  
الامم الراقية كافة . ولم يذهب هذا الامر عن بال القائم بهذا الشرع . قال ابو يوسف:  
« ولا ينبغي ان تقبل دعوى رجل على رجل في قتل ولا سرقة . ولا يقيم عليه حد الا  
بيينة عادلة . او باقرار من غير تهديد من الوالي له او وعيد . ولا يجل ولا يسع ان يجلس  
رجل بتهمة رجل له . كان الرسول لا يأخذ الناس بالقرف . ولكن ينبغي ان يجمع  
بين المدعي والمدعى عليه فان كانت له بيينة على ما ادعى . حكم بها . والا أخذ من المدعى  
عليه كفيل . وخلي عنه فان اوضح المدعى بعد ذلك شيئاً ، والا لم يتعرض له . »  
ولم يجوزوا السجن بالتهمة .

« الا اذا كان المتهم من ذوي التهم السابقة ، او من اجلاف يتوقع منهم صدور  
مثل تلك الافعال . ولم يجعلوا مدة معينة للسجن في هذه الحالة، فتحدد مدته راجع الى  
الزأى والاجتهاد »

جلب الظنين -- ان القانون الذي تجرى عليه في يومنا، قد اوجب على الظنين ان يحضر  
المحاكمة بنفسه . ولا يسوغ له ان يرسل وكيلاً يدافع عنه في اساس القضية اذا كانت الدعوى  
التي اقيمت عليه من دعاوي الجنحة او الجنابة: وكانت تستوجب -- ان هي ثبتت عليه --  
جزاء الحبس . ولا ينكر ما في هذا القيد من التشديد، اذ لا يندر ان تكون الدعوى انما  
اقيمت نكابة بالظنين وخطأ من كرامته . فالقضاء عليه ان يحضر بنفسه والا يمتنع حق التوكيل  
ويحاكم غيابياً -- فيه اجحاف وظلم كبيران . ولقد كان الشرع في هذا ، اصح من القانون  
وانصف اذ كان مالك . على ما جاء في كتاب الخراج : ممن يرون ان حضور مجلس الحاكم تعويق  
من جنس الحبس فلا يجب حضور الخصم المطلوب بمجرد الدعوى . بل لا بد للمدعى  
ان يبين ان للدعوى التي يدعيها اصلاً .

الافتراء والدم — في قانون الجزاء عن الافتراء ما خلاصته :

« من عزا الى آخر جرماً لغرض ما وهو يعرفه بريئاً او اختلق على ذلك الرجل آثراً ودلائل مادية لكذا جرم يجبس الخ... »  
وفيه عن الدم والتحجير .

« من ذم انساناً باسناده اليه ما يجعله عرضة لاحقار الناس وخصوصتهم . يجبس او ما يحط من قدره وناموسه . . . يجبس الخ »

قالوا : ويتم الافتراء ايضاً اذا ورد الاخبار في لأئحة دعوى مكتوبة او مطبوعة او في ضبط يودعه المخبر اخباره .

واليك ما قاله الفقهاء في هذا المعنى :

« قال مالك واشهب لا ادب على المدعي الا ان يقصد اذية المدعى عليه وعيبه وشتمه . فيؤدب »

فالحكمان الشرعي والقانوني في هذا واحد . من حيث الجوهر والروح . كلاهما يجازي حيث يراد الافئثات على آخر ، والنيل من كرامته .

الحامل والجزاء — في المادة الثامنة عشرة من قانون الجزاء : « المرأة المستحقة جزاء الاعدام ، اذا اخبرت بانها حامل وتحقق ذلك وثبت ينفذ فيها العقاب بعد وضعها »

وفي رد المحتار على الدر المختار : ويقام الحد على الحامل بعد وضعها . فان كان حدها الرجم ، رجمت بعد الوضع . الا اذا لم يكن للمولود من يريه . فتمت يسغني . وان كان الجلد فبعد النفاس )

الحرمان من الحقوق المدنية — لاشهادة لمن حكم عليه بالحرمان من الحقوق المدنية . وقريب من ذلك ماورد في الشرع ( من ان الرجل اذا حد في قذف ، لم تقبل شهادته ) سن المجرم — راعت — المادة ( ٤٠ ) ، من قانون الجزاء — سن المجرم . من حيث نوع العقوبة وتطبيقها قال الفقهاء :

« ولا يقام له الحد على غلام لم يبلغ الحلم »

الدفاتر والسجلات — وكان القضاء يتخذون دفاتر وسجلات يقيدون فيها اقضيتهم



وأول من فعل ذلك منهم سليم بن عتر النخعي (١) قاضي مصر؛ وذلك أنه اختصم إليه في ميراث فقضى بين الورثة ثم نناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند. ثم جاء المفضل بن فضالة فطوّل السجلات ونسخ فيها كتب السحايا والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله (٢).

\*\*\*

هذا وقبل أن نختتم الكلام نرى حقاً أن نشير إلى بعض أصوله، تجري أيها اليوم وقد سبق للسلف أن جروا عليها من قبل. من ذلك:

كتابة العدل — فهي ليست مما أحدثه المتأخرون. بل كانت قديماً. أخذها الفقهاء من الكتاب الكريم. وصيروها عملاً مستقلاً كاد يكون كما هو اليوم. قال ابن خلدون: «العدالة... تابعة للقضاء. وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم عند النزاع وكتابةً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملأهم وديونهم وسائر معاملاتهم. وشرط هذه الوظيفة. الاتصاف بالعدالة الشرعية، والبراءة من الجرح، ثم القيام بكتابة السجلات والعقود من جهة عباراتها، وانظام فصولها ومن جهة أحكام شروطها الشرعية وعقودها. فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه. ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم... فيقولون (أي القضاة) غالباً بها (أي بالبيانات الموثوقة) على هذا الصنف. ولهؤلاء في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها، فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للشهاد ونقبيده بالكتاب...»

دار القضاء — كان التحكيم قبل الإسلام والقاضي في الصدر الأول. يؤتى في بيته فيحكم بين المتخاصمين. أو كان حيث يكون فهناك مجلسه. ثم اتخذ القضاة المساجد ندوة للحكم، يقضون فيها بين المسلمين، فإذا جاء العصر جلسوا على باب المسجد يقضون بين غير المسلمين أو جعلوا لهم يوماً في منازلهم. فلما انتهى قضاء مصر — أيام الرشيد — إلى محمد بن سروق أدخل النصارى المسجد الجامع في خصوصاتهم.

السجن — كان الرسول يسجن في المسجد، وتبعه في ذلك أبو بكر وعمر

(١) أخبار قضاة مصر (٢) أخبار قضاة مصر

وعثمان . ثم احدث علي سجناً خاصاً . وأجرى على من لا مال له ولا شيء له ، ما يقوته من بيت المال . ومضى على سنته الخلفاء من بعده .  
وكتب ابو يوسف ، مخاطباً امير المؤمنين الرشيد في شأن السجناء :

« فر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وادمهم . وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر . فانك ان اجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن . . . . . وول ذلك رجلاً من اهل الخير . يثبت اسماء من في السجن . ممن تجري عليهم الصدقة شهراً فشهراً . ويقعد ويدعو باسم رجل رجل . ويدفع ذلك اليه في يده . . . . . وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء . وفي الصيف قميص وأزار . ويجري على النساء مثل ذلك . وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء . وفي الصيف قميص وأزار ومقنعة »

« ونهوا عن غل السجن . الا اذا خيف فراره . وعن ضربه الا اذا اقيم عليه حد . وأذنوا له اذا كان عليه ديون ان يخرج فيخاصم . »

\* \* \*

هذه صفحة من هذا القضاء . قضى عليها الدهر بان تكون مطوية ، مع ما لاصحابها في نشرها من حسن الاحدوثة وطيب النشر . وأنا لا ادعي اني قد اخطت بهذا الموضوع من جميع وجوهه . اذ قد يكون ما فاني ذكره ، لا يقل عما ذكرته دقة وعدلاً ، من حيث الاداب . وموافقة لروح العصر ، ومماشاة للقوانين الحاضرة ، من حيث الاصول .

ولقد كانت الامور الجزائية اكثر ما تعرضت له في هذه المقارنة لسببين : ( اولاً ) لان القانون المدني عندنا هو الجملة ، وهي مستمدة بجملتها من الشرع . فليس ما يدعو الى التنويه بها ، وهي لا تزال واحكامها هي هي . لا يعوزها الا قليل من التعديل . حتى يتجدد نضارتها . وتصبح خليفة ان ينسخ في القوانين على منوالها .

( ثانياً ) ان اهل العصر الحاضر ، يزعمون هذا الشرع غربياً عن قضايا العقوبات جملة . دع الاصول الحديثة . بعيداً عن روح العدل في هذا الباب . على حين رايتم

ما بينهما من الصلة والعلاقة . ولو انه أتج هذه الشريعة خلف سار على سنة ذلك  
السلف . لانفردت عن الاشباه ونزهت عن النظائر .  
وهو وان كان شرعاً اسلامياً فقد كفل العدل والنصفة لكل من نزل على حكمه  
مسلياً كان او غير مسلم .

لهذا ولا مثاله لقبت هذه الشريعة بالشريعة السمحة وهذه هي المفخر الصحيحة التي  
يعرفها التاريخ الحق لا تلك البدع العريقة بالوهم . فاذا استفاق الخلف . واقننى سنة  
السلف . ونبت القشور . وعاد الى اللباب . فقد عاد الى هذا الوطن . عصره الاول .  
الاغر المحجل .

عارف النكدي



## (١) العلم

لا جرم ان العلم الصحيح الكامل وسيلة الى كل فضيلة وصلاح وسلم ارتقاء الامم الى اعلى درجات النجاح والفلاح . به يتميز الانسان على الانسان كما يتميز على غيره من انواع الحيوان بالعقل والبيان . ولذلك وصف بانه حياة النفوس وضياء البصائر وبان رتبته ارفع الرتب . ووصف العلماء بانهم ورثة الانبياء وامناء الله على خلقه ومصايح الهداية وكواكب الارض . كما وصف الجهل بانه موت النفوس وعمى الازهان وظلام العقول . ووصف الجاهل بانه بعيمية في صورة انسان و بأن عينيه في ظهره . ورأسه في معدته . وقد كان للعلم شأن عظيم عند كل أمة من الامم السالفة واول من اشغل به البابليون او الكلدانيون فكان علماءهم ينقنون رصد الكواكب بمنتهي التدقيق واخترعوا الهال المزاول المضبوطة وكان لهم باع طويل في الطب وشهرة واسعة في الصنائع النفيسة كالنقش والحفر والتصوير . ثم انتقل العلم الى الفرس والفينيقيين والصينيين والهنود واليونان والرومان وكما سطعت انواره في أمة ارتفع شأنها وعظم عمراتها . وكما نقلت ظله من مملكة ثقلص معه مجدها وافل سعدتها وترعزت اركانها وتهدم بنيانها كما حدث للشعوب التي مرت ذكرها . فلما جاء العرب ادر كوا ما للعلم من المنزلة العالية في الخالتين المدنية والسياسية وعرفوا شدة الحاجة اليه في الشؤون الاجتماعية وعنوان بشره في البلاد العربية فسطع ضياؤه في الشام والعراق ومصر والمغرب والاندلس ولا سيما في زمن الخليفة العباسي المأمون الذي انتقى افضل الكتب الفلسفية اليونانية وامر بترجمتها الى العربية وحرص الناس على مطالعتها وتعلمها حتى حفلت بغداد بالعلماء والمصنفين وزخرت خزائنها بالكتب النفيسة وامتدت شعلة الطلب والتدريس الى سائر البلاد الاسلامية . وفي زمن الخليفة الاموي عبدالرحمن الملقب بالناصر الذي جعل مدينة قرطبة داراً للعلم على نحو ما كانت بغداد في المشرق والقيروان في المغرب والقاهرة في مصر وحشد الكتب من افرريقية وبلاد فارس ومصر وسائر الآفاق العربية حتى

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس سلوم القاها في ٢١ تموز سنة ١٩٢١ م .

جمع في ما يقال اربع مئة الف مجلد وقيل اكثر وانتشرت هذه الرغبة في جميع الكتب حتى كانت من انفس ما ينبغي به . وقد قيل ان الاندلس كان فيها في اوائل القرن الخامس للهجرة سبعون مكتبة حافلة .

وكان للعلماء عند العرب مقام سام حتى ان الخلفاء انفسهم كانوا يصبون الماء على ايدي العلماء ويقضون اوقاتهم بين المحابر والدفاتر و بينون بيوت العلم كما بينون بيوت العبادة . ورغب علماء العرب في العلوم الطبيعية والفحوا فيها واخذوا عن اليونان مبادئ الفلك والهندسة والحساب والجبر والطب والنبات وغير ذلك من العلوم وحسنوها كلها وما زالت انوار المعارف ساطعة في آفاقهم حتى دالت دولهم فألقيت مقاليدها الى الغربيين وقد كانوا خابطين في ظلمات الجهل فاهتدوا بما اقتبسوه من علوم العرب واجتهدوا في انقائها وزادوا عليها وبعد ان كانوا تلاميذ العرب اصبحوا يمجدهم ومثابرتهم وثباتهم اساتيد العالم باسره وقادة الافكار البشرية كلها وتوصلوا بفضل فروع العلم المختلفة الى الاتيان بالعجائب والاختراعات والاكتشافات واعظم الاعمال التي تحير العقول وتكاد تشبه المعجزات واستخدموا كل ذلك في ما يؤول الى خير البشر وراحتهم وسعادتهم . ولا بد لي في هذا المقام من ذكر خلاصة المنافع التي جناها العلماء من حدائق العلم واهدوها الى المجتمع البشري وهي : (١) تحسين الصحة العامة فان العلماء بكثر وباستور وكوخ وغيرهم اكتشفوا ادوية وافية وشافية من الجدري والخنق والهواء الاصفر والحميات المنوعة . والجراحين نفنوا في الاعمال الجراحية وبلغوا في انقائها درجة سامية فاصبحوا قادرين ان يفتحو البطن ويستأصلوا بعض الاعضاء بدون تعريض الحياة للخطر وساعدهم على النجاح في اعمالهم استعمال مضادات الفساد التي اوصلهم العلم الي كشفها حديثاً فقلت الوفيات بنقدم الطب والجراحة ومراعاة القوانين الصحية وطال معدل العمر كما ثبت ذلك بالاحصاء الدقيقة وشهادة الخبراء العارفين . قال احد ساسة اليابان انه قبل انتشار العلم في بلادنا كان اكثر من ثلثي اطفالنا يموتون لجهلنا وسائط التربية وقوانين الصحة وكانت الاوبئة تفثك بنا فتكاً ذريعاً لجهلنا طرق الوقاية منها وسائط منع انفسها اما الآن فان المدارس والمستشفيات والاطباء والوسائط الفنية قد افادتنا فوائد حمة لا يسع احداً انكارها فتمسنت عندنا الصحة العامة وزادت مواليدنا على وفياتنا . وهو قول حري بالاعتبار وكفي به دليلاً على ان العلم لم ينشر في بلاد الافاد اهلها فوائد

صحية عظيمة والصحة أساس كل خير ونجاح وهي أهم من كل شيء ولا يعني  
عنها شيء .

(٢) نقوية العقل وترقيته بتمرينه على الحذر والانتباه والملاحظة والاستقراء  
والاستدلال والقياس والتدقيق والتحقيق والاستنباط والاختراع ورد النتائج الى اسبابها  
الحقيقية وادراك النسبة بين العلة والمعلولات . وحجة القول ان العقل المستنير بضياء العلم  
الصحيح يكتسب مضاء وقوة و يتحرر من عبودية الخرافات والخزعبلات والترهات التي  
كانت تخيف الناس كالاعتقاد ان الحسوف والكسوف وظهور ذوات الازناب وهبوط  
النيازك مما يؤثر في احوال البشر ويوجب عليهم الحروب والابوثة والجماعات وغيرها من  
البلايا . وكما ان الرياضة البدنية بالالعب المتنوعة والاعمال المختلفة تقوي البدن كذلك  
الرياضة العقلية بدرس العلوم المختلفة تقوي العقل وتزيل عنه الجمود والخمول والوهن  
وتقوم كل اعوجاج فيه . فعلم الهندسة بقي الذهن من التشتت وعلم المنطق يعصمه من الخطأ  
في الفكر و يدرّبه على اقامة الحجج . وعلم الحقوق يعينه على استخراج القضايا والاستشهاد  
باقوال الفقهاء واثبات السعوي بالنصوص الشرعية والقانونية . غير ان الرياضيات اشد  
العلوم ثقيفا للعقل لانها قائمة بالقياس والبرهان ومتضمنة احسن ما مهيأ به العقل  
للاستدلال واقامة الحجة .

(٣) اصلاح الآداب فان الذين تعلموا العلم الصحيح يعرفون ما لهم من الحقوق وما  
عليهم من الواجبات فيحافظون على حقوقهم و يقومون بواجباتهم ويحترمون انفسهم فيعتزلون  
المنكرات ويترفعون عن الدنيا و يتزينون بالاخلاق الحسنة و يتسابقون الى الاعمال  
الشريفة والمساعي الحميدة فلاريب ان العلم الصحيح يصلح الآداب و يحسن الصيت  
ويجمل الخصال و يقلل الجرائم في البلاد . ولذلك قيل اذا امتلأت المدارس فرغت  
السجون . وكما بعد الناس عن العلم وتوغلوا في الجهل ساءت اخلاقهم وفسدت آدابهم  
وقبحت أعمالهم كما يري ذلك في القبائل المتوحشة كقبائل اواسط افريقية التي تأكل  
لحوم البشر وتعمل القبائح التي لا يليق ذكرها بلا خوف ولاحياء لان غير المتدنين  
لا يفرقون عن الوحوش المفترسة الا بكونهم يقياون العلم والتهديب اذا أتبع لهم ذلك  
وتوفرت لديهم الوسائط الكافلة به . فان قيل ان بعض اهل العلم ذوو اخلاق فاسدة

وآداب ساقطة قلت ان علمهم غير صحيح او غير كامل لان العلم الصحيح الكامل مقترن ابداً بالاخلاق الفاضلة فلا يصدر عنه الا الصلاح فهو كالشمس التي لا يصدر عنها الا النور

(٤) اخضاع الامور الطبيعية لسلطة الانسان فالذين تعمقوا في العلم عرفوا كثيراً من اسرار الطبيعة واكشفوا خفاياها واطلعوا على سننها وخبياها وشاهدوا عجائبها وغرائبها واستنبطوا دقائقها ومكنوناتها واستخدموا لمنافعهم قوايتها فسخرها بقرق السماء وتسلطوا على الماء والهواء واخترقوا الحجب ببعض الاشعة فراوا ما خفي على الابصار وولدوا بقوة الماء بدائع الانوار وتمكنوا من اجتناء كثير من الفوائد ورفع كثير من الاضرار وانما توصلوا الى كل ذلك بفضل الطبيعيات وهي علوم التجربة والاستقراء .

(٥) توفير الثروة فان العلم هو الذي حسن مصادرها اي الزراعة والصناعة والتجارة فوفرت الاموال وحسنت الاحوال باصلاح الاعمال وبيان ذلك ان العلماء توصلوا بعلم الزراعة وهندسة الري الى تزييد غلال الارض كما يشاهد ذلك في اكثر بلاد الغرب وبعض بلاد الشرق كعصر التي اضمحت نقيض ذهباً وهاجاً على سكانها بفضل تحسين الري فيها . وبعلم المعادن استخراجها كنوز الارض الثمينة وذخايرها المدفونة . وبعلم الكيمياء رقوا الصناعة وفتننوا فيها على اساليب شتى حتى انهم انتفعوا بالنفسيات كالخرق البالية والاقذار الجارية والعظام وقصاصة الجلد ونشارة الخشب والامعاء فصنعوا منها الورق الابيض الصقيل والطيوب الذكية ومقابض السكاكين واوتار آلات الطرب الى غير ذلك من الاشياء التي ينتفع بها وبثمنها . وحازت المانيا قصب السبق في هذا الميدان فكانت تصدر من الاصباغ الكيماوية المستخرجة من قطران الفحم في كل سنة ما يبلغ ثمنه اربعين الف دينار فوق ما كانت تستعمله في بلادها وقد نابت تلك الاصباغ منا — النيل الذي كان يستعمل من قديم الزمان لهذه الغاية . وجملة القول ان العلم هو الذي افاض الغنى العظيم على سكان اوربقة واميركة وهو الذي فتح لهم خزائن الارض وهو الذي حول الماء والتراب والنبات ومعادن الرصاص والحديد والنحاس الى ذهب وهاج والفرق بينهم وبين اكثر الشرقيين هو انهم هم يحتالون على الارض ليستخرجوا الذهب من ترابها ومائها ومعادنها ونباتها واكثر الشرقيين يحتالون على الثروة الموجودة في ايدي الناس

ليسلبوها بالغش والخداع ولذلك كانت ثروة الغربيين تزداد بالاجتهاد في العلم وثروة الشرقيين  
تنقص بالكسل والجهل .

(٦) تسهيل طرق المعيشة وتوفير اسباب الراحة باستخدام القوات الطبيعية مثل  
قوة الماء وقوة الهواء بدلاً من قوة الحيوان كما في ادارة الارحية بهما بدلاً من ادارتها  
بالايدي واستخدام البخار لتسيير القطر في البر بدلاً من الخيل والجمال والسفن في  
البحر بدلاً من الاشرعة وتسيير البرق لنقل الانباء الى اطراف المعمور في طرفة عين بواسطة  
الاسلاك المعدنية وبدونها بدلاً من البريد والسعاة . وانارة البيوت والشوارع بالاضواء  
اللوامع بدلاً من الشموع والسرچ وتسيير المركبات وتدوير الآلات والقيام بها اكثر  
الحاجات كالغسل والطحن والعجن والخبز والكنس وغير ذلك مما كان يعمل باليد أصبحت  
قوة الكهر بآء تعمله بدون مشقة وكل ذلك بفضل العلم . وزد على ذلك اختراع الآلات  
العديدة التي تخفف التعب وتوفر الوقت كآلة الخياطة وآلة النسيج وآلة الطبع وغيرها  
مما تضيق المجلدات عن وصفه . فالمطبعة تطبع في ساعة ما لا يستطيع الانسان ان يكتبه  
في شهر والمنسجة تنسج في يوم ما لا يقدر الانسان ان ينسجه في سنة وعلى ذلك فقس . وخلاصة  
ما يقال في هذا الشأن ان العلم يمكن الانسان من السفر الى اقصى الارض في ايام قليلة ومعرفة  
اخبار العالم في ساعات معدودة ومخاطبة من يشاء على امدالوف من الاميال في لحظة والحصول  
على الوف من الكتب باثمان زهيدة . وقدم له الجليدي ايام الحر الشديد والدفء في  
ايام البرد القارس وحمل اثقاله وسهل اعماله وراح جسده وافكاره وازال من سبيل  
سعاده اكثر العقبات وهون عليه في حياته اعظم الصعوبات .

(٧) الابهاج بايات الله في خلقه فان العلم بما في هذا الكون المحجيب من الآيات  
البيئات من ا كبر دواعي المسرات لانه يكسب صاحبه لذة عقلية تفوق كل لذة  
جسدية بمقدار ما يفوق العقل الجسد فاذا طاف عالم الحيوان والنبات الحقول او الغابات  
بسمت له الازهار ورحبت به الاشجار واظربت سمعه الاطيار لانه درس خصائصها وعرف  
طبائعها واذا رفع عالم الفلك بصره الى القبة الزرقاء في ليلة زهراء او رصد كواكبها  
او تأمل عجائبها شعر بلذة لا يعبر عنها بلسان ولا يشعر بها الا اولو العرفان وكذلك يهتز  
الشاعر طرباً لتفيس الاشعار ويترنم الموسيقي عجباً لنغمات الاوتار ويجد كل عالم او



متفنين في علمه او فنه سروراً عظيماً لا يقدر الجاهل ان يعرفه او يشعر به فحياة العالم سعيدة وايامه بهيجة اذ لا شيء يبهج القلب ويملاه حبوراً مثل العلم ولا صحة لقول بعضهم من زاد علماً زاد همماً لان زيادة العلم تزيد المسرة واللذة وذلك ثابت بالبديهية لانه كما ان النور يبهج البصر بكشفه المرئيات كذلك العلم يبهج القلب بكشفه الحقائق الثمينة للعقل فسكنا زادت المعرفة زادت اللذة .

(٨) رفع شأن الافراد والجماعات والامم فقد رفع العلم كثيرين من وهددة الهوان الي ذروة المجد فبعد ان كانوا خطابين او خزافين او صانعي احذية ارتقوا الي مراتب الوزراء او السفراء اوروراً ساء الجمهوريات . والامم التي عنيت بالعلم ورفعت الويته في بلادها بلغت اعلى ذرى العز والنعمة والنجاح والسيادة والتاريخ اكبر شاهد على ذلك فان مملكة الرومان لما كان العلم فيها مشرقاً اتسع نطاقها وعلا سوء ددها وخدمها السعد قروناً فمدت صولجانها على الخائفين ولكن لما انطفأت شعلة العلم فيها تمزقت شذر مذر وكذلك جرى للملك السالفة وللدول العربية فانها لما عنيت بالعلم سادت وشادت وبلغت . من المجد ما ارادت ولما اهملته انحط شأنها وتهدم عمرانها . والدول العظمى في عصرنا الحاضر لم تبلغ ما بلغته من العز والقوة والجاه والسطوة الا بفضل العلم وحسبنا اثباتاً لهذه القضية ما نراه من البون الشاسع الاذي بين اليابان والصين وهما في بلاد الشرق الاقصى فان الصين على اتساع ارضها وكثرة عدد سكانها ليس لها شأن يذكر بين الدول المعظمة . واليابان على ضيق ارضها وقلة عدد سكانها لا تقل شأناً عن دول اوربية العظمى وكفاها فخراً انها غلبت اعظم الدول الغربية واكبرها جيشاً وماسر غلبتها الا العلم فلا تطمع أمة او مملكة في العز والصولة والمجد والعظمة والسيادة والقوة مادام الجهل ضارباً اظنابه فيها وذلك من البديهييات التي لا ريب فيها عند العقلاء . قال زوج الملكة فكتوريا في احدى خطبه حين كان رئيساً للمجمع العلمي البريطاني « ينبغي ان يزيد الثنات الدولة الى العلم كاترجو وستجد فيه عنصراً جوهرياً من عناصر قوتها ونجاحها » . وقال الفيلسوف جول سيمون « ان الامة التي تعلم بنيتها التعليم الاكثر تصير العظمى بين الامم ان لم يكن في اليوم في الغد » . وقال واشنطون في خطابه الوداعي لبلاده « أحلوا اهل المراكز العلمية المحل الاول فان الحكومة التي تقصد الاعتماد على رعاياها يجب ان

تهذب عقولهم قبل ذلك» . وقد حفظ الامير كيون هذه الوصية واهتموا بنشر العلم اهتماماً عظيماً وانفقوا في هذا السبيل الاموال الطائلة حتى ان الحكومة وقفت على ترقية العلوم في الولايات المتحدة مئة وخمسين الف الف فدان من اراضيها الزراعية وكذلك اهتمت دول اوربة بترقية المعارف في بلادها وانفقت قناطر من الذهب على المدارس والجامع العلمية والمكاتب العامة لتيقنها ان العلم هو الدمامة الكبرى في بناء الممالك والسلام الوحيدة الموصلة الى ذرى الجهد والعظمة فلا غنى عنه في السياسة كما انه لا غنى عنه في الزراعة والصناعة والتجارة . هذه هي خلاصة منافع العلم ذكرتها بالايجاز ولو شئت الاسهب لما استطعت الى ذلك سبيلاً لانه يستغرق السنين الطوال ويملاً المجلدات الضخمة . وهنا يجدر بنا ان نسأل ماذا كان نصيبنا من تلك المنافع واي اختراع او اكتشاف مفيد ينسب الينا في هذا العصر ؟ ان لاديسون الاميركي الذي لا يزال حياً يرزق نحو النفي اختراع مفيد غير بها حالة المجتمع البشري ورقى شؤون العالم العمرانية وهو رجل واحد فهل اخترع اهل بلادنا اختراعاً واحداً كلهم وهم يعدون بالوف الاولوف ؟ أليس البشر كلهم من طينة واحدة فلماذا نرى هذا الفرق العظيم بيننا وبين الغربين العلمهم اشرف من اصولاً ام اسمى عقولاً ام اصفي اذهاناً ام اقوى ابداناً ام اعز نفوساً ام اكبر رؤوساً !! لا لعمرى فقد اثبت الاختبار ان السوري اذا توفرت له وسائل الارتقاء وجال في ميدان العلم جارى غيره ولم يقصر عنه وبعض السور بين الذين دخلوا جامعات اوربة واميركة سبقوا رفقاءهم من ابناء الغرب وامتازوا عليهم بالتحصيـل فنحن لا ينقصنا الا الاجتهاد والاتحاد والثبات . اننا لا ننكر ان حاجتنا العلمية اليوم احسن مما كانت عليه منذ مئة سنة وذلك بفضل الحكومة السابقة والحكومة الحاضرة والبعثات الاجنبية . فبعد ان كان ظلام الجهل مخجماً في ربوعنا حتى انه لم يكن فيها من يعرف القراءة والكتابة الا افراد يعدون على الاصابع كانوا يتيمون عجباً بتلك المعرفة القليلة ويمشون في الارض مرحاً زاعمين انهم وسعوا كل شيء علماء وبعدان كانت بلادنا خالية من المدارس العالية والمطابع والصحف السياسية والمجلات العلمية بزغت فيها انوار العلم فتشيدت المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية وطبسية وتجارية وصناعية وحقوقية تخرج منها كثيرون من شبان البلاد النجباء فشغلوا احسن

المناصب في سورية ومصر وغيرها وانشئت الصحف والمجلات وظهر في هذا القطر  
 الكتاب والخطباء والصيدلة والاطباء والحامون والمعلمون والمهندسون كما يشهد هذا  
 المخفل الخافل . ولكن اين نحن من الغربيين الذين جاؤا بالعجب العجيب وحيروا باعمالهم  
 الالباب فجعلوا البر بجرأً والبحر برأً وذلك بفتح الترع كترعة السويس وترعة بناما العجيبة  
 وانشاء المرافئ كمرافئ بيروت ومرافئ نيويورك وكثير غيرها ومشوا على وجه الماء وغاصوا  
 في لجج الدأماء وركبوا على مناكب الهواء بالمناطيد والطيارات وساحوا بين كواكب  
 السماء بالمرصد والنظارات وقاسوا ما بينها من الابعاد بادق الآلات وصنعوا من  
 الادوات الحديدية المختلفة الاشكال والحجوم ما يفوق الحصر ويدهش العقل من  
 آلات الساعة الدقيقة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة الى القاطرة البخارية التي تجر  
 وراءها سلسلة مركبات ضخمة لا يدرك الطرف آخرها الى الجسر العظيم العجيب كجسر  
 بروكلين الذي تجري عليه القطر وتسير من تحته السفن . قيل ان بناء هذا الجسر شغل  
 نحو ثلاث عشرة سنة ونفقته بلغت ثلاثة آلاف ليرة انكليزية وهو من اسلاك  
 قوة كل منها اثنا عشر الف وسق وعليه طريقان حديديتان وطريقان للترامواي  
 وطريقان للمركبات الخيلية وطريق للمشاة عرضها ثلاث عشرة قدماً فهو من غرائب  
 المصنوعات البشرية . وقد فتحوا الاتفاق الطويلة في الجبال وتحت الانهار والبحار  
 لتسيير مركبات البخار وبنوا الخزانات الكبيرة لحفظ المياه الغزيرة والانتفاع بها وقت  
 الحاجة . وحيلة القول انهم ذكوا الاطواد وانطقوا الجماد وعمروا البلاد ورقوا العباد  
 بل جعلوا الصم يسمعون والعمي يبصرون والموتى يتكلمون فابن نحن منهم بل اين نحن  
 من اسلافنا العرب الذين وثقوا اسباب الحضارة في جميع الاقطار وخفقت اعلام مجدهم  
 على كل الامصار فقد الفوا وصنفوا واستنبطوا واكتشفوا وضربوا في مناكب الارض  
 بحثاً عما ودعتها الطبيعة من الآثار وتطلعوا الى آفاق السماء طلباً لمعرفة ما فيها من  
 الاسرار وكانت عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة ونمو الزراعة  
 ما لا يتسع المجال لذكره في هذه المحاضرة المختصرة . ويكفي ان أقول ان العلم كان  
 مصاحباً لجنودهم في كل بلاد افتتحوها حتى امتدت حضارتهم من أطراف آسية الى  
 أقاصي أفريقية وقلب اوربة . فلم لم نتشبه بهم في طلب العلم ونشره ! ولم نرض

بالتأخر عن مجارة الامم الغربية الراقية في سلم التمدن الصحيح والتهذيب الكامل وما هي أسباب عدم رواج العلم في بلادنا يا تري ؟ لا ريب ان لذلك اسباباً كثيرة أخصها ما يأتي :

أ - اعتقاد أكثر القوم عندنا ان العلم غير ضروري لكل الناس وانما هو ضروري للذين يريدون ان يشتغلوا به لا كتساب الرزق فقط كما سأتبذ المدارس والكتتاب والمنشئين والاطباء والمحامين وغيرهم من أرباب الصناعات العلمية اما التجار والصناع والزراع وسائر العامة فهم في غنى عنه لانهم يستطيعون ان يكتسبوا الرزق بدونهم . وهذا الاعتقاد خطأ عظيم لان العلم ضروري لكل فرد من أفراد الامة كبيراً كان أم صغيراً اذ يحتاج اليه الصعوك كالمملك والفقير كالغني والمرأة كالرجل فلا احد يستغني عنه . قال عبدالمملك بن مروان لبنيه « يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقمتم وان كنتم وسطاً سدمتم وان كنتم سوقة عشمتم » . وقال بعض البلغاء « تعلم العلم فانه يقومك صغيراً ويقدمك كبيراً ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوّم عوجك وميالك ويصح همتك واملك » . وقال مصعب بن الزبير « تعلم العلم فان يكن لك مال كان جمالاً وان لم يكن لك مال كان لك مالا » . وقال بعضهم اذا اراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم والمملك في علمائهم لان العلم عصمة الملوك فهو يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدّهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية . واخلاصة ان البشر كاهم على اختلاف طبقاتهم واحوالهم واطوارهم منفقرون الى العلم فارباب السياسة يحتاجون الى معرفة التاريخ وفلسفة الاجتماع وحقوق الدول وسائر العلوم العمرانية ليستطيعوا ان يسنوا الشرائع العادلة الكافلة بسعادة الامة وينفذوها بالعدل والنزاهة والعفة .

وارباب التجارة يحتاجون الى معرفة علم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي وعلم مسك المدفاتر وسائر العلوم التجارية ليستطيعوا ان ينجحوا في تجاراتهم نجاحاً تاماً .

واهل الصناعة ينفقرون الى معرفة الرياضيات والطبيعات لكي يتمكنوا من اتقان صناعاتهم والنفنن فيها حسب الحاجة . والزراع يلزمهم ان يدرسوا العلوم الزراعية لكي يعرفوا خواص الاتربة وطرق الحراثة والتسميد واساليب الري وانواع الزرع والغرس والتطعيم والتلقيح وتربية المواشي وغير ذلك مما لا بد منه لتحسين الزراعة وتوفير الغلال

والنساء يفتقرن الى علم التربية وعلم التمريض وعلم تدبير المنزل لكي يستطعن ان يربين اولادهن تربية صالحة ويخدمهم في اوقات المرض الخدمة النافعة ويدبرن بيوتهن التدبير الكافل براحة ازواجهن وسعادتهم . والرجال بالاجمال محتاجون الى العلم ليعرفوا ما يجب عليهم لازواجهم واولادهم ووطنهم وحكومتهم ويقوموا بواجباتهم كلها حق القيام فاذا نالت الامة كلها نصيباً وافراً من العلم صلحت اعمالها وحسنت احوالها واعتزت حكومتها وارثق وطنها الى اسمي درجات العمران . فلا احد يسئني عن العلم بوجه من الوجوه لانه حياة الافراد والجماعات والشعوب . ولا ينكر هذه الحقيقة الا الذين اعشى الجهل بصائرهم ولم يفهموا معنى الآية الكريمة « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

٢ — زعم فريق كبير من الناس انه لا فائدة من العلم بدون مال وان المال هو الغاية التي يجب على الانسان ان يسعى لها لانه قاضي الحاجات ورافع الدرجات فهو يعني عن العلم وعن كل شيء وعلى ذلك قول بعضهم :

ان الدرهم في المواضع كلها      تكسو الرجال مهابةً وجلالا  
فهي اللسان لمن اراد فصاحةً      وهي السلاح لمن اراد قتالا  
وقول الآخر :

فصاحة سبحان وخط ابن مقلة      وحكمة لقمان وزهد ابن ادم  
اذا جمعت في المرء والمرء مفلس      ونودي عليه لا يباع بدرهم

وهذا الزعم ضلال مبين واقوال الشعراء بهذا المعنى مخرفة وتضليل . والحق ان العلم هو الذي يرفع شأن الامة لا المال . قال علي بن ابي طالب : « العلم خير من المال . العلم يحرسك وانت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه » .

لا احد ينكر ان المال قوة عظيمة اذا كان بيد من يحسن استعماله ولكنه لا يرفع شأن الجاهل فالجاهل حقير وان كان غنياً والعالم شريف وان كان فقيراً . ومما يؤيد ذلك اننا اذا نظرنا في العلم منفرداً رأيناه خيراً محضاً لانه علة الاتحاد والالفة والتعاون والبناصر . واذا نظرنا في الغني منفرداً وجدناه شراً محضاً لانه داعية الجري في ميدان الشهوات المحرمة والنفار والنفريق بين الاهل والاصدقاء . واذا نظرنا في العلم مقترناً بالغني رأينا

المال خادماً للعلم نافعاً به فالغني العالم منهلٌ عذبٌ وشجرةٌ مثمرةٌ والغني الجاهل بلية عظيمة واضراره للناس جسيمة وكفى بما قدمناه دليلاً على ان العلم خير من المال و ينبغي ان يكون غاية لا واسطة بل هو أشرف الغايات عند العقلاء ولو كرهه الجهلاء .

٣ — توهم بعضهم ان العلم كله يقوم بمعرفة القراءة والكتابة وبعض قواعد الصرف والنحو وأعمال الحساب الاولى وحفظ بضع قصائد وحكم فاذا تبسرت هذه المعرفة لاحد الناس لقب نفسه بالعالم وادعى التفوق على غيره وطلب التصدر في المجالس وطالب الامة باكرامه وتعظيمه واحقر العلماء الكبار واستخف بالعلوم الحديثة التي يتوقف عليها عمران البلاد ونجاح العباد وانكر الحقائق العلمية الثابتة بالادلة الراهنة كدوران الارض حول الشمس وحاول البرهنة على انها ساكنة غير متحركة او انها مستقرة على قرن الثور وكل ذلك من الاغلاط الفاضحة لان معرفة الاشياء المذكورة وان كانت ضرورية ونافعة ليست الا جزءاً صغيراً من العلم فلا تغني عن غيرها من المعارف المفيدة ولا تكفي لتسمية صاحبها عالماً ولا تحجر عقله من الخرافات ولا تعرفه قدر نفسه وانما العالم الحقيقي من نضلع من العلم على اختلاف انواعه الطبيعية والرياضية والتاريخية وغيرها وعرف على الاقل نظام الارض وخواص تربتها ومعادنها وترتيب بلدانها واصناف سكانها وحواصل اقاليمها وعجائب حيوانها وتركيب مائها وسنن هوائها وتواريخ اجيالها القديمة وممالكها العظيمة وعرف مع كل ذلك قدر نفسه ولم يستكبر على ابناؤجنسه . فمعنى العلم عند المحققين أوسع مما يتوهمه المدعين وما أحسن قول الشاعر :

قولوا لمن يدعي علماً ومعرفةً عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء

٤ — ادعاء شرذمة من الناس ان العلم يناقض الدين ولذلك رفض بعض البسطاء من اهل الدين حقائق العلم خوفاً على دينهم من الفساد واحقر بعض المشتغلين بالعلم حقائق الدين ظناً منهم انها تخالف العلم . وكلا الفريقين مخطئان لان العلم الصحيح لا يمكن ان يناقض الدين القويم وانما هما حليفان كل منهما يؤيد الآخر ويخدمه ولي على اثبات ذلك أدلة . الاول انه لو كان العلم والدين تقيضين للزم عن ثبوت احدهما بطلان الآخر ولكن كلاهما ثابت بالادلة القاطعة الجلية فلا تناقض بينهما لان مضدرها واحد فالدين وحي الله على محيا الشريعة والعلم وحي الله على صفحات الطبيعة . وبين الدين

والعلم رابط شديد وهو الايمان وهذا مما يسنغر به السامع لاول وهلة لان الشائع بين القوم ان الايمان مخلص بالدين والحق انه من لوازم العلم ايضاً فكما يؤمن اهل الدين بالحقائق الروحية ويسيروا في حياتهم الدينية بقوة الايمان فيعملون خيرا الاعمال وأعمال الخير كذلك يؤمن اهل العلم بالحقائق الطبيعية ويسيروا في حياتهم العلمية بقوة الايمان فيحيثون بعجائب المخترعات وغرائب المكتشفات . فالايان من أعظم قوى العالمين وبه تم كل شيء نافع في عالم العلم وعالم الدين وهو بينهما رباط متين .

الثاني : انه لو كان العلم مناقضاً للدين لزم عن ذلك ان كل عالم كافر وكل دين جاهل وهو خلاف الواقع لان كثيرين من اهل العلم متدينون وكثيرين من اهل الجهل كفرون . بل ان الذين يتمسكون بالدين حق التمسك هم العلماء لا الجهلاء وما أحسن قول القرآن الكريم : « انما يحشى الله من عباده العلماء » . وحسبنا تبتاً لذلك ان نذكر بعض المتدينين من اهل العلم المتقدمين والمتأخرين . فمن المتقدمين ابو جعفر المنصور الذي كان مع كلفه بعلم الفلسفة وعلم النجوم متديناً بارعاً في علم الفقه . وهرون الرشيد الذي امر ان تبنى بجانب كل جامع مدرسة ليسير الدين والعلم معاً لانه كان يعتقد انها حليفان لا نقيضان . والمأمون الذي كان أعظم الخلفاء واعلمهم وكان عارفاً من اللغات اليونانية والعبرية والهندية والفارسية فضلاً عن تجره في الفلسفة وعلم الفلك ومع ذلك كان نقيماً ورعاً . وابن سينا الذي اشتهر بالعلم الطبيعي وعلم الطب وغيره وكان له نحو مئة تصنيف كان ايضاً مشهوراً بالعلم الاولي والتمسك بدينه . ونفر الدين الرازي عبدالله المعروف بابن الخطيب الذي فاق اهل زمانه في علم الاوائل والمعقولات وكان له عدة تصانيف كان ايضاً اماماً في علم الكلام نقيماً متعبداً . ومن المتأخرين فيلسوف الانكيز العظيم اسحق نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية والعلامة الاميركي المشهور بعلم طبقات الارض الدكتور دوسن . والناطقة الاميركي الذي خدم سوربة سنين عديدة بالتطبيب والتدريس والتأليف العلامة فانديك . فان كل هؤلاء وكثيرين غيرهم من وطنيين وأجانب كانوا من فحول العلماء وكبار الانقياء . والعالم اليوم مملوء بالرجال الذين يعدون بالوف الالوف وكلهم من العلماء المتدينين فليس كل عالم كافراً ولا كل دين جاهلاً ولا تناقض بين العلم والدين . فان قيل ان كثيرين من العلماء مرقوا من الدين

قلت ان مروقهم لم ينشأ عن العلم بل عن فساد قلوبهم وخبث نفوسهم الامارة بالسوء  
وما كان العلم الا كاشفاً لذلك المروق لاسبابها وعدم التناقض بين العلم والدين  
لا يستلزم ان يكون كل عالم ديناً كما ان عدم التناقض بين العلم والغنى لا يستلزم ان  
يكون كل عالم غنياً وكفى بذلك دليلاً لمن يريد الاذعان للحق .

الثالث : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان المرء كما تبجر في العلم توغل  
في الكفر وهو خلاف الحقيقة لان الاختبار اثبت لنا ان المتدين كما تبجر في العلم زاد  
تديناً اذ ان العلم يعينه على كشف أسرار الكون وكما كشف منها سرّاً تقرب من رب  
الاسرار وعالم الخفايا جل جلاله كراقي سلم قصر شاهق كما صعد درجة تقرب من المقيم  
بالعلى غرفة فيه . وقد شهد العلماء الانقياء ان العلم لم يزدحم الا ايماناً بخالق الاكوان  
لانهم قرأوا آياته البينات في كتاب الطبيعة كما قرأوها في كتاب الشريعة . وهم الذين  
اثبتوا وجوده تعالى وجلوا آيات كونه ورفعوا اعلام عظمتهم ومزقوا حجب الظلمات عن  
محيا حكيمته وقدرته وجودته . منهم العلامة كلفين احد أعيان الانكليز المتوفى سنة ١٩٠٧  
الذي اشتهرت مباحثه الكبر بائية في الاقطار وجاء بالبدع العجيبة في معرفة اعماق البحار  
وقد نسب اليه العلماء اعظم المسائل المتعلقة بالجوهر الفرد والاثير وغيرها فهذا الرجل الجليل  
الذي فاق اقرانه في المباحث العلمية لم يكتب بكشف الاسرار المادية بل أخذ يبحث في  
المغفولات والمشائية والاختيار والعواطف والانفعالات والقوة والعقل والعلة العاملة وامثال  
ذلك من الموضوعات العقلية وأثبت في كل من تلك المباحث آيات القصد والحكمة في  
العالمين ومما قاله في ذلك « ان الاشياء كانت اما بالانفاق ( الصدفة ) واما بالضرورة  
واما بالقصد وكل من الاول والثاني باطل . اما الاول فلانه يقتضي كون معلول بلا  
علة . واما الثاني فيقتضي ان الاشياء على ما هي عليه الآن كانت كذلك منذ الازل .  
والواقع خلاف ذلك على ما ثبت في مباحث التكوين فكيف توزعت عناصر العالمين على  
نسبتها المعلومة ولما ذا كان الذهب أقل من الحديد والحديد من الصلصال . وكيف  
استنسبت الكرة الارضية في خواص موادها وصفاتها ومقدارها وتوزعها على مقتضى  
حاجة الاحياء وانتشارها ونموها وكيف نشأت الحياة في الجماد ؟ ما ذلك الا لان كل  
حي قائم بعناية خالق حكيم ضابط الكل فالعالم مخلوق فثبت الخالق » .



وهذا من الأدلة العلمية التي لا يسع الكفرة انكارها فالعلم الحق لا يتنافى الدين الحق ولا ينفيه بل يثبت به ويؤيده ويقويه . واما الذين كفروا بالله وآياته فقد كان كفرهم لقلة علمهم قبل ان يقفوا على بينات الدين فلما تعمقوا في العلوم اشتغلوا بهادون غيرها فتمكن منهم الكفر الى حد لم يستطيعوا عنده الرجوع عنه ولوعرفوا ضرره فمثلهم مثل الذي أدمن المسكرات حتى صار شربها من طبعه واخلاقه فيستمر عليها ولا يزج عنها مع معرفته ضررها . وجملة القول ان التعمق في العلم يزيد المؤمن ايمانا والكافر كفرا . فلا تناقض بين العلم والدين بل هما حليفان ولو كره الكافرون . ومما يؤيد ذلك ان كلا منهما نافع للاخر فالعلم افاد الدين بانه ازال عنه كثيراً من البدع والخرافات التي شوهت محاسنه واثبت كثيراً من حقائقه بالاكتشافات المتعددة . والدين افاد العلم بتشبيد معاهده ونشر كتبه ورفع اعلامه باموال المتدينين كما تشهد المدارس القديمة في دمشق وغيرها من البلاد العربية فان الدين اسسوها ووقفوا عليها الاراضي والابنية كانوا من اهل الدين . والمدارس التي اسستها البعثات الاجنبية في انحاء الارض المختلفة انما تأسست باموال المحسنين من اهل الدين ايضاً . فالعلم والدين كانا ولا يزالان حليفين ينصر احدهما الآخر ويؤيده لا يناقضه ولا يفسده فالاسباب التي يتورك عليها المستحقون بالعلم والخائفون منه كلها باطلة والتجج التي يوردونها كلها فاسدة . واذ قد ثبت ان العلم من مقومات الحياة العقلية والادبية والاجتماعية والسياسية ووضحت فوائده المعنوية والمادية ومكانه من الجامعة الانسانية ان تقدم الان الى بيان الواجب المفروض على الطلاب والعلماء والوالدين والحكومة والامة كافة في هذا الشأن . فاقول على طلاب العلم ان يدخلوا بيوتهم من ابوابها ويأخذوا فروعه من اربابها ويجهدوا في الدرس والمطالعة والتأمل والمراجعة ويواظبوا على كل ذلك بلا ملال ويحترزوا من الكسل والاهمال متذكرين قول من قال :

ومن طلب العلوم بغير درس سيدر كما متى شاب الغراب  
وعليهم ان يفهموا ما يقرأونه لئلا يكونوا كالبعغاء ويحفظوا ما يفهمونه لان العلم في  
الصدور لافي السطور . والعرب تقول حرف في قلبك ولا الف في كتبك وما احسن  
قول الشافعي :

علي معي حيثما نمت ينفعني صدري وعاء له لا بطن صندوقي  
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي او كنت في السوق كان العلم في السوق  
وعليهم ان لا يقتصروا على نوع واحد من العلم بل يشاركون في فروع كثيرة منه . قال  
يحيى بن خالد لابنه : « عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو لما جهل وانا اكره ان  
تكون عدواً لشيء من العلم » وقال الشاعر :

ما حوى العلم جميعاً احد لا ولو مارسه الف سنة

انما العلم بعيد غوره فخذوا من كل علم احسنه

ويجب عليهم ايضاً ان يعاشروا العلماء ويذاكروهم في المسائل العلمية ويستفيدوا  
من اختباراتهم الكثيرة » قال الشاعر :

واطل في العلم مذاكرة فحياة العلم مذاكرته

ويحسن بهم ان يدونوا ما يسمعون من الفوائد لان الانسان عرضة للنسيان ويثابروا  
على ذلك الى نهاية الحياة مدللين بكل عقبة في سبيلهم وغالبين كل صعوبة تثبط عزائمهم  
وغير معتذرين بضيق الوقت او كبر السن فان الانسان يقدر ان يجتهد وقتاً كافياً للتعلم  
اذا اراد ان يجتهد وقتاً كافياً للملاهي المضرة او البطالة والراحة او التلذذ بشباع الشهوات  
ولا احد يكبر عن العلم ولو بلغ الثمانين من سنه . قيل ان فكتور يا ملكة الانكليز  
شرعت في درس اللغة الهندية وهي في الثالثة والثمانين من عمرها . ومئات من العلماء المشهورين  
لم يشرعوا في تحصيل العلم الا بعد ان تجاوزوا العشرين او الثلاثين او الاربعين من  
اعمارهم كما بي بكر الرازي فقد قيل انه لما شرع في تعلم الطب كان قد تجاوز اربعين سنة من  
العمر . ومنهم من درسوا العلوم وهم في المعامل او المتاجر او المزارع لعدم تمكنهم من  
تحصيلها في المدارس ايام الحداثة . وكل من جدّ وجد فلا شيء يمنع المجتهد من اكتساب  
العلم مهما حال دونه من العقبات . ويجب على العلماء ان يكونوا عاملين بعلمهم باذلين  
جهدهم في زيادته ونشره ورفع لوائه وتعزيز منزلته لانهم كلما رافى التي تعكس النور فان لم  
يفيدوا غيرهم او استفيدوا منه كان عليهم عقياً . والعالم الحقيقي من لا يجمل بالافادة  
ولا يستنكف من الاستفادة . وعليهم ان ينهضوا الهم الوانية ويقودوا العزائم الواهية  
ويدعو الناس الى ورود مناهل العرفان ويحببوا اليهم السير في مناهج الفضيلة ويبينوا

لهم مزايا العلم الحميدة ومنافعه العديدة ويجذروا العجب والكبرياء ويحذروا التملق والرياء فان ذلك ينافي الفضل ويدل على الجهل . قال الامام عمر بن الخطاب « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

ويجب على الوالدين ان يعننوا بنثقيف عقول اولادهم وتهذيب اخلاقهم كما يعننون بتربية اجسادهم ويختاروا لهم افضل المعلمين المقتدرين الامناء المعروفين بطهارة السيرة ويضعوهم في ارقى المدارس التي تُنفخ في تلاميذها روح الرجولية وتلقنهم المبادئ الشريفة التي تؤهلهم للحياة النافعة الصالحة . ومن قصر في ذلك كان قاتلاً بل شراً من القاتل لان قتل العقل افظع واضر بالاجتماع من قتل الجسد ولان يهلك الرجل ولده بالسيف اخف جرماً من ان يميت عقله بالجهل فيكون شر الظالمين السفاكين .

ويجب على الحكومة وهي المقامة لصيانة الوطن واعلاء شأنه وتنظيم احوال الامة بتوفير اسباب الراحة وتمهيد سبل السعادة ان تعنى عناية عظيمة بنشر العلم الصحيح في كل بلد وقرية بين الذكور والاناث لان الامة لا تحيا سعيدة ولا تجاري الامم المتقدمة الا بانتشار المعارف فيها وتمزق غياهب الجهل عنها . ولا بد للوصول الى ذلك من اتفاق الاموال الطائلة لزيادة عدد المدارس الابتدائية بحيث يتسنى لكل ولد ان يجد مدرسة قريبة منه ليتلقى العلم فيها . وحينئذ يتمكن الحكومة من جعل التعليم الزامياً مجاناً فلا يمر وقت طويل حتى يصبح افراد الشعب كلهم متعلمين . وجميع ما يتفق من الاموال في هذا السبيل يعود على الدولة بالربح الجزيل لانها تعد بذلك خير الرجال الذين يعززون شأنها ويشيدون بنيانها . وقد عرفت الحكومات الغربية هذه الحقيقة فخصت مبلغ طائلة من دخلها للاتفاق في سبيل العلم والتعليم . فحكومة الولايات المتحدة انفق نحو عشرين الف الف ريال في السنة على مدارسها وقد ضمت الى دواوين الزراعة والمساحة اكبر علماءها وقطعت لهم الرواتب الطائلة . وحكومة فرانسه انفق على التعليم اكثر من الف الف دينار في السنة . وحكومة انكلترة تبذل في سبيل المعارف نحو خمس نفقاتها كلها ومثلها حكومة بلجيكة وامتازت حكومة سويسره باتفاقها نحو ثلث دخلها في هذا السبيل . وفي ما ذكر كفاية لبيان اهتمام دول الغرب بنشر المعارف بين رعاياها وهي تعضد

كل مشروع علمي كالمدراس الاهلية والاندية الادبية والجامع اللغوية وغرف  
 القراءة ونشيط المؤلفين واصحاب المجلات وغيرهم من ذوي الاقلام وتكافئهم بالعطايا  
 الجزيلة لانها تحسب ذلك من افضل الذرائع الى نشر العلم والآداب في الاوطان ومن  
 امن الدعائم التي بنى عليها العمران . وقد حذت حكومتنا الرشيدة حذو الحكومات  
 الراقية في الاهتمام بنشر المعارف في هذه الربوع على قدر ما مكنتها الاحوال فاستحقت  
 الثناء الطيب . الا ان البلاد لاتزال في حاجة شديدة الى زيادة عدد المدارس الكفيلة  
 بتعميم العلم بين الشعب وانهاضه الى مساواة الشعوب الغربية ولا ريب في ان الحكومة  
 الحاضرة ستبذل جهدها في سد هذه الثلمة في القريب العاجل بمهنة تعالى وحسن توفيقه .  
 اما الامة فيجب عليها ان تستيقظ من غفلتها ونهض من كبوتها وثيقن انه لاجل  
 لها الا بالعلم وان العلم لا ينال الا بالاجتهاد والمثابرة والسخاء فلا يجوز للشعب ان  
 يتكاسل في هذا الامر الخطير ولا ان يتوقع من الحكومة ان تقوم وحدها باعباء هذا  
 العمل العظيم بل يجب على الافراد والجماعات ان يعاونوا الحكومة على بث المعارف  
 بتأليف الجمعيات العلمية وتأسيس المدارس الاهلية والاندية الادبية التي تنور الازهان  
 ونشر العرفان . وعلى الاغنياء خصوصاً ان يبذلوا شيئاً من اموالهم لمعاودة المشروعات  
 التي تنفع الاوطان وتضمن لها النجاح وعلو الشأن ذلك خير من بذل اموالهم في سبيل  
 التمتع بلذاتهم او كنزها في الصناديق الحديدية او المصارف التجارية بحيث لا ينفع بها  
 احد في حياتهم بل يستولي عليها الورثة بعد مماتهم وربما بذروها في ارتكاب المعاصي  
 او خزنوها كما فعل اسلافهم الذين ورثوها عنهم فلم ينفعوا هم بها ولا نفعوا غيرهم . ان  
 بعض الاغنياء في بلادنا قد شعروا بوجوب الانفاق في سبيل العلم ومدوا ايديهم الى  
 مساعدة المشروعات العلمية والاعمال الخيرية فاستحقوا الشكر ولكن باقي الاغنياء  
 لا يزالون مهملين هذا الواجب غافلين عنه وهم يباهون بايلام الولايم الفاخرة وركوب  
 الخيول المطهمة بينما يباهي اغنياء الغرب بوقف اموالهم الطائلة على انشاء المعاهد العلمية  
 ومعاودة الملاهي الخيرية ولا يقتصرون على معاونة اوطانهم بل يرسلون باموالهم الى  
 غير بلادهم لتأسيس المدارس الابتدائية والعالية والجامعة خدمة للانسانية كما تشهد  
 آثارهم في هذا القطر وغيره من اقطار الارض البعيدة والقريبة فتمت اغبياؤنا

بتأسيس مدرسة كلية في وطنهم تشبه انكيا الاميركية او الكلية اليسوعية في بيروت بل متى يهتمون بزيادة عدد المدارس الابتدائية الاهلية في البلدان التي لا يزال الوف من سكانها يجهدون القراءة والكتابة . ربما يعثرون بان ثروتهم قليلة بالنسبة الى ثروة اغنياء الغرب فلا يمكنهم ان يقوموا بمثل اعمالهم ولكن قلة ثروتهم لا تمنعهم من القيام بشيء من الاعمال النافعة لبلادهم والامة لا تطالبهم بما هو فوق طاقتهم بل نتوقع منهم ان يتعودوا البذل في سبيل العلم شيئاً فشيئاً الى ان يستطيعوا القيام بعمل كبير نافع وما ذلك عليهم بعسير . فيا ايها السوريون النجباء والاخوان الادباء اجيبوا نداء محب مخلص يدعوكم الى نشر العلوم والمعارف والآداب والفضائل في الوطن العزيز . وسيروا في سبيل التمدن الحقيقي بالمجد والنشاط والعزم والثبات تبلغوا ذروة النجاح . وثقوزوا بالخير والفلاح . والله المسؤول ان يوفقكم لكل سعي مشكور . وبعضكم في كل عمل مبرور . انه ولي الامر والتدبير . وهو على كل شيء قدير .

عصر التقرقر قد مضى واتاكم  
عصر بانوار التقدم ساطع  
فدعوا التواني وابذلوا مجهودكم  
في العلم ان العلم فيه منافع  
وابتوا المدارس والنشر والكتب التي  
ثمر النهي والفضل فيها يانع  
فالجهل ليل ماله من هازم  
الا صباح بالمعارف لامع

انيس سلوم



## الحقوق المدنية

### في العالم القديم ومنابعها الثابتة (١)

الحقوق المدنية عنصر من عناصر المدنية العامة للعالم القديم وحال ملازم له في اول ادوار التجمع البشري وقد اهتمت اليها فطرة الانسان قبل ان يعنى بامرها ماوقفنا عليه من الكتب السماوية . ولها منابع ثابتة مطردة عند جميع الامم لا تخرج عن ثلاثة بغد البچث والاسنقراء .

### اولها الحاجة

هذا الاصل كما انه من اصول الصناعة والتجارة وغيرهما فهو اصل من اصول الحقوق المدنية وهو اصل ثابت في كل زمان لما هو حاجي من الاحكام المدنية . ولذلك اقرته الشريعة الاسلامية . وقد اشتهر على السنة العموم ان الحاجة اصل الاختراع . ومن هذا الاصل استنبط الناس قديماً مبادلة العروض بالعروض ، ومما يستنبط منه حق الزواج لبقاء النوع الانساني وحق الطلاق لتحصيل الراحة من النزاع العائلي الدائم .

### ثانيها ارشاد الفطرة

ومحصل هذا الاصل انفاق آراء العالم كافة او اهل محيط بتمامه على الحكم باستحسان الامر الذي يكون وسيلة لتحصيل مقصد من مقاصد الحياة العامة وهو اصل يعم الحاجيات والكماليات من الحقوق والارنفاقات وقد استنبط منه قسمة المشترك . او المهايأة زماناً او مكاناً على الانتماع به قالوا ومن ذلك تورث الابن مال ابيه . وهذا الاصل هو الذي سمي بلسان الشريعة الاسلامية الاجماع وقد تخصص العمل به فيها بجمالة فقدان النص من الكتاب او السنة اللذين اعتبرهما الاصلين الاولين لانواع الشرائع والاحكام .

(١) المحاضرة التي القاها الشيخ سعيد مراد الغزي استاذ المجلة في المعهد الحقوقي

وذلك في ردهة المجمع العلمي في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٦١ م

## الثالث التجارب والممارسة

ومحصله ان الاجتماع البشري لما كان قديراً عليه من المعاملات الكمية ما لا يكون مبرماً مع عدم اتفاق الآراء والنظر على تعبين ما يقع ملائماً من صورها وكمياتها لم يروا مندوحة عند طلب الكمال عن الاخذ بآية صورة تحظر لاي محيط من صور تلك المعاملة التي يتصورها العقل وتطبيق اية كيفية يتمسكون من تطبيقها فيما بينهم لتحصيل المتصد الحيوي من تلك المعاملة ويغلب وجود هذا الاصل في المعاملات الاختيارية مثل الزكاة وانواع التجارات والوكالات والمزارعات .

وبعد ان تظهر ملائمة تلك الصور والكيفيات لمصلحة الفريقين المنفقين على ايجاد تلك المعاملة بينهما ويتضح انه لا ينشأ منها خلاف في الاغلب تعتبر في ذلك المحيط اصلاً من الاصول لما تدخله من المعاملات المدنية مقبولاً عند جمهورهم يرجعون اليه مرة في تقرير الحق وأخرى في تحصيله من وجب عليه لمن هو حق له .

وقد سمي هذا الاصل بلسان التشريع الاسلامي « العرف والعادة » وقد اقرته الشريعة الاسلامية عاملاً في غير المنصوص من الاحكام على ممر الايام وهو من اهم الاصول والقواعد للشرائع الزمنية في كل جيل من الاجيال وعصر من العصور .

## علاقة اصحاب الشرائع السماوية بالحقوق المدنية

مما تقدم يتكون بلا ريب سؤال ملخصه ماهي اذن علاقة الشرائع السماوية بالحقوق المدنية . والجواب عنه حسبما يتضح من اساليب الكتب السماوية المقدسة ان المقصد الاساسي من انزالها ومن ارسال الرسل العظام التي نشرت تعاليمها انما هو تربية النفوس بالاخلاق النافذة وتطوير الامم من سحيق الانحطاط الادبي الى ذروة الكمال العقلي ونقوية الروابط القلبية فيما بين البشر وسوقهم من طريق الرغبة وحب الخير الى ارفع الخصال وجعلهم يتركون المساوىء والقبايح باختيارهم بعداً عن اضرارها وعندئذ يستعدون لوضع ما يحتاجون اليه من نافع القوانين .

وقد اقتدر كل واحد من الشارحين على ان يطور بنفسه وتلامذته الملايين من

الناس في اقل من ربع قرن مع ان تطوير الامم باصول التربية العامة لا يمكن حصوله قطعاً في ثلاثة امثال هذه المدة كما قرر في علم الاجتماع .  
وهذه هي خاصة الشارعين المشتركة فيما بينهم التي لا يمكن ان يجارهم فيها احد سواهم من اكابر الفلاسفة واعاظم نوابغ الامم .

### الحقوق المدنية الشرقية وفي ضمنها العربية قبل الاسلام

مما تقدم علم انه لا بد لاية امة من ان تكون ذات حقوق مدنية حيث لا يمكنها الحياة الاجتماعية بدونها غير ان التفاضل بين الامم انما يقع في حسن انتخاب هذه الاصول وايضاً في ثمراتها حسب درجة الامة الاخلاقية وصحة احتياجها او فسادها وماوصلت اليه من درجة البعد عن الشر واحترام حقوق الافراد والجماعات عندما تريد ان تستخرج بارشاد فطرتها احكام القانون وحسب درجة ما اعتادته من احكام المعاملات في الحسن والتقيح .

ثم ان اول ما عرف فيما وصل اليه البحث والاكتشاف من الحقوق المدنية الشرقية شريعة حمورابي المسماة باسم الملك السادس من ملوك الدولة الاولى من دول بابل المؤسسة قبل الميلاد بالذات واربعائة وستين سنة والتي هي من اصل عربي عند اكثر المؤرخين فمن هذه الشريعة في حقوق الزواج ان كلاً من الرجل والمرأة انما يقترن بمن يساويه في الطبقة الاجتماعية لا بمن هو فوقه او انزل منه طبقة .  
وقد كان يقع نادراً اتخاذ السراري بطريق الملك غير انهم كانوا يستثنون من ذلك عبيد القصر الملوكي فيجوزون لهم التزوج ببنات الاحرار .

وكان زواجهم بعقد يكتب ويدون كما هو الحال في احدث الشرائع السماوية وعند ارقى الامم اليوم وكانت حقوق الزوجية عندهم متبادلة على نحو قريب مما هو معروف عن الشريعة الاسلامية ومن احكامهم عقوبة الزاني بالقتل ذبحاً ويستثنى من ذلك المرأة التي يغيب زوجها في الاسر ولا تجد من ينفق عليها فيسوغ لها ان تلجأ الى من تُغذيه زوجها فاذا عاد الزوج الاول كان احق بها وان اولدها الثاني اولاداً فهم له وكان الزوج يقدم مهوراً يسمى ثمن العروس والزوجة تحضر من بيت ابيها ايضاً وكلا المالين يحفظ للزوجة عند الزوج للحاجة .



ومن احكام هذه الشريعة ان الطلاق بيد الرجل فقط وحينما يستعمله يرجع مهر الزوجة اذا كان محفوظاً عنده ويطاقتها اما هي فيجب عليها تربية الاولاد في مقابل حصة معينة من كسب الاب فلا يحق له طلاقها في حال المرض بل يتزوج سواها ان اراد وتبقى نفقتها عليه طول حياتها .

ثم ان الزوجة اذا كانت متضررة من معاشره الزوج ترفع امرها للقاضي فينزعهما من الزوج جبراً اذا ظهر صدقها والا طرحت في الماء .

ثم انه يتشكل من الزواج في هذه الشريعة عقد كفالة متبادلة بين الزوجين في جميع الحقوق المدنية . ولا تفرق هذه الشريعة في الارث بين الذكر والانثى وللوالد ان يمتع من اولاده من وقع منه سبب معقول يوجب منعه من الميراث من ارثه ومن احكامها في المعاملات العامة تسعير الحكومة لتقيم السلع وتقدير اجور الصانع حتى من ذوي الحرف الرفيعة مثل الاطباء والحامين .

وكان عندهم عقود وصكوك للمعاملات العامة .

ثم مضت اعصار وادهار ما بين هذه الدولة صاحبة هذه الشريعة وبين عرب الحجاز الذين ظهر فيهم الشارع الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم وقد كانت حالتهم الحقوقية على درجة من الانشغال ارقى بكثير من حالتهم الاجتماعية العامة والادارية وقدور ثواعن هذه الدولة ومن بعدها من الدول الشرقية العربية كثيراً من قواعد الزواج والطلاق غير انهم ساء نظام الطلاق عندهم وصاروا يستعملونه مع عدم شدة الحاجة اليه بل اخترعوا الظهار والايلاء لقهر واعنات الزوجات وفشا عندهم تعدد الزوجات بداع وبدونه بسبب توالي الحروب ما بين قبائلهم وما نتج عنها من ازدياد عدد النساء على عدد الرجال في القبيلة الواحدة من سببا الحرب اما في قسم الحقوق المدنية العامة فقد كان نظامهم جيداً جداً لا يوجد له نظير عند دول الارض العظيمة في ذلك العهد مثل دولة الفرس والرومان .

ومن ذلك ان اصول القضاء عندهم كانت من اعدل ما يمكن في ذلك العصر وقد كانوا يأخذون عن منابع الحقوق الثلاثة المتقدمة ما يحتاجون اليه من الاحكام المدنية

بدن ان يدونوا شيئاً من تلك الاحكام الجزئية وطرق القضاء واثبات الحقوق انحصرت في قول شاعرهم : فان الحق مقطعه ثلاث شهود او يمين او جلاء وقد كان عندهم حكام في الاموال وآخرون في الدماء وحكام في النسب لاثبات من يكون من الابناء متولداً على غير عمود النسب واصول الزواج العامة وحكام في دعاوي التجاوز على العرض .

ومع ذلك فقد كانت حالتهم الادارية ونظام حياتهم الاجتماعي على درجة من البساطة بسبب قلة المقتنيات وضعف الصناعة والتجارة وانحصار الكسب في طرق بسيطة كقتيل من النسيج وتربية المواشي وما شاكلها .

### الحقوق المدنية عند الرومان من قبل القرن السادس الميلادي

« لاواسط القرن الحادي عشر »

اما الرومان اصحاب الملك الضخم والمالك الفسيحة فقد كانت الحقوق المدنية وفي جملتها دلائل القضاء عندهم على اتعس ما يمكن ان يتصوره الانسان . فقد اعتبروا من ادلة القضاء المصارعة ما بين شخصين قوبين من اخضاء المتداعين وامتحان الحق من الباطل في الدعاوي بالحديد المحمي في النار الذي كان يستعمل للاقرار بالجرائم مرة وبالقوق اخرى والطرح في الماء البارد في الشتاء حتى وبالصاب احياناً وهو ان يقف الشخص على هيئة الصليب ماداً يديه مدة معينة من الزمان لامتحان الصدق من الكذب في دعواه او التهمة او البراءة فيما يدعى عليه من الجرم كما بسطه المؤرخ الشهير موسهيم الجرمني في تاريخ الكنيسة .

ولايستراب في ان الرومان اخذوا ذلك عن برايرة افريقيا . وقد بقي القانون الروماني على هذه الحالة لم يتغير في اساسه تغيراً يذكر لاواسط القرن الحادي عشر الميلادي اي بعد ظهور الاسلام باربعة قرون ونصف .

### الحقوق المدنية في الاسلام ومنابعها الجديدة

سبق القول في ان البحث عن القوانين المدنية ليس لازماً من لوازم الشرائع السماوية ولا مطرداً من كافة الرسل العظام .

ومن الدواعي على انه اوحى للشارع العربي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جملة  
صالحة في الحقوق المدنية انه قد اكمل عمله الاساسي وبعد التطوير الاخلاقي للمحيط  
الذي ظهر فيه في الثلاثة عشر سنة التي اقامها بمكة بعد ما بعث رسولاً وعليه وجد  
عنده من الوقت متسع لان يعلم الناس اصولاً عامة في الحقوق المدنية كما فعل الكليم  
سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم لعين السبب .

غير ان ما اوضحه الشارع العربي من ذلك كان اغزر مادة واطول حياة بنسبة رقي  
الانسانية المطرد حسب سنة التدرج .

ومن الدواعي ايضاً ما كان عليه جيران محيطه الفرس والرومان من فساد النظام  
القضائي كما مر التنبيه على بعض ذلك . وعدم تمام استفادة العرب مما كانوا عليه من  
النظام القضائي بداعي فساد نظامهم الاجتماعي والادبي بما كان قد حمل اليهم عمرو بن  
لحى الخزاعي حاكم مقاطعة الحجاز قبل بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . بقرنين  
نقريباً من عادات وعقائد الهنود عندما توجه لطبريا مستطباً من مياهها المعدنية .

ثم ان الاسلام بعد ما نظر نظرة عامة للشرائع الماضية قبل ما وجده منها ملائماً  
للمصالح العامة من ذلك المضاربات والشركات والرهون وعقوبة الزناة وقتلة النفوس  
والبغاة وهذا النوع لا يحصر كثرة .

وعدل ما يصير نافعاً وصالحاً ببعض تعديل كالبهوعات والاجارات التي ادخل  
عليها من الشروط في المعقود عليه والعاقدين ما يضمن مصلحتيها ويرفع النزاع فيأينهما  
ومن هذا النوع القسم الاعظم من احكام الشريعة الاسلامية كما يتضح لمن احاط  
بفروعها ملماً بما كانت عليه حالة العالم القديم في هذا النوع من المعاملات كما انه ابطال  
ما هو مضر من الاحكام القديمة من ذلك ابطاله حكم تأييد الظهار والايلاء وابداله  
بايقاع الطلاق على المظاهر والمولى فيما لو بقي مصرأ على قوله ولم يرجع عنه واوجب عليه  
عند الرجوع كفارة غليظة يقصد منها الزجر عن الدخول في مثل هذا العمل  
والتجاسر عليه .

وشرع احكاماً جديدةً لاعهد للعالم القديم بها نافعة جداً مثل اللعان ما بين

الزوجين الذي عاقبته الفراق الدائم فيما بينها عندما يرمي الزوج زوجته بتهمة الفاحشة من دون ان يكون له على قوله دليل نفع به القناعة .

وقد كانت عرب الجاهلية تبرع في مثل هذه الحادثة للكهان يستطلعون رأيهم اعتماداً بان لهم صلته مع الملائة الاعلى في الوقوف على الحقائق العامة التي فقدت الاسباب الظاهرة للوقوف عليها .

وشرع الاخذ بالشفعة وحدود درجات الاهلية والمسؤولية في كافة انواع الحقوق وسائر اصناف الجرائم .

ووسع طرق القضاء ووضح اسبابه على وجه لم يعرف في شرائع العالم القديمه تفصيل ذلك والاحاطة به متمسرين وقف على المدونات الحقوقية الاسلامية وعرف ما كان عند العالم قبل الاسلام من ذلك .

ثم ان الاصول والمنايع الحقوقية في نظر الشريعة الاسلامية اربعة تندمج فيها الاصول الثلاثة العامة المتقدمة لكافة الامم وهذه الاصول هي الكتاب اي القرآن المجيد والسنة اي اقوال الرسول واعماله وتقريره ما يراه من عمل غيره ويعبر عن هذين الاصلين بالنص التشريعي وما في معناه .

والاجماع وهو عبارة عن اتفاق علماء الشرع الواقفين على اصوله على الحكم في الحادثة الغير الواضح حكمها بوجه خاص من النص التشريعي ويعبر عن هؤلاء العلماء ايضاً باهل الاجتهاد القادرين على استنباط احكام الحوادث الجزئية من المنايع العامة والمنبع الرابع القياس المختص الاستنادة منه بهؤلاء العلماء المتقدمين بيانهم في الاجماع ومن هذا يتضح ان الشريعة الاسلامية اثبتت اصولاً ثابتة للاحكام المدنية يمكن ان يستفاد منها كل ما يحتاج اليه في كل عصر كما ان نصوصها قد صرحت بمراعاة الاعراف والعادات في التشريع وبمباشرة الحاجات والمصالح المختلفة باختلاف العصور المتحددة بتجدد اطوار الحضارة والعمران .

الحقوق المدنية الرومانية من اواسط القرن الحادي عشر الميلادي للآن

في اوائل هذا القرن وجد عمربرت اي السلوفستر الثاني الافرنسي الذي جلس

كرمي ماري بطرس لغاية سنة ١٠٢٤ ميلادية وكان مع اخوان له من انصار العلم والحق معاً يتلقون سائر العلوم التي كان سوقها رائجاً في مدارس الاندلس الاسلامية وفي جملتها الفقه الاسلامي المأخوذ من منابعه الاربعة المتقدمة في العنوان قبل هذا بعد ان برعوا في اللغة العربية وكانوا يترجمون دروسهم الى لغتهم فبسبب ذلك وبسبب رداءة حالة القضاء عندهم كما تقدم الاشارة الى بعض ذلك في هذه المقالة .

وعليه فكروا في ان يتقلوا ما يلائمهم ويوافق محيطهم من احكام تلك الحقوق واتبعوا بضرورة ذلك ملوك الجهة الجنوبية من بلادهم .

وبعد ان اتفق رأيهم على ذلك بشرط عدم عزو المأخوذ عن الشرائع الاسلامية لمنبعه الاصلي خوفاً من نفرة العامة من المسيحيين الذين كانوا بواسطه رؤساء الدين ينفرون من كل شيء مصدره الاسلام مها كان حسناً وناقلاً فاجمعوا من اجل ذلك على تسمية ما يأخذونه عن الشريعة الاسلامية بتلك الحقوق (الشرائع الرومانية) او (القانون المدني) وان يعزوه لاجتهادات علماء الحقوق منهم بنتيجة البحث والدرس .

وهذه الحقيقة على هذا الوجه ثابتة من مصدرين احدهما مصدر شرقي اسلامي وهو ما يأتي :

قد جاء في مجموعة رسائل في شوارد المسائل للعالم الباحث المنقب مفضل بن رضى الاسفركاني ما نصه :

كتب ابو العباس الكركري من تلامذة بهمنيار وهذا تلميذ الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا في رسالته لمفتي مرو احمد بن عبد الله السرخسي في معنى كمال الفقه ان ابا الوليد محمد بن عبد الله بن خيره نقل في تعليقاته على النهاية شرح الهداية ان طلبه العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيراً بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصاً في المائة الرابعة والخامسة من الهجرة فقد برعوا في اللغة العربية منهم هربوت والبرت فانها طلبا مساعدة العلماء لابرار مقصدها وقد ساعدتها حتى دونوا الفقه كاملاً وحوروه الى ما يوافق بلادهم ولذلك ترى احكام القوانين والقضاء لا تزل رديئة وسيئة في العدو الشمالية من بلاد

الافرنج اه المقصود نقله من عبارة الاسفرنكاني من علماء الفرس المعبر عنهم بعلماء ماوراء النهر . والمصدر الثاني غربي وغير اسلامي وهو ما يأتي :  
قال العلامة المؤرخ الشهير موسيم الجرمني في تاريخ الكنيسة المترجم للعربية بمعرفة العالم هانزي جسب الاميركاني المطبوع في بيروت في كلامه عن القرن العاشر الميلادي مانصه : ان هيريت الفرنسي المعروف بين الاحبار الرومانين بسلفستر الثاني كان مديوناً على بعض معرفته ولا سيما الفلسفة والطب والتعليمات لكتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانه مضى الى اسبانيا في طلب العلم وكان تلميذ علماء العرب في قرطبة وسفلا ( اشبيلية ) وربما أثرت سفرته في الاوربيين المتشوقين للعلم وخاصة للطب والحساب والهندسة والفلسفة فكان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة في ان يقرأوا ويسمعوا علماء العرب الساكنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وتترجم كثير من كتبهم الى اللاتينية وذهب كثير من التلاميذ الى اسبانيا ليتعلموا رأساً من خطب علماء العرب . وحق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم اصل وينبوع كل معرفة من الطب والفلسفة والفلك والتعليمات التي بزغت في اوربا من القرن العاشر فصاعداً اه كلام المؤرخ حرفياً .

ولا يخفى ان علم القوانين هو من أهم التعليمات التي اشتهرت في اوربا في تلك الاوقات وان ما أخذوه من القوانين المدنية والاحكام القضائية هو عين ما لقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية للسبب الذي تقدم بيانه والذي يؤيد صحة هذا الاستنتاج البسيط الواضح من هذين المصدرين التدقيق في احوال وتطورات القانون الروماني الى ما قبل رحلة اولئك العلماء من الافرنج الى اسبانيا وذلك موضح قرناً بعد قرن في كتاب موسيم المحدث عنه وعدم تجوز العقل ما يلفقه بعض مؤرخي الافرنج من مسألة ظهور القانون الروماني فجأة بعد اختفائه مدة اربعة او خمسة قرون فانه من المحال ان تجهل أمة قانونها هذه المدة ثم يظهر فجأة على شكل لا يتفق مع القانون المعروف قديماً بوجه من الوجوه ولولم يدون في صحيفة واحدة فان ذلك لم يعرض لامة من أم الارض القانونية في الغرب والشرق مع ان الحاجة لتطبيق القانون على الحوادث المستمرة داعية لدوام معرفته والوقوف على احكامه . وان خلاصة ما لا يوجد سند تاريخي ثابت

يدل على وجود القانون الروماني على الوضع الموجود به الآن او قريب منه قبل رحلة سلفسترو ومن معه من الطلاب لمدارس اسبانيا .

ولا ينظر وجود مصدر من المصادر الافرنجية من صحة قولنا بان القانون الروماني أخذ من الفقه الاسلامي اُصرح مما تكلم به المؤرخ موسيهيم مع الجزم بانه ما كان من الممكن للاخذين التصريح الواضح بنسبة ما اخذوه لمصدره المأخوذ عنه لانه تقوم عليهم قيامة رؤساء الاكليروس الكبرى وتضطرهم ضوضاء الامة المنقادة اليهم للعدول عما يرونه من انفع الاعمال لبلادهم ومن اكبر الخدمات لمصلحتها ولو كان في الطب والفلسفة المصرح بانها أخذت من علماء العرب شيء من الصبغة الدينية لما رأينا التصريح بأخذ ذلك عنهم .

كما ان عبارة مفضل الاسفرنكاني المنقولة عن تلميذ تلميذ ابن سينا الذي هو من علماء اواسط القرن الخامس انا دوت لتدوين حقيقة ما كان يختلف فيها اثنان في ذلك العصر الذي لم يقل من علمائه احد بخلاف هذه الحقيقة وان علماء الافرنج انما اكتموا عن قومهم قصداً لمقصد سام لا يعابون في الكتمان من أجله بل يمدحون وانما حدث الاصرار على اخفاء هذه الحقيقة من القرون الوسطى فصاعداً تارة بدون قصد لوجود التصريح بها في مأخذ علمائهم وأخرى بقصد لمن وقف عليها من المأخذ العربية حباً في الصيت وتدوين المؤرخ الآثار الحسنة لامته ولا يخلو التاريخ من هذه الوصمة على جماله حتى فيما بين الاحزاب المختلفة من أمة واحدة ناهيك بما يكون من ذلك ما بين الشرق والغرب .  
وانني لموقن بانه قد قرب الوقت الذي يعترف فيه الشرق بكل ما للغرب من المزايا ويعترف كذلك الغرب بكل ما للشرق من المزايا ويجلس الفريقان على سرر متقابلين متأخين متعابين بقوة الله وانتشار العلم وحسن المقصد .



## حقائق تاريخية

عن دمشق وحضارتها (١)

توطئة في بلاد الشام وسورية — دمشق — اسماء دمشق واشتقاقها — سكانها  
واجناسهم — حضارتها وعمارتها .

### توطئة في بلاد الشام وسورية

ان قطر الشام العزيز منسوب الى سام « بمعنى اسم (٢) » ابن نوح (راحة) ف قيل  
في اسمه الشام لان السين والشين تبدلان في اللغات الشرقية الشقائق . ولما اشتهر  
بشعره الذي كان مدينة صور ( صخر ) سمي سورية نسبة اليها . وقيل ان اليونانيين  
افتتحوه فرأوا الاشور بين يتولون شوونه فنسبوه اليهم وقالوا ( اشورية ) ثم حذفت  
المهمزة وأبدلت الشين سيناً ف قيل فيها ( سورية ) واول من ذكرها بهذا الاسم  
هيرودوتوس المؤرخ اليوناني وبقي الاسمان متعاقبين الى يومنا . على ان الشام اكثر  
استعمالاً عندنا لقدمها والافرنج يستعملون الثاني منها اي ( سورية ) .

وكانت سورية تقسم بحسب موقعها الطبيعي الى ثلاثة أقسام: ( أولها ) سورية  
الشمالية وهي تبتدئ من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماة جنوباً ومن  
أمهات مدنها الداخلية انطاكية وحلب وحماة . ومن أمهاتها الساحلية اسكندرونة  
ومرسين واللاذقية . و ( ثانيها ) سورية المتوسطة وهي التي أطلق عليها الكتبة  
المتأخرون اسم سورية الجوفية تعريب كلمة ( Cœlé-Syria ) والاولى ان يقال

(١) المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عيسى اسكندر المعروف أحد أعضاء مجمعنا

العاملين مساء الجمعة في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ م .

(٢) وضع المحاضر معاني بعض الاسماء بين هلالين نعمة للفائدة .



في تعريبها وادي سورية كما قيل وادي النيل في ارض مصر ووادي الرافدين اي الفرات ودجلة في العراق . وهي تبتدى من مدخل حماة شمالاً وتنتهي جنوبي صور جنوباً . ومن أمهات مدنها الداخلية دمشق وتدمر وبعبك وحمص . ومن أمهاتها الساحلية طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور . و (ثالثها) سورية الجنوبية وهي ما بقي من سورية و يدخل فيها ما عرف قديماً باسم بلاد كنعان (المنخفض) واليوم فلسطين (المتغربين) وسميت بعد ذلك بارض الميعاد والارض المقدسة . واشهر اسمائها اليوم فلسطين عند العرب والافرنج وتمتد من ميساه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً ومن مدنها الداخلية اورشليم او القدس الشريف وحبرون اي الخليل والناصرمة وطبرية و نابلس . ومن الساحلية عكا و حيفا و يافا وغزة والعريش .

ومعدل طول هذه البلاد جمعاء من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر وعرضها من الشرق الى الغرب نحو اربعمائة وخمسين فيكون مجموع مساحتها ١٠٩٥٠٩ — اميال مربعة . وبلغ عدد سكانها في القديم من عشرة ملايين الى خمسة عشر مليوناً واليوم لا يتجاوز المليونين والنصف فمعدل سكانها ٢٥ نفساً في كل ميل مربع . ولقد حددها الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره بقوله :

وحد الشام طولاً من عريش الى ارض الفرات المستجاد  
ومن جسر المسج يقال عرضاً الى طرسوس للبلد المراد  
ومن يافا كذلك الى معان فشمام كل ذلك من بلاد

وقيل لسكان هذا القطر الآراميون تغليبا نسبة الى آرام (المرتفع) وهو ابن سام ابن نوح الذي اشتهرت فيه قبائله ولا سيما انها كانت آخر سكان القدماء عند فتح اليونانيين فبقي اسمهم متداولاً . ولكن اليونانيين والرومانيين سموا القسمين سورية . والعرب جاروهم بذلك ثم غلبوا اسم الشام . ومما يؤثر عن هذا القطر ان الملك هرقل لما غادر انطاكية الى القسطنطينية على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب (رضه) ودع البلاد بلغته اليونانية قائلاً (سوزه سورية) اي (كوني بسلام يا سورية) . وكانت عاصمتها منذ القديم دمشق .

## ٢

## دمشق

ان مدينة دمشق هذه موضوع الكلام في هذه المحاضرة هي اقدم مدن سورية لان القبائل التي هاجرت الى هذه البقاع اقامت اولاً في هذه الانحاء لتوفر خصبها بكثرة مياهها ثم تفرقت وسترون في ما يأتي ادلة قاطعة تثبت قدمها . حتى ان استرابون المؤرخ ذكر مغاورها في العصر الظرفي ( الحجري ) ولا تزال آثارها فيها وحولها فلها كانت هذه المدينة العريقة في القدم اشهر مدن سوريا وانحطت آثاراً ( ماعدا مدينة بعلبك ) واوفرها خصباً واغناماً خيرات واكثرها منزهات واغزرها مياهاً ولقد ذكرت آثار قصر الكرنك المحفورة على جدرانها في مصر منذ القرن السابع عشر للميلاد ثم مراسلات تل العارنة بعد قرنين كما ذكرت التوراة وكثير من الكتب التاريخية القديمة . وعلوها عن سطح البحر الرومي الفان ومائتان وستون قدماً وموقعها في مستوى من الارض يشرف عليها جبل قاسيون المعروف بجبل الصالحية نسبة الى الصالحين الذين هم من بني ( جماعة ) من الكنعانيين النابلسيين المنتسبين الى مسجد ابي صالح (١) خارج الباب الشرقي منها لتزولهم فيه ولما انتقلوا الى سفح ذلك الجبل نسب اليهم فقيل له جبل الصالحية والى هذا اشار الشاعر بقوله :

الصالحية جنة والصالحون بها اقاموا

وبقيتهم هي اليوم آل النابلسي عندنا . وعلو قاسيون ٣٧٠٧ اقدام . ويشرف عليها ايضاً من الغرب الجنوبي جبل الثلج او جبل الشيخ المعروف قديماً بجبل حر موت ( القمة العالية ) وعلوه — ٩٤٠٠ — قدم وهو يرطب جوها بندها الليل المحمول

(١) ان مسجد ابي صالح قديم كان يلزمه ابو بكر ابن سيد حمدية الزاهد وقيل انه جدده ثم خلفه فيه ابو صالح صاحبه فنسب اليه ويسمى الآن قبر الشيخ صالح وهو بين الباب الشرقي و باب توما قرب الشيخ ارسلان خارج السور ولما حوصرت قرية جماعيل النابلسية في ايام الحروب الصليبية ترك آل جماعة هؤلاء بلادهم وهاجروا الى دمشق فنزلوا فيه كما ذكرت اعلاه .

على اجنحة النسيم وحولها الغوطتان الشرقية والغربية وهما من مآثرها الدنيا الاربعة لانها حدائق رائعة وجنان غناء ينساب فيها نهر بردى (البارد أو البردي) (١) وينضم اليه نهر الفبية (الينبوع) فيدخل المدينة ويتوزع عليها انهرأ سبعة بهندسة بدیعة فيروي جميع الارض التي حوله والمدينة بجميع احيائها ولذلك ساء اليونان بلغتهم مجرى الذهب (Chrysorrhoas) لخصب ارضه وبه لقب يوحنا الدمشقي من قدماء العلماء الدمشقيين الذين نبغوا في ايام الدولة الاموية لفصاحته فليل له (مجرى الذهب) .  
والمدينة مسورة بسور عظيم منيع فيه ابواب حديدية ضخمة وبقي سورها وابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري (١٨٣١-١٨٤٠ م) فسلمه السكان منافع المدينة عندما فتحها ودخل من (بوابة الله) مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل وامن الاهل من فبي الآت بعض السور والابواب وكانت قلعة دمشق قديمة محصنة بابرار ولها سور وحولها خندق يرد عنها الفارات تجددت في العصور المتوسطة ولا تزال ابنيها ماثلة في غربي المدينة .

ولقد جمعت اسماء الموائنات في هذه المدينة مما سمي باسمها فكانت اكثر من خمسين واكرها تاريخ ابن عساكر المشهور وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية الشهيرة طبع منه خمسة مجلدات مؤخرأ مختصرة ورأيت في كثير من تلك الموائنات تاريخ الشام ودمشق وعمرانها وحوادثها . ولكن كل واحد نقل عن قبله في الغالب دون تحييص وتحقيق فتكرر الكلام والخطأ وخطب الباحثون في تفسير الاعلام وبقي الاشكال غامضاً فحبذا لو اعتمدنا على فلسفة التاريخ ودرسنا علم الآثار القديمة او العاديات ومعارضة اللغات واشتقاقها فان في ذلك مغناً للمؤرخ يمتق في الآراء ويصحح النقول فيعتمد الآتون على اقواله . والله در لوقيان القائل : «من العيب العظيم في التاريخ ان لا تفرق بين ما هو حقيقي ثابت وما هو خيالي واهن» . وياقوت الحموي الذي عقب على قول من تحمل لكلمة اصهبان وجوهاً غريبة في اشتقاقها (معجم البلدان ١ : ٢٧٠) بما نصه : «وما اشبه قوله هذا الا باشتقاق عبد الاعلى القاص حين قيل له : لم سمي العصفور . قال : لانه عصى وفر . قيل له : فالطفشيل . قال : لانه طفا وشال — اه» .

(١) نسبة الى (لود) اخي ارام وهو الذي يسميه المصريون (روت) كما ستري .

فرايت في اول محاضرة انندبت لالقائها على منبر هذه الردهة بعد عودتي الى هذا المجمع العلمي ان اتخذ تاريخ دمشق موضوعاً لي مخصصاً — على قدر ما فصح لي الوقت ووصل اليه الذرع — بعض ما كان مستوراً بحجاب الاملال في تحليل الاسماء والتعليل عن الحوادث . على انني لم تعرض الا لتحليل الاعلام الاعجمية لاننا ندر كها بالبداهة راجياً من لطفكم ايها الكرام الاغضاء عن الهفوات . فليس ما تسمعونه الان من الآراء الحديثة في التاريخ الا نسيبها الى البحث والنقيب والتحقيق والتمحيص ليكون تاريخنا كاملاً مبنياً على الحقائق والبراهين الدامغة . فلا تحملوه يارعاكم الله على غير حسن القصد والله حسبي .

٣

## اسماء دمشق واشتقاقاتها

من الفوائد التاريخية الدالة على تحقيق بعض الآراء في التاريخ الصحيح تحليل الاسماء القديمة ومعرفة معانيها وأصول مبانيها واشتقاقها فهي اشبه بالآثار القديمة في تأييد الحقيقة او التقرب منها على قدر الطاقة وعلى هذا أحل الان اسماء هذه المدينة وهي كثيرة ذكر منها القلقشندي المشهور في معلمته ( صبح الاعشى ) المطبوعة حديثاً — دمشق وجلق وحكي في الروض المعطار تسميتها جيرون والعذراء . . الخ .  
اولها الشام = ان هذا الاسم اقدم اسائها لانه اسم أب الذين احتلوا واختطوها من اللوذين والاراميين كما سترى قريباً . وهو الغالب على السنننا الى اليوم . ولا سيما عند العامة حتى انهم قلما يقولون (دمشق) . ومعنى سام بالعبرانية اسم فهو بلا شك اب الاسماء واسم أب الالباء الذين تديروها . ولقد ذكره النابغة الجعدي عند فتح هذه المدينة في ايام العرب وتعبير ابي الزهراء القشيري باصابة رجله في مواقعها . فقال النابغة يخاطب المعير :

فان تكن قدم (بالشام) نادرة (١) فان بالشام اقدماً واوصالاً  
وان يكن حاجب ممن فخرت به فلم يكن حاجب عمماً ولا خالاً

(١) اي زالة وواقعة .

فتكون تسمية عاصمة الشام باسم بلاد الشام من باب تسمية الجزء باسم الكل مجازاً .  
وقال صاحب مراد الاطلاع : مسجد الشام في بخارى العجم . والشام موضع في بلاد  
مراد . والشام محلة في تبريز مشهورة وهو يدل على انتقال هذا الاسم مع سكان  
البلاد الساميين الذين حملوه في هجرتهم وسموا به الا ما كن التي نزلوها تيمناً باسم  
جدهم ( سام ) .

ثانياً دمشق = لقد أول المؤرخون هذا الاسم تأويل شتى والاقرب في هذه التسمية  
انها لودية او ارامية ( اي كلدانية او سريانية قديمة ) ذكرتها آثار الكرنك وكتابات  
تل العمارنة باسم ( تماسكو ) باللغة الهيرغليفية ( اللغة المصرية المقدسة ) ومعنى الكلمة  
المزهرة او الثمرة تسمية بغوطتها الخصبية . ولقد ذكرها كثير من العرب بهذا الاسم  
منهم ابو عبادة الجعفي بقوله .

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفي لك مطربها بما وعدا

اذا اردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

ومن هذا الاسم اخذ اليونانيون كلمة ( Damascus ) وعنه نقل الافرنج تسميتهم  
للمدينة وصناعاتها كما سيأتي .

واما قولنا ( دمشق الشام ) فليس الا تمهيزاً لها عن غرناطة الاندلسية المسماة  
( دمشق الغرب او الاندلس ) لان سكانها كانوا من طواري دمشق الذين ذهبوا اليها  
مع من ذهب الى المغرب فاختروها سكناً لهم لكثرة مياهها وحدائقها ولجبل الثلج المطل  
عليها فكانت اشبه بمدينتهم الاصلية . ولكن ابن جبير الكنتاني الرحالة فرّق بين  
الدمشقيين بقوله :

يا ( دمشق الغرب ) ها تيك لقد زدت عليا

تحتك الانبار تجري ( هي ) تنصب اليها

وورد اسمها مؤنثاً في شعر عبد الرحمن بن صهيب الحميمي لما حاصر عسكر يزيد  
ابن ابي سفيان هذه المدينة بقوله :

فبلغ ابا سفيان عنا باننا على خير حال كان جيش يكونها

وانا على باي ( دمشقة نومي ) وقدحان من باي ( دمشقة ) حينها

الثالث جلق = لقد غمض اشنقاق هذه الكلمة عن كثيرين فلم يهتدوا الى اصله والذي اراه (إما انها) يونانية تحريف (Jinic) ومعناها امرأة اذ كان فيها كنيسة بهذا الاسم ذكرها ابن عساكر وغيره ولعلها كنيسة باسم مريم ام المسيح (عيسى) وهي غير المرمية الكبرى وقرب الكنيسة باب الجنيق المسدود في زمن ابن عساكر فقبل فيها (جنيق) ثم بالابدال (جلق) و (إما انها) فارسية من كلمتين هما (كل) اي زهرة او وردة و (لك) بمعنى مائة الف فيكون مجمل معناها مائة الف زهرة اشارة الى غوطتها ثم عدلوا عن الضم في اولها الى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) وعلى هذا الرأي تكون من تسمية الفرس الذين امتلكوها في القرن السادس للميلاد ولذلك كانت شائعة في زمن حسان بن ثابت الانصاري فذكرها بهذا الاسم في قصيدة وصف بها آل جفنة الغساسنة حكام دمشق اذ ذك منها قوله :

الله درء عصابة نادمتم يوماً (بجلق) في الزمان الاول

يسقون من ورد (البريص) عليهم بردي يصفق بالرحيق السلسل

واما البريص او البريص الذي ذكره حسان هنا فهو اما منزله او قصر وربما كان معرقاً عن كلمة (Baradisos) اي براذيسوس اليونانية ومعناها المنزه او الفردوس ولعل اسم برزه من هذا وكان البريص يسمى ايضاً المقسلاط (ولعله منحوت من مقام الصلاة) وهو موضع النحاسين الآن. وارى اسم بردي من هذه الكلمة وقال في مرصد الاطلاع: (جلق) ناحية بسرقسطة بالاندلس يسقي نهرها ٢٠ ميلاً وقيل واد في شرقي الاندلس. ثم قال: (جليقية) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الاندلس في اقصاه من جهة الغرب. (هـ) وهذا دليل آخر على حمل دمشقيين لهذا الاسم معهم الى الاندلس تحبباً وحنيناً الى وطنهم الاول.

الرابع جيرون = اطلقه بعضهم على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً لانه من ابواب جامعها الكبير ايام كان هيكلًا لليونانيين فالكلمة يونانية Jiron بمعنى فناء الدار او الهيكل ومنها اسم فناء الكنيسة او سورها عند الافرنج اليوم. وكان اسم جيرون للباب الشرقي من ابواب الهيكل وهو المعروف اليوم بباب (النوفرة) وهي الفوارة المنشأة سنة «٤١٧ هـ ١٠٢٦ م» ولا تزال آثار السور الذي كان يحدق به

ظاهرة في الزقاق الذي على يمين الداخل الى الجامع من ذلك الباب وهو الموصل الى  
الظاهرة وقبله زقاق آخر الى يمين الداخل وفيه أعمدة تمتد حتى المدرسة الباذرائية .  
وفي داخل باب جيرون « محل الجبرونية » كما تسمى الآن . وعلى جانبي باب جيرون  
عمودان ضخمان بدلان على عرض السوق في ذلك العهد وكانت الاروقة قائمة على هذه  
الاعمدة لسير الناس والسوق بينها للعجلات والحيوانات . وحوله كتابات يونانية على  
يمين الداخل في موضعين (١) . وعلى اليسار حانوت صغير فيه باب على اسكفته « عتبه  
العليا » نقوش بديعة يدل على ان الارض قد ارتفعت عن مساحة ارض الشارع القديمة  
الى اكثر من نصف الباب علواً : ومثلها الى شرقي الجامع عند باب البريد ثلاثة أعمدة  
عليها طنف وكثيراً ما ذكر الشعراء باب جيرون فقال بعضهم فيه :

باكر « دمشق » بمشق اقلام الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكلاً  
واجرر « بجيرون » ذبولك واختصص مغنى تآزر بالعلى وتسربلا  
وقال بعضهم ان اصل جيرون فارسي تعريب « جروند » بمعنى السراج وهو بعيد  
كما لا يخفى .

ومن اغرب ما وصفت به جيرون قول صاحب مرصد الاطلاع : جيرون سقيفة  
مستطيلة على عمد رسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي بدمشق في وسطها كالحلجة .  
وقيل جيرون قرية الجبابرة في ارض كنعان « اه » . ولا تزال آثار الاعمدة  
حولها ظاهرة .

(١) في ربيع سنة ١٩١١ م كنت في دمشق فرأيت كتابة في بيت ابي عثمان  
الحموي في القميرية بجوار البئر الذهبي على يمين الداخل الى الجامع من باب النوفرة « جيرون »  
ظبرت في الجدار الغربي عند ترميم البيت وهي يونانية تدل على ان تلك الغرفة بناها  
مينودورس الابن الاصغر لزينوفوس امين صندوق الهيكل . وهناك حروف غير  
ظاهرة . وفي بيت البردوي على يمين الباب في اول بيت كتابة يونانية وراء الدرج الذي  
يوّدي الى البيت طمست بالبناء فوقها . وكذلك في بيت السمان في القميرية كتابة أخرى  
يونانية كنت اول من اطلع عليها ونسخها وفيها اشارة الى عبادة المشتري « جوبتير »  
وهي على قاعدة عمود من الحجر الابيض .

قلت : واما جيرون فلسطين فلم نزلها اثرأ في ما وصلت اليه يد البحث ولكننا نظن انها تصفحت على المؤلف فالاولى ان تكون هي « حبرون » المسماة قرية اربع بل مدينة اربع وتعرف اليوم باسم « خليل الرحمن » وتصحيف حبرون « جيرون » .  
الخامس اسماؤها الأخر = سميت دمشق باسياء أخر كثيرة نشير اليها نمة للبحث فساها يولييانوس الروماني « عين الشرق كله » لعمرانها . ومن اسماؤها العربية « إرم ذات العاد » وانكر ذلك كثير من المؤرخين وقالوا ان اسم إرم هو القبيلة للمدينة والذي أراه ان العرب لما رأوها كثيرة الأعمدة وعرفوا شأن الاراميين فيها سموها « مدينة ارام ذات العاد » ثم حذفت كلمة مدينة وعربت ارام الى إرم . ومنها « عاصمة ارام » و « ارام دمشق » تميزاً لها عن « ارام صوبة » في وادي سورية المخوفة . و « مدينة العازر » وهو خادم ابراهيم الخليل المنسوب الى دمشق و « مدينة زيمان السرياني » وهو احد سكانها . و « بيت رامون » نسبة الى هيكلها الذي كان باسم الاله رامون اللودي ومنه اسم برمانه في ظاهر دمشق . و « حاضرة الروم » و « حصن الشام » و « بيت ملكهم » و « باب الكعبة » و « فسطاط المسلمين » و « العذراء » ولعلها نسبة الى مريم العذراء التي فيها كنيسةها القديمة المعروفة بالمرميسة . وانها تعريب كلمة جنيق بمعنى العذراء كما مر آنفاً . و « قاعدة وادي سورية » المعروفة بسورية المخوفة في اصطلاح مؤرخينا الآن . ومن القابها « النجباء » لاتساعها و « الغناء » لالتفاف اشجارها الكثيفة و « جنة الارض » لكثرة حدائقها و غزارة مياهها .

وفي تسميات احيائها وضواحيها اشتقاقات تكشف القناع عن وجه كثير من الحقائق الغامضة التي يتمحلها المؤرخون ويتكهن بها اللغويون . فمن الاسماء باللغسة الزنيقية « دمّر » تحريف دامور او تامور او تامار وهو عندهم الاله الحامي فكانهم اتخذوا حصناً له فيه تمثاله للدفاع عن المدينة التي كانت محطة لتجارهم الشهيرة . و « بلاط » تحريف « بعل باليت » . وفي جبل القلمون قرية « فليطة » وهي من هذا الاشتقاق .  
والاسماء الآرامية أكثر من غيرها مثل ( بيت لهيا ) اي بيت الآلهة . و ( المعرة ) بمعنى المغارة . و ( ديرمُرَّان ) اي موران بمعنى سيدنا و ( أبون او قابون ) بمعنى ابنا لدير كان فيها و ( حلبون ) بمعنى الخصبية و ( معربا ) بمعنى المغرب و ( تلفيتا ) اي تل النبي



لكثرة غاباته • و (معرونة) اي المغارة الصغيرة •  
ومنها الاسماء الخثية مثل (الشاغور) بمعنى الصغير • و (قطننا) تحريف (كتنا)  
وهو اسم الخثين وكذلك (الغوطه) فانها تحريف (الكتنة) •  
واليبوسية مثل (يبوس) و (كفر ييوس) نسبة الى اليبوسيين من الكنعانيين •  
(جديدة الجرش) نسبة الى الجرجاشيين منهم ايضاً •  
واليونانية مثل (بلاس) بمعنى قصر • و (بيت اورانس) اي بيت السماء وهي الآن  
اطلال خربة • و (عين ثرما) اي الحمة وهي العين الحارة المياه • و (اقريس) تحريف  
(فاراتريس) اي ضارب الاعداء ومبدهم وهو من اسماء المشتري • و (الفيجية) وهي تحريف  
(بيجه) بمعنى الينبوع • و (مقرا) من منزهاتها اصلها يوناني (مكرا) بمعنى المستطيلة •  
(نهر ثورا) اي نهر النظر في اليونانية وقيل انها باسم حكيم اسمه (ثورا) او نسبة  
الى تاج الملك (ثوري) (١١) •

والرومانية مثل جبل (القلون) بمعنى المناخ اي جودة الهواء • و (بانياس) من بان  
اله الغابات وهو من اسماء انهارها اليوم •  
والعبرانية (المزة) وهي باسم حفيد عيسو ومعناه «الخوف» او هي يونانية بمعنى التلة  
او الربوة وقربها (الربوة) المدينة الخربة الآن بعد احراق الصليبين لها •

والفارسية (جوبر) من جو ببار بمعنى مسيل النهر الصغير • و (حرستا) من (خر)  
بمعنى الشمس اذ حور اسم اله و (روستا) بمعنى سواد وقرى اي قرى الشمس ومنها  
عرب الرستاق عندنا و (منين) فانها مركبة من (مه) كبير و (نين) زحل فمعناها  
زحل الكبير او من (مي) بمعنى الحجر فتكون بمعنى باخوس •  
وذكر ابن عساكر كثيراً من اسماء القرى العربية مثل (صنعاء) وهي خربة الآن  
دون المزة مسماة باسم (صنعاء اليمن) العربية • ومثلها قرية (الحمير بين) الخربة وفيها مسجد  
كان مشهوراً وهذا من الادلة على ان اليمنيين تديروها •

(١) هو زوج زمرد خاتون ام شمس الملوك اخت الملك دقاق توفيت سنة ٥٥٧ هـ  
(١١٦١ م) وهي مؤسسه المدرسة الخاتونية البرانية في دمشق المنسوبة اليها •



## سكانها وأجناسهم

كانت قبائل العالقة وفروعها محتلة سورية منذ اوائل الزمن التاريخي . ومنهم الجرجاشيون وغيرهم من ابناء أعمامهم كالبوسيين . ولما حدثت زلازل شديدة ارتعدت لها فرائض الارض على ضفاف خليج العجم وما اليها في القرن العشرين قبل الميلاد هلمت قلوب سكانها من القبائل السامية واليافتية والحامية ففرّوا منذ عشرين من تقويض مساكنهم وتدمير عمرائهم فساحوا في الارض الى ان رأوا نجاتهم ضواحي دمشق لخصبها واتساعها فاستظفروا على سكانها من الكنعانيين وتولوا شؤونها ومنهم الفينيقيون الذين غلبهم اللوديون والاراميون والعبرانيون فتمازجت اصول قدماء السكان في سورية ووثقت او اصر النسابة بينهم المصاهرة ولكنها لم تغنهم قليلاً فنشبت بينهم مشاحنات ونمت ضغائن قضت عليهم بالحروب المستطيلة .

ومن سكت عنهم المؤرخون او أغفلوهم او أشاروا اليهم من طرف خفي (١) اللودانيون اخوة الاراميين لان سام بن نوح رزق خمسة ابناء هم عيلام واشور وارفكشاد ولود و آرام .

وبما ان مملكة ارام كانت المملكة الاخيرة من هذه القبائل شاع ذكرها على السنة المؤرخين فأشاروا اليها بالتفصيل وأغفلوا ذكر مملكة لود الذي كان أكبر من ارام فملك قبله واشتهر . وكان لبني لود مواقع حربية عظيمة وآثار عمران كثيرة في شمالي سورية ومتوسطها وجنوبها . فأسسوا مملكتهم الضخمة ونزلوا دمشق قبل اخوتهم الاراميين او معهم وأسسوا حضارتها وشيدوا أبنيتها العظيمة ولا سيما هيكل رامون المنيع الذي حوّل الى هيكل المشتري ( جوتير ) ثم الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ثم الى الجامع الاموي الكبير المشهور بأثار بنائه الفخيم وهندسته الرائعة . ولهذا أفرد هذه الصفحة لتحقيق تاريخهم وحسر اللثام عن اصلهم ولم أر احداً تعرض لوصفهم بالتطويل

(١) راجع لزماني ومسبرو المؤرخين الفرنسيين وبعض تواريخ مصر ولا سيما الاثرية منها . وكتب السياحة ونحوها .

غيري في مانشرته في مقتطف السنة الماضية بعنوان ( اقدم سكان سورية اللوديون ) وهو بحث مسنفيض .

نقرر في هذا العصر تحقيق التاريخ بالآثار القديمة وتحليل الاسماء ونحوها فلماذا اذا استنطقنا هيكل الكرنك في مصر ارانا صفحات جدرانها لنطالعها فنقرأ فيها اخبار غزوات الفراعنة لهذه القبيلة التي يسمونها (روننو) لان اللام والدادال تبدلان في اللغة الهيروغليفية بالراء والتاء فيقال في اللودان الروتان . مما يثبت ان سكان سورية حين غزا تحوتموس او توطميس) الاول من الدولة الثامنة عشرة المصرية هذه البلاد سنة ١٦٥٠ ق م كانوا هم اللوديين او الروتين لاغيرهم وان شئت فقل اللودان او الروتان .

وقد شمل اسم اللودان القبائل التي لم تخضع للمصر بين . وكانت قبائلهم تقسم الى لودان المغرب او الاسفل وهم سكان دمشق هذه وما اليها وبلاد فلسطين . والى لودان المشرق او الاعلى وهم سكان سورية الشمالية وجزء من غربي ما بين النهرين . فلماذا كانت دمشق عاصمة اللوديين وحصنهم المنيع في (بلودان) اي بيت اللوديين وهي مشهورة بمناعتها الطبيعية فارثاء عنها ٤٥٠٠ قدم . وموقع قلعة الشقيف على علو ٦٨١٠ — اقدم منها فهي تشرف على جميع المضائق والطرق التي تأتي منها جيوش الاعداء ولا سيما المصر بين الذين حاربوهم . وكلمة الشقيف كلدانية بمعنى الصخرة و ارادوا بها الحصن المنيع كالصخر او المشيد على الصخر . ومثلها شقيف تيرون في جنوبي سورية .

ولما استظهر المصريون على اللوديين وملكوا منهم وادي سورية اي سهل بعلبك والبقاع وما يتصل به اقاموا حصناً على مضائق وادي يحنوفا لدفع غزوات اللوديين لهم من دمشق وضواحيها وسموه (بربتان) اي بيت الزوتيين بلغتهم المصرية كما سبق وهي الى اليوم قرية عامرة . وقرية اقرية (حور تعله) وهي مركبة من (حور) الاله المصري الذي يقابل (ابولون) عند اليونان و(تعله) بمعنى تعالى . مما يدل على نزول المصر بين فيها واتخاذها هيكلًا لآلهتهم . ومن غريب ما قرأت في تاريخ ابن عساكر ان خربة (حور تعله) من ضواحي دمشق كان فيها مسجد ينسب اليها وذلك يدل على ان نفراً من الزوتيين جاؤا من بعلبك واستمروها وسموها باسم بلدتهم كما هو الحال في كثير من التسميات مثل (تربل) في البقاع . فان سكانها في زمن الايطور بين (الجلبين) الذين غلبهم بومي القائد

الروماني في منتصف القرن الاول ليلاد وكانت حاضرتهم كلثيس او خلتيس ( مدينة النحاس ) اي عنبر اليوم في البقاع . امتد ملكهم الى السواحل فجاء نفر من جبل تربل فوق مدينة طرابلس الشام وسكنوا هذه القرية فسموها باسم موطنهم الاول .

واذا اردنا التوسع قليلاً بامتداد الامة الرومانية في انحاء سورية نرى ان اسم ( بيروت ) يقرب من ( بيت روت ) فكأنها كانت ثغرهم البحري للدفاع عن بلادهم . وهذا اول من تسميتها « بالابار » كما يقول المؤرخون لان معظم المدن الساحلية لا يباع فيها بل ابار فقط فلماذا خصت بيروت بذلك الاسم دون غيرها ؟ . واسمها في الآثار المصرية « باروتا » وهو اقرب الى هذا الوجه منه الى الآبار .

ومن اوجه ما هنالك ان نهر الليطاني الذي يتخلل سهل بعلبك والبقاع ليس الا تحريف كلمة لوداني اورو تاني وان شئت فقل « لوتاني » فهو منسوب الى هذا الشعب القاطن في ذلك السهل الافيج . وكذلك نهر البرذوني المتخلل زحلة ونهر بردى الذي ينساب في هذه المدينة يرجح انهما من هذا الاشتقاق فليل نهر « بيت روده » ثم نحت وابدل فصار بروده او بردى وحذفت كلمة النهر . ويوجد في سهل بعلبك قرية ( حوش بردى ) و ( حوش الذهب ) والاسان من اسماء نهر دمشق كما مر . وتوجد قرية برقي في جزين ايضاً وهي من هذا القبيل وقس عليها .

والمرجح ان اللوديين هم الذين شيدوا الحصون والمعقل الفخمة في مشارف سورية وفلسطين مثل قلعة كركميش وحلب وشيزرو قدس وحماة وحمص ودمشق وكرك الشوبك وغيرها لكثرة غزوات المصريين لهم . وكانت لهم عاصمتان عظيمتان هما ( كركميش ) المركبة من ( كركو ) اي حصن و ( كموش ) الاله القاهر . ومثلها قرية ( عرجوش ) في البقاع قرب زحلة وهي خربة اليوم تعرف بالفيضة . وعرفت كركميش هذه باسم هيرابوليس اي المدينة المقدسة عند اليونان ثم حرف اسمها الى جيرا بوليس فجرابوليس كما هو الآن .

وعاصمتها الثانية كانت قادش او قدس بمعنى المقدسة وهي على خفة بحيرة باسمها تدعى الآن ( قطينة ) نسبة الى الحثيين الذين سمو ( كتهين ) وهي في محل النبي مندو

في جوار حمص حيث البعثة الاثرية الفرنسية تحنقر الآثار الدالة على حضارة تلك العصور (١) .

ومن البراهين الدامغة على صحة رأينا في هذه القبائل اللودية او الروتية ان الآثار المصرية لم تدون في مادونته من اخبار غزوات ملوكها الاولين الا اسم الروتو اسي اللوديين . ولم تذكر الحثيين والاراميين الا في زمن الدولة التاسعة عشرة . وذلك لان الحثيين استظهروا على اللوديين بعد ان دانوا لهم زمناً طويلاً ودفعوا لهم الجزية التي ضربوها عليهم فانتهز الاراميون - الذين امتزج بهم ابناء عمهم اللوديون - الفرصة للاقتصاص من غالبي انسابهم فضربوا الحثيين ضربات قاضية واشتهر ذكر الاراميين من القرن الثامن قبل الميلاد الى فتح اليونانيين للبلاد في القرن الرابع قبله . فلذلك نقل الينا اليونان ذكر الاراميين في منازلهم ايامهم ولم يذكروا اللوديين لانهم كانوا قد اندغموا بهم وزالت مملكتهم بيد الحثيين كما مر .

وكان من تأثير غلبة اليونان للاراميين انهم بدلوا اسم بلادهم (ارام) باسم (سورية) كما سبق لنا لتعليل ذلك في صدر المحاضرة فذكر هيرودوتس البلاد بهذا الاسم الجديد وشاع بيننا .

فلهذا كانت حضارة دمشق القديمة من قبائل العالقة ولا سيما الجرجاشيين واليبوسيين كما مر ثم توالى عليها ملوك اللوديين والحثيين والاراميين واليونانيين والرومانيين الى الفتح العربي وتمازجت اصول تلك القبائل بالمصاهرة . وكانت قبائل اليمن العربية قد اندفعت الى هذه البلاد على اثر اندفاق سيل العرم في بلادها اليمنية فكان منهم قبائل الضجاعم والغساسنة والقضاةيين والاباديين والايطوريين وغيرهم متخالفين حكم تلك الدول باماراتهم وملوكهم .

(١) راجع صفحة ٣١٦ من الجزء العاشر لمجلة المجمع العلمي في سنتها الاولى وهذا تفصيل ما وعدنا به هناك . ولقد جاءت بعثة افرنسية سنة ١٨٩٤ م الى هذا المحل واحفرتة ثم عادت في ربيع السنة الماضية . واستأنفت عملها في خريف هذه السنة وستزيل اكتشافاتها كثيراً من الالتباس والاشكال في تاريخ الامم اللودية والحثية وغيرهما .

وغزا ملوك اشور و بابل هذه البلاد ولا سيما اصمته دمشق هذه وكان تغلث فلاسر ثاني ملوك اشور قد حاصرها وافتتحها سنة ٧٣٢ ق م وجلا ثمانية آلاف من سكانها الى بلدة قير في العجم وقتل ملكها رصين . ثم حاصرها شلناصر وضايق اهلها وقطع اشجارها . وكانت الدول العبرانية قد طمحت نفوسها اليها ففتحها داود الملك وحالفته ثم انتقضت عليه بارسال نجدة من قومها الى هدد عزير ملك صوبه الذي حاربه داود فاوغر ذلك صدره عليهم وقتل من ارامي دمشق ٢٢ الفاً واستولى على البلاد واقام محافظين في ارام دمشق فاستعبد سكان هذه المدينة الاراميون مدة طويلة للعبانيين وادوا الجزية لهم .

وكانت دمشق مدة بيد الاشور بين الى سنة ٧٢١ ق م فانفق سكان دمشق مع اليهود على الاشور بين ثم استولى عليها البابليون والفرس . وقال استرابون: ان دمشق كانت اشهر مدن سورية في الدولة الفارسية . وكثرت الجاليات الى دمشق من البلدان التي لها علاقة بفاتها . وانتقل بعض سكانها الى تلك الاصقاع سنة الله ( وبن تجد لسنة الله تبديلا ) .

ولما ملكها اليونان كانت هذه الحاضرة مدينة عظيمة لا يفوقها الا انطاكية من بعض الوجوه .

وفي عهد استيلاء الدولتين اليونانية والرومانية عليها قدم كثير من رعاياها وامتزجوا بسكانها وخفيت اصولهم الا بعض البيوتات التي حفظت انسابها مثل آل سرجون الذين تقدموا عند الدولة الاموية في ديوان الانشاء ومنهم نشأ القديس يوحنا الدهشقي الفيلسوف الشهير الملقب باسم نهر بردى ( مجرى الذهب ) كما سبق القول آنفاً . ويقال ان بيت هذه الاسرة الوطنية القديمة هو اليوم محل دير الالباء اليسوعيين قرب باب توما وان هذه الاسرة لما بقيت في صافيتنا تعرف فيها باسم آل الخوري لكثرة الكهنة الذين تسلسلوا منها والله اعلم .

وكان انقلاب عظيم عند تنصر اليونان والرومان في هذه المدينة ولا سيما في ايام تيودوسيوس الكبير الذي شدد التكبير على الوثنية وابطل عبادة الاصنام وهدم بعض هياكلها ثم هدم ابنه اركاديوس بعض هيكل رامون في هذه العاصمة ثم رمه وجعله

كنيسة مار يوحنا المعمدان المعروفة اليوم ( بمقام سيدنا يحيى ) داخل حرم الجامع الاموي  
وفي وقت قصير نئصر اهلها كلهم ما عدا اليهود فكثرت بينهم الخسومات .  
وسنة ٥٤٠ م فتحها الفرس ودمروا معظم ابنتها فزادوها خراباً ثم عادت بعد  
قليل الى الرومان وعملهم الغساسنة فجددوا شيئاً من حضارتها وابنتها .  
ولما كان الفتح العربي سنة ١٣ هـ ( ٦٣٤ م ) حدث انقلاب آخر في الحاضرة فهاجر  
منها واليها كثير من العرب والامم الاخرى التي فيها فمازجت اصولهم . ولم يطل الوقت حتى  
هاجر كثير من سكانها ايضاً الى المغرب والاندلس . ثم نكب فيها العباسيون الامويين  
فحربوا مساكينهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فزادت المهاجرة منها الى الاقطار السحيقة .  
وعند تشييد الجامع الاموي في زمن الدولة الاموية استقدم آلاف من الصناع البيزنطيين  
اليها وسكنوا فيها بأسرهم ونشروا فيها الصناعات الجميلة .  
ولما كانت الحروب الصليبية وحوصرت الثغور والمدن رحل كثير من الاسر  
الاسلامية الى دمشق مثل آل النابلسي وبقياتهم فيها الى اليوم وقد سبقت الاشارة اليهم .  
وفي خلال تلك العصور القديمة وما بعدها كثرت الفتن بين اليهود والسوربيين  
الوطنيين . والقيسبيين او المضربيين واليمنيين . والامويين والعباسيين . والمشاركة  
والمغاربة . والسنة والشيعية . الى ان كانت حوادث الانكسارية والقبول فاضطرب  
حبل سكانها وهجرها كثير منهم وحل غيرهم محلهم من امكنة مختلفة .  
ومن اكبر نكباتها غزوة تيمورلنك ( الاعرج الحديدي ) فضايق الدمشقيين وشدد  
تليهم وأمنهم حتى سلموا وبينهم ابن خلدون المؤرخ المشهور وكان من دهائه انه قال له :  
دعني اقبل يدك التي انا ملها الاقاليم الخمسة . وأراد بذلك انه كان قد فتح خمسة اقاليم .  
فدخل تيمور المدينة ولم يؤذها اولاً ولكنه حاصر القلعة ونكث بوعده . فنكب الاهلين  
شر نكبة وسلب أموالهم وأحرق البيوت وكان يعذب الامراء فيسقيهم الرماد ويعطيهم  
الماء والملح والكس ويكويهم بالنار ليقروا له باموالهم فاستخرجها منهم استخراج الزيت  
بالمعاصر . ثم امر بالنهب العام والسبي والفتك والقتل والحراق والاسر على الاطلاق  
فمزق شمل السكان كل ممزق وسبي المخدرات وبقي على هذه الحالة من الضغط ثلاثة ايام  
فاحرق المدينة وغادرها ملتية غيظاً وثقل جميع صناعات السيوف والزجاج والاواني

الفاخرة والاعيان . ففرّ من بقي من سكانها خوفاً وبعد ان وثقوا بعدم عودته الى البلاد عاد قليل من سكانها القدماء . وجاء المدينة اقوام من المدن الاخرى ولا سيما حماة فان كثيراً من سكان دمشق اصلهم منها منذ ذلك العهد وكذلك من الانحاء الاخرى . وكانت الفتن قد كثرت في حوران ولا سيما بين القيسيين واليمنيين فقصدتها كثير من الاسر المسيحية فلبثوا فيها مدة وبعضهم غادرها الى حمص وحماة وحلب وعكار والحصن ولبنان وغيرها . وهي اليوم معظم الاسر . وكثرت المهاجرة اليها والى لبنان على اثر الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر للميلاد . فلهذا نشأت اصول اسرها وسكانها متمازجة في الغالب . فهي مختلفة الاجناس والمذاهب بين عرب وشراكسة واكراد وترك وفرس ويهود وكرج وقبط وسريان وارمن ويونان واوربيين . وبين هذه الاسر المختلفة كثير من ارباب النسب الصحيح واهل البيوت المعروفة والبيوت العلمية على اختلاف فروعها ولا سيما الطبية فيقال ان آل بختيشوع المسيحيين لهم فيها بقية قليلة في الصالحية اليوم تعرف بالالحكيم قدمت اليها من بلاد العجم . وآل الرحبي من اطباؤها المسلمين المشهورين نالوا منزلة رفيعة في خدمة مستشفياتها ومدارسها واشتهر من غير هاتين الاسرتين كثير من اطباؤها وعلمائها وموآلفيها ومشاهيرها من الطائفتين .

اما الصناعات فيها فكانت راقية كما ستري ولذلك ترى معظم اسماء اسرها مما يدل على صناعاتها القديمة مثل آل بولاد والسيوفي وجوهرو وجوهري ومسابكي وصيقلبي وحداد ونحاس وقزاز ومباردي وقساطلي وساعاتي وهووايني ومنير وخوام ومراباتي وجراحي وطرايشي وحفار وطباع ونحات ومساميري ومشاطي وصباغ ونوبلاقي ومحاري وصائع وخياط وترزي وبارودي وبنّا وحكيم ومسديّة ودقاق ونقاش وحجار وسمّاك وقرأ وفراية ونجار وقصار وحائك ومخشنّ وقباقيبي ونشواتي واشباهها . وكلها مختلفة الاجناس والاصول كثيرة الفروع والاسماء متلبسة احياناً بصناعاتها المتوافقة واصولها المتخالفة مما فصلته في كتابي (الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية) وهو في ثمانية مجلدات كبيرة لاتزال مخطوطة معدة للطبع .





### حضارتها وعمرانها

لقد أسس حضارة دمشق اللواديون والروتيون والاراميون والفينيقيون والحثيون  
والعبرانيون والاشوريون والبابليون والماديون ( الفرس ) والمكدونيون ( اليونان )  
والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الامم الاخرى .

ومما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والشاغور (الصغير)  
والغوطة وقطنا حثي ودمر بمعنى تامار اي الاله القادر فينثي . وهكذا بقية الممالك التي  
تعاقبت عليها . على ان الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنة والرومانية التي تولت شؤونها  
٧٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة (١) كانت  
حضارتهم اساسا لما بعدها لانهم استجروا في العمران .

ومما لا ريب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وثنية فشيدت فيها الابنية الضخمة  
منها « هيكل رامون (٢) » ونحمت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي  
العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية  
وكذلك ياقوت في معجمه والارمنازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين  
خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس  
هذا الفيلسوف فيه كما قيل وهو في غربي الصاحية تحت قبة السيار .

ولكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سورية ولا سيما الفينيقيين والاراميين بعبادتهم  
فكرموا هياكلهم اخصها هياكل دمشق وبعليك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية  
والرومانية امتزاجا تدل عليه الاساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا  
مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية الجوفية (٣) » فكان الفينيقيون يعبدون غايلون وهو

(١) من سنة ٤١-١٣٢ هـ الموافقة لسنة ٦٦١-٧٤٩ م

(٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

(٣) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة مخطوطة بقطع كامل يشتمل على تاريخ

وادي العاصي وبردى والبيطاني وما اليها بحسب علم الآثار القديمة والاساطير الدينية

زُحل عند اليونان فكرمه هؤلاء كما اكرموا مينرفه الهة الحكمة عند اليونان وهي سيميه عند الفينيقيين . وفي اسمي قريتي (علين) قرب زحلة التي منها اسمها و(بسمة) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما انتصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعضدتها القبائل المنتصرة ومعظمها كان من غسان وقضاة واياك من السلائل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المريمية الكبرى وهي من بناء اركادايوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبيرة، وخربت مراراً ورممت الى ان احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠م فذهب ما بقي من روتقها القديم طعمة للنار فرممت على طراز حديث ولا تزال المحلة القرية منها تسمى (القيصرية) وهي على مايلوح لي بقية كتي (ايكوز—ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم . وكذلك محلة (الاسية) بقية كلمة (كليسية) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الاموي) ايضاً وقربها محلة (الكلاسة) ولعلها تحريف اكلية اليونانية بمعنى الكنيسة ايضاً الى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد او دير صليبها مقابل باب الفراديس . ودير مران ودير هند ودير ايا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون ودير مقرن في وادي بردى الغربي .

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في الزقاق الى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة بيد الالباء الفرنسيسكان وقربها جامع خرب .

ولكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠م فخرّبوا ابنتها وغيرها

ومعارضة اللغات وفيه تراجم العلماء وتفصيل الحوادث على اسلوب عصري في التاريخ والجغرافية والتراجم والمباحث العمرانية وفلسفة التاريخ .

اسماء مدنها (١) بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يمحى .  
ولما فتحها العرب سنة ١٤ هـ « ٦٣٤ م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولا سيما في  
زمن الدولة الاموية التي اتخذت دمشق حاضرة لها فصكت فيها اول النقود العربية  
بإمر من عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة  
بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في  
الفهرست : ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي  
فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية  
والقبطية فانشأ ( دار الترجمة ) وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في  
قبة الجامع الاموي كتب واوراق قديمة على رقوق بالعربية والسريانية والعبرانية  
والقبطية واليونانية نقلت الى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق (٢) . ثم بنى  
الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورونقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما  
تعادل قيمته الف الف ريال من نقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله  
في تسع سنوات كان يشتغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم يقطعون الرخام . ولما  
شكا الناس من انفاقه هذا من بيوت مال المسلمين اجابهم : نقولون ونقولون وفي بيت ما لكم  
عطاء ثماني عشرة سنة اذالم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس . وقال الجاحظ  
في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي  
فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالنسفساء والذهب  
الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ رونقه . وقد توالى عليه الحرائق

(١) لقد مر بنا من تسميات الفرس (جلق) و(جوبر) و(حرساومنين) في صفحة  
١٤٩ وبقيت اسماء كثيرة منها اسم (الزبداني) ومن رأيي صدقي وورصيني الاستاذ  
انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي (سنب) بمعنى رائحة التفاح و(ستان)  
او (دان) بمعنى محل اي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . ويعضد ذلك قول العرب :  
من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل  
كفر زبد وزبدل ويزبدين في انحاء سورية ولبنان . وروي غير ذلك ايضاً .  
(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من المجلد الاول من مجلة المجمع العلمي العربي .

فشوهت محاسنه وفي حريق ماحولة في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٢ م ظهر كثير من  
الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة .  
ولقد شيد الوليد ابنة اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية ( القسطنطينية )  
ومن العجم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيما الترسيع  
بالفسيفساء . ومن الابنية التي شيدها بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع  
وبلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبد العزيز ودار هشام ودار  
ابنه مسيلة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضاً . وعقد الوليد ميداناً لسباق الخيل كما  
هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا يعرف ( بالميدان ) وهو من  
احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي .  
وحولت فيها الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد ووضع ديوان  
الختم وحزم الكتب والبريد وغيرها .

وكان اليمينيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد تعلموا اليها صناعة الشفار والنصال  
اي السيوف وهم مشهورون بها فانتقها الدمشقيون على يدهم وذاعوا بها شهرة فكانوا  
يستخرجون حديدهم من ضواحي المدينة ولا سيما من داريا حيث آثار المعامل . ولا تزال  
محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكها وكذلك اسم بني المسابكي  
من أسرها المسيحية . واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايتها وصلابته ورونقه حتى يقال  
ان بني ( بولاد ) الاسرة المسيحية اشتهرت بصنعه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعابها  
كانت معملاً لصنعه .

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيوفي من  
مسلمين ومسيحيين ونقل الصليبون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيما عمل الجوهر .  
وبقي الدمشقيون منفقين بها على الجميع الى ان سبهم تيمورلنك في اوائل القرن الخامس  
عشر فأمات هذه الصناعة هنا واحياها في العجم .

ومما كان مشهوراً في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان  
العجم كان اهلها قد ورثوا عن البابليين هذه الصناعة فاشتهروا بها ونسبت الى مدينتهم  
ولقد دلت الآثار القديمة المحفورة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوها ومن هذه الصناعة

بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي متحفنا . وكذلك الفسيفساء وهي نقوش من الزجاج الملون المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرة ابداع مثال لها بالوان جميلة واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار .

وكذلك الميناء اي جوهر الزجاج والتجربها الدمشقيون من العجم ولها بقايا تدل على انقائها هنا . وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا العظم امثلة رائعة منه . وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة . والخزف المنقوش . وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة . والترصيع بالصدف والقطع الملونة على الخشب . وفي معمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة . وعرف الدمشقيون نسج الدباج وغيره وصناعة الورق والصباغ وغيرهما مما له بقية قليلة الآن لها بعض مزايا الانقان . ولعلي افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها المشهورة باكثر تفصيل وادق استقراء .

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق والغرب تحولت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعجم والعراق وخلفت تدمر ( ملكة البر ) واشتهرت بنجاج ارضها الخصيبة فتوطدت فيها دعائم العمران واهمها الزراعة والصناعة والتجارة . فقصدتها تجار اوربة وغزرت ثروتها . فضلاً عن انها كانت مجتمعا للحجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها البرية . وبقيت مزهرة في تجارتها الى ان فتحت ترعة السويس في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بواخر بحرية .

وكانت للامويين مجالس ادب مع شعرائهم وعلمائهم ومحاضرات ومساجلات ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء بادهن الرائع في ذلك العصر وبنهن الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكينه ابنة الحسين التي انتقدت الفرزدق وجريراً واثنت على كثير وجميل . وصديقتها ام البنين زوجة الوليد التي ساعدته بتعزير العدل والشفقة على الزعية وشاركته في السياسة والاداب بضافة عقابها

مقدمة له الآراء السديدة . ورابعة العدوينة المشهورة بزهدها وبرها وادبها الى غيرهن  
من كانت بهوتهن مجالس ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها لعلاقته  
بها . على انه لما اضطرب جبل الامو بين بظهور السفاح العباسي الذي حمل عليهم وخرب  
دورهم وشتت شملهم فجاء كثيراً من آيات حضارتهم التي انتقلت الى الاندلس واوربة  
وازهرت طويلاً فيهما .

ولقد حل في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل  
الذي نوى نقل دواو بنه اليها ثم نقض ما يرمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها .  
ودخلها سيف الدولة بن حمدان يتولى شؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدث له في الغوطة  
ما اوغر عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق  
خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العقيقي (صاحب الدار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية)  
فقال له الملك : ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقال العقيقي : هي لاقوام  
كثيري العدد . فقال سيف الدولة : لو اخذتها القوانين السلطانية لتبرأوا منها .  
فاعلم العقيقي الدمشقيين بالخبر . فبغضوا على سيف الدولة . وكتبوا كافوراً يستقدمونه  
اليهم نجاءً واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة ونافستها في التجارة ونفق  
في طريق عمرانها اقتصاصاً من الامو بين الدين شيذوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها  
فنقهرت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شؤونها بيد الدولة الايوبية ورأسها السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع  
منار حضارتها وتوسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فأستت فيها المدارس الكبيرة  
والمستشفيات والملاجئ واختلف اليها العلماء والاطباء والصيدالة . حتى كان عدد مدارس  
القرآن الشريف سبعمائة والحديث ثمان مائة وعشرون والشافعية سبعمائة وخمسين والحنفية احدى  
وخمسين والحنابلة عشراً والمالكية اربعمائة والطبية ثلاثاً . وكان فيها البيمارستان النوري  
وصيدليته والبيمارستان القميري . وبين تلك المدارس تسع استسبها فاضلات النساء

من المدكات والاميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والخواتق والزوايا والتكايا مما له بقايا دراسة واطلال عافية .

وشيدت فيها الدور الفخمة والقصور الشامخة . وانشئت الخزائن الغاصة بالكتب المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبع منها العلماء والشعراء والادباء والمؤلفون على اختلاف ازمانهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وامراء رفعوا اعلام حضارتها بابنية منيعة مثل الملك الظاهر والعاقل وبنكز والاشرف ومصطفى لالاباشا ومراد باشا وسنان باشا . فكانت دولة المماليك المصريين التي اولها الملك الظاهر بيبرس البندقداري والجراسية الذين اولهم الظاهر برفوق والثمانين الذين اولهم السلطان سليم وامراء القميرية كلهم يجوبون العمران .

ومن متأخري هؤلاء الامراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعمارة فشيّدوا القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا خزائن الكتب فكان منهم بضعة عشر والياً في انحاء سورية ولا تزال آثارهم تحدث بمجدهم الباقي مثل دار اسعد باشا وبعض ابنتهم وكتب الخزانة الظاهرية المطرزة باسمائهم ووقفهم .

واشتهر بن النمشقيين من ارباب الصناعات الاخرى والحذق من ذاع اسمهم في التواريخ وحفظت آثار اعمالهم شاهدة على براعتهم ولا سيما في صناعة الساعات التي تفوقوا فيها ومن قدمائهم الذين ذكروهم ابن ابي اصيبعة في كتابه ( الحكماء ) مهذب الدين احمد بن الحاجب النمشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع . وكذلك نجر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق . ومن ذكروهم غير ابن ابي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الدمشقي النحاس الذي ركب مواد انفجارية نسف بها الابراج الصليبية في حصار عكا .

ولقد اثناب دمشق الحرائق والزلازل والفتن والفنوق وغيرها من النكبات فحقت كثيراً من آثارها . ودفن معظم عمرائها القديم في الشوارع والبيوت فاذا ارى يداظهاره احتيج الى نسف الاماكن وتقويض الابنية لاستئثاره دفائن مجدها القديم ويكفيها انها كانت آية البناء الشرفي قائمة على اجمل طراز هندسي اشبه بمدينة تدمر الشهيرة

ايام عمرائها فكانت دمشق بفضية الشكل مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع ويحرقها من الشرق الى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية الى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الاعمدة الضخمة وبين الواحد والاخر نحو اثنتي عشرة ذراعاً ففي الرواقين تسير المارة وفي الشارع العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الاعمدة بين البيوت الى يومنا ومنها اثنان على جانبي باب جيرون (النوفرة) وعشرات حول الجامع ولا سيما في زقاق الباذرائية على يمين الداخل من باب النوفرة . ولما حفر اساس الثكنة في حي النصرى الممتد الى باب توما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار اعمدها . وكذلك شارع طويل تحت الارض من مأذنة الشحم الى الباب الشرقي باعمده وهندسته . وكان عند مأذنة الشحم ملعب روماني مدرج (امفتياتر) . وكان الجامع الاموي في قلب المدينة وحوله سور له اربعة ابواب معروفة بقي منها باب البريد في غربيه وباب جيرون (النوفرة) في شرقيه . وهناك اعمدة ضخمة بدية . وكان للمدينة ثمانية ابواب في كل جهة بابان حتى قيل فيها :

دمشق في اوصافها جنة خلد زاهينه

اما ترك ابوابها قد جعلت ثمانية

وكانت سوق باب البريد اجمل اسواق المدينة عمّرت في وسطها مرادباشا قبة جميلة قائمة على اعمدة عظيمة عليها كتابات واشعار بالعربية والكوفية .  
ووصف مؤلف (محاسن الشام) ابوالبقاء عبدالله البدرى ابواب المدينة بقوله :  
وغالب هذه الابواب القديمة بنى عليها نورالدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأقفلت الابواب ، يستغني اهل كل باب من هذه الابواب بما عندهم .

وامام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ ارسلان بيت (نعان السرياني) وهو مجذمة اليوم (مستشفى للجذام) وفي صدره اربعة ابواب ضخمة منحوتة بالحجارة وبينها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعان هذا كان ابرص او مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له :  
عندي ابانة (بردي) وفر فر اي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد الى بلده . وفي داخل



الباب الشرقي بمحذمة ( قعاظلة ) المسيحيين ايضاً وهم المجدومون الذين تسميهم العامة بهذه الاسم ( مقعطل ) او ( مقلعط ) وهي حظيرة المسبك الآن .  
وفي احياء المدينة آثار ابنية مثل الجامع المعلق قرب المناخية وكتابات كثيرة ولاسيما حول الجامع وفيه وعلى ابواب المدينة والمدارس والجوامع . واعمدة ومدافن للصالحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي .

ومن اهم ما فيها هندسة مياهها وتوزعها على بيوتها واحيائها توزعاً ذا اصول يضبط واثقان فتدور المياه باقنية وانايب نافذة من دار الى اخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة نريع المياه وتقسيمها بعمدته عليه من يتولون اصلاحها والمياه منفرعة من سبعة انهر هي اقسام بردى النهر الكبير الذي يتخلل المدينة بفرعه .  
وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاويلها وابوابها ونقوشها ما يشهد بعمرانها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصفير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصفير ونعب الغراب وسقطت حصة . وباب الساعات من ابواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة .

وسور المدينة ضخم تظهر بقاياها في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق للحصار فضلاً عن ابراجها وقلاعها وآثارها ومرصدها الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ابن النبطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ثم اتخذ منارة للتخاطب بالنار . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستماع المظالم والشكاوي وهي الآن قصر المشيرية . وكذلك دار السعادة بجوار القلعة وغيرها .  
ولقد نقلت الدول التي توالت عليها كثيراً من آثارها وطرانفها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحف هذه المدرسة المعروفة بالعادلية وفي المكتبة الظاهرية ازاءها . وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وابواب الجامع الكبير كما ذكر النجم الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحرير مراراً قبل ذلك الوقت وبعده .  
وضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ٤٦١ هـ ( ١٠٦٨ م ) بزمين ولاية الامير حصن الدولة الكتامي فجلا السكان عنها واقفرت وخلت الغوطة من

فلاحيتها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين ابطالا المكوس والمظالم وخففها عن عائق السكان  
فجدد عمرانها بعودتهم اليها .

اما عمرانها فانها اشتملت على غوطة عدت من منزهات الدنيا الاربعة فكان عدد بسايتها  
في القرن الثامن مائة وواحد وواحد وعشرين الف بستان كما ذكر شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر)  
على انها لا تتجاوز اليوم الالفين عدداً . وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير  
مغنى على وجه الارض . وفيها المياه الغزيرة والسهول الفسيحة والخصب الطبيعي فبدأ  
لو اشترك معه الخصب الصناعي .

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية اربعمائة الف وخمسين الف دينار . وكان ارتفاع  
دمشق سنة ٥٢٠ هـ (٨١٩ م) ثلاث مائة الف وستين الف دينار . وفي زمن المأمون كان  
خراجها اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار .

فلهذا كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من اسباب تأخر زراعتها . واعراض  
الوطنيين عن معاضدة صناعاتها وحصرها باسرها معلومة انقرضت او اهلته من اهم الضربات  
في تاخر الصناعة ومنافسة المدن والتغور لها بانحطاط تجارتها . ومعلوم ان التجارة تقوم  
بجناحيها الذين هما الزراعة والصناعة فصارت مهيضة الجناح متأخرة .

ولعلنا نتسابق الى رفع شأن اسباب العمران فنعيد الى هذه المدينة القديمة مجدها  
او شيئاً منه بمعاوضة رجال الدولة المنتدبة والحكومة الوطنية وارباب النهضة استعادة  
لنجاحها الغابر وتوطيداً للمدينة الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه .

عيسى بكندر  
المعلم

## أَحِيحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ (١)

دُعِيْتُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ لِاسْتِمَاعِ مَحَاضِرَةٍ فِي مَوْضُوعِ تَارِيخِي أُدْبِيٍّ . وَسَيَكُونُ الْمَحْوَرُ  
الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ هَذَا الْمَوْضُوعُ رِجَالًا مِنْ عِظَمَاءِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ اسْمُهُ (أَحِيحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ) .  
وَإِذَا كُنْتُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَانُ لَمْ تَسْتَعِذْبُوا هَذَا الْاسْمَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَسْتَعِذْبُوا الْمَسْمُومَ  
وَيُعْجِبُكُمْ مَا أَقْصَاهُ عَلَيْكُمْ مِنْ أَخْبَارِهِ . وَتَخْتَلِفُ أَطْوَارُهُ .

نَحْنُ بِصِفَةِ كَوْنِنَا عَرَبِيًّا وَلِنَا حِرْصٌ عَلَى لُغَتِنَا وَأَدَابِنَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَنْصَفِحَ أَشْعَارَ  
عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا يُوَثِّرُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَمْثَالِ . وَبِذَلِكَ نَفْقَهُ أَسْرَارَ لُغَتِنَا وَأَدَابِنَا—  
وَبِصِفَةِ كَوْنِنَا مُسْلِمِينَ يَجِبُ أَنْ نُدْرِسَ أَخْبَارَ الْعَرَبِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَاحْوَالِمَ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ .  
لِنَعْرِفَ مَاذَا نَسَخَ الْإِسْلَامُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرَهُ . وَمَاذَا أَبْقَى وَقَرَّرَهُ . وَفِي الْكَلَامِ عَلَى (أَحِيحَةَ)  
يُمْكِنُنَا أَنْ نَسْتَخْرِجَ فَوَائِدَ مِنْ كِلْتَا الْوَجْهَتَيْنِ : الْوَجْهَةَ اللَّغَوِيَّةَ الْأَدْبِيَّةَ ، وَالْوَجْهَةَ التَّارِيخِيَّةَ  
الْأَجْتِمَاعِيَّةَ . وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ يُعْطِينَا صُورَةً لِلنَّوَابِغِ الَّذِينَ كَانُوا فِي وَسْعِ ذَلِكَ الْمَحِيطِ  
الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ أَنْ يُبْرِزَهُمَ لِلْوُجُودِ .

إِنَّكُمْ سَتَعْلَمُونَ مِنْ تَرْجُمَةِ هَذَا الرَّجُلِ الْعَرَبِيِّ—أَنَّ فِي تَارِيخِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ رِجَالًا  
كَثِيرِينَ ذَوِي أَعْمَالٍ عَظِيمَةٍ وَهُمْ عَالِيَةٌ كَانُوا جَائِبِينَ أَنْ يَكُونُوا مَشْهُورِينَ بَيْنَنَا . لَكِنَّهُمْ  
لَمْ يُرْزَقُوا السَّعَادَةَ فِي الشَّهْرَةِ كَمَا رُزِقَ غَيْرُهُمْ .

يَنْبَغِي أَنْ لَا نَقْلَ شَهْرَةَ أَحِيحَةَ عَنْ شَهْرَةِ أَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ الَّذِينَ تَوَصَّلُوا بِالشَّعْرِ  
وَخِيَالِهِ إِلَى تَدَاوُلِ أَخْبَارِهِمْ فَاشْتَهَرُوا . أَمَّا أَحِيحَةُ فَاتَّكَلَّ عَلَى التَّارِيخِ فِي نَقْلِ خَبْرِهِ .  
وَكَثِيرًا مَا يُبْطِئُ التَّارِيخُ أَوْ يُقْصِرُ فِي النَّقْلِ . وَإِنْ نَسَبَهُ التَّارِيخُ إِلَى الشَّعْرِ فِي نَقْلِ  
الْأَخْبَارِ . كَنَسَبَةِ الْأَبْلِ إِلَى الْكَهْرِبَاءِ وَالْبَخَّارِ . وَقَدْ مَدَّتِ الْأَسْمَاعُ تَرْدِيدَ ذِكْرِ اشْتِخَاصِ  
مِنْ رِجَالِ الْجَاهِلِيَّةِ كَأَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ وَقَسِّ بْنِ سَاعِدَةَ وَحَاتِمِ طِيٍّ وَالنَّعْمَانَ ، أَمَّا مِثْلُ

(١) مَحَاضِرَةُ الْأَسْتَاذِ (الْمَغْرِبِيِّ) الَّتِي قَالَهَا فِي رَدْهَةِ الْجَمْعِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فِي ١٠ تَشْرِينِ

التَّانِي سَنَةِ ١٩٦١ .

(أحيحة) فان اخباره لم تزل كمعدن ماس ، لم يمسه ماس . ولم يُضرب فيه بفاس .

\*\*\*

### ( موطن احيحة ونسبه )

موطن أحيحة مدينة ( يثرب ) في الحجاز ، وهي التي هاجر اليها نبينا محمد (صلم) وعُرفت بعد ذلك بالمدينة المنورة وكان سكانها الاقدمون عمالقة أرسل اليهم موسى (ص) على ما قاله مؤرخو العرب جيشاً وأمرهم ان لا يستبقوا احداً ممن بلغ الحد لم الا من دخل في اليهودية . فقاتلوهم وقتلوهم كلهم . لكنهم ابقوا على ابن ملكهم وكان شاباً من اجمل الناس ، فعادوا به اسيراً . وكان موسى قد قبض قبل قدومهم ، فقال لهم خليفته يوشع من هذا الفتى ؟ فأخبروه خبره فقال لهم : ان هذه معصية ارجعوا عن ارض الميعاد . فرأوا ان يرجعوا الى البلد الذي فتحوه فعادوا اليه وأوطنوه .

ثم لما حدثت في اليمن حادثة سيل العرم وجلا عنها سكانها الى شمال جزيرة العرب كان فيمن جلا بطون من قبيلة الأزد اليمنية وهم الأوس والخزرج فأما وا يثرب ونزلوا فيها ، فقاومهم اليهود في أول الامر . فاستنصر الأوس والخزرج اليمنيين اخوانهم الذين نزحوا معهم الى الشمال . فاعانوهم عليهم ، واصبحت لهم العزة في يثرب لكنه وقع الشقاق اخيراً بين الحبين : الأوس والخزرج ، وما زالوا في حروب وكروب حتى ألف الاسلام بينهم ، وامتن القرآن بذلك عليهم .

وكان ( أحيحة ابن الجلاح ) سيد قومه الأوس ، ولم يُعرف الزمن الذي عاش فيه لكنه كان قبل البعثة بنحو سبعين سنة على الاقل كما سيأتي بيانه . اما اسمه (أحيحة) فهو تصغير (أحة) بمعنى حرارة الغيظ التي يجدها الانسان في صدره . وقد قال ابن دريد في كتابه ( الاشنقاق ) انه تصغير (أحاح) وعلى هذا ينبغي ان يلفظ ( احيحة ) بتشديد الياء . وليس كذلك اذ المشهور في اسمه التخفيف ولا سيما أنه ورد اسمه في الشعر مخففاً كما سيأتي في مدح خالد بن جعفر له . والأح أيضاً مصدر (أح) اذا سعل . ولعل من قال ( فح ) اي سعل توهم ان همزة ( أح ) محولة عن ( قاف ) كما يفعل في لغتنا العامية

مذ تحول القافات الى همزات . او ان ( فح ) مأخوذة من ( قحَب ) بمعنى سعل . ومن هنا سميت القحبة قحبة .

اما ابوه ( الجُلاح ) فهو من الجَدَح ومعناه التمسار الشعر عن مقدم الرأس ويحتمل ان يكون من الجُلاح بمعنى السيل الجراف وهو الذي يجرف كل شيء بصارفه أمامه .

كان أحيحة زارداً وعقل ، كما كان ذا جدٍ وعمل . وقد توصل باخلاقه هذه الى أن أصبح من نوابغ رجال ذلك العصر : فكان رجل حرب وكيد . رجل أدبٍ وشعراً ، رجل مالٍ واقتصاد ، رجل تنظيم وعمران . ونعني بالعمران العمران الذي يستطيعه بلاد الحجاز في ذلك العهد .

\*\*\*

### ( أحيحة رجل حرب وكيد )

روى مؤرخوا العرب ان ( تبعاً ) الاخير ملك اليمن واسمه ( ابو كرب بن حسان ) مر بيثرب فاصداً الشام والعراق فخذف فيها ابنته ، ثم بلغه ان اهل يثرب قتلوا ابنته ، فكر راجعاً اليهم . مجعاً على استئصالهم . فنزل خارج المدينة في سفح أحد . ودعا اليه أشرفها من الأوس والخزرج ، فقالوا فيما بينهم انه يريد أن يملكنا على اهل يثرب . أما أحيحة فقال لهم : والله ما دعاكم لخير . فذهب الأشرف اليه واستصحب أحيحة معه خبأً وخمراً وقينة له تسمى ( مليكة ) فضرب الخبأ وتترك فيه خمرة ومليكة . ثم استأذن على تبع فاذن له . واجلسه معه على زريته ( بساط منقوش بالالوان جمعه زرابي ) وجعل يحادثه ويسأله عن امواله بالمدينة . فأخذ أحيحة يخبره عنها . وتبع يقول له : « كل ذلك على هذه الزريته » ففهم أحيحة من قوله هذا أنه يريد قتله ففرج من عنده الى خبائه وقينته . فنظم لها قصيدة وداعية . وجعل يشرب وهي تغنيه بها . ومن هذه القصيدة قوله :

( يشتاقي قلبي الى مليكة لو أمست قريباً ممن يطالبها )

( ما أحسن الجيد من مليكة واللبات إذ زانها ترائبها )

( باليتني ليلة إذا جمع النا س ونام الكلاب — صاحبها )

( في ليلة لا يُرَى بها أحد يسعى علينا — الاكوا كيهما )

وهذه الابيات مما كانت تُخفي به القينات في عهد الخلفاء . ولما نام حرس الملك  
أزمع أحيحة الهرب . وعلم قينته مليكة ما نقول لتتبع إذا سأها عنه ، ثم انطلق الى  
حصنه واستعد للدفاع . وبعد أن قتل تباع الاشراف الذين دعاهم اليه أرسل حراسه  
في طلب أحيحة ، فلم يأتوا به . وانما اتوا بمليكة . فاخبرته ان سيدها التجأ الى حصنه ،  
وانه يقول له : « اغدُرُ بقينة اودع » وقد ذهبت كلمته هذه مثلاً في كثير من كلماته  
الآخري . يخاف الملك السببة والعار بقنلهما فتركها وأرسل كتيبة من خيله الى أحيحة  
فحاصروه ثلاثة أيام كان يرميهم فيها بالنبل والحجارة نهاراً . وبالتمر والزاد ليلاً ، فخرجوا  
الى الملك وقالوا نحن ما فهمنا معنى هذه الحرب التي يقاتلنا فيها هذا الرجل نهاراً . وضيفنا  
ليلاً . فامرهم بالكف عنه . واكتفى بتحريق نخله ، وبقي الملك يقاتل عرب المدينة  
ويهودها اياماً ثم رحل عنها اخيراً عملاً بنصيحة حبرين من اليهود أخبراه انها ستكون  
مهاجر نبي . يظهر في آخر الزمان . وذهب الى مكة فكسا الكعبة البرود اليازية عملاً  
باشارة الحبرين ايضاً اللذين اخذهما معه الى اليمن . وتهود هو وقومه . ويقال ان  
هذا هو اصل دخول اليهودية في اليمن .

هذه خلاصة ما رواه مؤرخو العرب عن تبع وحر به في الحجاز . وكيف تخاض  
أحيحة منه بدهائه وشجاعته . ومن ثم كان قومه يشهدون له بانه اداهم رجلاً .  
وكانوا يزعمون ان له تابعاً من الجن يعد له الخبر ، وذلك لما رأوا من ذكائه وكثرة  
صوابه . ولعمري ليس تابعه سوى عقله ودهائه . والعرب ان كانوا يقولون ان مع من  
نبغ من رجالهم جنياً فان الافرنج يسمون الفراسة والذكاء والتابغة المنفوق من رجالهم —  
« جيني Génie » ألا ترون ان بين السككتين او بين التسميتين نسبة واضحة . واتصلاً  
ظاهراً ؟ والعرب ايضاً يسمون الذكي الذي يكثر صوابه ويصدق حدسه ( المعياً )  
وقد قال شاعرهم :

( الالمعي : الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا )

و يسمون الذي يفوق غيره ولا يعالوه شيء — عبقرياً . فيحسن بنا اذاً ان نعرب

كلمة (جيني) الفرنسية بكلمة (اللمعي) لقر بها منتها أو (العقري) . هذا إذا لم تعجبنا  
كلمة (نابعة) .

مامر من حرب أحيحة مع تبع هو من قبيل الحروب الخارجية . أما حروبه الداخلية  
فهي حربه مع بني عمه الخزرج وكيف قهرته السيدة سلى الخزرجية جدة النبي (صلم) :  
قتل رجل من الأوس قوم أحيحة رجلاً خزرجياً من بني النجار قوم سلى  
زوجته فنشبت الحرب من جرأ ذلك بين الحيين . وكان أحيحة قائد قومه فعزم على  
تبييت الخزرج ، واخذهم على غرة . فشعرت بذلك زوجته سلى بنت عمرو الخزرجية  
النجارية . وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال الا امرأها يدها : إذا كرهت من رجل شيئاً  
تركته . فدبرت حيلةً أنقذت بها قومها من كيد أحيحة : وذلك انها في تلك الليلة  
التي ازمع فيها زوجها تبييت الخزرج قومها ببط ابنها عمراً من ذنبه بخيط . وكان  
فطياً حتى اذا ارجعته تركته فبات يبكي ، وبات ابوه مؤرقاً ينقلب في فراشه . ويقول :  
« ويحك ياسلي ! ما عمرو لا ينام » فنقول « ما أدري والله ! » حتى اذا ذهب الليل  
حلت الخيط عن ابنها . ولكنه لم يكذب ينام زوجها حتى صرخت سلى : « وارأساه » فقال  
أحيحة : « شرأ ما لقيت في هذه الليلة » وقام اليها فجعل يعصب رأسها ويدلك براحته  
ظفرها ويقول : ما بك من بأس . حتى اذا لم يبق من الليل الا أقله . قالت له قم فم ،  
فاني أجدي . مستريحاً . وانما فعلت ذلك لثقل رأسه . ويشد نومه . فلما اسفرق  
في النوم اخذت حبلاً متيناً واوثقته برأس الحصن ثم تدلت منه الى قومها . وانذرتهم  
بالذي اجمع عليه أحيحة وقومه من تبييتهم . فخذروا وتأهبوا . والمجاهم (أحيحة)  
لم يقدر ان ينال منهم نبلاً . فعاد خائباً وجعل يقول : ( آه لك ياسلي !! خدعني حتى  
بلغت ما أردت ) وسمها قوماً من ذلك اليوم المتدلية . ولأحيحة في هذه الحادثة  
اشعار كثيرة كان يعتب فيها على سلى . وسيأتي بعضها . ثم ان سلى لم تعد الى أحيحة  
كما هو شرطها في ان تخار نفسها متى شاءت . وبعد ذلك تزوجت بسيد قريش وإمام  
البطحاء ( هانم بن عبد مناف ) فولدت له عبد المطلب جد نبينا (صلم) ومن هنا جاء  
ما تروونه في كتب السير من ان ابا النبي عبدالله مات في المدينة عند اخواله بني النجار  
وان السيدة آمنة كانت تذهب به (صلم) وهو صغير الى المدينة فبزيره اخواله بني

التجار — يعنون بذلك احوال جده عبد المطلب من امه (سلي) هذه . واذا كانت  
سلي جدة عبد المطلب زوجة لأحيحة فيكون قد عاش أحيحة قبل البعثة بنحو سبعين  
سنة على اقل تقدير .

ومما له علاقة باخبار (أحيحة) الحربية تنافسه في اثناء الدروع واستكثاره من  
العآد والسلاح : وقد ذكروا انه لما قتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة سيد  
بني عبس عزم ابنه قيس على اخذ الثار وجاء المدينة لشراء السلاح والعدّة . فأخبر  
أن عند أحيحة من ذلك الشيء الكثير وان لديه درعاً لم يكن في يثرب درع تضاهيها  
فطلبها قيس منه فأبى وقال : كيف أعطيكها وخالد بن جعفر الذي يقول :

(اذا ما اردت العزّ في آل يثرب      فناد بصوت بأحيحة فاسمع )  
( رأيت أبا عمرو (أحيحة) جاره      بببت قريو العين غير مروّع )  
(ومن يأتته من خائف ينس خوفه      ومن يأتته من جائع البطن يشبع )  
(فضائل كانت للجلاح قديمة      واكرم بفخر من خصالك الاربع )

\*\*\*

### (أحيحة رجل شعر وأدب)

مرّ في الكلام على أنه رجل حرب — شيء يدل على منزلته من الشعر والادب .  
من ذلك قطعه الادبية التي غنثه بها قيننه مليكة واولها :

( ما احسن الجيد من مليكة      والآيات اذ زانها ترائبها )

وان له كلمات سارت في العرب مسير الامثال من ذلك قوله لملك حمير بلسان مليكة  
(أعدر بقينة أودع) . ومن كان مثل أحيحة في اعماله الحربية كما سمعت واعماله  
العمرانية والزراعية والاقتصادية كما ستسمع — لا يتيسر له ان ينظم الشعر الكثير .  
على انه ربما كان له شعر كثير لم ينقل الينا كغيره من فحول شعراء الجاهلية :  
فمن شعره قصيدته المذهبة المعدودة بين المذهبات في كتاب (جمرة اشعار العرب  
لابي زيد القرشي) وقد عدّ ابو زيد أحيحة في اصحاب المذهبات وقال انهم كلهم  
من اهل المدينة المنورة . ومطلعها :



(صحوتُ عن الصبا والدمر غول      ونفسُ المرءِ آونةً فتبول )  
 (ولو أني اشاءُ نعمتُ حالاً      وبأكرني صبحاً ونشيل )  
 (ولاعبتي على الانماط لُعمسُ      على أفواههن الرنجيل )

ومنها :

(وما يدري الفقير متى غناه      وما يدري الغني متى يعيل ؟ )  
 (وما تدري وإن ألتحت شولاً      أتلقح بعد ذلك أم تحيل ؟ )  
 (وما تدري وإن ألتجت سقباً      لغريك أم يكون لك الفصيل ؟ )  
 (وما تدري وإن أجمعت أمراً      بأي الارض يدركك المقييل ؟ )

واشار في هذه القصيدة الى كيد زوجته سلى له واحتياذاً عليه فقال :

(اذا ما بتُ أعصبا فباتت      علي مكايتها الحى النسول )  
 (لعل عصاها يبغيك حرباً      ويأتيمهم بعورتك اللليل )

واشار الى حصنه فقال :

(وقد أعددتُ للمدثان حصناً      لو ان المرء نفعه العقول )  
 (طويل الرأس أبيض مشمخراً      يلوح كأنه سيفٌ صقيل )

\* \* \*

## «أحيحة رجل عمران»

بقي علينا أن نتكلم على أحيحة بصفة أنه رجل عمران . ونعني بال عمران هنا القدر الذي يطيقه محيط يثرب في ذلك العهد . فلا يعترضنا علينا معترض بانه لا يسمى عمران عمراناً الا اذا كان مثل عمران لندره وباريز اليوم !! على انه لو كان أمثال أحيحة في ذلك العهد كثيرين يسهون سعيه في الزراعة وجمع المال وانشاء القصور لكان للمدينة شأن غير شأنها المعروف .

(الأطم) في لغة العرب بمعنى الحصن والقصر العظيم . ويجمع على أطام . وكان اهل يثرب قبيل الاسلام يبنون أطامهم بالجنادل والحجارة . ويتخذونها أحياناً معاقلاً وقلاع دفاع . كما سمعت في خبر أحيحة مع تباع . وكانت هذه الأطام عن العرب

ومنة تهم وحصولهم التي بخرزون بها من عدوهم . ومن اشهر اطام العرب واعظمها شأنًا  
أطمان كانوا لأحيحة . احدى مابناه في المدينة وسماه (المستظل) وهو الذي تحصن فيه حين  
قاتل ملك اليمن والآخر سماه (الضحيان) وقد بناه في مزرعة له يقال لها (الغابة) وهي  
على بعد نحو فرسخ من المدينة . وكانه سماه (الضحيان) لانه ضاح بارز للشمس بخلاف  
(المستظل) فقد كان مبنياً في ظل المدينة وبين بيوتها .

وبني (أحيحة) أطمه (الضحيان) بججارة سوداء ثم بنى فوقه نبرة ببضاء مثل  
الفضة . والنبرة كل شيء مرتفع . ثم جعل على هذه النبرة نبرة أخرى مثلها بحيث  
يراها الراكب من مسيرة يوم او نحوه قالوا : ولما شيد (أحيحة) أطمه (الضحيان)  
على هذه الصورة أشرف من فوقه وسمعه غلام له وقال (لقد بنيت حصناً حصيناً ما بني  
مثله رجل من العرب أمنع ولا أكرم) ولقد عرفت موضع حجر منه لو نزع لوقع الحصن  
جميعاً) فقال الغلام المسكين انا اعرفه يا مولاي . وأشار اليه . فدفعه (أحيحة)  
من رأس الأطم فوق مبيتاً . وانما قتله إرادة أن لا يعرف سر ذلك الحجر غيره .  
وهذا ما حكى عن سننار المعمار الذي شيد الخورنق للنعمان وجعل فيه مثل ذلك الحجر  
الذي وُضع في حصن (أحيحة) فإن النعمان رماه من فوق ذلك القصر فمات لثلا  
ينكشف سر الحجر . وقد ضرب بسننار المثل فيقال (جزاه جزاء سننار)

وكان من عادة أحيحة أن يجلس في ظل أطمه الضحيان . وكان في اوقات الخوف  
يرسل حواليه كلاباً له ينبح دونه على من يأتيه ممن لا يعرف حذراً من عدو يصيب  
منه غرة . وقد نجته هذه الكلاب مرة من خصمه (عاصم) الخزرجي : فانه تسلل اليه  
ليلاً يريد الفتك به وجعل يرمي للكلاب تمرأ فوقفت ساكتة فاحس (أحيحة)  
بالشمر واسرع الى حصنه تحت وابل من السهام . وهكذا نجح من الموت الزؤام .

هذه عناية (أحيحة) بتشيد الابنية اما عنايته بانشاء المزارع والبساتين فعظيمة  
ايضاً : قالوا كانت له مزرعة تسمى (الزوراء) وأخرى اسمها (الغابة) . وكان له في  
(الجرف) وهو موضع على ثلاثة اميال من المدينة لحبة الشام أصوار من نخل قل يوم  
يمر به الا يطلع عليه . والاصوار جمع صور وهو النخل الصغير . ومعنى انه صغير ان جنسه

صغير . وانه فسيل يُزرع ثم يُنقل من منبته الموقوت الى مغرسه الدائم ؟

ومن شعر ( أحيحة ) في مزرعته ( الزوراء ) :

( كل النداء اذا ناديتُ يخذلني الاندائي اذا ناديت يامالي )

( اني اقيم على الزوراء اعمرها ان الكريم على الاخوان ذوالمال )

( اسنغن اومت لا يغررك ذو تشب من ابن عم ولا عم ولا خال )

ولما زار الوليد بن عبد الملك المدينة سأل عن الزوراء هذه وانشد الابهات . فدلوه عليها فقال : ( ان اباعمرو يراه غنيابها ) فعجب الناس من معرفة الوليد باخبار العرب حتى علم ان ( أحيحة ) يكنى ( اباعمرو )

وكان لأحيحة في مزارعه تسع وتسعون بعيراً كلها يُنضح عليها ي ينقل الماء على ظهورها الى مزارعه وبساتينه . والبعير الذي ينقل الماء يسمى ( ناضحاً ) ويسمى ايضاً ( سانية ) ومنه ( سير السواني سَنَرٌ لا ينقطع ) . ولم يقنصر أحيحة في الزراعة على غرس النخيل وانشاء البساتين بل كانت له حقول يزرع فيها الحنطة بكثرة بدليل قوله : ( قد كنت اغني الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة قوم )

ومراده بالقوم الحنطة وهي لغة للعرب قديمة أو هي لغة بني هاشم وحكوا قولهم ( قومونا ) اي اجتبزو لنا خبز حنطة . ولا يمكن ان يريد ( أحيحة ) بالقوم الثوم الذي هو معناه ايضاً ، لان الثوم لا تزرع منه مقادير كبيرة تُغني صاحبها لعدم حاجة الناس اليها . بخلاف الحنطة فان الناس يحتاجون اليها . فيكثر ارباب الزراعة من زراعتها وقوله تعالى عن بني اسرائيل ( واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما نبت الارض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ) اختلفوا في المراد بالقوم هل هو الثوم او الحنطة ؟ فذهب ابن عباس الى انه الحنطة وان العرب تعرفه بهذا المعنى بدليل قول أحيحة « قد كنت اغني الناس . الخ ولا يعترض على هذا بانه قرى في الآية ( وثومها ) بالثاء مكان ( فومها ) بالفاء لانا نقول ان الثاء فيها مقبوضة عن الفاء كما قلبت في ( مغافير ) و ( جدف ) فيقال فيها ( مغافير ) و ( جدت ) . ثم يقال من جهة ثانية ان القوم قرن في الذكر بالعدس . فيكون ضرباً من القطناني يعني الحبوب . ولم يقرن بالبصل حتى يكون اخاه الثوم .

## ( أُحِيحة رجل مال )

قالوا : كان ( أُحِيحة ) رجلاً صنيعاً للمال . شحيحاً عليه . ومعنى قولهم صنيعاً انه حاذق بجمعه . حر بص على نميته وتكثيره . اذ يقال فلان صنيع اليدين وصناع اليدين يعنون انه حاذق . اما قولهم ( انه كان شحيحاً ) فلم يريدوا انه بخيل لا يجوز بالمال . كيف وقد تقدم في خبره مع ( تبع ) انه كان يحارب عسكره في النهار . ويضيفهم بالتمر في الليل . ومراً ايضاً قول خالد بن جعفر فيه : ( ومن يأتته من جائع البطن يشبع ) . فلا جرم ان يكون المراد بكونه شحيحاً على المال انه حر يص عليه فلا يدع شيئاً منه يذهب سدى من دون ان يستثمره وينتفع به . وهذا هو الاقتصاد او التدبير المنزلي بعينه . و يروى انه دخل جائطاً له فراًي تمرّة ساقطة فتناولها فعوتب في ذلك فقال : ( التمرة الى التمرة تمر فذهب قوله مثلاً يُضرب في استصلاح المال .

ومما قالوه عن « أُحِيحة » انه كان يتبع بيع الربا في المدينة حتى كاد يُحيط باموال أهلها . اي انه كاد يستولي على اموالهم بتواتر الفائدة وفائدة الفائدة . ومن هذا تعرفون مقدرة الرجل ومهارته في كسب المال والاحتيال على جمعه . ومثله في ذلك كثير من سادات العرب واشرافهم في المدينة ومكة قبيل البعثة : فقد اكثر من المراباة حتى كاد الفقراء يهلكون . ولم يكن احد يقرض الفقراء قرصاً حسناً لوجه الله . بل كانوا اذا طلبوا قرصاً من غني طلب منهم الفائدة بطريقة الربا . وكانوا اذا حل الاجل وعجزوا عن الاداء يقول المرابون لهم : نؤخر لديمك المال وز يدونا في فائدته . فما كانت تمضي سنون حتى يعجز هؤلاء المساكين عن الاداء فيضع المرابون الاغنياء يدهم على عقارهم واموالهم ويستصفونها لانفسهم . حالة مزعجة مخربة للعمران . مقوضة لراحة بني الانسان . جاء الاسلام فانكرها على ذويها . ونعى عليهم فعادهم وقسوتهم . وحضهم على الرفق بالفقراء ورحمتهم . وان يقرضوهم القرض الحسن . وبذلك يعتدل الميزان . وتهدأ الاحقاد والاضغان .

فالربا في الجاهلية كان مداره انتظار الغني طروء حاجة على الفقير وثرقب ضائقته المالية . حتى اذا سنحت له الفرصة استغل هذه الحاجة والفر من دون رحمة ولا شفقة .

ومن العجائب ان يكون الفقر مصدر الغني : فتعير يحتاج فيقصد غنيا يشكو له او ليس تقرض  
 منه فينمزن الغني الفرصة فيدينه بالربا ثم يجابه كل سنة الى ان يترب ولا يبقى عنده  
 شيء . فما عدل الاسلام وما أرحمه من حرام الربا . وانقذ هؤلاء المساكين .  
 من براثن اولئك البغاة الظالمين .

هنا أيها السادة نختم القول عن حياة (أحجية بن الجلاح) الذي تبين لكم بحق  
 انه رجل حرب وشعر ومال وعمران في آن واحد .  
 ومما سمحت لكم ايها السادة ان تنسوا شيئا من محاضرتي لا أسمح لكم ان تنسوا  
 (سلي الخزرجية) التي تدرت من شرفات الحصن الشامخ . وخطرت بنفسها زاهدة  
 في زوجها وابنها والثروة التي كانت تعيش في ظلها . كل ذلك من اجل سلامة  
 قومها . ونفضيل مصلحتهم على مصلحتها . فعليكم ان تقننوا بها في حب وطنكم . لاسيما  
 انها ليست غريبة عنكم . بل هي جدة نبيكم . (المغربي)



# كيف تحقق الآثار التاريخ (١)؟

## جزئيات المحاضرة

التمهيد — ماهو علم الآثار — ما هي انواع الآثار — كيف قسم العلماء الآثار —  
ما فائدة الآثار — ما علاقة الآثار بالعلوم — هل عرف العرب التمثيل والصور —  
كيف جمعت الآثار — ما هي قيمة الآثار — كيف تحقق الآثار التاريخ — الختام

## تمهيد

تصفُ الدارُ لنا قُطَّانها والمعالي والمساعي والنجارا  
واذا لم تدر ما قومٌ مضوا فاسأل الآثار واستنبِ الديارا  
لله در الشريف الرضي في قوله هذا منذ قرون اذ اهاب بالناس ان يقتبسوا  
تاريخ اسلافهم من آثارهم واطلالهم . كما فعل كثير من الشعراء والعلماء والمؤرخين  
والاثر بين من شرقيين وغربيين في الحث على حفظ الآثار . فهل من منكر اذن  
فائدتها في تاريخ الامم والممالك والبلدان ؟  
وهل يسوغ لنا ان نهمل آثارنا مطروحة في الحقول والبراري والانقاض ليحطمها  
الجهلة . او ينقلها غيرنا الى متاحفهم ويستفيدوا منها علماً وعملاً ؟  
وهل يجوز ان نبيعها لغيرنا طمعاً في كسب دراهم تافهة ليزينوا متاحفهم متعجبين  
بها ورايجين اموالاً طائلة ونخسر نحن فوائدها التاريخية ؟  
وهل يعد كلفنا بجمع الآثار واحرازها بدعة كما يتوهم بعضهم وتلك آثار مصر  
والمغرب والقدس والاناضول والآستانة تملأ المتاحف وكلهم من جنسنا الشرقي ؟

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ عيسى اسكندر العلوف في ردهة المجمع  
الكبرى يوم الجمعة في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ الساعة الرابعة مساءً .

وهل ببرتنا التاريخ من هذا التقصير وقد مر علينا الدهر باحقابه المتطاولة ونحن مهملون هذا الأمر الخطير؟

وهل يصح لنا تاريخ او يُعرف لنا شأن او تذكرنا حضارة اذا لم تنو يد آثارنا اقوال كتابنا عنها؟

وهل تبقى سوريا المحبوبة بلا متحف يجمع عاداتها ويسبق اليها السياح والمتفرجين وفيها من آثار المدينة ما فيها؟

وهل ٠٠٠؟ وهل ٠٠٠؟

لا لعمرى لا يسوغ لنا شيء من ذلك لان الآثار تحقق التاريخ وثبت ما كان صحيحاً منه ونقض المكذوب فيه .

### ما هو علم الآثار؟

الأثر لغة ما بقي من رسم الشيء . والرسم هو اثر الدار ونحوها من الأعيان الشخصية . فيكون الاثر ما يبقى بعد الداهيين . واصطلاحاً هو ما تدرك به شؤن الامم البائدة او القديمة اما من ابنية شيدوها او صناعات انقنوها او تماثيل نجتوها او كتابات نقشوها او نقود صكوها او اختراعات ابتكروها او علوم دونوها او فنون اهدوا اليها او كتب خطوها ونحو ذلك .

فيدخل تحت الابنية المدن والهياكل والصروح والمدافن . وتحت الصناعات التماثيل والنقوش والاواني والاسلحة . وتحت الكتابات ما على الصخور والغضار (الاجر) والصفائح المعدنية او العظمية او البردية او الرقبة من الانباء . وتحت النقود ما عرف من انواعها وصورها واجناس معادنها وطرق صكها واساليب طرازها . وتحت الاختراعات ما عرفه من آلات وادوات ونحوها . وتحت العلوم ما دون على الغضار والبردي وفي الكتب من معارف الدارجين . وتحت الفنون ما عرفوا من التصوير والموسيقى ونحوهما . وتحت الكتب ما تركوا لنا من المخطوطات على اختلاف انواعها واساليبها ومباحثها سواء كانت بسيطة الخط او جميلته منقنة التجليد او مهملمته .

فغاية علم الآثار اذنب معرفة آداب من تقدمنا واستطلاع اخلاقهم وعاداتهم

وصناعاتهم واديانهم وخرافاتهم ومعارفهم . وبالجملة كل ما يعزى اليهم وينتقل بهم مما يميظ النقب عن الحقائق الغامضة و يبدد غيوم الاوهام والخلط في المباحث التاريخية التي هي صورة الانسان المعنوية فلا يسوغ ان تشوه او تحسن بل يجب ان ننقل كما هي لا كما يجب ان تكون . مثلما ينقل المصور الشمسي صورة الانسان الحي فيمثله بملامحه الطبيعية ومميزاته الخلقية حتى لا يشك من براه انه هو هو بعينه ومشخصاته والآضاعت الاصول وفسدت الحقائق والتبست الاعيان .

فالآثار انما هي السنة قوم قد مضوا تصرح بحروف غير مكتوبة احيانا عن عمرانهم وذكائهم وصناعاتهم وما كانوا عليه من بسطة العيش او شظفه والعمران او الانحطاط الى غير ذلك من التطورات .

فلنا بالآثار عبر لنقندي من احسن العمل ونعرض عن اساءه ونسفيد من المجتهدين والمتمدنين حضارة نضمها الى ما عندنا ونربأ بانفسنا عن الكسل والاهمال لانهما آفة البشر وعامل التأخر .

وسمي العالم بالآثار (أثرياً) . وعرف علم الآثار عند الافرنج باسم (Archéologie) اركيولوجي وهي كلمة يونانية مركبة من لفظتين (أرشيو) اي الآثار و (لوجيا) اي الكلام فالمعنى (البحث عن الآثار) ومنها اشتقت بقية الصبغ .

اما كلمة (Antiquité) اي انتيكيتته فهي لاتينية بمعنى شيء قديم فلذلك وضع لها المرحوم الشيخ سعيد الشرتوني كلمة العادي والجمع العاديات نسبة الى قبيلة عاد العربية المنقرضة لانها آثار المنقرضين . وقد شقوا منها الفاظاً في اصطلاحاتهم للتعبير عن هذه الاشياء . كما اخذنا نحن مشتقات مختلفة من تلك الأصول .

### ما هي انواع الآثار ؟

لاخفاء ان من الآثار ما هو معروف وموجود مثل ما اكتشف ويكتشف . وما هو معروف غير موجود كمنقود ملوك الرعاة المصر بين المعروفين بالمهكسوس . وكنقود



الفينيقين وكتاب سنكنيا تون اقدم مؤرخ مدني في العالم يعاصر موسى النبي . وكتابت  
العهد الاسرائيلي ونحو ذلك .

ومنها ما هو نادر الوجود كآثار ادوم وموآب ونقودهما ونقود تيطس قيصر  
المخاسية التي صكها في اورشليم تذكراً لانتصاره يوم حاصرها ولم يقف الاثريون  
الا على بضع قطع منها في متاحف اوربة

ومنها ما هو كثير الوجود كنقود الاسكندر وهذه اكتشف بعضها الدكتور جول  
روفيه الفرنسي وكنقود قسطنطين الملك ونقود الرومان والمومياء المصرية واشباهها .

### كيف قسم العلماء الآثار ؟

لقد قسم الاثريون علم العاديات الى قسمين ( احدهما بالنسبة الى القبائل واللغات  
القديمة و( الثاني ) بالنسبة الى الزمان . فمن ( اقسام الاول ) آثار المصريين والفينيقين  
والآشوريين والبابليين والكلدانيين والفلستينيين واليونانيين والرومانيين والعرب  
والصليبيين والبندقيين والعثمانيين . ومن ( اقسام الثاني ) اقدم العصور المعروفة مثل  
عصر الخليقة الى زمن موسى النبي في سنة ٢٥٠٠ ق م والعصور القديمة كالفينيقية  
والآشورية والمادية والعبرانية والهندية واليونانية والرومانية والعربية الجاهلية .  
والعصور المتوسطة كالقيصرية الشرقية والمغولية والغوتية والعربية . وكالعصور  
المتأخرة كالصليبية والبندقية والافرنجية والعثمانية .  
وفي كل منها بحاث مسنيفة وثناصيل هافية في الكتب والمجلات والجرائد عند الافرنج .

### ما فائدة الآثار ؟

ان للآثار اليد الطولى في تصحيح التواريخ القديمة وتحيص الآراء المضطربة  
وكشف الحقائق الغامضة ومعرفة صناعات القدماء وشؤونهم .

فلولاها لما حققت كتابات قدماء المؤرخين مثل هيرودوتوس اليوناني وسنكنيا تون  
الفينيقي وما نيثون المصري وبيروسوس الكلداني ويوسيفوس العبراني وسالسته  
الروماني وديودورس الصقلي وفيلون الجبيلي . والتوراة . والتواريخ الاخرى كما ترى .

## ما علامة الآثار بالعلوم ؟

ان البحث عن آثار الانسان القديمة قبل زمان التاريخ يسمى علم الاركيولوجية ويجمع بين الجيولوجية اي علم طبقات الارض وبين التاريخ . والبحث عن الصور والرموز الأثرية يسمى الايكولوجية . والبحث عن التاريخ والآثار معاً يسمى علم الانثروبولوجية اي علم طبائع البشر . والبحث عن الآثار الانسانية الكليوتولوجية . وسرد الحوادث بحسب وقوعها الكرونولوجية . والبحث عن النقود وصكها النوميسماتيک . والبحث عن الاحافير وما فيها من الآثار علم البليوتولوجية اي علم الرفات . والبحث عن خصائص الشعوب الايتنوغرافية . والبحث عن الديانات والعبادات علم الميتولوجية الخ . وبحسب هذه العلوم والآثار قسمت اعصر التاريخ الى ثلاثة ( الاول ) وهو العصر الظري اي الحجري الصواني و ( الثاني ) النحاسي و ( الثالث ) الحديدي . وعرفت فلسفة التاريخ او التاريخ الفلسفي وهو ربط الاسباب بالنواميس العامة في البشر والطبيعة .

وفرع التاريخ بحسب الشؤن والابحاث والمواضيع الى فروع لاحمل الان لسردها . ولكن التاريخ كيفها كان لاغنى له عن علم العاديات والاحافير لانها اركنه التي يعتمد عليها .

ومن احسن ما قيل في تأثير التاريخ على الانسان كلام الامام البخاري المؤرخ الشهير : « من حفظ التاريخ زاد عقله . ومن نظر في وقائع الزمان هانت عليه مصيبته » . فالعلوم المساعدة للتاريخ اذن هي : علم الآثار . والكتابات الحجرية . والمخطوطات القديمة . وعلم الاوقات . والجغرافية . وانتقاد المصادر اي فلسفة التاريخ وغيرها .

## هل عرف العرب التماثيل والصور ؟

عندنا ادلة كثيرة على ان العرب عرفوا التماثيل في اليمن وغيرها ووضعوها في قصورهم من انسان وحيوان . واشتهر بها الفرس والاندلسيون وصوروا النقود ولا سيما في عهد السلاجقة وربما كان اقدمها ما صك سنة ٥٩٧ هـ ( ١٢٠٠ م ) وعليه صورة فارس منقنة . وقد ذكر بول كازانوف : ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في الصين وغيرها صورة النبي محمد ( صلعم ) وكبار رجال الاسلام . وكان التصوير البيزنطي

شائعاً في الدولة الاموية ومنه الفسيفساء . وذكر المقرئزي: الصور الاسلامية بتطويل ولا سيما في زمن الفاطميين وعدد اسماء المصورين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منهما بالمصور وابن خراج البلسني سمي بالذهبي لان جده كتب وصور بالذهب . وذكر ان شجاع الدين بن ضياء صاحب السلطان بيبرس قد حمل الى بركة امير المغول لما سار بسفارة اليه ثلاث صور صنع يده تمثل هيئة الحج . ومن نقوشهم البديعة المخططات (الخارطات) ونقوش المرايا العربية وصور الافلاك والاسطرلابات وكتب مناسك الحج صوروا فيها الكعبة وغيرها وكذلك المعراج وميزان الشعراني ودلائل الخيرات وفي مكتبتي بعضها وفي المكاتب كثير منها .

ومن الدواين العربية ( ديوان الصباية للتمساني ) رأى منه نسخة فيها صور ابناء الامراء الاستاذ العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري وفي مكتبة باريز ( المقامات الحريية ) يخطط يحيى الواسطي سنة ٥٦٣٤هـ ( ١٢٣٦م ) فيها صور بديعة يمثل بعضها جيش العباسيين يحملون العلم الاسود وينفخون باواق فارسية ضخمة . وبعضها رعييل جمال امامها راع . وبعضها صور نساء ورجال امام قصر نفخ ورسم آخر يمثلهم تحت شجرة وعندى بعض امثاتها منقولة بالتصوير الشمسي عن كتاب الفنون العربية في المدرسة الشرقية في زحلة نشرت بعضها في مجلة الآثار في مقالة ( التصوير في الكتب ) ومقالة ( المرايا عند العرب ) والباقي معد للفسر .

وذكر ياقوت في معجم البلدان قصر المتوكل المسمى ( المختار ) كانت فيه صور بينها صورة بعة فيها رهبان واحسنها صورة شهر البيعة حتى قال الواثق يصفها :  
ما رأينا كبهجة المختار لا ولا مثل صورة الشهار  
ووجدت ثياب وطنافس قديمة عربية منقوشة عليها رسوم حيوانات وآدميين  
وبعضها قبل الاسلام .

وصوروا في قصورهم الجيوش المتخاربه ونحوها كما في لسان العرب موصوفة بقول شاعرهم :

فيه الغواة مصورون فحاجل منهم وراقص

والفيل يرتكب الرداء عليه والاسد القصاص

وقول ابي الصلت امية الانداسي في وصف قصر ( منازل العز ) المصري :

وبارجائه مجال طراد ليس ننفك من وغى خيلاء  
تبصر الفارس المدحج فيه ليس تدمى من الطعان قناه  
وترى النابل المواصل للزراع - بعيداً من قرنه مرماه  
وصفوقاً من الوحوش وطير الجوكل مستحسن مره  
سكنات تحالها حركات واختلاف كأنه اشباه  
ومما يدل على نقودهم المصورة قول البيغاء في نقود سيف الدولة المهديا اليه:  
نحن بجود الامير في حرم نرتع بين السعود والنعم  
ابدع من هذه الدنانير لم يبر قديماً في خاطر الكرم  
فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عوذة من العدم  
وفي بعض المتاحف تماثيل من صنع ملوك الاسلام منها في بيزا بايطالية تماثال بديع  
النقش من صنع الفاطميين في مصر .

وفي معجم البلدان ان اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر اوس في البصرة كان نادماً  
الى الشام فر بتدمر فاعجبته فيها تماثيلها وحرك قر يحمته تماثالا جاريتين من حجر فقال:  
فتاتي اهل تدمر خبراني اما تسأما طول القيام  
قيامكا على غير الحشايبا على جبل اصم من الرخام  
فكم قد مر من عدد الليالي لعصر كما وعام بعد عام  
وانكنا على مر الليالي لا يبق من فروع ابني بشام  
الى آخر الابيات فلما انشدها يزيد بن معاوية بن ابي سفيان في هذه العاصمة قال:  
يزيد: « الله در اهل العراق هاتان الصورتان فيكم يا اهل الشام لم يذكرهما احد منكم  
فمر بهما هذا العراقي مرة فقال ما قال » . ولقد وصفها ابو الحسن العجلي بقوله :

ارى بتدمر تماثيل زانتما تأنق الصانع المسنغرق الفطن  
هما اللتان يروق العين حسنهما يستعطفان قلوب الخلق بالفتن  
وقال الجعري في وصف صور ابوان كسرى في المدائن من قصيدة بدبعة:  
فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس  
والمنايا موائل وانوشروان يزجي الصفوف تحت الدرفس

تصف العين انهم جد احيا ء لهم بينهم اشارة خرس  
 يغتلي فيهم ارتياحي حتى نلقاهم يداسي بلس  
 وتال ابو عمران الكردي في تمثال ابرويز ملك الفرس ممتطياً فرسه شبديز وقربه  
 جاريته شيرين بالوان بدبعة :

وهم تقروا شبديز بالصخر عبرة وراكبه برويز كالبدر طالع  
 تلاحظه شيرين والخط فائن وتعطو بكف حسنتها الاشاجع  
 يدوم على كرك الجديدين شخصه ويلقى قويم الجسم واللون ناصع  
 وقال شاعر اندلسي في تمثال حجري كان في حمام الشطارة في اشبيلية :  
 ودمية مرمر تزهو بجيد نناهي في التورد والبهاض  
 فاولد ولم تعرف حليلاً ولا ألت باوجاع الخاض  
 ونعلم انها حجر ولكن نتيما بالحاظ مرض  
 وقال التطهلي الاعمى في اسد يمج الماء من فيه في بركة :

اسد ولو افي انا قشه الحساب لقلت صخره  
 فكأنه اسد السما ء يمج من فيه الجره

وتال صاعد اللغوي في صورة جارية في سفينة تجذف :

واعجب منها عادة في سفينة مكلمة يهفو اليها المهاتف  
 اذا راعها موج من الماء نثقي بسكانها ما اندرته العواصف  
 متى كانت المسنن بان مركب تصرف في ثني يديها الجادف  
 ولم تر عيني في البلاد حديقة ننقلها في الراحتين الوصائف

وحكى ابن خرداذبه عن فرس نحاس بارض الاندلس باسط يده كأنه يقول :  
 ليس خافي مسلك . وقال : ان في مدينة طليطلة تصاور افراس مكتوب عليها : لانفتح  
 هذه الارض حتى يأتيها قوم يشبهون هذه التصاور . وكانت تلك التصاور تمثل  
 العرب على خيولهم بعائهم وقسيمهم .

ومن صور اعضاء الجسم ما في مجموعة طبية في مداواة العيون في المكتبة التيمورية  
 نسخت سنة ٥٥٩٢ (١١٩٥م) بخط عهد الرحمن بن يونس ابن ابي الحسن الانصاري

في ثمانين رسائل قديمة منها تذكرة الكحالين للموصلي فيها دوائر ورسوم للعين واهمها «السابعة» وهي لحنين بن اسحق في تركيب العين وعللها وعلاجها ذات خمسة رسوم للعين ملونة بديعة رسم بعضها في تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جرجي زيدان .  
ومن اغرب الكتب المصورة عندنا نسخة من ( قانون ابن سينا ) شيخ الاطباء في مكتبة السلطان محمود في الاستانة فيها رسوم نباتات واسماك وحيوانات نسخت في القرن الخامس للهجرة . (وعجائب المخلوقات) للقزويني رأته منذ بضع عشرة سنة في دمشق في مكتبة آل الايوبي وهو مصور بالوان بديعة وقد طبعت ترجمته بالفارسية على الحجر في طهران بانقان في الرسوم والخط . (مسالك الابصار في سلوك الامصار) لشهاب الدين احمد الكرمانلي العمري المعروف بابن فضل الله من اهل القرن الثامن للهجرة وهو جزآن في الحيوان والنبات ووجد منه نسخة منقنة في دمشق بصور ملونة بالوانها الطبيعية كانت عند صديقي جرجس بك صفا في لبنان . (حياة الحيوان الكبرى) للدميري من اهل القرن التاسع للهجرة منه نسخ مصورة تميز الحيوانات وبعض الآدميين وطبع في العجم مصوراً .

وذكر ياقوت الرومي الحموي في معجم الادباء ( اي ارشاد الارب الى معرفة الاديب ) مانصه : «وكنت سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م) قد توجهت الى الشام وفي صحبتي كتب من كتب العلم انجز فيها وفي حملتها كتاب (صور الاقاليم) للبلخي نسخة رائعة مليحة الخط والتصوير فبعتها من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب حلب بتخيير المشتري من غير كسب» اه .

وفي مكاتب باريز وبطرسبرج وغيرها كتب عربية ورسوم رجال يرمون النفط وصورهم بانقان وتلوين . ومنها (كتاب الكواكب والصور) لابي الحسن عبدالرحمن الصوفي من اهل القرن الرابع للهجرة وانسخه المصورة المنقنة في باريس وبطرسبرج والاسكوريال واكسفورد . وادق نسخة في كوبنهاغن وهي ملونة الرسوم وكواكبه بهيأة ما تمثله من آدميين وحيوانات وطيور بالوانها وطبع في روسيا بدون تلوين ورأيت منه نسخة في المكتبة الاحمدية بحلب سنة ١٩٠٩م وقد كتبت ١٠٠٥هـ (١٥٩٦م) وفي المكتبة الظاهرية بدمشق قطعة من مخطوط قديم في علم الخيل وفيه صور

بقي منها رسم الحصان بعيوبه وقد كتب مقابل كل عيب اسمه بالعربية وهو رسم جميل دقيق . وفي مكتبة مدرسة (الثلاثة الأعمار) الارثوذكسية في بيروت كتب فلكية مصورة . وفي مكتبة بطنا الهندية كتاب ( التصريف في الجراحة ) للشيخ أبي القاسم الزهراوي نسخ سنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨ م ) وفيه صور الآلات الجراحية بأثقان تام (١) ولقد ظهرت آثار قديمة في الابنية تحقق معرفة التصوير عند العرب من ذلك ان الدكتور هرتسفلد من اساتذة جامعة برلين الذي نكب عن آثار الصناعة الاسلامية في العراق سنة ١٩١١ وجد في مدينة سامرا اطلال جامع بناه المتوكل على الله كما ذكر اليعقوبي وعلى جدرانها نقوش وصور شرقية بارزة وغائرة في الجص ( الجيصين ) وهناك تصاير ملونة في مواضع الجص المغنلة من النقوش مختلفة الالوان والاشكال بينها صور الادميين ملونة جميلة الطراز وكذلك قصور العباسيين المصورة .

### كيف جمعت الآثار ؟

ولع الناس منذ القديم بجمع آثار من تقدمهم من الامم في متاحف وكن اليونانيون اسبق الناس الى ذلك وعدوا هذا من الفنون فسمي المتحف عندهم (Musée) باللغة الافرنسية و (Museum) بالانكليزية منسوبا الى ( موزه ) إلهة الفنون . واقدم متحف انشئ في سورية متحف بيروت بزمان اغربها الثاني الروماني انشأه في القرن الاول للميلاد في هذه المدينة السورية ونقل اليه نفائس التماثيل والنقوش والفنون الصناعية من جميع المدن السورية فاغناظ منه سكان المدن الاخرى ولا موه على ذلك ولكن سكان بيروت كانوا راضين عنه كل الرضى . والعرب الشأوا في دمشق متحفاً بزمان الامويين لآثار القدماء معنيين بجمع آثار الادب والصناعة والدين سموه (سوق الطرائف) وكذلك كان في بغداد (سوق الطرائف) لبيع النفائس فضلاً عن اسواقهم في عكاظ ومرصد البصرة مما كان اشبه بالمتاحف او المعارض .

واول متحف اعنتت به حكومة عربية متحف مصر بزمان الشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ ارباب النهضة العلمية في مصر في اوائل القرن الماضي .

(١) وهو الكتاب الذي اهدي اخيراً الى خزانة مجمعنا العلمي .

وفي بلادنا الشيء متحف القدس سنة ١٩٠١ م. ومتحف بعلبك نحو سنة ١٩٠٥ م  
ومتحف صيدا في هذه الفترة ومتحفنا هذا في اوائل سنة ١٩١٩ م ومتحف  
بيروت سنة ١٩٢٢ .

### ما هي قيمة الآثار ؟

لا تقدر قيمة الآثار بحسب كبرها او معدنها او نقشها او جمالها او اشكلها وانما بحسب  
فائدتها التاريخية فمن الآثار ما هو نادر جداً فهو ذو قيمة ثمينة ومنها ما هو مفيد تاريخياً  
ومنها ما هو مفيد صناعياً ومنها ما هو مفيد علمياً الى امثال هذه الفوائد الرائعة ولولا هذه  
القيم لما تبارى الافرنج بنقل الآثار وحشدها في المتاحف والاتفاق على حفرها وجمعها  
وترتيبها وانشاء المجالات لوصفها ووضع المعامير لنصايتها وتاريخها وحفظ صورها .  
وفي سنة ١٩٠٤ م ظهر في قرية تل المتسلم التابعة قضاء حيفا من بلادنا خاتم  
لي شمع ( اسيه ير بعام بن سليمان ) من حجر اليشب نقش عليه صورة سبع فاغر فاه  
وعلى اطرافه اسمه بالعبرية وهو قبل الميلاد بنحو تسعة قرون فقدّر ثمنه بخمسين الف  
فرنك اي الفين وخمسة مائة ليرة افرسية .  
وجمع احد اغنياء سان فرانسيسكو في اميركة الشمالية نقوداً قديمة قدرت قيمتها  
بعشرين الف ليرة انكليزية منها شاقل فضة من ايام داود الملك وهو من نوادر  
الآثار واقدمها .

وسنة ١٨٧٧ م نقل قائم (مسلة) كليوباترة من مصر الى لندن ونصب على ضفة نهر  
التيمس فانفق عليه نحو عشرة آلاف ليرة انكليزية .  
وفي المتحف البريطاني آثار منها جثة منكورع المصري باني الهرم الثالث في  
الجزيرة قدر ثمنها بخمسة وسبعين الف ليرة انكليزية . وحجر رشيد الذي قرئت به الهبرو غليفيه  
بثمن عشرة آلاف ليرة . ورخامات البلجن اشتراها اللورد ايلجن سفير انكلترة في  
الاستانة بسبعين الف ليرة انكليزية ثم نقلها الى لندن سنة ١٨٠٥ م وباعها الى المتحف  
بنصف القيمة فنسبت اليه مكافأة له .

وفي متحف برلين الالمانى نحو سبع عشرة جثة مصرية مخططة أنفقت الحكومة



للحصول عليها ثمانمائة الف مارك . وانفق متحف الاستانة سنة ١٨٨٧ م على نقل آثار صيداء اليه نحو عشرة آلاف فرنك .

وبيع نحو سنة ١٩١٧ م كثير من الآثار بأثمان عظيمة مثل تمثال ائنة الذي يرجح انه من نحت فيدياس اليوناني الشهير بسبعة آلاف ومائة واربعين ليرة انكليزية . وتمثال اثينوس يحمل الكاس لاريانوس بقيمة ٥٨٨٠ وتمثال هيجيه الهة الصحة بنحو ٤٢٠٠ ليرة وكاس خزفية كانت للملك هنري الثاني بقيمة ٣٧٨٠ ليرة وتمثال امرأة يونانية مما كان يوضع في المعابد تذكراً بثمن ٣٥٧٠ ليرة .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ م ثمثت مجموعة النقود القديمة التي كان يجرزها ( دوق ) كليارا بنصف مليون فرنك تقريباً وعدد النقود المجموعة لا يتجاوز ألفاً ومائتي قطعة فقط .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ ايضاً بيع بالمزاد في متحف القس مكروغور تحفة مصرية هي رأس صغير للملك امنمحات الثالث من الدولة الثامنة عشرة وهو من السبج ( الحجر الزجاجي الاسود ) بقيمة عشرة آلاف جنيه .

### كيف تحقق الآثار التاريخ ؟

من اقدم الآثار التي اثبتت العلوم والصناعات والاختراعات ما احنقر من عاديات المصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين فحقق وجودها ان تلك الامم عرفت كثيراً من ذلك مثل المكبرات او العدسيات التي وجدت في اطلال بابل والخطوط الدقيقة التي كتبت على الآجر فانها تدل على اتخاذهم تلك البلورات المكبرة لهذه الغاية وعرفوا الزجاج الشفاف والظليل الملون وانقنوا التطريز والتمويه بالذهب وغيره المعروف في ايامنا بالظلي وصقلوا الحجارة الكريمة ونقشوها باثقان وحفروا الترع وحنطوا الموتى وبرعوا بعلوم الفلك والرياضيات فقسموا النهار الى ساعات ودقائق وثوان لاتزال دستور العمل بها الى يومنا . وعرفوا السنة الشمسية والتمريية وعينوا الكسوف والخسوف واقاموا المراصد واخترعوا المزاويل وبرعوا بالطب والكيمياء . والبناء المزخرف بالنقش والحفر والتصوير واقامة التماثيل . واتخاذ المكاتب والنأليف بالعلوم ووجود المعالم المعروفة اليوم

بالانسكلوبديايات او دوائر المعارف والمدارس العالية . ووضع الشرائع او الاشتراع والتدين بصور مختلفة الى كثير من امثال هذا .

وعثر بعض المنقبين في المكسيك ( اميركا ) على كتابات تاريخية تشير احداها الى اكتشاف خمسة من الكهنة البوذيين الصينيين لاميركا في القرن الخامس للميلاد فعول المؤرخون على هذا الرأي وعرفوا ان هؤلاء اكتشفوا اميركة قبيل الاخوة المغرورين ( Magrorim ) وهم ثمانية من العرب تركوا الشبونة لاكتشاف اميركة كما صرح بذلك المؤرخ الاسباني كوندري والشريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق وسمي طريقهم في شبونة ( درب المغرورين ) الى يومنا وذلك قبل كولمبوس بستين سنة . وكشفت كتابة اسكندرية نافية على حجر بتار يخ سنة ١٣٦٢ م تذكر ان ٣٠ رجلاً من اسوج ونروج وطئوا اميركا ووصلوا الى بلدة ( ميناسوتا ) قبل كولمبوس بمائة وثلاثين سنة ولكن الكتابة الاولى اثبتت ان فضل اكتشاف اميركة كان للصينيين . وربما ظهر ما ينقض هذا ايضاً .

ومن اهم ما افادت الآثار التاريخ قراءة الخطوط القديمة بمعارضتها والاطلاع على تاريخ الاقوام التي طمست آثارها فكان اكتشاف بعض الآثار المكتوبة وحملها الى كرونفند الالماني سنة ١٨٠٢ م سبباً حاملاً على قراءة الخطوط السامرية التي كثرت في وادي الرافدين اي دجلة والفرات . فقرئت اخبار الام التي ملأت تلك البقاع وعرف عمرائها وتمدنها . وكان هنري رولنسون الانكليزي قد قرأ خط صخرة بيهستون السامري في كردستان سنة ١٨٣٧ ايضاً .

وهكذا كان الحال في قراءة الخطوط الهيروغليفية اي المصرية القديمة وكشف الاستار عن وجوه تاريخ الامة المصرية ومعرفة درجة حضارتها . والفضل في ذلك عائد لسامبوليون الفرنسي الذي قرأ حجر رشيد الهيروغليفي سنة ١٨٢٢ م وهو عمود منقوش بالقلم المصري واليوناني واللاتيني فحققت الآثار المكتشفة وستحقق ايضاً كل ما نغمض من تاريخ مصر بين وبلادهم .

وعرف من هذه الآثار وحل رموز اللغتين ان الخط السامري له علامة تدل على الفاظ كثيرة والهيروغليفي له علامة تدل على لفظة واحدة .

واشتهر اوستن ليرد سفير فرنسه في الاستانة باكتشافاته الاشورية سنة ١٨٥٠

ولاسيا صفائح الاجر وهي نحو عشرة آلاف نقلها الى اوربة فتبارى العلماء في حلها و برعوا بقراءة القلم المسماري فاجاز المسيو بولن ناظر المعارف الفرنسية المسيو اوبرت بعشرين الف فرنك لانه نجح بقراءة اللغة المسماية . وهكذا كانت الابحاث متواصلة في تحقيق ما غمض من توار يخ الامم القديمة بوجود آثار عمرانهم في الانقاض وعين موضع نينوى انه في محل كوينجيك في شرق الموصل الجنوبي . وكالح في محل اخر بة نمرود في جنوبي الموصل الى جنوبي نينوى .

وجاء في التوراة حادثة الخلق والسقوط والطوفان و برج بابل و يوسف في مصر و تفسيره حلم فرعون و حدوث سبع سني جوع و مثلها سبع و بناء سليمان الملك بلدة ماجدو ( تل المتسلم ) التابعة حيفا و حروب موآب و اسرائيل و اشور فاكتشف جورج سمش الانكليزي سنة ١٨٦٧ م كتابات على الغضار تثبت التكوين و السقوط و الطوفان بتفاصيل اشبه بما دون في التوراة . و سنة ١٩٠٢ م اكتشف دي ميلي شيئاً عن برج بابل يدل على بقائه في القرن الرابع بعد الميلاد و ان يختصر ملك بابل رحمه في القرن السادس قبل الميلاد و انه مبني قبل ذلك العهد باثنتين و اربعين قرناً و عرف ان قياسه كان غربياً فطول اساسه من جهة واحدة ١٨٦ متراً و علوه ٢٢٥ و سماه التي يصعد عليها اليه ذات ٣٦٥ درجة و عين محله قرب طيسفون ( المدائن ) و وجد الدكتور برغش سنة ١٨٩٠ م قرب الاقصر في مصر عند ثنية حجراً عليه خطوط هير و غليفيه منها كتابة لاحد الكهنة معناها : « ان النيل لم يفيض ماؤه سبع سنوات » و ذلك يؤكده سني الجوع بزمن يوسف . و سنة ١٩٠٤ م اعاد الحفر الدكتور شوماخر فاطهر في تل المتسلم ( اي مجدو ) اطلال قصر شيده سليمان و ذلك يوافق كتابات تل العارنة في مصر : ان سليمان شيده بلدة مجدو و بنى فيها قصراً .

و سنة ١٨٦٩ م اكتشف المسيو غانو قنصل فرنسه في القدس حجر ديبون ( ذيبان ) قرب مادبا شرقي البحر الميت و هو من الحري ( Beselet — الاسود البركاني ) و عليه كتابة سامية عبرانية بحرف فينيقي من ٢٤ سطراً محفورة تتضمن سرد حروب موآب و اسرائيل على عهد يوشافاط ملك يهوذا و يورام ملك اسرائيل ( ٤ مل ٣ : ٤ ) كتبت سنة ٨٩٦ ق م فنقلت الى فرنسة .

وسنة ١٨٦٦ وجد جورج سميث الانكليزي كتابات على الاجر من عهد شلناصر الثاني توذن بحرب حربه مع حزائيل ملك الشام .

وسنة ١٨٧٤ م بحث الدكتور شليمان الالماني الاثري عن اطلال طروادة قرب جبل اولبوس في بروسه فوجد مدينة محترقة وعثر على قبر اغاممنون في ميسينا . وشاهد كثيراً مما يؤيد قول اوميروس في الياذته .

واكتشفوا مندبضع سنوات قرب بورديو (فرنسه) ناووساً رومانياً من القرن الاول للميلاد ففتحوه ووجدوا هيكل عظام بالية وانا خزفياً سورياً فيه خر فاستدلوا منه ان العلاقات التجارية كانت متصلة بين اوروبه وسورية في ذلك العهد .

وسنة ١٨٧٩ - اكتشف الدكتور شليمان في طروادة كاساً مكتوبة تدل على ان التجارة كانت رائجة بين الصين واوروبه قبل الميلاد بالف ومائتي سنة . ووجد ضمن تلك الكاس نسيجاً صينياً .

واكتشف في صيداء منذ سنوات قبر الاسكندر المكدوني ونقل الى المتحف العثماني في الاستانة وبقي العلماء على شك من امره الى ان ظهر قبر هذا الفتح العظيم في ممفيس في القطر المصري فقطعت جبهة قول كل خطيب وفسد الرأي الاول وثبت الثاني .

ولما اكتشفت آثار تل العمارنة قرب المنية في صعيد مصر سنة ١٨٨٨ م وهي سجلات الدولتين المصرية والسورية ومراسلاتهما في ايام امينوفيس الثالث وابنه امينوفيس الرابع قرأ الاثريون اسماء مدن سورية قديمة لاتزال على حالها الى يومنا مثل عكا وصيدونا (صيداء) وصورتي (صور) وبيروتا (بيروت) وجبلة (جبيل) واروادا (ارواد) ودمسقا (دمشق) وقطنا (قرب دمشق) فضلاً عن الاعلام اللبنانية مثل البترون وجونيه وشكه والاعلام البقاعية مثل شتوره ومكسه فثبت قدم هذه المدن

وسنة ١٨٨٠ م ظهرت آثار بواسطة نقب المستر سمبسن المرافق للجيش الانكليزي الى وادي جلال اباد في افغانستان دلت على انه كان في ذلك الوادي قديماً من المتزهدين البوذيين اكثر من عدد سكانه اليوم .

واستدل هذا الاثري من نقود رومانية وجدها هناك ان بلاد الافغان كانت في القرون الماضية طريقاً للتجارة من واسط اسيا الى بلاد الهند .

واستخرج الاستاذ سنفنزن آثاراً قديمة من بلاد المكسيك الجديدة في الولايات المتحدة بينها صنان مجنحان مصري الشكل وآثار أخرى تشبه آثار الشرق القديمة . وكلها دلت على شؤن تاريخية جديدة كان المؤرخون في ريب منها فتحقق لهم امرها . وذكر بروشيوس المؤرخ الكلداني من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ان مملكة العالقة العرب في العراق حكمت ٢٤٥ سنة وقام منها تسعة ملوك حكموا بين دولتي الكلدانيين والآشوريين وذلك من سنة ٢٤٦٠ - ٢٠٨١ ق م . فبقي قوله مشكوكاً فيه الى ان كشف دهرمرغان الفرنسي سنة ١٩٠١ م آثار سوسة بين النهرين على الأجر فنقلت الى متحف اللوفر في باريس . وظهر منها ان الدولة الساموية العربية خلفت العيلاميين واشتهر منها جامورابي وشريعته وكانت القابله « ملك بابل وسومار وعقاد وملك اربعة الارباع » . فثبت رأي بروشيوس وصح تاريخه . وهكذا قل ان الآثار المصرية حققت اخبار دولها القديمة ومنها الرعاة (الهكسوس) الذين يرجح انهم من عمالقة العرب ايضاً . فصصح تاريخ مصر بعد اضطرابه . وهكذا كانت آثار فينيقية المكتشفة في الايام الاخيرة ناقضة لكثير من اراء رينان الفرنسي الذي جاء لبنان سنة ١٨٦٠ م ونفق آثاره والف كتابه ( البعثة الفينيقية ) فصححت الآثار المكتشفة ما كتبه في بعض المواضع متكهناً . ونحو سنة ١٨٩٥ م كان الارثوذكس في قرية مادبا في فلسطين شرقي بحيرة لوط يرمون كنيستهم فظهر عند الحفر فسيفساء كثيرة لم يسألوا بها اولاً فشيّدوا الكنيسة ثم بدأوا ببناء دار ملاصقة لها فظهر لهم قطعة فسيفساء جميلة جداً كانت من بلاط الكنيسة القديمة تمثل مخططاً او مصوراً ( خارتة ) لبلادنا من لبنان الى مصر ومن البحر الى ما بين النهرين وفيها المدن والقرى وأسماؤها بديعة التلوين والرصف ولكن بعضها مهشم فبعد ان كانت مساحتها نحو ٢٨٠ متراً لم يبق منها الا ١٨ متراً سالماً تمثل بعض فلسطين وهي من عمل القرنين الرابع والخامس للميلاد . وفيها اسماء مدن مجهولة اليوم يمكن تعيين مواقعها فضلاً عن اسمائها القديمة والحديثة باليونانية مع دقة اشكالها وابعادها واخص آثارها وبيان السهول والرعان والجبال والانهار ملونة بالوانها الطبيعية . فترى جزءاً من نهر الاردن بتمعجاته

وتعاريجه الكثيرة وفي مجراه الاسماك مع جسر شمالي اريحا الشرقي . وترى في بحيرة لوط المراكب الشراعية ثم تشاهد جزءاً من الغور وفيه غزالة يطاردها اسد الى اشباه هذه المتخصصات البديعة .

وأهم ما بقي منها صورة اورشليم في ذلك العهد وتخطيطها باحيائها وشوارعها وابنتها بالوان تأخذ بمجامع الابصار رواءً .

فأفاد هذا المخطط علم رسم الارض ( الجغرافية ) والتاريخ فوائد جمّة وصحيح كثيراً من الاوهام في مواقع بعض المدن والقرى واسماؤها فهكذا تحقق الآثار التاريخ . وما تراه في غموض التاريخ العربي قبل الاسلام سيجلي باظهر بيان بعد حفر آثار شبه الجزيرة والوقوف على ما هنالك من الكتابات والابنية والنقود وما شا كل من الآنية والآثار والعاديات على اختلافها . كما فعل الاستاذ موزل النمسي سنة ١٩٠٢ م باكتشافه قصر الخلفاء في صحراء البادية وقلعة العمرة وكثيراً من الاخرية والانقاض القديمة وغيره من الاثرين والحفارين .

وسنة ١٩٠٣ م اكتشف في حوران رسوم اوراق العنب وعناقيده يقال انها من نقش الحمير بين العرب قبل اليونان والرومان فدل على صحة حضارتهم ونقوشهم . وسنة ١٩٠٣ م ظهر في المدافن المصرية بزدي يحتوي على قصيدة ( الفرس ) لناظمها تيموثاوس الشاعر اليوناني يصف فيها بكل دقة معركة سيلاميس الهائلة التي اندحر فيها اخسرخوس الفارسي من وجه اليونان فثبت بها صحة المعركة تاريخياً .

وسنة ١٩٠٥ م ظهرت اطلال وادي موسى عند حفر الطريق للسكة الحجازية وصح تاريخ مدينة الحجر اوتيرا اوسالع ومن اهم تلك الآثار ( قصر فرعون ) و( خزنة فرعون ) وغيرها مما وصفه بعضهم .

وسنة ١٩٠٨ م ظهر في مدينة جبيل اللبنانية تمثال بديع يمثل ( هرمس ) الذي كان عند اليونانيين اله الطرق والمسافرين والتجارة ورسول سائر الالهة وهو ضخم بديع من الحجر الكاسي الصلب وربما كان من عهد خلفاء الاسكندر وهو يؤيد ما ذكره التاريخ من حراسة طريق البحر في المقديم بالهة من اشباه هذه ولا سيما عند اليونانيين ولا يزال مضيق نهر الكلب شاهداً على ذلك الى يومنا .

ونحو سنة ١٩١٠ قرى بردي مكتشف حديثاً في مصر يؤيد ما في كتابي عزرا ونحميا من التوراة و ثبت صحة تاريخ العبرانيين في ذلك العهد . ومن عجيب ما رواه البردي المذكور ان ملوك يهوذا كانوا يبيعون رجالهم جنوداً للمصريين و يأخذون اثمانهم خيلاً وذلك يخالف الشريعة الموسوية و يدل على جور الملوك و مخالفتهم للشرائع . وفيه اقوال من سفر طوبيا والامثال واساطير ايزوب واشعار ديمقراطس . واغرب من هذا وجود اجزاء فيه من كتاب احيقار المعروف عند العرب وله اقايصص غريبة .

ووجد محراث اشوري في نقر ( نبور ) ومعه وعاء لبذر الحبوب مما يدل على انه عند الحراثة يهتز الوعاء فتسقط منه الحبة اثر الاخرى و تطمر .  
ونحو سنة ١٩١٢ م اكتشف هيلبرشت الاميركي قطعة آجر كتب عليها حادثة الطوفان تاريخها نحو التي سنة قبل الميلاد فوافق ما فيها بل تم ما رواه الكاهن البابلي باروز ونقله عنه يوسفوس وغيره .

ونحو ١٩٠٥ م اكتشف الدكتور سالين النمسوي في تل تعنك اي مرج ابن عامر ابنية واواني من القيشاني والصيني كانت تصنع في فلسطين ولا سيما في زمن الكنعانيين فثبت بهذا ان القيشاني لم يكن من عمل العجم بل اقدم منهم اتصل بقاشان ونقله الدمشقيون واشتهروا به .

وسنة ١٩١١ م كانت حكومة اسبانية تبحث عن مدينة عربية خفيت عن الاعين آثارها فوجدوها مطمورة تحت الارض واسمها ( الزهراء ) وضاحتها تسمى ( الزهيرة ) او ( بليس ) على بعد قليل من قرطبة . فظهرت اطلالها البديعة ونقوشها الرائعة فثبت ما رواه التاريخ من انها موجودة لا مكذوب فيها وان فيها مدرسة كانت تمثل الاحياء بالصور والرسوم وكانت الامير عبد الرحمن يعاوضها وامه المسيحية تنشطها وتدر عليها المال . ووجدوا هنالك كثيراً من انواع الخزف والمجرات والزجاج الملون من صناعات العرب في الاندلس .

وسنة ١٩١٣ م ثبت للآثر بين موقع جرابلس او كركميش عاصمة الحثيين على ضفة الفرات بين حلب وبغداد وهي التي اشار اليها ( سفر الاخبار الثاني ٣٥ : ١٢٠ )

بقوله : « وصعد نيجو ملك مصر لقتال كركيش عند الفرات فخرج عليه يوشيا »  
 وكان رولنسن الانكليزي ومسيرو الافرنسي قد ظنوا مننج قرب حلب ثم قرر سكان  
 الانكليزي وجورج سمث وطنيه انها جرابلس فحققتها الآن البعثة الانكليزية فيها  
 ولو قرئت الكتابة الحثية لظهر بهذه الاكتشافات غرائب . وكلمة جرابلس تحريف  
 ( هيرابوليس ) اي المدينة المقدسة . وفي مجلتي الآثار وصف لهذه المدينة وآثارها  
 المثبتة لتاريخها ( ٣ : ١٦١ و ٢٥٣ و ٣٥١ ) .

وسنة ١٩١٨ توفى الدكتور ريزنو الانكليزي في حفريات في السودان المصري  
 الى تحقيق ملوك ايتويه بين القرنين السابع والحامس قبل الميلاد فبعد ان كان  
 المؤرخون لا يعرفون منهم الا ترحانا وخلفه نانوتامون اظهرت الآثار منهم اثنين  
 وعشرين ملكاً حكموا من سنة ٦٦٨ — ٣٠٠ ق م وكشفت قبور كل منهم ومن  
 ملكاتهم وانبائهم فتحقت سلسلتهم وعرفت أسرهم . وكذلك كان المؤرخون في  
 ربة من امر الملك نستين فتحقق انه وجد بعد كمبيز بقرنين لانه كان معاصره  
 فكانت الآثار ناقضة للاوهام التي كانت في تاريخ اولئك الملوك فسدت ثلثة في تاريخهم  
 ومحا اليقين الشك بشأنهم .

وسنة ١٩١٩ م أعلنت المجلات الاثرية خبرا اكتشاف مهم في علم الآثار وهو  
 ان الدكتور فردريك هرورفي استاذ اللغات السامية في جامعة فينه في النمسه قد  
 اهتدي الى قراءة اللغة الحثية التي كانت قراءتها متعذرة كل هذه المدات على العلماء  
 وما ذلك الا لعدم وجود كتابة حثية مع كتابة أخرى معروفة ليتمكن مقابلتها وحل  
 رموزها كما جرى في قراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسارية  
 الاشورية . فعالج كثير من العلماء حروف الحثية مقابلة ودرسا وتحقيقاً فلم يظفروا  
 منها بطائل الى ان بشرنا الصحف ان هذا الطيب النمسي قد قرأ الكتابات الحثية  
 ووضع فيها رسالة بين اصولها وصفاتها مما دل على ان اللغة الحثية هي اخت اليونانية  
 من اللغات الآرية او الهندية الاوربية مثل اليونانية واللاتينية . بعد ان كان العلماء  
 يعدونها من اللغات الحامية . وكانت الحثية مستقلة عن اللغات الهندية الاوربية اي  
 اللغات المشابهة للاتينية والهندية الايرانية والارمنية في القرن الرابع عشر والثالث



عشر قبل الميلاد . وان الحثيين انفسهم من سلالة هندية اوربية لا حامية ولكن امتزج بهم دم غير الدم الهندي الاوربي على طول الزمن . وان عمرانهم كان يضاهي العمران البابلي والاشوري . وكان اول ذكر لهذه الامة الحثية سنة ١٩٣٠ ق م . وهم الذين قضوا على دولة السموآبيين التي نبغ منها حمورابي المشرع الشهير فخلفوه في العراق . وبلغت دولتهم اوج مجدها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد في عهد صيلوليا وخلفائه وقد ملكوا كل اسية الصغرى حتى امتدوا الى سورية وفلسطين واتصلوا بالقطر المصري . وان نجم مجدهم اخذ بالافول في اول القرن الثاني عشر قبل الميلاد الى كثير من هذه التحقيقات .

وهناك امور كثيرة نحتاج في تفصيلها الى مجلدات اجتزأنا منها بهذا القدر . ويحسن ان نختم هذا البحث بملاحظات ذات شأن في الآثار : ان المؤرخين حتى عهد قريب كانوا قد اختلفوا بتسمية اسكندر المكدوني بذية القرنين فبعضهم قال انه كان له حصان بقرنين . وقيل كان للاسكندر ذؤابتان مرئفتان تشبهان القرنين . وقيل لتملكه قرني الشمس اي المشرق والمغرب . ولكن الآثار التي ظهرت فيها نقود الاسكندر المصكوكة بعهد دلت انه صور نفسه فيها بصورة امون الذي كان يمثل بقرنين كقرني الكباش فسموه بذية القرنين وهو اظهر الادلة على تلك التسمية . وهكذا تاريخ العرب في شبه الجزيرة ما زال غامضاً ولا سيما في زمن الجاهلية . ومع ذلك فان ما حققه السياح وما اكتشفه الاثريون وقرأوه من الكتابات رفع حجب الوهم عن اشياء كثيرة من عمرانها . فاكشف ارنو سنة ١٨٥٣ خطوطاً واثاراً حقق بها اما كن صنعاء والحربية وحرّام بلقيس ومأرب فوضع مخططاً ( خارطة ) لآثار سد مأرب الشهير ثم تعقبه كثيرون مثل هاليفي سنة ١٨٦٩ م فاكشف بلاد الجوف التي مرّ بها اليوس فالوس الفاتح الروماني . ثم اكتشف في جهات نجران مدينة ( معين ) عاصمة المعينيين من دول اليمن العظيمة . وكما كثرت الابحاث الاثرية زاد تحقيق هذا التاريخ فعرفت الآن تواريخ دولة المعينيين والسبأيين والحيريين في اليمن والانباط والتدمريين والساسانية في شمالي بلاد العرب . والسموآبيين

او الجمهوريين والمخمين في العراق . وايدت ما عرفت عن القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها .  
 وما كم الان مثلاً مما حققته الآثار عن سكان بلادنا القدماء فلولاً الآثار — التي ظهرت في مصر ووصفت غزوة تو طيميس ( تحوتيميس ) الاول ملك مصر الذي غزا سورية والعراق حيث نينوى وبابل سنة ١٦٥٠ ق م وهو من الاسرة الثامنة عشرة من الاسر المالكة في مصر — لما عرف المؤرخون ان سكان هذه البلاد القدماء هم اللوديون او الروتيون ويقال اللودانيون او الروتانيون وهؤلاء السكان الذين كانوا في هذه البلاد جميعها هم اخوة الاراميين وأقدم منهم في سكنى بلادنا . وأيدت تلك الآثار القديمة ما نقش على هيكل الكرك في مصر ايضاً اذ ذكر ان تو طيميس الثالث نحو سنة ١٦٢٥ ق م جاء سورية لتدويج الروتان الذين امتنعوا عن دفع الجزية التي صر بها سلفه تو طيميس الاول عليهم . وظهر في المتحف البريطاني اثر من طبقة المصرية يمثل رجالاً من هؤلاء السكان القدماء يقدمون الهدايا لفرعون او احد خاصته .

فنفض هذا الرأي قول المؤرخين ان سكان سورية القدماء هم الاراميون واثبت انهم هم اللوديون او الروتيون كما سبق في محاضرة ( حقائق تاريخية ) صفحة ١٥٠

### الختام

هذا ثم من قطر ونقطة من بحر من فائدة الآثار القديمة في التاريخ لان تفصيل ذلك يحتاج الى مجلدات ضخمة ومراجعات مستمرة على ان زبدة القول ان اسفار التوراة ولا سيما اسفار موسى الخمسة منها وتواريخ المصريين والكلدانيين والاشوريين والبنابليين والماديين والحثيين والروتانيين والاراميين والفينيقيين والقرطاجيين والفلسطينيين والعبرانيين والفرس والعرب واليونان والاسبرطيين والمكدونيين والسلوقيين والبطالسة والمكابيين وممالك آسية الصغرى والرومان والافرنج كلها اليوم مصححة بحسب الآثار القديمة والعاديات وربما ظهر اشياء جديدة تنقض بها الآراء القديمة .

وكفى بهذه العجالة الآن شاهداً عدلاً وبرهاناً دامغاً على ان الآثار القديمة ليس جمعها من الكماليات بل من الضروريات وليس في جمعها والاستفادة من درسها الا تحقيقاً للتاريخ وتجديداً لذكرى الاسلاف .

\*\*\*

فاناشدكم الله أيها الكرام ان لا يذهب بعضكم مع الهوى ويرمينا باللوم لعنايتنا بالتحف والمكتبة فان في هذين ارتقاء الوطن وتحقيق تاريخه وترقية معارفه ورفع شأنه بين الامم المتقدمة .

فهبلاً نجاري الامم في حضارتها الراقية وهي شديدة الحرص على ابتياع مثل هذه النفائس ونقلها وادخارها في متاحفها حتى اتنا نحتاج الى الوقوف عليها لمعرفة شؤونها . فسلام على من اعتنى بحفظ آثار بلاده وحرص على بقايا قومه الدارجين . وسلام على حكومتينا الوطنية والمنتدبة الحرص على احراز آثار الامة وابقاء ما تركته لنا الايام منها محفوظاً عندنا مع ان مئات والوقفاً منها يجرزها غيرنا وفقها الله وحفظكم خير ذخيرة للمدينة .

عيسى بكندر  
المدرّس



## العمل بالعلم

قال ابن الوردي :

في ازدياد العلم ارغام العدى وجمال العلم اصلاح العمل  
وقيل في منشور الحكم : « لم ينفع بعلمه من ترك العمل به » . وقال الفيلسوف  
باكون : « من يقض عمره في درس العلوم فهو البليد الكسول ومن يتخذها زينة  
وحلية فهو المتصنع المتكلف فكمال الدرس الاختبار وكمال العلم العمل به لا الاكتفاء  
بمعرفة » . وكل هذه الاقوال صحيحة لان ثمرة العلم ان يعمل به . والعالم بلا عمل  
كالشجرة بلا ثمر او كالتحفة بلا غسل . وكل الفوائد التي جناها المجتمع البشري من  
حدائق العلم انما جنيت بالعمل لا بالعلم وحده . فالعمل اساس التقدم والارتقاء  
ووسيلة السعادة والهناء وكل أمة ليس فيها ميل الى العمل والاعتماد على النفس تبقى  
مخبطة شقية ولا بد من سقوطها . ان الخالق عز وجل لم يخلق الانسان للبطالة والكسل  
بل خلقه للسعي والعمل . فوضعه في جنة عدن ليعملها ثم فرض عليه ان يأكل خبزه  
بعرق وجهه . فالعمل اول الواجبات وهو ضروري لجميع الناس على اختلاف الطبقات  
وتباين الاطوار والحالات . لا يعنى منه الا الذي أثبتته المرض ولا يستغني عنه  
الا الذي لا حَبْض به ولا تَبَض . وذلك للاسباب الآتية :

(١) : انه قوام الحياة وقال بعضهم بل هو الحياة لان الانسان اذا انقطع عن  
العمل ادركه الاجل . وقيل ان احد الاعيان سأل صديقاً له ما سبب موت أخيه  
فاجاب انقطاعه عن العمل فقال السائل حقاً ان هذا سبب كاف لاماتة اي انسان  
كان . وقال صولون الحكيم : « من لا يعمل يجب ان يحكم عليه بالموت » وقد أصاب  
بهذا القول لان الحركة والسعي من علامات الحياة وواقباتها وعدم العمل من

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس افندي سلوم القاها في ردهة الجمع العلمي

في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ م .

مفسداتها ومهلكاتها ولنا في عالم الطبيعة امثلة كثيرة توضح هذه الحقيقة . فالماء المنحدر من ينبوعه متدفقاً فوق الصخور او مترقراً على حصى الاودية كالبلور يبقى صافياً لامعاً عذباً مادام جارياً بقوة ولكنه اذا ركداً جن وأنتن وصار مأوى للحشرات القذرة والافاعي السامة . والهواء المتحرك حركة لطيفة يشرح الصدور وينعش النفوس ولكن اذا سكن فسد وتولدت فيه جراثيم الامراض . والآلات والادوات الحديدية اذا استعملت بقيت صقيلة لامعة واذا أهملت علاها الصداً وادركها الفناء . وكذلك الانسان اذا قام بالاعمال المطلوبة منه امتلاً نشاطاً وقوة وحفظ رونق شبابه الى طور الشيخوخة واذا ترك العمل خسر صحته وقوته وشبابه وحياته لان اعضاءه مخلوقة للاستعمال لا للاهمال والاستعمال يجيها والاهمال يميتهما فالعمل احسن مقومات الحياة والنجع مقويات الصحة وفضل الواقيات من الامراض المختلفة ولو تفرغ عليه المترفون المترفون لقلت تشكياتهم من الوبالة والرهل والسمن الزائد وسوء الهضم وتمتعوا بكامل القوة والنشاط .

(٢) : انه غذاء العقل الذي يقويه وحصنه الذي يقيه فان العاكف على عمله يتمكن من زيادة معرفته وترقية ادراكه بما يكتسبه من الدربة والاختبار فيكون اقدر من غيره على تمييز الدقائق وكشف الحقائق ودفع المغارم وجر المغانم . والذي يترك العمل ينفرغ عقله للتفكير بالجرائم والآثام وتعتريه الوسواس والاهوام فيهم في اودية الهموم وتعتلج في صدره الغموم او يسي اسيراً لهواه او يئأس من هذه الحياة فيظير الاختلاط في عقله وربما اتجر وجلب العار على اهله . ان يوماً واحداً من ايام الهواجس والهموم لاشد على النفس من شهر عمل واجتهاد لان الاهتمامات تنهك القوى وتشوش نظام العقل ولا شيء يحفظ ذلك النظام من التشوش غير العمل . قال جانكورت : اننا بواسطة عمل العقل نضمن راحة القلب . وروت احدى الجرائد انه عرض في فينا ذخيرة فاخرة مرصعة بالجواهر الكريمة وفي قلبها اربعة دبابيس عادية ولهذا الدبابيس قصة غريبة وهي ان الكونت لفسكوفي زوج صاحبة هذه الذخيرة اتهمته الدولة الروسية بكلام قاله في حق القيصر وقائلة الكلام امراته لا هو فلم يبرر نفسه فألقاه القيصر في سجن مظلم لا يرى فيه شيئاً وابقاه فيه ست سنوات . اما هو فلما

دخل السجن وضع يده على ثوبه فوجد فيه اربعة دبائيس فنزعها منه ورمها في ارض  
السجن ثم اخذ يتلمسها حتى وجدها فرماها ثانية وعاد يفتش عنها واستمر يرميها ويجدها  
مدة الست السنوات . وقد قال في سيرة حياته ان هذه الدبائيس شغلتنني كل تلك  
المدة الطويلة ولولاها لجننت فلا عجب اذا جعلتها زوجتي حيلة من حلالها لانها حفظت  
عقل زوجها .

(٣) : انه درع الفضائل التي نقي الانسان سهام الرذائل . فان تركه وقضى  
وقته بالبطالة فتح اوسع الابواب للشر وتورط في احوال البذاءة والاثم ولا سيما اذا  
كان من الشباب الاغنياء فتحتمع فيه اسباب الفساد الثلاثة التي ذكرها الشاعر  
في قوله :

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للبرء اية مفسده

فيتلف جسده وعقله وماله بما تجره تلك الاسباب من التجارب الشيطانية لاشباع  
الشهوات الدنية . ولذلك قال بعضهم رأس الكسلان معمل الشيطان . وقال سكوت  
الروائي المشهور : انه كان يطرد شيطانه ويستعيد من ابالسته بالعمل المنيد .  
وحكي عن ربان احد المراكب انه كان لا يدع يجارته بدون عمل لانه وجد ان  
البطالة تقودهم الى الخصام . فلو كان الناس كلهم يشغلون اوقاتهم بالاعمال النافعة  
لما بقيت لهم فرصة لارتكاب المنكرات ولفرغت السجون والملاهي والمراقص والحانات  
وهربت الشياطين وعمت الفضائل العالمين .

(٤) : انه آية الشرف والنبيل وعنوان المروءة والفضل . فلا شرف ولا مروءة  
للبطال الكسلان ولو كان ابا قابوس او عبد المدان . فالفلاح الواقف على محراثه في  
حقله اعلى قدراً في نظر العقلاء من الامير الجالس على السرير المتسربل باثواب من  
حرير وهو بطل مكسال لا ينفع غيره بعمل من الاعمال . وقد جاء في بعض الامثال  
قولهم كلب يعمل خير من أسد يكسل .

ان العمل لا يحط شأن الرجل ولا يثلم شرفه كما يتوهم بعض المغرورين بانفسهم  
المتفاخرين بعلومهم وانسابهم بل يزيد مجداً وكرامةً فقد قام من كل أمة رجال  
اشتهروا بالعلم ورفعة المقام ومع ذلك كانوا من رجال الاعمال ايضاً . فمن اليونان

طاليس رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسس الثاني لاثينا وهيبراتيس الرياضي وكثيرون غيرهم وكلهم كانوا يشتغلون بالصناعات ليكسبوا رزقهم . وافلاطون الحكيم المشهور كان يبيع الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق مما يربحه منه .

ومن العرب ابو بكر الصديق كان بزازاً وعمرو بن العاص كان جزازاً وابوحنيفة النعمان كان خزازاً وكثيرون من امرائهم وعلماهم كانوا فلاحين او نجارين او حجارين او قصارين .

ومن الانكليز شكسبير رأس شعرائهم كان يدير الملاعب ويفتخر بادارتها وقيل ان ابيه كان جزازاً وانه هو نفسه كان يعمل في صباه على ممشطة الصوف واسحق نيوتن كبير فلاسفتهم كان مستخدماً في مضرب النقود والن الكيماوي كان حائكاً . وفكتوريا ملكتهم المعظمة كانت تخط يدنها اقمصة وترسل بها الى الفقراء مع كثرة الشواغل السياسية والاعمال الادارية التي كانت مطلوبة منها .

ومن الروسيين بطرس الاكبر ملك روسيا كان يذهب متنكراً الى اوربة ويدخل معاملها تحت اسم الصانع بطرس ويتعلم الصنائع ويرجع الى بلاده ويعلم رعيته اياداً !!!

ومن الامير كبين ابراهيم لنكن رئيس الولايات المتحدة كان دباغاً والرئيس كليفلند كان محامياً والرئيس ولسن كان استاذاً للتاريخ في جامعة مور بعد ان تعاطى فن الحمامة مدة . فكل هؤلاء العلماء والرؤساء والامراء وكثيرون غيرهم من ذوي النفوس الكبيرة والمراتب الخطيرة لم يستنكفوا من الاعمال اليدوية والاعمال العقلية ولم يحسبوا دون اقدارهم او ثالمة شرفهم بل كانوا يسرون بممارستها ويعرفون انها نافعة لهم ولاوطنهم ويحضون غيرهم على الشعور بواجب العمل والقيام به لانه آية الشرف .

(٥) : انه سلم الارتقاء الى اعلى المراتب والتربع في ارفع المناصب فكم وضع حقير نال باجتهاده في العمل رتبة امير كبير او وزير خطير وحسبنا ثبناً لذلك ان نذكر بعض الذين ارتقوا باعمالهم من اصول وضيفة الى مراتب رفيعة . فمنهم اللورد

ننتردن قاضي القضاة في بلاد الانكليز الذي نبغ من حانوت الحلاق . قيل انه اخذ مرة ابنه بيده وأراه دكاناً صغيراً وقال له انظر الى هذا الدكان فان ابي جدك كان يخلق فيه للناس و يأخذ اجرة على الرأس ما يساوي عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم . ولويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية المشهور الذي ارتقى من حانوت الاسكاف . واندروجنسن رئيس الولايات المتحدة المشهور بدكائه العقل الذي بلغ مقام الرئاسة من دكان الخياط قيل انه التي خطاباً في مدينة واشنطن واخذ يراجع فيه تاريخ حياته وكيف ارتقى من درجة الى درجة الى ان صار رئيساً للولايات المتحدة فضج الجمهور بصوت عظيم قائلين من الخياط فصاعداً . قال مرة يعيرني بعضهم بانني كنت خياطاً ولكنني لا ارى في ذلك شيئاً من العار لانني وانا خياط كنت مشهوراً بالامانة والمهارة في صناعتي وكنت دائماً اخطط الثياب خياطة جيدة متينة وأسلمها الى اصحابها في الاجل المعين . وجيمس غارفيلد رئيس الولايات المتحدة المشهور بشجاعته ونقاوه الذي كان يتيماً فقيراً ونشأ في مزرعة حقيرة ولكنه ظل يجد في اعماله المختلفة ويرتقى من فلاح الى سائق ومن سائق الى ربان سفينة ومن ربان سفينة الى استاذ مدرسة ومن استاذ مدرسة الى رئيس مدرسة ثم عضواً لمجلس ثم قائد جيش ثم رئيس جمهورية فتسنى بالعمل المستمر والجد المتواصل غارب العز والمجد وبلغ اعلى ذرى النجاح والسودد . وكفى بذكر هؤلاء الرجال العظام دليلاً على ان العمل سلم الارتفاع من حضيض الفقر والهوان والدناءة الى قمة الغنى والمجد والعظمة ومن تتبع سير الاشراف والعطاء في كل أمة تبين له ان كثيرين منهم نشأوا من اصول وضيعة وناولوا بجدهم في الاعمال المختلفة مراتب رفيعة .

( ٦ ) : انه سر السعادة الحقيقية فالعامل النشيط سعيد وان كان فقيراً والبطل البليد شقي وان كان اميراً . سئل اديسون المخترع الاميركي المشهور ماهي السعادة ففكر قليلاً ثم قال : « هي العمل » وقال رسكن ما معناه : « احسن دواء يوصف للمقبض الصدر الكاسف البال الذي وهن من الهم عظمه وذاب من شدة الحزن جسمه ان يعمل من الصباح الى المساء فينجو من شر الحزن ويزول عنه الوهن . قال احد الفلاسفة : « السعادة بثلاثة اشياء — شيء تعمله وشيء تجبه وشيء تأمله » . وقال احد الافاضل



بعد ان اخترت احوال البشر : « جبت البلاد وشاهدت صنوف العباد فلم ار اسعد ممن تحسن يده عملاً او توجد شيئاً جديداً فهذا الذي يحصل على مقومات الحياة و يفرح بعمله . نعم ان اكثر العملة ليسوا اغنياء لكنهم يسرون كالاغنياء بحصولهم على ما يحتاجون اليه و يفوقونهم مسرة بابتهاجهم بانقان اعمالهم ولذلك نراهم يواظبون عليها بلا ملال و يودون ان تطول ساعات النهار كي لا يتركوا تلك الاعمال . »  
والخلاصة انه ليس للناس في الشبيبة والشيوخة احسن من العمل يسلون به آلام هذه الحياة وارزاءها و يزيلون به همومها وشقاءها وقد تبين ان في الاعمال على اختلاف انواعها سلوى لا توجد في شيء من لذات البطالة والكسل وان الكسل يتعب اكثر من العمل بل ان العمل يجدد الشبيبة و يبعد الشيوخة و يطيل العمر بما ينشئه في نفس العامل من اللذة والسرور وبه يعرف الانسان معنى الحياة ومعنى الراحة والسعادة فلا تكون حياته نافعة ولا صالحة ولا شريفة ولا سعيدة الا اذا انزله عن البطالة والكسل وقرن علمه بالعمل . ومع ان هذه الحقيقة واضحة كالشمس لنبي عينين نرى الناس يختلفون في مراعاتها وهم بهذا الاعتبار اربعة اقسام :

الاول — الجهلاء البطالون وهم الذين لا يعرفون علماً صحيحاً ولا يأتون عملاً مفيداً وانما تنقضى عليهم الاوقات وهم متجولون في الاسواق والطرقات او منغمسون في الشرور والمنكرات او مواظبون على المراقص والحانات او منفخرون بالمظالم والتعديتات فيعيشون كالضوراي الجائلة في البراري و ينفقون مما ورثوه عن آباءهم من الاموال او سلبوه من غيرهم بالغش والاحتيال او النهب والاختلاس او التسول والالتماس فهم ادنى من الحيوانات الداجنة التي يستخدمها الانسان لركوبه وحمل اثقاله او مساعدته على القيام باعماله لان لهذه الحيوانات منافع حمة ومالولئك الجهلة البطالين سوى الاضرار ولا فائدة لهم من الحياة الا الفضيحة والعار فخير لهم ان يكونوا جثثاً هامدة او خشباً مسندة اوقطعاً من طين من ان يكون علقاً او عقارب او افاعي او شياطين .

الثاني — المتعلمون البطالون وهم الذين يتخرجون في المدارس العالية او الجامعات من فتيان وفتيات و يدرسون العلوم والفنون المختلفة ولكنهم لا يرغبون في عمل ولا يلتذون الا بالكسل مكنتين بنيل الشهادات مزدريين بالحرف والصناعات متسرلين

بالكبرياء والخيلاء مترفعين عن طبقة العمال البسطاء مزججين اوقاتهم بالثوباء والمطوآء فيتردد الفتيان منهم بلا عمل على بيوت الاغنياء والعطاء ويتوقعون الرزق بلا سعي ولا عناء ويرفلون بملابس العلماء وهم افرغ من حجام ساباط وافلس من بن المذاق . وتقتصر الفتيات على التباهي باحراز المعارف العديدة والاستنكاف من الاعمال البيتية المفيدة واتباع الازياء الجديدة ويشغلن الاوقات الطويلة بارتداء الاثواب الجميلة ويحملن آباءهن او ازواجهن النفقات الثقيلة وربما كانوا من اهل الصناعات الذين لا يفضل دخلهم عن الاقوات . وكل هؤلاء المتعلمين والمتعلمات البطالين والبطالات لانقل اضرارهم عن اضرار الكسالى الجهلاء بل ربما كانوا اوفر منهم اضراراً واكثر اوزاراً لانهم اقدر على الافساد والايذاء واخبر بضروب الخبث والدهاء واعرف بوسائل الشر والشقاق واساليب الخماع والنفاق بما اكتسبوه من انواع العرفان التي تقوي المداكك وتشخذ الازهان . ولقد صدق من قال شر الفتيان المتعلم المتبطل المتفلسف المتعطل .

الثالث — الجهلاء العاملون وهم الذين لا يعرفون شيئاً من العلوم العصرية ولا المسائل الفنية لكنهم يعكفون على الاعمال بهم لا تعرف الملل ليحصلوا رزقهم ورزق العيال وهؤلاء اقل ضرراً من الفريقين الاولين لانهم لا يحبون الكسل ولا يستنكفون من العمل ولا بطمعون في اموال الناس ولا يستعملون الغش والاختلاس وانما تبقى اعمالهم خالية من الاتقان بادية التقصان غير خارجة عن حد التقليد ولا مزينة بطلاوة الجديد لجهلهم الفنون التي تمكنهم من الاحكام والابداع والفنن والاختراع فتمر عليهم السنوات واحوالهم المدنية لا تتغير وطرق معاشهم لا تتحسن ومن قابل بين الفريقين الذين اخترعوا اعجب الآلات الزراعية والصناعية واكبر السفن والقطرات البخارية والسيارات التي تسابق الرياح والطائرات التي تحلق فوق كل ذي جناح — والشرقيين الذين لا تزال آلاتهم وادواتهم الزراعية كالحارث والمناجل والنوارج ومركباتهم التي تجرها الثيران كما كانت عليه من قديم الزمان عرف ان السبب في تأخر الشرقيين انما هو جهلهم وان كانوا عاملين . فالعمل وان كان ضرورياً وشريفاً لا يغني عن العلم ولا يضمن الترقى للامة ما دامت غارقة في لجة الجهل .

الرابع — المتعلمون العاملون وهم الذين طبقوا حياتهم على المبادئ الشريفة التي تعلموها وبرهنوا على صدق اقوالهم بحسن افعالهم وخدموا شعوبهم واطمانهم بمعارفهم المختلفة وافادوا العالم كله بما توصلوا اليه بعلومهم من الاعمال العظيمة وما القوه من الكتب النفيسة وما اخترعوه من الآلات النافعة وما اكتشفوه من الاقطار الشاسعة والادوية الناجعة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن زهر وثابت بن قرة وغيرهم من علماء الشرق وكولمبوس وباستور وكوخ وجنر واديسون وغيرهم من علماء الغرب . هؤلاء هم العلماء الحقيقيون الذين طبقت شهرتهم الآفاق وخلدت اسمائهم واعمالهم في بطون الاوراق وعم فضلهم القريب والبعيد واكتسبوا الثناء الطيب والذكر الحميد . الى امثال هؤلاء الرجال العاملين تحتاج الامة السورية في هذا العصر وباعمالهم الجليلة ترتقي وننال العز والفخر . ان الجهلاء البطالين قدأوهنوها وأخروها والعلماء الكسالى قد افسدوها ومزقوها . والجهلاء العاملين لم يستطيعوا ان يرقوها . فلم يبق لها أمل الا في المتعلمين العاملين الذين عليهم يتوقف رفع شأنها وثبيت أركانها . ان سورية اجود البلاد هواءً واعذبها ماءً واطيبها تراباً واكثرها إخصاباً وقد كانت في ما سلف من الازمان مأهولةً بألوف الالوف من السكان الذين سبقوا الى المدينة والعمران . واشتهروا بالفضل والعرفان . وكانوا ذوي عز وسطوة ومجد وثروة لانهم كانوا يعملون بعلمهم في الزراعة والصناعة والتجارة والادارة فكانت ارضهم تفيض لبناً وعسلاً وكانت مصنوعاتهم الذهبية والفضية والنحاسية والحديدية والزجاجية والخشبية والحجرية والحرفية وملابسهم الحريرية والكتانية والصوفية واصباغهم الارجوانية والاسمانجونية مما يتفاخر باقنانه الشرفاء والاغنياء وتزين به قصور الملوك والعطاء فاناروا بمعارفهم الافكار وعمروا باعمالهم الاقطار . ولكنهم لما اخذوا يهتمون بالعمل بعلمهم أصبحت جبالهم جرداء وسهولهم جدياء وكل غلاتهم لانقي بجاجاتهم وامسى اكثر ما عندهم من حلي وثياب وعطور واطياب واثاث وآلات وامتعة وادوات حتى الابر والمسامير والمنافع وزجاج الشبايك والساعات والمصابيح من صنعة غيرهم فهبطوا من قمة مجدهم الباذخ وعزهم الشامخ الى حضيض النذل والفقر ونسبوا ذلك الى جور الدهر وما الدهر بجائر ولا مسيء . ولكن الهم اذا قترت والبصائر اذا خسرت والايدي اذا قصرت .

فالقوة تحول الى الضعف والعز يتبدل بالخسف . اننا لا ننكر فضل النهضة العلمية الحديثة في هذه البلاد ولا نياس من تقدمها في سبيل العمران الى ان تسترد مجدها القديم وتجاري الامم الراقية برعاية الدولة المنشدبة المعظمة وعناية الحكومة الوطنية الجليلة . ولكننا نشعر باننا وان كانت الحاجة الى تكثير سواد المتعلمين شديدة فالحاجة الى العمل بالعلم أشد . وهذا ما أريد الكلام عليه وتوجيه الافكار اليه وقد جعلت مدار كلامي على ثلاثة امور :

الاول العمل الواجب على المتعلمين ان يقوموا به لنفع الافراد والاسر والامة والمجتمع كافة . وهو مختلف باختلاف نوع العلم الذي حصوله ومقداره فلا يطلب من المرأة المتعلمة ما يطلب من الرجل المتعلم ولا يجب على متعلم الطب ما يجب على متعلم الشرائع ولا يكلف المشارك في بعض العلوم ما يكلف المتبحر فيها بل يجب على كل متعلم ان يعمل بما تعلمه لاجل خير نفسه ونفع ابناء جنسه . واهم الاعمال التي تحتاج اليها الامة وثنوقها من رجالها المهذبين ما يأتي :

(١) : الاهتمام بحفظ الصحة العامة وهذا مطلوب من الاطباء والموظفين بدائرة الامور الصحية على الخصوص ومن كل متعلم على العموم فلا يليق بمن تعلم الطب وانفق في سبيل تحصيله السنين الطوال والمبالغ الطائلة من الاموال ان يترك هذه الصناعة الشريفة الضرورية لخدمة الامة ويتعاطى غيرها كما فعل بعضهم . ولا يجوز لموظف في دائرة الامور الصحية ان يكتفي بالحصول على الوظيفة لكي يتناول مرتبها دون ان يقوم بواجباتها بالامانة والشرف كأن تلك الوظيفة لم توجد الا لاجل معاشه . ولا يحسن بمن تعلم قوانين حفظ الصحة في المدرسة ان يخالفها بترك الرياضة البدنية او بالسهر المفرط او الشره او شرب المسكرات او التدخين او التعرض للأمراض الخنزيرة التي تجلب عليه العار وتثقل حياته وحياة ذريته بعد ان عرف ان كل ذلك مضر بصحته وصحة المجتمع كله . بل يجب على كل هؤلاء ان يسلكوا بحسب القوانين الصحية بكل تدقيق ويقاوموا الاوبئة والامراض بالوسائل الواقية ويعالجوها بالادوية الناجعة فتحفظ صحتهم وصحة الامة وبذلك تسلم العقول ايضاً لان العقول السليمة في الجسم الصحيحة فان لم يعمل المتعلمون بعلمهم في هذا الشأن

نفشت في الامة الامراض والاسقام وفتك في افرادها الموت الزؤام فقل عدد رجالها  
وتشوش نظام احوالها وطمع فيها اعداؤها وازف سقوطها وفناؤها .

(٢) : السعي الحثيث لكل ما يرقى العقول وينير الاذهان وهذا مفروض على المربين  
والمعلمين وخصوصاً الآباء والامهات المتعلمين والمتعلمات لان المدرسة الاولى هي مدرسة  
البيت فلا يجوز للاب المتعلم ان يجعل كل اهتمامه بالدرس والمطالعة والتأليف والمراجعة  
ويهمل تربية اولاده العقلية والادبية ولا يحق للام المتعلمة ان تلهو بالاجتماعات  
العلمية والاحاديث الادبية والزيارات الحبية عن تثقيف عقول اولادها بل يجب على  
الوالدين كليهما ان يهيئا عقول اولادهما لقبول المعرفة باحياء قوة الملاحظة فيهم  
ونقويتها وتلقينهم مبادئ العلوم منذ الصغر بالطرق المختصرة السهلة لكي يستعدوا  
لدخول المدارس ويكونوا فيها ناجحين لان التربية البيتية اساس التربية المدرسية ومن  
لم يتأسس على العلم والادب عند والديه يندر ان ينبغ في المدرسة . ويجب على  
المعلمين ان يذكروا ان التلاميذ امانة الله عندهم وان يبذلوا جهدهم في تنوير عقولهم  
بالعلم الصحيح الكافل بتأهيلهم للرجولية الحقة ويجب على الموظفين بدائرة المعارف  
ان يهتموا بتكثير عدد المدارس وترقية شؤونها وتعيين المدرسين الاكفاء الوطنيين  
المهذبين الذين يعتبرون التعليم خدمة وطنية شريفة لا حرفة يقصد منها الارزاق  
ومراقبة التدريس وتحسين اساليبه بحيث يكون صالحاً للنشئة رجال قادرين ان  
يقوموا بجاجات الامة وينهضوا بها الى مستوى الامم المتقدمة فانه مامن امة ارتقت الا  
بالمعارف وحسبنا برهاناً على ذلك ارتقاء اليابان السريع فانه لم يتم الا ببت العلوم بواسطة  
المدارس الوطنية الراقية .

وخلاصة القول انه يطلب من الذين تعلموا ووكّل اليهم امر التعليم ان يهتموا  
كل الاهتمام بالقيام بهذا الواجب المقدس باذلين كل قواهم في تثقيف العقول وتنوير  
الاذهان بالمعارف المختلفة الضرورية لنجاح الامة ادبياً ومادياً وبذلك يكونون قد  
عملوا بعلمهم . فان قصرنا في هذا الواجب بقي الجهل سائداً والعقول مظلمة وارباب  
الاعمال عاجزين عن ائتمان اعمالهم فانحطت الافراد والامة جميعاً ولم يبق للتمدن  
فيها من اثر .

(٣) : اصلاح الآداب العامة وهذا مطلوب من علماء النفس والاخلاق ورؤساء  
الاديان والخطباء وارباب الصحف والمجلات الادبية فيجب على هؤلاء وامثالهم ان  
يحتهدوا في ترقية الآداب الصحيحة ورفع منار الفضائل ومكارم الاخلاق لان الامم  
باخلاقها وادابها فان قصروا في هذا الواجب انتشر الفساد وعم الكفر والاحاد وانحطت  
الجماعات والافراد وساءت الاحوال وخربت البلاد والتاريخ اعدل شاهد على صحة ذلك .  
والآثار القديمة على ضفاف دجلة والفرات والنيل وشواطئ بحر ايجه وجرش وتدمر  
وبعلبك والبتراء الدالة على ما كان للامم السالفة من المدنية الزاهرة التي اضمحلت  
لفساد الاخلاق اي عدم العمل بقوانين الآداب الصحيحة وعدم السير في مناهج الفضيلة —  
تلك الآثار تؤيد شهادة التاريخ وثبتت صحة القول ان الآداب الصحيحة والاخلاق  
الفاضلة والعواطف الشريفة هي اساس تقدم الامم وارنقاؤها وسبب نموها وبقائها .  
قال احد علماء الجرمان : ان الحكم على مستقبل كل امة يعرف من حالة شبانها العقلية  
والاخلاقية .

فمن اهم الواجبات سعي المهذبين والواعظين لاصلاح الآداب والاخلاق العامة  
ومن الضروري ان يكونوا قادرين على اضرام محبة الفضيلة في صدور القوم حائزين  
اسمي المبادئ والصفات الحسنة سالكين بحسب قوانين التهذيب الصحيح وقواعد الدين  
القويم لتكون اعمالهم مطابقة لاقوالهم ويكونوا امثلة صالحة للذين يهذبونهم ويعظونهم  
والا صدق عليهم قول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم  
تصف الدواء الذي السقام مطيباً كي ما يصح به وانت سقيم  
لأنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم  
وقول الآخر :

فكم انت ننهي ولا ننهي وتسمع وعظاً ولا تسمع  
فيا حجر الشخذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

(٤) : تحسين الزراعة والصناعة والتجارة وهذا مطلوب من الذين درسوا العلوم  
والفنون المتعلقة بهذه الامور الكيمياء والطبيعات والفنون الجميلة فيجب على هؤلاء

المتعلمين ان يبذلوا جهدهم في اتباع الطرق الحديثة الفنية وتطبيق ما تلقوه في المدارس وما طالعوه في الكتب على اعمالهم المختلفة . اني اعرف بعض الشبان الذين درسوا الفنون المشار اليها في مدارس اوربة وعادوا الى وطنهم وبايديهم الشهادات الناطقة باكمال دروسهم لكنهم لم ينفعوا بلادهم بشيء ابي لم يتبعوا الاصول الفنية الحديثة في زراعة اراضيهم او في صناعاتهم بل بقوا تابعين الطرق القديمة التي كان عليها اسلافهم منذ قرون عديدة اما لانهم لم يتمكنوا من استمصار الآلات الزراعية او الصناعية بسبب غلائها وقلة مالم او لانهم آثروا الاستخدام في دوائر الحكومة على الاشتغال بالزراعة او الصناعة او التجارة فذهبت اتعابهم واوقاتهم واموالهم التي اتفقوها في سبيل تحصيل تلك العلوم سدى لانهم لم يعملوا بها . ولو عملوا لانفقوا الفلاحة والزرع والغرس والتخصيب والسقي وزادوا الاراضي المزروعة اليوم اضعاف مساحتها فعادت الى ما كانت عليه قديماً من الخصب ووفرة الغلال وتدفقت منها سيول الاموال وتحسنت بذلك جميع الاحوال والاعمال .

(٥) : احياء اللغة القومية وهي اللغة العربية في بلادنا وتخليصها من الالفاظ العامية والشوائب الاعجمية وهذا مطلوب من اساتيدنا وادباؤها وخطبائها وكتابها والجامع اللغوية المؤسسة لهذه الغاية فلا يليق بالاستاذ ان يشرح لتلاميذه احكام اللغة الفصحى بالالفاظ السقيمة والتعابير الركيكة ولا يحق للخطيب ان يستعمل اللغة العامية في خطبه العلمية او يلحن في الفاظه فيرفع المجرور ويجر المنصوب او يحرف الكلم عن مواضعه وواضعه ولا يجوز للكاتب ان يحشور سائله ومقالته بالتعابير السوقية والاغلاط اللغوية والنحوية والبيانية ولا لاعضاء المجامع اللغوية ان يتركوا لغتهم متأخر عن مجارة لغات العصر بل يجب على هؤلاء كلهم ان يجتهدوا في مراعاة قواعدنا وسد ثلمها بوضع كلمات جديدة للمستحدثات العصرية اما بالاشتقاق او بالتعريب او بالبحث لكي تحيا وتنمو لان اللغة التي لاتنمو تموت واذا ماتت اللغة ماتت الامة التي تنتسب اليها اذ لا بقاء لامة بدون لغتها واذا قصر علماءها عن السعي لحياتها لم يكونوا عاملين بعلمهم ولا نافعين لامتهم .

(٦) : المحافظة على حقوق الافراد والجماعات ونشر العدل والامن في البلاد وهذا

مطلوب من خريجي مدارس الحقوق الذين تبوأوا مناصب الحكومة او تعاطوا  
الحمامة فان العدل اساس الملك والامن علة استتباب الراحة والطمأنينة ودوران دولاب  
الاعمال المختلفة فان لم يجتهد هؤلاء الرجال في القيام بوظائفهم بالحكمة والرزانة والنزاهة  
والامانة ضاعت حقوق العباد وكثر الظلم والفساد وعمّ الخراب البلاد وان قاموا هم  
وغيرهم من المتعلمين بالاعمال المطلوبة منهم حق القيام ارفع شأن الامة وحسنت احوالها  
المادية والمعنوية واستطاعت ان تجاري الامم الراقية في سلم المدنية . فان قيل ان كل  
اهل الصناعات والوظائف الذين مر ذكرهم عاملون بعلمهم وقائمون بوظائفهم قلت لا ريب  
ان كثيرين منهم متممون الواجب فهم مستحقون اطيب الثناء ولكن كثيرين منهم  
ايضاً مقصرون في اعمالهم فهم مستحقون التقريع واليهيم يساق الكلام ونحوهم تسدد أسنة  
الملام لعلمهم ينهبون من غفلتهم ويشعرون بخطيئهم فيبادروا الى اصلاح انفسهم  
باصلاح مبادئهم وغاياتهم فان نتائج الاعمال تنوقف على غايات العمال فان كانت  
الغايات تحصيل المال او المجد او المدح بطلت الفائدة المنظرة من اولئك المتعلمين  
وايضاحاً لذلك اقول ان الطبيب الذي لا يهتم الا بقبض الاجرة من عليله والحاكم  
الذي لا يبالي الا بتعظيم الناس له وتسبيحهم بحمده والخطيب الذي لا يهتم الا باظهار  
ما عنده من البلاغة وحسن الالتقاء وسعة المعرفة ليحبل الناس على الإعجاب به واذاعة  
فضله على صفحات الجرائد والمجلات — هؤلاء كلهم وامثالهم من المتعلمين لافضل لهم على  
الامة ولا فائدة منهم لها . ولكن ان كانت غاية الطبيب انقاذ المريض من خطر الموت  
وغاية الحاكم انصاف المظلوم من الظالم وغاية الخطيب ان يراذها ان السامعين وبث روح  
الفضيلة فيهم وغاية الاستاذ انقاذ تلاميذه من مخالب الجهل وغاية المحامي المدافعة عن الحق  
الصريح ومقاومة الباطل وغاية الامام او القسيس ارشاد الضالين الى محجة الحق المبين  
كانت النتائج حسنة مطابقة لحاجات الامة متضافرة على حفظ كيانها ورفع شأنها . قيل  
ان احد السياح مر بصرح فخم حوله مئات من العملة يشغلون بترميمه ورأى على مسافة  
قريبة منه مقطعاً للحجارة فيه ثلاثة رجال يعملون فدنا منهم وسأل كلاً منهم  
قائلاً ماذا تعمل في هذا المكان فقال الاول اني اشغل بنصف دينار كل يوم وقال  
الثاني اني اقطع حجارة تطابق هذا الرسم الذي تراه امامي وقال الثالث اني اساعد



رفاقي في بناء ذلك الصرح الذي سيكون مجلساً لنواب الامة فسر السائل بالجواب الاخير  
لانه دل على ان غاية ذلك العامل لم تكن تحصيل المال ولا اطاعة امر المهندس كما  
كانت غاية رفيقيه بل الاشتراك في خدمة المصلحة العامة . وكل عاقل يجب عليه ان  
يراعي في عمله هذا المبدأ ويقصده هذه الغاية ذاكراً ان عمله مرتبط بمصلحة الامة والمجتمع  
وانه يجب عليه ان يساعد على قدر طاقته في بناء مجد الامة وحضارتها و يبذل جهده  
في ترقيتها واسعادها والمحافظة على كرامتها .

الثاني الاسباب التي توجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم وهي :

(١) : ان العمل هو البرهان القاطع على صحة العلم والوسيلة الوحيدة لتكميل  
الانسان فمن لم يأت عملاً مفيداً لنفسه ولا لبايئة جنسه لم يكن عمله صحيحاً وقد ثبت  
بالاختبار ان الانسان لا يكمل بالعلم وحده اي ان عقله ومداركه ومعارفه واخلاقه  
انما تصلح وتكمل بالاجتهاد في العمل لا بمجرد الدرس والعلم فيجب على المتعلمين ان  
يعملوا بعلمهم لكي لا تكون دعواهم باطلة ولا سجاياهم ناقصة .

(٢) : ان المتعلمين هم اعرف الناس بوجوب العمل وشدة الحاجة اليه ووفرة  
فوائده واقدرهم على اتمامه واثقانه فيتوقع منهم ان يقوموا به اكثر مما يتوقع من  
سواهم فان قصروا في ذلك كان ذنبهم اعظم من ذنب المقصرين من الجهال وكانت  
خسارة الامة بسبب نقصيرهم اكبر من خسارتها بسبب نقصير غيرهم فيجب عليهم ان  
يعملوا بعلمهم لئلا يجنوا على انفسهم وعلى وطنهم .

(٣) : ان المتعلمين هم هداة الامة الى الطريق الاقوم وقادة افكارها الى الخير  
الاعظم بما اقتبسوه من انوار العلم الساطعة وما عرفوه من حقائقه اللامعة وقد اجمع  
اهل التحقيق على ان الهداية بالاعمال خير من الهداية بالاقوال وقيادة الجيش تستلزم  
السير معه بل امامه فان اقتصر المرشد على الوعظ والتعليم دون ان يسلك في السبيل  
المستقيم لم يكن وعظه ناجعاً ولا تعليمه نافعاً وان ترك القائد جيشه يسير وحده ونام  
عرضه للثبث والانهزام فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليتكفروا من هداية  
الامة واصلاحها .

(٤) : ان غاية كل تعليم وتهذيب ونفقيه وتدريب انما هي الاستعداد للاعمال

المفيدة فان اهمل المتعلمون هذه الغاية او تكاسلوا في اتمامها وتحقيقها ذهبت الاوقات والاموال التي انفقوها في تحصيل العلم سدى وخابت فيهم آمال الوالدين والمربين والمعلمين والوطن وكان مثلهم مثل طماع بخيل انفق عمره في جمع المال ثم دفنه في الارض ولم يخبر احداً بموضعه ومات غير مأسوف عليه فذهب ماله ضياعاً لم ينتفع هو به في حياته ولا تركه لاحد يستفيد منه بعد مماته . فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليتمموا الغاية التي لاجلها تخرجوا في البيوت والمدارس فيحصل النفع لهم ولغيرهم .

الثالث شروط النجاح في العمل وهي :

(١) : حبه واحترامه والشعور بوجوده فالذي يحقره ولا يراه واجباً عليه ولا ضرورياً خيره وخير شعبه ويعتقد انه في غنى عنه وانه غير مكلف ان يخدم وطنه به لا يمكن ان ينجح في عمل من الاعمال اذا اضطر اليه او أرغم عليه ولذلك ترى بعض الذين كانوا اغنياء وبددوا ثروتهم بالعيش المسرف واضاعوا اوقاتهم باللهو واشباع الشهوات الجسدية ثم اضطروا الى عمل يحصلون به قوتهم الضروري فتعاطوا بعض الاعمال ولكنهم لم ينجحوا في شيء لانهم لم يتعودوا الا الازدراء بالاعمال والعمال بخلاف الذين شعروا بوجود العمل واحترموه وتمرنوا عليه فانهم ينجحوا في كل ما تعاطوه من الحرف والصناعات وافادوا اوطانهم فوائد حمة . ان ملوك الغرب في هذا العصر يبعثون باولادهم وحفدهم الى دوائر الاعمال المختلفة بعد تخرجهم في المدارس العالية والجامعات الكبرى ليتعلموا الحكمة العملية ويتأهبوا للجلوس على عروش الممالك وذلك دليل على احترامهم العمل وسبب نجاحهم فيه . فعلى الوالدين من عامة الناس ان يقتدوا بأولئك الملوك في تربية اولادهم على حب العمل واحترامه والشعور بانه واجب وضروري لكي ينجحوا في اعمالهم المتنوعة وينفعوا انفسهم واطنانهم .

(٢) : الاقدام بلا تردد ولا خوف من المصاعب لان الاجسام عن العمل دليل الجبن والجبان لا ينجح ومن يتردد في عمله ولا يقتم كل صعوبة ولا يدوس كل عقبة في سبيل الوصول الى غايته بقدم راسخة تجبط مساعيه ويعود بالخيبة والفشل بخلاف الذي يستسهل كل صعب ويقدم على عمله بعزم شديد وهمة ثفري الحديد فلا يكل ولا يمل حتى يكمل سعيه وينال اربه فان نجاحه مؤكداً وما أحسن قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فان فساد الرأي ان تترددا  
وان كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً فان فساد العزم ان ينقيدا  
(٣) : عدم التأجيل فالذي يؤجل ما يجب عمله اليوم الى الغد لا ينجح لان  
التأجيل يلد التهاون والغد مجهول امره وله عمل آخر واذا أُجِّل عمل كل يوم الى ما بعده  
تراكمت الاعمال وزادت الصعوبات فتعسر القيام بالواجب او تعذر وانقطع أمل  
النجح . سئل احد وزراء فرنسا وكان ينجز أعمالاً كثيرة في وقت قصير بم  
تستطيع ان تنجز كل هذه الاعمال فقال بعدم تأجيلي الى الغد ما أقدر ان أعمله  
اليوم . وكتب احد الشبان الى السيد ولترسكوت يطلب نصحه وكان قد دخل في  
منصب جديد فأتاه الجواب بهذه الصورة :

« احترس من البطالة ولا تؤخر عملاً يجب القيام به ولتكن أوقات الراحة بعد  
العمل لا قبله فانه اذا سار جيش واضطربت مقدمته قليلاً حدث اضطراب عظيم في  
ساقته وهكذا الحال في الاعمال فان لم تعمل عمل كل يوم في يومه فعما قليل تزدحم  
عليك الاعمال فتضيق بها ذرعاً فاحذر التأجيل » .

(٤) : اعتبار قيمة الوقت والمحافظة عليه فالطبيب او المحامي او الاستاذ او الحاكم  
او الرئيس الذي يسهر مع رفقائه الى ما بعد نصف الليل ويبقى في سريره الى قرب  
الظهر لا يقدر ان ينجح في عمله لانه اضاع وقته بلا فائدة او في ما يضره وكذلك  
الذي يقضي ساعات النهار في اماكن اللهو لاعباً بالنرد او الورق او غيره من الملاهي  
ويقتل وقته بما يضر ولا ينفع هو بعيد عن النجاح . قال الملك لويس الرابع عشر :  
« المحافظة على الوقت من كالات الملوك » . والحق انها من واجبات الاشراف والعلماء  
والعمال أيضاً . ولا شيء يساعد على وجود هذه الصفة في الانسان مثل تعوده انجاز  
كل عمل في حينه فمن ارتبط في عمل ولم يأخذ فيه بالوقت المعين عدّ مخالفاً بل مجرماً  
ما لم يكن له عذر مقبول ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على  
اعمال ذات شأن وبالنتيجة لا ينجح في حياته .

(٥) : الامل او توقع النجاح فاليأس او الخائف او الفاتر الهمة الذي يعتقد  
انه غير قادر ان ينجح وان ليس امامه الا الخيبة والفشل لا يمكن ان يفلح في عمل

يخلاف الرجل الواثق بنفسه كل الثقة المتوقع الفوز الواضع الفلاح نصب عينيه  
المتيقن اقتداره على العمل السائر الى غرضه بخطى ثابتة وقلب كبير ونفس عزيزة  
وهمة عالية فانه ينجح في مسعاه وينال مناه لان الامل يقويه على اقتحام المصاعب  
واحتمال المتاعب للفوز بالرغائب ونيل المطالب ويدفعه الى السير في سبيل الواجب  
ولو كان مملوءاً بالآخطار كما يدفع البخار السفينة الى السير في وسط البحار . والامل  
ينشئ سروراً في النفس والسرور بالعمل يجعله هيناً . قال كارليل احد فلاسفة  
الانكليز : « أروني رجلاً يتغنى في اثناء عمله وانا أضمن انه يعمل في اليوم ضعفي  
ما يعمله الغضوب العبوس لان من يسير على نغم موسيقي قلما يشعر بالتعب » .  
فالمسرور بعمله ينجح والذي يذهب الى العمل حزينا متدمراً منقبض الصدر عابس  
الوجه كأنه ذاهب الى السجن او الصلب لا يمكن نجاحه .

(٦) الاجتهاد والجد . قال الحكيم : يد المجتهدين تسود فما من احد احرز  
السيادة او الشرف او التقدم او الشهرة الواسعة الا دفع ثمنها كدأً وهدماً عظيماً ولا  
احد استطاع ان ينجح بالكسل والتواني وما احسن قول الشاعر :

تريدن ادراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر النخل  
وقول الآخر :

تروم العز ثم تنام ليلاً ومن طلب العلى سهر الليالي  
ان الذين بلغوا اعلى ذرى النجاح بكدهم واجتهادهم لا يحصي عددهم فاقنصر على  
ذكر بعضهم بالاختصار على سبيل التمثيل . فمنهم ابو نصر محمد الفارابي الفيلسوف  
الشهير الذي اتبع الفلسفة اقصاها وادناها والف فيها كتباً لاتعد لكثرتها مع ما كان  
عليه من العوز فكان يسهر الليالي للمطالعة والتصنيف ويستضيء بمصباح الحارس وبقى  
على ذلك الى ان عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه وصار  
اوحد زمانه كما جاء في ترجمته المذكورة في كتاب عيون الانباء . ومنهم اسحق نيوتن  
اكبر فلاسفة الانكليز فقد قال صريحاً : « ان كنت قد خدمت العالم بشي فباجتهادي  
وجلدي . ومنهم دزرائيلي الذي رقي الى اسمي المناصب بجده وكده . فانه لما كانت  
مساغيه الاولى تجبط لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين اذا جابوا مرة وهت

قوامهم ووقعوا في لجة اليأس بل ظل يجتهد ويجد حتى نجحت اعماله وبلغ مراده ومنهم بروم الذي خدم شعبه اكثر من ستين سنة وتعاطى الفقه والانشاء والسياسة والعلوم المتنوعة واثقن كل ما اشغله به . ومنهم نابوليون الاول والقائد ولنتن وسائر الذين اشتهروا في العالم بالسياسة والعلوم والشرايع والصنائع والتأليف وبلغوا اعلى درجات الفوز بجدهم واجتهادهم فلا يطمعن احد في نجاح اعماله ما لم يجتهد كل الاجتهاد اي يصب كل قوته ويضع كل قلبه على كل عمل يأخذ فيه لانه (على قدر اهل العزم تأتي العزائم) . ولا يفيد الانسان عمله ولا ذكاؤه ولا وسائله ولا مساعدات الاصدقاء له اذا هو لم يجد ويجتهد ويتعب عقله وجسده لانه لا شيء يثمر الا بالتعب والحياة جهاد مستمر . غير انه يجب الاحتراز من الافراط في التعب لثلاث ثلث الحياة قبل بلوغ الامل فالاجتهاد غير الاجهاد كما ان الراحة غير الكسل والحكيم من عرف ذلك ولم يفرط في الاجتهاد الى حد الاجهاد ولا في الراحة الى حد الكسل .

(٧) : الامانة والاستقامة وهما من اهم شروط النجاح في كل الاعمال ولا سيما الطب والصيدلة والقضاء والحمامة والوظائف المالية فالطبيب الامين المستقيم يكتسب ثقة الناس به و ينجح ولكن الذي يخدع مرضاه ليسنترف اموالهم لا يمكن ان يكسب ثقة الناس به ولا ينجح الا ريثما ينكشف خداعه . ان بعض الاطباء يضمنون الشفاء للعليل وهم على يقين من ان داءه عياء غير قابل الشفاء . وبعضهم يوهمون المريض بان مرضه عضال وحالته نئذ بالخطر مع علمهم بان مرضه بسيط لا شيء فيه من الخطر وكل ذلك الخداع ناشئ عن الاطماع . والصيدلي الصادق الذي يركب الدواء بحسب وصف الطبيب بكل تدقيق ولا يستعمل الغش في ادويته هو الذي يأتمنه الناس و ينجح في عمله ولكن الذي يغير المقادير و يبدل العقاقير الغالية بالرخيصة ليتوفر له الربح يظهر غشه و يتعدد القوم عنه فيفسر مادياً وادبياً . والحاكم العادل الذي يراعي في احكامه الشرائع دون محاباة هو الذي يرضي الله والناس و يكتسب المدح ويرتقي في معارج الفلاح . ولكن الذي يراعي مصلحته وعواطفه دون الحق والعدل لا يمكن ان ينجح نجاحاً حقيقياً وان اصبح بالرشوة غنياً لان تذييب البريء وتبرئة المذنب بغية اتراع الجيوب من اكبر

لا تآثم واعظم الذنوب واول دواعي الفشل وموجبات الخزي والخجل . والمحامي المستقيم الذي لا يدافع الا عن الحق ولا يقبل وكالة المزورين هو الذي يريح الدعوى وينجح في عمله ولكن المحامي الذي يدافع عن الباطل ويعلم الناس التزوير ويقبل وكالات المزورين بغية تحصيل المال بالحرام لا بالحلال لا يمكنه ان ينجح الا ريثما ينكشف امره ويفتضح سره فيسقط قدره ويكره ذكره ويحسبه الناس من اصحاب الجرائم ويمنع من الدخول الى المحاكم . والكاتب او المحاسب الامين الذي يحافظ على الصدق في اقواله والاخلاص في اعماله هو الذي ينجح ويرتقي ولكن الكاذب او الخائس لا يمكن نجاحه لانه اذا ظهرت خيانتة او سرقة طرد من وظيفته وحرم حق الاستخدام . قيل ان مدير مال رو كنفار المثري الشهير كان في اول امره كاتباً لصيرفي في ولاية كنساس فأملى يوماً عليه رقياً وامره ان يقدم التاريخ ليخلص من تبعته فابى هذا الكاتب الامثال لامره باسلوب لطيف فأمره ثانية فابى وحسب نتيجة الكذب شر النتائج فأمره الثالثة فابى وتوقع ان يطرده وقال غير مهتم بالنتيجة لا اقدر ان استخدم قلمي للكذب وان ما تأمرني به هو كما ترك لي بالسرقه . وكانت النتيجة ان الصيرفي بدلاً من ان يطرد ذلك الكاتب زاد اكرامه وضاعف له مرتبه وائتمنه على كل شيء لانه تحقق صدقه وامانته فالامين في عمله هو الذي ينجح .

(٨) الاكمال فلا يصعب على الانسان ان يقصد الامور السامية وبتدئ الاعمال العظيمة ولكنه يصعب عليه اتمامها اذا لم يكن من ذوي الرزانة والتعقل والدرية والمثابرة والثبات وما اكثر الذين يبدأون بمشروعات واعمال نافعة ثم يضجرون منها ويتركونها شاهدة عليهم بالطيش والجهل والنقلب والتردد . ان العمل الزهيد المتم باحكام افضل من الاعمال الكبيرة التي شرع فيها قاصدوها ولم يتموها . فالكوخ الحقير التام البناء انفع من القصر الذي وضعت أسسه ورفعت جدرانها ولم يكمل . ان كثيرين اشتبهوا بالمقاصد السامية والفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقوة الحجج ولكنهم لم يفيدوا جاهلاً ولا صلحوا فاسداً ولا تمهوا عملاً كبيراً ولا صغيراً فاين هؤلاء من اهل الدأب العقلاء الذين ما شرعوا في عمل الا تموه وما قصدوا امراً الا ادر كوه . ان خير الاعمال بالاكمال والحازم من تأمل في العمل قبل الشروع فيه فان تيقن انه قادر على اتمامه بدأ به والا

فخير له ان لا يبدأ به بل يبدأ بما يقدر عليه و يجتهد في ا كماله فلا نجاح في الاعمال الا بحسن الاكمال . ولا اجهد من الذين قادم الطمع الى اعمال تستلزم اضعاف قدرتهم فقاموا بجزء منها وعجزوا عن اكمالها فتركوها فتولاها غيرهم وانبغ بجهدهم .

(٩) : الاتقان او الاحكام وهو شرط جوهرى للنجاح في كل عمل فكما ان النجارين والحدادين واخياطين وغيرهم من اهل الصناعات لا يمكنهم ان ينجحوا ما لم ينقنوا مصنوعاتهم كذلك الاطباء والمحامون والكتتاب والمثثون والمعلون والمهذبون وسائر المشتغلين بالعلوم والفنون يتعذر عليهم النجاح ما لم يحكموا اعمالهم . ان الاتقان يستلزم التأني والثبات لان العملة تفسد العمل وحيثاً تفسد الحياة ولذلك جاء في الامثال الشرقية قولهم : (في التأني السلامة وفي العجلة الندامة) . فمن شاء ان ينقن عمله فعليه ان لا يسرع فيه ولا يتوقف عنه ولا بد من الانتباه التام الى مواضع النقص بغية ا كماله ومواطن الخلل لاجل اصلاحه حتى يكون العمل كامل الاحكام على اجمال ترتيب و احسن نظام فان من بلغ في عمله الاتقان التمام تفوق على اقاربه ونال المقام الاول بين اهل صناعته وحصل على المجد والكرامة بين من يعرفون فضله ويقدرونه قدره . فالخطيب المتقن صناعة الخطابة اذا ذهب الى لندن والقي خطاباً في احد انديتها أُعجب به السامعون وتحدث ببلاغته الراوون ورحب به العلماء والادباء والخطباء والعظاء وذكرته الجرائد بالحمد والثناء . ودعي الى الخطابة في جميع الاندية الادبية وازدحمت عليه الجماهير لتلتقط منه الفوائد العلمية ونشرت خطبه المجلات الانكليزية وربما ترجمت الى غيرها من اللغات الاوربية . وما يناله الخطيب المتقن صناعته يناله الاديب والكتاب والطبيب والمحامي والاستاذ والمخترع وسائر العلماء اذا كان كل منهم منقناً عمله .

(١٠) : الثنن والابداع او التحسين فلا يكفي ان يكون العمل كاملاً منقناً بل يجب ان يحسن على توالي السنين والايام والتحسين يستلزم الابتكار والاختراع والالم يتم الارثقاء فان اكتفى العامل بتقليد غيره في عمله ولم يزد عليه شيئاً من مبتكراته بقي عمله في آخر حياته كما كان في اولها بل ربما بات اقل احكاماً في الشيخوخة مما كان عليه في الشببة لان مبدأ التقليد والاتباع مبدأ الضعف والتقهقر

وطريقة الابتكار والابداع طريقة القوة والنقد . ان الطبيب الذي لا يزيد معرفته بالمطالعة ولا يحسن اعماله الجراحية بالممارسة لا يلبث ان يحسب في عداد الدجالين وقس عليه غيره من العلماء العاملين الواقفين على درجة واحدة فان وقوفهم هو عين التأخر . وكل أمة تفقد قوة الفن والابتكار في أعمالها لا بد من سقوطها .

ان العصر عصر تجدد فلا يحسن البقاء على القديم الا اذا كان مطابقاً للعقل الصحيح وفائدته محققة . ولا يجوز الاستخفاف بالحديث او رفضه الا اذا كان فاسداً واضراره ثابتة . ان العقل الصحيح يقضي بوجوب الارتقاء والارتقاء لا يتم الا بتربية قوة الفن والابتكار لكي نتحسن الاعمال ونصلح الاحوال وحينئذ يتم الفلاح ويزداد النجاح . فعلى المتعلمين ان ينفذوا عنهم غبار الكسل ويجهدوا في زيادة العلم وصلاح العمل شاعرين بالواجب المترتب عليهم للوطن والامة مظهيرين كمال النشاط وعلو الهمة مراعين شروط النجاح في كل الاعمال ساعين للخير في كل حين وحال . والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد . وبهذه التوفيق والاعانة .

لا يرقى البلاد الا علوم      تتجلى بصالح الاعمال  
فاعملوا صالحاً بما قد علمتم      فرجال الاعمال خير الرجال

( ائیس سلوم )





## ارتباط البلاد على اصول الاتحاد (١)

أيها السادة الكرام والاخوان الاعزاء .

دعاني صدبقي المحترم رئيس المجمع العلمي الى القاء محاضرة في هذه القاعة والح في الدعوة والطلب حتى لم يترك لي مجالاً للاعتذار وبالرغم من تراخي الزمان بيني وبين منابر الخطابة واستنار الذهن بعشاء من صدى الجمود ضربه عليه الترك المتماذي وجدت نفسي تجاه هذا الطلب المقرون بالحزم والتصميم مضطراً الى الاجابة بالقبول واتمام ذاتي الى هذا المأزق الذي اعرف الان دخولي فيه واجهل كيف يكون خروجي منه فاذا حصلت رغبتي بعدم تبرمكم ورضائكم عني حمدت عقبي امري واذا جاءت النتيجة على خلاف ذلك طلبت عفوك هذه المرة ووعدتكم ان لا اعود الى مثلها تارة أخرى .

اوقفني هنيهة من الزمن اختيار الموضوع الذي احدثكم به فلم اتعرض لمواضيع اللغة وآدابها ولا للمباحث التاريخية او الاجتماعية لان رفاقي الافاضل اعضاء المجمع لهم في هذه الحلقات اشواط رابحة ابعدهم ان تجاري فاخترت موضوعاً ما كنت امل ان يكون مجلبة للرضى والامتناع لولا ما حصل له مؤخراً من العلاقة بامورنا الاجتماعية والاقتصادية واعني به الاتحاد . ولست اعني به اتحاد الافراد او اتحاد القلوب وتوحيد المساعي في سبيل النفع المشترك وانما هو بحث اداري حقوقي بشأن ارتباط البلاد على اصول الاتحاد فهو اذن يتعلق بالدولة وليس بالفرد .

قبل الدخول في هذا الموضوع لابدلنا من ايماء مختصر الى تعريف الدولة والاشكال التي تتألف منها . فقد عرفوا الدولة في الحقوق الاساسية بكونها شعباً متضامناً خاضعاً

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ السيد فارس الخوري من اعضاء المجمع المؤازرين

يوم الجمعة في ٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢

لحكومة واحدة ذات قوانين مشتركة وعرفوها في حقوق الدول انها الشخصية الخارجية لشعب مستقل واهم خواصها في معناها التام :

(١) : الحاكمية الداخلية التامة وضعاً التي تستطيع بها ان تحمل الشعب على حفظ العلاقات مع الدول الاخرى ذات الحاكمية الماثلة لها .

(٢) : الاستقلال التام الذي يجعلها بمعزل عن كل تأثير او سيطرة خارجية .

(٣) : السلطة التامة في اراضي ذات حدود معينة . بيد ان هذه الشروط

لم تكن على الدوام تامة في الدول المعروفة وكثيراً ما نقص بعضها واختل واحد منها وبقي العرف والتعامل جارياً على اطلاق اسم الدولة مع نقصان الشرط كما دخلت مصر وقبرس في الاحتلال البريطاني وبوسنة والمهرسك في الاحتلال النمساوي مع بقائها تابعة للباب العالي زمناً طويلاً فلم تكن سلطة الدولة تامة ضمن الحدود المعينة لها وكما كان الجيش الترانسفالتي يجول في اراضي الغير وتجري معه المفاوضات بصفته دولة وليس له ارض يحكمها . وحالة بلغاريا في عهد اتصالها الاسمي بالباب العالي اتقاص لسلطة الدولة العلية ضمن حدودها بدون اخلال بحقوقها الدولية .

عند الاوربيين لفظة ( Etat ) توسعوا في استعمالها كثيراً فاطلقوها عند ارادة الدولة بالمعنى الذي ذكرناه واستعملوها بمعنى القوة التي تسن القوانين وتنفذها فاما ان تكون تلك القوة مجتمعة بشخص واحد كما قال لويس الرابع عشر ( الدولة انا ) واما ان تكون ممثلة بأشخاص معدودين يؤلفون القوة الاجرائية والتشريعية كما هي الحال في بريطانيا . وهذه اللفظة لها في كل بلد من بلاد اوربا مفهومات : احدهما المفهوم الداخلي ويراد به الحق العام الذي تمثله الحكومة . والاخر المفهوم الخارجي وهو الحاكمية القومية التي تمثل ذلك الشعب في الخارج . وعندما يعرفون اللفظة في معاجم اللغة يعرفونها بكونها شعباً مؤلفاً خاضعاً لحكومة واحدة . وهي عند الالمان معناها مدينة او ناحية من البلاد بدون مراد سياسي او اداري . اما كلمة دولة في العربية فمعناها اُضيق من معنى الكلمة الانجليزية ولا يفهم منها العرب الا الدولة المستقلة استقلالاً سياسياً وادارياً فاذا كانت غير متمتع بهذا الاستقلال فهي اية او ولاية او مقاطعة او حكومة فان كان عليها امير فهي امارة والا فهي ولاية او جمهورية .

وعلى ذلك فترجمة كلمة ( Etat ) بالدولة تكون مصيبة في بعض الاحوال ومخطئة في البعض الآخر وترى المترجمين في كتب اللغات يترجمونها في كل مقام بالمعنى المراد منها في ذلك المقام .

اما اشكال الدول فنندمج في شكلين : احدهما الدول البسيطة او الموحدة او المنفردة . والثاني الدول المركبة . والمراد من الدولة البسيطة الدولة التي فيها حاكمية واحدة تمتد سلطتها المنفردة الى كل فرد من افراد رعيته ولا يعرف اولئك الافراد سلطة ما لغير تلك الدولة وهذا الشكل هو الاصل في تأليف الدولة وعليه جرت اكثر الدول في التاريخ القديم والحديث ويمثله في العصر الحاضر دول فرنسا وايطاليا واسبانيا وتركيا وغيرها من الدول الجارية على هذا النمط من الدول المركزية .

والشكل الثاني هو اجتماع دولتين او اكثر ليكون منها دولة واحدة تختل لها كل دولة من الدول المجتمعة عن بعض حقوق الحاكمية وتؤلف باجتماعها حكومة مركزية تقوم بتلك الوظائف التي تختل لها عنها الحكومات المجتمعة وذلك مع بقاء حق السيادة والحاكمية في كل من تلك الحكومات .

وهذا التركيب الدولي له انواع مختلفة تتنوع بتنوع درجات الارتباط من هذه الدول ودرجة الحقوق الممنوحة للحكومة المركزية ولا يمكن حصر هذه الانواع ضمن قاعدة واحدة لانها تختلف باختلاف مذاهب الدول المركبة من جهة التوسيع والتضييق ولا يوجد دولتان من هذه الدول متشابهتان في قواعد اجتماعها مشابهة تامة وانما يوضع لكل تركيب دولي قواعد خاصة بحسب مصلحة المجتمعين واغراضهم من ذلك الاجتماع .

ليس من شأننا الآن ان نفصل جميع انواع هذا التركيب لان ذلك يطول شرحه وانما مرادنا ان نبحث عن نوع واحد من انواعه الاوسع انتشاراً وهو نوع الحكومات المتحدة الذي هو اقرب انواع الدول المركبة من شكل الدول البسيطة وهذا الشكل يجيء في الغالب بصورتين احدهما الاتفاق والاخرى الاتحاد .

اما الاتفاق الدولي ( Confederation ) فهو انضمام دول مستقلة ذات سيادة تامة الى بعضها واتحادها بموجب معاهدة لاجل بعض المصالح المشتركة مع بقاء السيادة

الداخلية التامة لكل دولة من الدول المنفقة ضمن بلادها ومن ذلك الاتفاق الجرمني الذي تأسس سنة ١٨١٥ بماهدة فينا وبقى الى سنة ١٨٦٦ ومنه اتفاق الرين الذي احده نابوليون واخذ على نفسه حمايته ودام من سنة ١٨٠٦ — ١٨١٣ وكذلك كان اتفاق المقاطعات الاميركية قبل حرب الاستقلال لحد سنة ١٧٨٩ وجرت على القاعدة نفسها الولايات الجنوبية المنشقة في مدة الانشقاق من سنة ١٨٦١ — ١٨٦٣ ومنها اتفاق النمسا والمجر والقاعدة الضابطة لاصول الاتفاق ان تكون السلطة الاولى والسيادة العليا الداخلية لكل دولة في اراضيها فلا تضع حكومة الاتفاق تانوتا لها مخالفا لقانون احدى الدول المنفقة وعلى هذا تكون الروابط التي تجمع البلاد المنفقة ضعيفة وسلطة الدولة المركزية على الحكومات المنفقة محدودة .

والصورة الثانية هي المعروفة بالاتحاد (Fédération) وهي دولة تؤلفها حكومتان او اكثر للقيام بالاعمال التي هي ذات اشتراك دائم بين تلك الحكومات وفيها تخلى حكومات الولايات المتحدة عن بعض حقوق الادارة والحكم وتركها لدولة الاتحاد التي تقوم بذلك العمل ويمتد تأثيرها وسلطتها ليس على الولايات المتحدة فقط بل على كل فرد من سكانها ايضاً . وهذه الصفة تميزها عن صورة الاتفاق التي فيها لا يعرف الفرد سوى سلطة واحدة وهي سلطة حكومته وليس لحكومة الاتفاق المركزية سلطة عليه مطلقاً ولا يشعر بوجودها في حياته الاجتماعية والاقتصادية واما في اصول الاتحاد فيكون السكان خاضعين لسلطتين في وقت واحد ومجبرين على العمل بموجب قوانين حكومة الاتحاد وقوانين مقاطعاتهم المحلية .

والمقاطعات التي تتحد على هذا الوجه اما ان تكون قبل اتحادها دولاً مستقلة ذات كيان وسيادة تامة فتدعوها المصلحة المشتركة الى الاتحاد الاختياري وتسمى عندئذ الدول المتحدة . واما ان تكون قبل اتحادها ولايات تابعة لدولة واحدة فننصل عنها لسبب من الاسباب فتتحد معاً وتؤلف حكومة واحدة فتكون الولايات المتحدة . واما ان تكون في الاصل ولايات دولة واحدة جرت في ادارتها على قاعدة توسيع المأذونية وتدرجت الى عدم المركزية حتى صارت ولايات متحدة ايضاً . وفي الحالتين الاخيرتين لا يطلق على مثل هذا الاتحاد عنوان الدول المتحدة لان العناصر المؤلفة

لهذا الاتحاد ليست دولة مستقلة ذات سيادة تامة لا قبل الاتحاد ولا بعده .  
يشترط لتأليف مثل هذا الاتحاد وامكان انفاذه ونجاحه شروط :  
اولها — المتاخمة وذلك ان تكون هذه الولايات المتحدة متاخمة بعضها البعض لا يفصل  
بينها اراضي دولة غريبة .

ثانيها — التماس الداخلي واهم اركان هذا التماس الوحدة القومية والوحدة  
اللسانية فان لم يكن ذلك حاصلًا كان الاتحاد ضعيفًا وبقى الخد من تحكيم احد الجنسين  
على الآخر وثبوت احد اللسانين على الآخر فينقلب الاتحاد الى الغلبة والحكم .  
ثالثها — سبق الانفصال بحيث لا يتم العهد الاتحادي الا بين قومين يملك كل  
منها قياد نفسه .

رابعها — اشتراك المصالح والمنافع فاذا لم يكن بين البلادين مصلحة مشتركة  
يستفيد كل منها بالاتحاد لاجلها لا يكون في ذلك الاتحاد رابطة تجمعهم وتوثق  
او اصر الاتصال بينهما .

قلنا ان الاتحاد يتضمن سلطتين في وقت واحد وقد يكون فيه سلطة ثالثة ايضاً  
وانما هذه السلطة الثالثة عند وجودها ينحصر تأثيرها على الحكومة الاتحادية المركزية  
فقط ولا يتجاوزها الى حكومات المقاطعات ولا الى الافراد .

مثال ذلك حكومات استراليا المتحدة ففيها مقاطعات ذات استقلال داخلي في  
ادارة شؤونها الخاصة تجمعها حكومة اتحادية ذات وظائف معينة تخلت لها المقاطعات  
عنها فيوجد في البلاد سلطتان احدهما للحكومات المحلية والآخرى للحكومة الاتحادية  
وهناك سلطة ثالثة للامبراطورية البريطانية بصفتها صاحبة حق السيادة والتمثيل  
الخارجي وانما هذه السلطة لا تمتد الى المقاطعات ولا تؤثر على الافراد . وهذا الشكل  
من ثلاث السلطات انتشر في المستملكات البريطانية وانما امكن تطبيقه بانف الحكومة  
البريطانية عن التدخل في شؤون المقاطعات الداخلية في غير الامور التي احتفظت  
بها هذه الدولة لنفسها لتأييد سيادتها .

نظن البشر لهذا النوع من الحكومات قديماً جداً ولعله كان منتشرًا في اكثر  
البلاد وانما تصادفه لأول مرة في التاريخ القديم بالشكل المكتوب الواضح عند الامة

اليونانية حين اتحدت حكومات اثينا واسبرطا او قورنتيه او ارغوس مع جيرانها لاسباب دفاعية او اقتصادية وكانت هذه الاتحادات تختلف في صميمتها ودرجة التصاقها فبعضها كان شديد الاتصال والبعض الآخر كان شكلاً ظاهرياً فقط لا يلجأ اليه الا عند اقحام الاخطار الخارجية .

جميع الحكومات في اول عهدها تكون ضيقة النطاق منقاربة الاطراف ضعيفة المواصلات مع جيرانها فترى نفسها مضطرة للاتحاد مع القريبين منها لاجل تقوية كيانها ثم لا يعم هذا الاتحاد ان ينقلب الى وحدة ماثلة الى التوسع والفتح كما جرى لروما عندما اتحد اللاتين مع جيرانهم حول مدينة روما وكما جرى لانكترا عندما اتحدت مع والس واسكوتلاندا .

الاتحاد يكون اختيارياً وذلك عندما تُتخذ المصلحة منه بين مقاطعة وأخرى فيكون نفعاً محضاً لجميع المقاطعات وفي مثل هذه الحال تُنضم هذه المقاطعات بعضها الى بعض بدون حاجة الى الاجبار والارهاق . ويكون اجبارياً عندما تكون الصلات شديدة وروابط الاتصال متينة بين المقاطعات ويعسر على الاكثرية منها تحمل ضرر الافتراق فيحتملون على المخالف ويكرهونه على الانضمام الى رأي الجماعة كما حدث في حرب الافتراق التي قامت بين الولايات الشمالية والجنوبية في اميركا المتحدة سنة ١٨٦١ حتى تغلب حزب الاتحاد واكره الولايات الجنوبية المنشقة على الانضمام وكما جرى في المانيا عندما تغلبت بروسيا على النمسا وهانوفر وساكس سنة ١٨٦٦ واكرهت الاخيرتين على قبول شرائط الاتحاد الجرمانى الذي رتبته بسمارك .

انتشرت الاصول الاتحادية في الزمن الحاضر وقبلتها حكومات كثيرة من الحكومات المعروفة وبلغت تحت هذا الشكل من الادارة مبلغاً عظيماً من الرقي والنجاح . ووضح الامثلة على هذه الاصول الولايات المتحدة في اميركا الشمالية ودول سويسرا واوستراليا وكندا ومكسيكا والبرازيل والارجاندين وغيرها .

فجمهورية سويسرا مساحتها نحو ١٦ الف ميل مربع وعدد سكانها نحو ثلاثة ملايين وثلاث مليون وهي مؤلفة من ٢٢ مقاطعة مستقلة استقلالاً داخلياً (Etat) وكل مقاطعة منقسمة الى اقسية والاقضية الى نواح اودوائر بلدية يزيد عددها او ينقص بالنسبة

الى جسامه المقاطعة وعدد هذه الاقسام ١٨٧ قضاءً مقسومة الى ٣١٦٤ دائرة بلدية والوحدات السياسية هي هذه الدوائر البلدية التي ينتخب الشعب اعضاءها وهؤلاء الاعضاء ينتخبون ممثلين للبيئات التشريعية لمراكز مقاطعاتهم وللحكومة الاتحادية في المركز العام. وهذه الحكومة مؤلفة من ثلاث قوى التشريعية والاجرائية والقضائية. فالقوة التشريعية ذات مجلسين احدهما مجلس الشيوخ ويسمونه ايضاً مجلس الدولة وهو مؤلف من نائبين عن كل مقاطعة فيبلغ عدد اعضاءه ٤٤ عضواً والثاني مجلس النواب فينتخب كل ولاية نوابها بنسبة عدد سكانها بمعدل نائب واحد عن كل عشرين الفاً من الذنوس لمدة ثلاث سنوات وعند انقضاءها يجدد الانتخاب وقد كانت عدد هؤلاء النواب في سويسرا قبل الحرب العامة ١٦٧ نائباً وهذا المجلسان يجتمعان معاً عند الايجاب فيتألف منهما المجلس الوطني الكبير ولا يحق لرئيس الحكومة ان يفسخ هذا المجلس قبل انتهاء دورته فينتحل من نفسه و يعاد الانتخاب مجدداً. فجميع القوانين يسنها هذا المجلس ويودعها القوة الاجرائية لاجل انفاذها.

اما القوة الاجرائية فهي مؤلفة من لجنة قوامها سبعة اشخاص تسمى مجلس الاتحاد ينتخبهم المجلس الكبير ابي الشيوخ والنواب مجتمعين و يشترط في انتخابهم ان لا يكون من ولاية واحدة اكثر من عضو واحد وعند انتخابهم ينتخب المجلس ايضاً رئيس الاتحاد ونائبه لمدة سنة فقط وهذا الرئيس يرأس مجلس الاتحاد ويتولى اعمال الخارجية المسماة عندهم الشعبة السياسية وسلطته محدودة فليس له ان يفعل شيئاً بدون قرار المجلس. واعضاء المجلس الآخرون يتولون ادارة الشعب الاخرى معتمدين في جميع اعمالهم على قرار المجلس ايضاً فهم المنفذون لهذه القرارات فقط وليس لهم ان يفعلوا شيئاً من عند انفسهم. قسمت حقوق السيادة في سويسرا بين حكومة الاتحاد والحكومات المحلية في الولايات فاختصت الحكومة الاتحادية بوظائف التشريع المتعلق باقوانين المدنية والجزائية والتجارية والبريد والبرق وضرب النقود والمواصلات والجمارك والخارجية. القوة القضائية في سويسرا مودعة الى ١٩ عضواً وتسعة معاونين وهؤلاء القضاة الذين تألف منهم المحكمة العليا ينتخبهم البارلمان ايضاً لمدة ست سنوات وينتخب الرئيس ونائبه لمدة سنتين. فيظن من ذلك ان جميع قوى الحكومة تعود الى نواب

الامة اي المجلس التشريعي فهو الذي ينتخب اعضاء القوة الاجرائية من بين افراده ورجال القوة القضائية ايضاً .

لم يشأ السويسريون ان تكون القوة محتكرة في الحكومة المركزية فحسبوا كل ولاية من ولاياتهم ذات حق بالسيادة والسلطة في الاعمال المختصة بتلك الولاية وجعلوا خضوع سكانها الى حكومة البلاد العامة متعلقاً على منعتهم وعائداً الى اختيارهم فأصبح سكان كل مقاطعة اصحاب السيادة الاولى في بلادهم منفردين بالتشريع والقضاء والجباية في الامور التي تعنيهم وحدهم واشتركوا مع سائر المقاطعات في الامور المشتركة التي تعني الجميع وتؤثر على جيرانهم ويكون الاتفاق فيها خيراً من الاقتراق وهذا هو الاساس الاصلي لتأليف الاتحاد خصوصاً اذا كان التجانس الداخلي مفقوداً بين المقاطعات المتجاورة فيحصل الاضطرار لتنوع الادارة وتبديل الاحكام بحسب تبديل الاماكن وطبائع السكان .

تختلف الاقوام في تفريق حقوق السيادة بين حكومات الاتحاد وحكومات الولايات فمنهم من يجعل الاصل في حق السيادة للولاية وسكانها وعندنا تكون سيادة الاتحاد فرعاً عنها فالحقوق برمتها تعود لحكومة الولاية في الاصل الا ما استثني منها وحصل التخلي عنه بالنص الصريح لحكومة الاتحاد فيدرجون في الدستور الاتحادي جميع الوظائف التي انفقت المقاطعات على تركها للحكومة الاتحادية وما سوى ذلك يبقى من حكومة المقاطعات بدون حاجة الى ذكر صريح ومن هذا القبيل الاصول الاميركية والسويسرية والاسترالية ومنهم من يجعل حكومة الاتحاد اصلاً في حق السيادة والسلطان فيعود اليها حق التشريع برمته ما عدا الجهات التي تذكر بالنص الصريح انها تائده لحكومات المقاطعات ومن هذا القبيل حكومة كندا الاتحادية . وهذا النوع ينطبق على الدول التي تؤسس في ولاياتها عدم المركزية .

ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية اعظم حكومة اتحادية في الدنيا ارى من الموافق ان نخصها ببعض التفصيل عن وصف الاصول الجارية فيها فتكون مثلاً واضحاً في هذا الباب خصوصاً وهي أقدم الحكومات الحاضرة من هذا الشكل وعنها اخذت اكثر الدول الاتحادية اصولها ونسجت على منوالها في اكثر جهات الادارة



ومنهم من تحداهما حذو القذة بالقذة مثل جمهوريات اميركا الجنوبية واميركا الوسطى . مساحة الولايات المتحدة الاميركية السطحية نحو ٣ ملايين ميل مربع وعدد سكانها نحو مئة مليون نفس وبلغ عدد ولاياتها ( ٤٨ ) ولاية في الوقت الحاضر وقد بدأ ثلاث عشرة ولاية فقط منذ نحو ١٤٠ سنة عندما قامت هذه الولايات وحاربت بريطانيا لاجل استقلالها وقد كانت هذه الولايات تابعة لانكتره وهي مستعمرات لا ارتباط بين الواحدة والاخرى منها الا بواسطة الامبراطورية البريطانية فبعد ان فاز سكانها بهذه الحرب وقرر لهم الاستقلال لم يوافقوا على الاندماج في دولة واحدة بسيطة وانما احتفظت كل ولاية بحقوق الحاكميه لنفسها في ضمن حدودها واكتفوا باحداث اتفاق بينهم لاجل جمع كلمتهم وقوتهم في الامور الخارجية وبعض المصالح المشتركة مثل مصلحة البريد والبرق وضرب النقود . وبسبب كثرة المهاجرة الى اميركا انتشر المهاجرون في داخل القارة وضربوا في عرضها وطولها واستعمروها رويداً رويداً وكما عمرت مقاطعاتهم استمروا فيها حكومة مستقلة بحقوق مساوية لحقوق الولايات الاولى وانضموا الى الاتحاد وهم اليوم باقون على تلك الحالة ولم داتيك الحقوق التي ورثوها عن المقاطعات الاولى .

حكومة الولاية اليوم تتمتع بجميع حقوق الحاكمية المستقلة ما عدا المستثنيات التي تحت عنها حكومة الاتحاد . وكل ولاية لها قانونها الاساسي المتضمن الحقوق العامة لافراد الشعب تجاه الحكومة وكيفية تشكيل الحكومة ومنايع الخزينة والميزانية . ولها مجلسها التشريعي المؤلف من دائرتين احدهما للشيوخ والاخرى للنواب ينتخب اعضاؤها من سكان تلك الولاية بالاقتراع العام وهذا المجلس يسن القوانين ويسيئر على الادارة بجميع اطرافها . ولها حاكمها العام الذي ينتخبه الشعب ايضاً لمدة معينة ويتولى رئاسة القوة الاجرائية . ولها محاكمها العليا حيث تنتهي درجات القضاء فيها . ولها ضرائبها ورسومها واصولها المالية وديونها العامة . ولها قوانينها الخاصة في الامور المدنية والجزائية واصول المحاكمات . ولها قانونها الخاص في قضية الجنسية حتى انك تجد هذا القانون الذي يقتضي الوحدة في جميع اجزاء الدولة مخالفاً في احدى الولايات عما هو في غيرها فترى الحقوق السياسية مثل حق

التصويت والانتخاب ممنوحاً لواحد في ولاية وممنوعاً عن امثاله في غيرها . فالفرد الاميركي قد يعيش دهره ضمن ولايته بدون ان يشعر بوجود الحكومة الاتحادية الا عندما يقدم شكوى من احدى الادارات الاتحادية كادارة البريد والبرق او عندما يدفع مكساً عن البضائع التي يستوردها من الخارج وجميع دعاويه وقضاياه تحل ضمن ولايته وفقاً لقوانين تلك الولاية . والهيئة التشريعية التي تمثل الشعب تستطيع ان تدخل اي تعديل او تحوير كان على قانونها الاساسي المستمد من ارادة الشعب فقط وليس للسلطة الاتحادية حق المراقبة عليهم مطلقاً حتى في امور التشريع سوى ما كان من جهة النص الوارد في الدستور الاساسي من ان القوانين الاساسية للولايات يجب ان تكون جمهورية فلا تستطيع ولاية ان تجعل حكومتها ملكية او غير جمهورية وفي ما عدا ذلك هي مختارة بالتحاذ الشكل الذي تختاره في وضع قانونها الاساسي الذي يتضمن في الغالب اجثاماً معينة أهمها حدود الولاية وحقوق الشعب العامة وتشكيل حكومة الولاية والمجلس التشريعي وبها كيفية انتخابه ووظائفه وحقوقه واقامة القوة الاجرائية وكيفية ايجادها ودرجة مسؤوليتها امام نواب الشعب وحق القضاء واصول اجرائه وحرية الانتخاب وشكل حكومة المحققات في الاقضية وكيفية ادارتها والاياء الى القوانين والانظمة الموضوعة والواجب وضعها وصيانة الامن الداخلي واصول الضرائب ومنايع الخزينة وكيفية الاتفاق والسجوت والمستشفيات والاهتمام بالزراعة والمعارف والمواصلات وحقوق العمال وشرائط تعديل القانون الاساسي .

المجلس التشريعي في كل ولاية يتألف من الاعيان والنواب وجميعهم ينتخبهم الشعب بالرأي المشترك فالاعيان ينتخبون لمدة اربع سنوات والنواب لمدة سنتين وقد اخذوا جعل التشريع في مجلسين عن الاصول الانكليزية التي جرى عليها الشعوب الاخرى ايضاً والغرض منه ان يكون احد هذين المجلسين معدلاً للآخر فيكون ذلك اضمن من الخطأ او التسرع في سن القوانين فلا يبقى مجال للتمييز او الاستئثار او الغلط الذي يرتكبه احد المجلسين .

واما عدد الممثلين في كل من المجلسين فيختلف بالنسبة لعدد السكان في كل ولاية

ولنصوص القانون الاساسي فيها الذي يعين عدد الافراد لانتخاب النائب الواحد .  
 حاكم الولاية ينتخبه الشعب عندما ينتخبون نواب التشريع ومدته في اكثر الولايات  
 اربع سنوات وفي بعضها ثلاث او سنن او سنة واحدة وهو يراقب انفاذ القوانين  
 واحكام الحاكم وله حق العفو عن الجرائم وقيادة القوات المحلية في حفظ الامن الداخلي  
 وهو يعين كبار الموظفين بعد ان يوافق مجلس الاعيان على تعيينهم ولكن هذا الحق  
 محدود جداً لان اكثر كبار الموظفين ينتخبهم الشعب بالتصويت مثل حكام الاقضية  
 الذين ينتخبهم سكان القضاء وكذلك القضاة فان انتخابهم يعود اما للشعب واما  
 للمحكمة العليا التي ينتخب الشعب أعضائها . وهو يمثل الولاية في المراسلة مع الحكومة  
 الاتحادية وحكام الولايات الأخر . وللحاكم حق الابطال او حق الرد ( Veto )  
 وهذه صلاحية عظيمة جداً للذين يحسنون استعمالها وهي ان الحاكم يستطيع ان يرد كل  
 قانون يسنه المجلس التشريعي وذلك لان الشعب قد جعل الحاكم معدلاً لحرارة  
 الاحزاب ومبطلًا لثنائج التسرع الذي يقع في المجالس في بعض الاحيان فهو ينتخب  
 الحاكم من ذوي الحكمة والاختبار الطويل واصحاب الدم البارد والحزم والروية ليحول  
 دون الاسآت التي تذهب اليها الاحزاب السياسية . فالحاكم بواسطة هذا الحق  
 الممنوح اليه يسيطر على حركات التشريع ويستعمل هذه الصلاحية معتمداً على  
 ثقة الشعب به .

اما القضاة فينتخبهم الشعب او مجلس النواب او يعينهم الحاكم بموافقة الاعيان  
 وهم في الغالب يقلدون وظائف القضاة لمدة طويلة تبلغ العشرين سنة وانما روايتهم  
 قليلة بالنسبة الى شرف القضاء وغنى الاميركان . والقضاء مستقل في كل ولاية  
 وفيها تنهي درجات المحاكم بدون ان يكون لحكومة الاتحاد سيطرة على محاكم الولايات  
 وقوانينها واصولها . الا في الامور العائدة للقانون الاساسي الاتحادي او في  
 القضايا المودعة لحكومة الاتحاد .

في مبدأ الاتحاد الاميركي كانت عواطف الشعب مستقرة في الوطنية الضيقة  
 وكان اهتمام الافراد وتحمسهم منصرفاً نحو مقاطعتهم فلم يكونوا يعبأون كثيراً بالدولة  
 المركزية التي كانت منقطعة عن الشعب انقطاعاً تاماً غير ان هذه الحالة اخذت تتبدل

في غضون القرن التاسع عشر تبديلاً محسوساً وذلك بسبب الترقى الذي احرزته التجارة والعلاقات الخارجية فصارت مصالح كل شعب غير محصورة بالمنطقة الضيقة التي يعيش فيها بل كثرت علائقه مع الخارج وكان غنى الشعب الاميركي واتساع ثروته وانتشار تجارته خادماً لاحداث انقلاب في عواطفه نحو الحكومة الاتحادية التي تمثله في الخارج وتحمي تجارته ومصالحه الواسعة . كما ان انتشار الاحزاب السياسية المؤسسة على اختلاف جهات النظر في الامور السياسية الخارجية والتدابير الاقتصادية العامة جعل كل فرد من السكان مضطراً الى الانتماء لاحد هذه الاحزاب التي جمعت تحت الويتها سكان الولايات كافة ووحدت ميول كل فريق منهم فتكون منها فرق منتشرة في جميع انحاء البلاد وانظارها متجهة الى مقاصد معينة وموحدة بين جملة الافراد المنتسبين الى احدي الفرق فلم يعد للمنطقة الضيقة تأثير على منافع المنطقة الواسعة واصبح الفرد يساهل في تضحية المصلحة المحدودة في مقاطعته لصيانة مصلحة حزبه وتأيد سياسته الرامية الى المصلحة العامة الواسعة . وكذلك الحرب الاهلية التي احدثها محبو الانفصال في اواسط القرن التاسع عشر آلت الى الخذلان وانصداع شأنهم وانتهت بنصرة القائلين بالاتصال والاتحاد فقويت كلمتهم واعتزت مكانتهم وكان هذا من جملة الاسباب لخدمة مصلحة الاتحاد . كما ان الحروب الخارجية التي جرت في آخر القرن الماضي مع اسبانيا وفي القرن الحاضر مع دول اوربا آلت لدخول الاميركان في السياسة الخارجية التي تمثلها حكومة الاتحاد وبما ان هذه الحروب ايضاً انتهت بانتصار الاميركان وتعزيز شأنهم فقد قويت بها كلمة الاتحاد وكاد نفوذه يبتلع النفوذ المحلي .

ليس للحكومة الاتحادية الاميركية اراض تديرها رأساً ضمن الولايات سوى منطقة كولومبيا الصغيرة التي فيها العاصمة وانما التوسع السياسي الاخير الحق بالجمهورية الاميركية جميع اراضي الاسكا الواسعة وجزائر النيلين التي اقتنتها من الاسبان وجزائر هاواي وبورتوريكو وترعة بناما فبقيت هذه البلاد تدار من قبل الحكومة الاتحادية رأساً وبقيت الحكومات المؤسسة في هذه المستملكات تأتمر بأمر حكومة واشنطن .

عندما انفصلت الولايات الثلاث عشرة عن بريطانيا اعلنت كل منها استقلالها سنة ١٧٧٦ ارانفق بعضها مع بعض بروابط ضعيفة جداً واقامت المجلس العمومي (Congrès) الذي لم يكن لديه قوة مطلقة ولم يكن له النفوذ على المقاطعات بشيء فشعر السكان بحاجة بتحاد امن من هذا الاتفاق وقام المفكرون منهم يطالبون به حتى اجتمعت لجنة في هذا المجلس ووضعت الدستور الاساسي سنة ١٧٨٧ فقبلته تسع ولايات وانتخبت جورج واشنطن اول رئيس للجمهورية المؤلفة بموجب ذلك الدستور ثم خلقت بقية الولايات تدريجاً وانضمت الى الجمهورية. وكان لهذا الدستور الاميركي الاول تأثير عظيم ليس على سياسة اميركا فقط بل على سياسة الدنيا ايضاً لانه وضع القاعدة القائلة بالحاكمية الشعبية وان كل قوة او سلطة او سيادة ليس لها منبع الا الامة وارادة الشعب فقط وان الامة لا تحكم الا بالصورة التي تريدها. وقد اشتهر هذا الدستور بصراحته واثقانه ومتانته التشريعية حتى قيل انه افضل دستور من نوعه وضعه البشر الى العهد الحاضر وبموجبه تأسست الجمهورية الاميركية الحاضرة.

اما المبادئ التي أسس عليها فهي :

- (١) : احترام ارادة الشعب .
- (٢) : بقاء السيادة الاصلية للمقاطعات فكل حق من حقوق الحاكمية غير مصرح بمنحه لدولة الاتحاد يبقى لحكومة المقاطعة .
- (٣) : اعتبار مجموع المقاطعات الداخلة في الاتحاد دولة واحدة ووطناً واحداً وتأسيس حكومة وطنية اتحادية لمصلحة هذا الوطن الواحد .
- (٤) : تتولى المقاطعات لهذه الحكومة الوطنية عن كل وظيفة واجبة لحياة الامة بصفتها شعباً مجتمعاً وهذا يشمل الامور المتعلقة بصلات الامة مع الدول الخارجية ويشمل الامور الداخلية التي ادارتها من قبل دولة الاتحاد وانفع لمصلحة الامة من ادارتها من قبل حكومات الولايات . وقد فصل الدستور وظائف الدولة المركزية وحصرها بالامور الآتية :

- (١) : تطرح وتجي التكاليف الواجب اطرادها على نمط واحد في جميع الولايات .
- (٢) : تعقد القروض باسم الولايات المتحدة وتكون عقودها ملزمة لجميع الولايات .

- (٣) : تنظم التجارة الخارجية والتجارة الداخلية المشتركة بين الولايات .
- (٤) : تضع قواعد مطردة للتابعة وللأفلاس تراعى اصولها في جميع الولايات .
- (٥) : تسك النقود وتضع معياراً للتقاييس والمكاييل والموازين .
- (٦) : تؤسس دوائر البريد وثنشئ الطرق البريدية .
- (٧) : ننفر بصيانة حقوق التأليف والاختراع والعلامم الفارقة والحقوق الصناعية .
- (٨) : تؤسس محاكم تابعة للمحكمة العليا .
- (٩) : تعلن الحرب وتعقد الصلح وتستحوذ على الغنائم الحربية .
- (١٠) : تجمع جيشاً وثنشئ اسطولاً حربياً .
- (١١) : تدعو القوى الوطنية المعروفة بالميليس وتجهزها للخدمة اللازمة بحسب ما تقتضيه مصلحة الولايات .
- (١٢) : تتولى الحاكمة المنفردة في البقعة المعينة مقرأً لحكومة الاتحاد والاماكن المتخذة للاستحكامات الحربية .
- (١٣) : تسن الشرائع اللازمة لانفاذ هذه البنود والقيام بهذه الوظائف .
- (١٤) : تسن القوانين الواجبة لحماية الافراد تجاه اي تشريع كان تصدره مجالس الولايات خلافاً للحقوق العامة المنصوص عنها في الدستور .
- وقد اوجب الدستور على كل ولاية ان توفد مندوبين من قبلها يمثلانها في مجلس الشيوخ العام وان توفد مبعوثين الى مجلس النواب على نسبة عدد سكانها . ووجب عليها ان تنظم القوى الوطنية وتحضرها وتجعلها عند الحاجة رهناً امر رئيس الجمهورية ليستخدمها في المصالح الوطنية العامة . ومنح ايضاً للمحكمة العليا التي هي احد اركان دولة الاتحاد حق تفسير مواد الدستور فكل قانون تسنه المقاطعات يعرض على هذه المحكمة حتى اذا رأت فيه مخالفة لروح الدستور تمنع عن اجازته فلا يكون نافذاً . وقد حفظت حقوق الدولة الاتحادية بما لها من حق الحكم المباشر على الافراد فكل مخالفة للدستور ولائحة الاتحاد يحاكم اربابها ويعاقبون لدى محاكم الاتحاد رأساً كما ان الاموال التي تجبي لحساب خزينة الاتحاد مثل المكوس ورسوم الاستهلاك يجبيها جباة الدولة

المنتشرون في كل بلد من بلاد الاتحاد الاميركي فلا تحتاج الدولة المركزية الى مراسلة حكومة الولاية وطلب انفاذ قوانينها منها وانما تراسل موظفيها الذين يجرون وظائفهم بدون حاجة لمناصرة من الحكومة المحلية . وقد اباح الدستور للحكومة المحلية ان تطلب المعونة من الدولة عند وقوع عصيان في الولاية او حصول تعدد خارجي عليها والدولة تلي طلبها وتضمن لها ادارة جمهورية حرة مصونة من العصيان الداخلي والغزو الخارجي .

قلنا ان المجلس التشريعي له دائرتان احدهما الاعيان او الشيوخ والثانية النواب فالشيوخ توفدهم الولايات بمعدل اثنين لكل ولاية مهما كان عدد سكانها فولاية نيويورك مثلاً التي سكانها نحو عشرة ملايين توفد اثنين وولاية نيفادا التي سكانها ٨٢٠٠٠ توفد اثنين ايضاً واما النواب فينتخبون بالنسبة لعدد السكان وهم يخبرون اماناتناهم على اساس الناحية بنائب واحد او على اساس الولاية دفعة واحدة وانما جميعهم الآن الا واحدة اختاروا الشكل الاول وقد كان عدد النواب عند تأسيس الاتحاد ٩٥ حتى صار الآن نحو ٤٠٠ نائب .

رئيس الولايات المتحدة تنتخبه لمدة اربع سنوات هيئة خاصة تنتخبها الولايات لهذه الغاية فكل ولاية تنتخب عدداً من الناخبين بقدر مالها اعضاء في المجلس الكبير ( Congrès ) من اعيان ونواب وهؤلاء الناخبون يجتمعون في كل ولاية يوم الاثنين الاول من شهر كانون الثاني من سنة الانتخاب وينتخبون الرئيس ونائبه بالرأي الخفي ويرسلون غلافات الانتخاب الى العاصمة فيفتحها رئيس الاعيان بحضور المجلس العمومي ونتم الاكثرية من العدد المرتب فاذا لم تتم هذه الاكثرية لاحد ينتخب النواب الرئيس والاعيان نائبه . والرئيس هو رأس القوى الاجرائية في البلاد وله حقوق معادلة لحقوق الملوك في البلاد النيابية ومجموع مخصصاته مئة الف ريال في السنة . وحقوقه تزيد في زمن الحرب حين يصبح مسيطراً على جميع القوى الوطنية وصاحب الامر المطاع في سبيل الدفاع الوطني وصيانة شرف البلاد ومجدها . والاجراء محصور فيه وليس هناك وزراء بل رؤساء الشعب الخارجية والخزينة والخرينة والنائب العام والبحرية ورئيس البريد العام في الداخلية والزراعة و ( التجارة والعمل ) .

القضاء في اميركا مستقل عن سائر القوى وقوامه المحكمة العليا التي تقابل محكمة

التميز مؤلفة من تسعة قضاة يعينهم الرئيس بموافقة الاعيان لمدة الحياة ويوجد محاكم استئناف وبداية في الولايات لاجل رؤية القضايا المتعلقة بالاتحاد فقط وهي القضايا المتعلقة بالدستور او بالسفراء والوزراء والقناصل او بالبحرية والقضاء البحري والتي تكون الدولة فيها احد الخصمين او تكون احدى الولايات خصماً مع ولاية اخرى او مع احد سكان ولاية اخرى . والمحكمة العليا لها تفسير معاني الدستور الاساسي . وانما لا تفعل ذلك الا في معرض الخصومة والقرار الذي تصدره يسري على تلك القضية المحكوم بها . وقد نجحت الدولة الاميركية ضمن هذا الاتحاد وجاء موافقاً لمصالحها الداخلية واخارجية وسبباً لازدياد ثروتها وارتقاء عمراتها وان كان الفضل الاول في ذلك لاخلاق الشعب وخصب البلاد .

فارس الحوري





## طُرْفَةٌ أَدَبٍ مِنْ آدَابِ الْعَرَبِ (١)

أيها الاخوان !

إذا قرأتُم مقامات الحريري سمعتموه يقول في فاتحة كل مقامة « حكي الحارت ابن همام » رايواً أخباره عن « ابي زيد السروجي » . وإذا قرأتُم مقامات « بديع الزمان الهمداني » ألقىتموه يقول « حدثنا عيسى بن هشام » مخبراً عن « ابي الفتح الاسكندري » . وها أنا ذا اليوم أسمعكم مقامة لم يروها الحارث بن همام . ولم يحدث بها عيسى بن هشام . وإنما حدث بها « ابو المطهر الأزدي » — عن « ابي القاسم البغداداي » .

فموضوع محاضرتي هذه مقامة من مقامات الادب . ابتدعها أحد كتاب العرب . وافرغها في اسلوب عجب . وقد أعتزنا عليها الدهر المكنى ابا العجب .

\* \* \*

المقامة في اللغة معناها المجلس يقوم فيه الناس . ثم أطلقت مجازاً على الخطبة او الموعظة التي تلي في المجلس . وبعد ان أُلِّفَ ( البديع ) و ( الحريري ) مقاماتهما اصبح للمقامة معنى خاص مراعى فيه الوضع والاختراع . فمن ثم يصح ان يُقَالَ « فن المقامات » في آدابنا العربية بـ « فن الروايات » في الآداب الافرنجية : من حيث أن كلا منها يُفرغ في قالب قصة ذات وقائع خيالية . وأشخاص او أبطال خياليين . لكن « فن المقامات » عندنا ذوى واضمحجل . اما فن الروايات عند الافرنج فقد أخصب ونما . واصبح شجرة باسقة : اصلها ثابت وفرعها في السماء .

والذي دعا البديع والحريري الى انشاء مقاماتهما . وافرغها في هذا القالب المفككه

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ ( المغربي ) في ردهة المجمع في ٢٠ تشرين

الاول سنة ١٩٢١ .

المسلبي هو ملل أهل عصرهما من حالة الأدب القديمة . ومن طريقة المؤلفين والمنشئين في إيراد الحكم . وسرد الوقائع . ورواية الاخبار المختلفة .  
 وإذا تأملنا في كل تجدّد أو نهضة تحدث في الكون سواء أكانت دينية أو سياسية أو اجتماعية أو أدبية نرى معظم السبب المؤثر في حدوثها هو ملل الناس . فيجملهم هذا الملل على تطالب شيء جديد يناسب حالتهم الاجتماعية والفكرية التي وصلوا أو ارتقوا إليها : واذذاك يظهر النابغون والمصلحون والمجددون وعماء النهضات . خذوا مثلاً النهضات المتوالية في آدابنا العربية : فات العرب قبل الاسلام بنحو نصف قرن مأوا سماع أساليب فصحاءهم الكلامية الأولى التي ربما كانت موروثه لهم من عهد حمورابي فنهض ( قس بن ساعدة ) و ( امرء القيس ) و ( الأعمش ) الذي كانوا يسمونه صنّاجة العرب فشقّ قوا الكلام وذهبوا فيه مذاهب أطربت العرب . واستهوت أفئدتهم .

ثم بعد نحو مئة سنة عاد الناس فمأوا طريقة أصحاب المعانيات وأجروها . ومما يزوى في ذلك قول بعض العرب يعير بني تغلب :

( ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم )

( يروونها أبداً مذكأت أو لهم يا للرجال لشعر غير مستوم )

فكان من أثر هذا الملل أن نهض في دولة الامويين ( عبد الحميد الكاتب ) و ( جرير ) و ( الفرزدق ) فأحدثوا طريقة غضة كانت أشدّ التحاماً بحالة العرب وأذواقهم وهم في طورهم الاجتماعي الاسلامي الجديد .

ثم كرّ على ذلك قرابة مئة سنة وكانت قامت دولة بني العباس بخلفائها . ومجالس غنائها وندمائها . وقد ملّ الناس طريقة ( جرير ) و ( الفرزدق ) ومناقضاتهما . و يروى من آثار هذا الملل أن الشاعر كان إذا وقف بين يدي جعفر البرمكي للانشاد قال له : « قل ولا تطيل فاني أمل الأطلالة » . وكان المأمون لا يحب أن يسمع سوى البيتين أو الثلاثة في مدحه وشيء من التشبيب والوصف .

فنهض ( عبد الله بن المقفع ) و ( ابو نواس ) و ( بشّار بن برد ) الذي سماه بعضهم « ابا التجدد » فأسمعوا الناس عجباً . وأوسعوهم طرباً .

ثم بعد مئة سنة ملّ الناس وضجروا من تكرير المهاد فنهض ( أبو تمام )  
 و ( الجعفي ) و ( الجاحظ ) الذي يدعى ( ملك الانشاء ) . ويكفي ان اذكر اسماء  
 هؤلاء الثلاثة لتعلموا أيها السادة مبلغ تأثيرهم في تجديد الآداب العربية .  
 وقد أصبح الناس بتأثير حضارة هذا الزمن يميلون الى الغلو في النقد . والتفنن في  
 الوصف . وذكر أخبار الناس . وما يقع للخلفاء والامراء في مجالس لهوهم . وكل  
 مستملج من الحديث . ومفكك من الشعر . حتى قال الجاحظ : إن الناس في عهده  
 ما كانوا يأنفون من إنشاد أغاني المعتوهين وأهازيج اللصوص وأشعار اليهود .

ثم انتقل الناس من القرن الثالث الى القرن الرابع الذي نفجت فيه الحضارة  
 العربية أتم نضج . وبلغ الناس من الترف حدّاً تطأبوا معه أقصى ضروب المفكّهات  
 والمسليات . بعد أن كانوا ملأوا ترديد أقوال أدبائهم السابقين . وأحبوا ان يسمعو  
 غيرها الى حدّ ان كان يلذّ لهم سماع أشعار السقّابين الذين يحملون القرب . والمارتين  
 على جسر بغداد . والمسحّرين في رمضان . وأخبار سياحات البرّ والبحر . التي كثرت  
 في ذلك الزمن . وسماع عجائب الهند . وجزائر واق الواق . وما وراء جبل قاف .  
 وكان حاملاً لواء هذا التجدد أو النهضة التي انظرها الناس ( المنبهي ) و ( بديع  
 الزمان الهمداني ) فكان أسلوبهما في الشعر والنثر وثقّفنهما فيها عهداً جديداً في  
 الأدب العربي . والشعر العربي . والتأليف العربي .

وامتدت هذه النهضة الى القرن الخامس الذي مات في أواسطه ( أبو العلاء  
 المعري ) وبها ختمت نهضات الادب الخمس . ثم كرّرت بعدها ثمانية قرون . أخذت  
 تضعف فيها حياتنا الاجتماعية بالتدرّج . وفي آخر الامر لم نعد نشعر بملل بل ولا ألم .  
 حتى كانت هذه العصور المتأخّرة فأخذ يدبّ فينا ديبّ الحياة . وعاد الينا الشعور  
 بالملل من أدبنا القديم . ونهض شباننا يتلمّسون أدباً عربياً جديداً . يناسب مدينة القرن  
 العشرين . ويلتحم مع آداب الامم الراقية التي تعيش فيه .

\*\*\*

وفي النهضة الادبية العربية الخامسة التي قلنا إنها هي الأخيرة عمد الأديب  
 والكتاب الى وضع تأليف تُحدث في النفوس تسليّةً ونشاطاً . موافاةً لرغبة الناس

وسدّاً لخلاجاتهم كاذكرنا. كذلك فعل البديع الهمداني في مقاماته المشهورة. والاصفهاني في كتابه الاثافي. وأبو العلاء المعري في رسالته «الغفران». لكن بعض المؤلفين والشعراء في هذا الدور تجاوزوا حدود الأدب الى الجون والهنز و يسمونه (إحماضاً). وكانوا يعتذرون عنه أحياناً كما اعتذر الحريري في مقاماته عن بيتي كقالت الشتاء مذ قال «وما قصدت بالإحماض فيه. الانشيط تاريخه. وتكثير سواد طالبيه».

والجون في أدبيات الامم أثر من آثار حضارتها وانغماسها في الترف. فليست الامة العربية بدعاً من سائر الامم: فإنها كلها — قديمها وحديثها — لها في آدابها من ضروب السخف والجون واختراع وسائل للشهوات ما كذا ليخطر ببال العرب. ومن لطيف المصادفات أنني بعد أن وصلت في كتابة المحاضرة الى هنا اطلعت على مقالة في مجلة (Lse Annales) الفرنسية يشكو فيها كاتبها من كتب الجون والخلاعة التي طغافانها على الباريزيين. ولقت الكاتب أنظار الحكومة الى ملافة هذا الشر. فقلت في نفسي هذان (باريزي) التي هي عروس الحضارة الاوربية اليوم قامت تشكو مما كانت تشكو منه اختها بغداد عروس الحضارة العربية أمس. ولشد ما كان التار يخ يعيد نفسه.

\*\*\*

في هذا السور الاخير من حضارة بغداد كُتبت مقامة، (ابي المطور الازدي) التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه. وهي من الكتب التي تحمجن فيها كاتبها وتخالع. وأودعها من القول ما لا يحسن ذكره. لكنه، والحق يقال كتبها بأسلوب لا نظير له في كل ما كُتِبَ واطلعنا عليه من نوعه. حتى أعجب به المستشرقون ايما اعجاب. وليس اعجابهم به من حيث بلاغة أسلوبه. وتجويد عبارته فقط. بل من حيث نفته في وصف شؤون كثيرة من حضارة العرب. وطرق معاشهم في القرن الثالث الى أواسط الخامس.

وهذا ما نحب ان نصغي اليه نحن من هذا الكتاب العجيب. ونعرض عما فيه من الجون الذي لا يحسن ولا يطيب.

وفي الكتاب كلمات وأساليب لا يمكن ان نوفيها حقها من البحث الآن . فنجتزئ  
بالاشارة اليها :

من ذلك كلمات استعملها المؤلف منذ ألف سنة ونحن نظن أنها أحدث عهداً: نحو  
كلمة ( نفضَل ) في الدعوة الى الطعام و ( بقَال ) لبائع الجبن والزيتون ونحوها  
و ( شوربا ) لنوع من الطعام أظنه غير الحساء المعروف اليوم و ( ألحان شجّية ) أي  
مطربة و ( له فرد كم ) أي كم واحد و ( كأس خمر يدوخ ) أي يورث الدوار  
و ( ماء الليمو وحمّاض الليمو ) يعني الليمون ولما اذا حذف النون يا ترى ؟ ويظهر ان  
الليمون كان معروفاً في ذلك العهد كالانج و ( بن ) لكنهم كانوا يريدون  
به ضرباً من الكواخ لا بُدّنا الاسود المعروف ثم استعاروا كلمة ( بن ) لهذا الذي نعرفه  
كما استعاروا له كلمة القهوة وهو من اسماء النخرة . وكلمة ( أفّيه ) للدلالة على التقزّز  
من الرائحة الخبيثة و ( أشه ) للدلالة على صوت العطايش .

ومن أغرب كلماته كلمة ( شير ) وازمها فقال ( شيرة ) والشير نسمعا في لبنان  
ويعنون بها الصخرة المشرفة من جبل . هذه الكلمة لم يذكرها علماء اللغة فهي عامية  
أي موأدة . ولعلها سريانية عرفها العلماء في زمن العباسيين كما عرفناها بعد الف  
سنة مذسمعناها من اللبنانيين . وربما كانت من جملة الكلمات السريانية الباقية في كلامهم  
وقد فسرها في ( الفرائد الدرية ) بقوله : ( الشير — Roc près de tomper ) .

ومن الكلمات الفصيحة التي كانوا يستعملونها في القرن الرابع ومات بعد ذلك — كلمة  
( نقّاط ) للسراج الذي يستضاء به بواسطة زيت النفط أي زيت البترول غير  
المصفى . فنصلح لانسميَ بها مصابيح البترول اليوم . وكلمة ( جذور ) جمع جذر  
وهي أجور المغنيات وكلمة ( مفردات ) في وصف الاشياء إذا كانت لانظير لها  
فيقولون مثلاً ( مفردات الاخبار ) أي عيونها ونوادرها . وكلمة ( متخّيف ) و ( مدبر )  
يصفون بهما من كان مشئوماً سيء الحظ غير موفق في أمور حياته . ويجمعون  
( مدبر ) على ( مداير ) .

ومن غريب ما رأته فيه من الكلمات جمعه ( التي ) بالتين قياساً على الذين

وابن مالك يقول : ( بالآلات واللائي التي قد جمعا ) وأغرب منه استعماله ( تا ) بمعنى ( حتى ) فقال من بيت شعر :

( لم يزل يفعل كذا تا تهورت الخ )

اي حتى تهورت . و ( تا ) اداة تركيبة كما لا يخفى . ولعل وزن الشعر هو الذي اضطره الى استعمالها ؟

\*\*\*

ولنضرب صفحا عن تحليل الكتاب لغويا ولنعمد الى الكلام على مضامينه اجتماعياً :

قلنا ان الكتاب مقامة اي رواية عربية . وأن بطلها اسمه ( ابو القاسم البغدادي ) وهو خيالي كآبي زيد السروجي وعيسى بن هشام بطلي مقامات البديع والحريري . اما ( ابو المطهر الازدي ) الذي كتب هذه المقامة فهو — وان لم نظفر بترجمته فيما بين أيدينا من كتب التراجم — أديب من أدياء القرن الرابع . وربما امتد عمره الى أواسط القرن الخامس : بيان ذلك ان أبا المطهر المذكور من اصحاب ( ابي عبدالله ابن الحجاج ) الشاعر المشهور يفهم ذلك من مقدمة الكتاب التي كتبها ابو المطهر نفسه . وابن الحجاج المذكور مات سنة ( ٣٩١ ) فيكون ابو المطهر ولد في أواخر القرن الرابع . ثم ان ابا المطهر ذكر في كتابه بين الأدياء الذين روى شيئاً عنهم ( ابن غيلان البزاز ) . وقال المستشرق ناشر كتاب ابي القاسم في المقدمة التي وضعها له — ان ( ابن غيلان ) مات سنة ( ٤٤٠ ) فهذا يدل على ان ابا المطهر عاش الى اواسط القرن الخامس . ولم يمكننا ان نعرف عن الزمن الذي وُلد فيه ابو المطهر ومات فيه أكثر مما ذكرنا .

وابو المطهر عاش في زمن البديع الهمداني صاحب المقامات الذي مات سنة ( ٣٩٨ ) فيكون قد عرفه وعرف مقاماته . كما عرف ابا عبد الله ابن الحجاج وعاشره وسمع مجازاته . و ( البديع ) هو واضع فن المقامات كما شهد له بذلك الحريري مذ قال : ( انه جرى في بعض أندية الادب ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همدان ) ويعني بقوله ابتدعها اخترعها وسبق غيره الى تصنيفها . وكأ أن

البديع كان في ذلك الزمن ( نابغة المقامات ) كان عبد الله بن الحجاج ( نابغة الخلاعات أو المخانات ) . وقد عاشرها ( ابو المطهر ) كليهما . فلا جرم ان يكون في مقامته التي سماها ( حكاية ابي قاسم البغدادي ) قد جمع بين ما استفاده من النابغتين : التفنن في سبك وقايع المقامة وتأليف اجزائها وهو امر استفاده من البديع — والتفنن في السقفه والمجون والخلاعة وهو ما استفاده من ابن الحجاج . فجاءت مقامته في البلاغة آية . وفي المجون نهاية .

ومما يُستغرب ان ( ابا المطهر الازدي ) لم يسمّ مقامته ( مقامة ) بل سماها حكاية مع انه استعمل كلمة ( المقامة ) في مقدمتها التي كتبها لها فقال : ( أشعار لنفسي دونتها . ورسائل سيرتها . ومقامات حضرتها ) .

و يُستغرب أيضاً أن احداً من المؤلفين لاسيما كتاب الفهارس والتراجم وشرّاح المقامات لم يذكر ( حكاية ابي القاسم ) التي ابتدعها ابو المطهر مع أنها أعجب أسلوباً . واغزر شؤبياً . من كل ما كتبه ( المقاماتيون ) . وليس ذلك في غالب الظن إلا لما حوته من السخف والمجون . فلم ننداؤها أيدي النسخ ولم يكتب منها سوى النسخة التي ربما كانت نسخة المؤلف نفسه فعلقت بها أيدي المستشرقين فأروا فيها من وصف الحضارة الاسلامية في القرن الرابع والخامس ما حملهم على طبعها ونشرها .

( وكنا كتبنا الى العلامة احمد تيمور باشا نسأله رأيه في حكاية ( ابي القاسم ) فجاءنا منه الجواب قبيل إلقاء المحاضرة في ( ردهة المجمع ) فتلونا ما كتبه على الجمهور وهذا نص ما قاله : )

( حكاية أبي القاسم البغدادي ) تحتوي على أحاديث مضحكة وضعها مؤلفها على رجل يقال له ابو القاسم البغدادي وقد جاء في ( ص ٣ ) ان اسمه أحمد بن علي التيمي لكن في ( ص ١٤٥ ) انه علي بن محمد التيمي وفي ( ص ٨٧ ) انه كان موجوداً في سنة ٣٠٦ والظاهر انه شخص وهمي جعل وسيلة لوصف الحالة الاجتماعية ببغداد في ذلك العهد . وقد ضمّن المؤلف هذه الاحاديث اشياء من وصف الخيل والبغال والحمير والأطعمة وأنواع الفساقية والرياحين والأعطار وأسماء السفن وذكر ألفاظاً

من لغة الملاحين والعيّارين وغير ذلك . وذكر من كان ببغداد من القينات حوالي السنة المتقدم ذكرها باسمائهن واسماء من كانت يعاشرهن وكثيراً ما يستشهد بابيات لابن حجاج : بعضها نسبها اليه وبعضها أغفل نسبتها . أما زمن المؤلف فلم تقف عليه غير أننا رأينا ينقل في ( ص ٨٠ ) أبياتاً لابن نباتة السعدي ( المتوفى سنة ٤٠٥ ) فهو إما أن يكون عصره أو بعده بقليل لأن ما أتى به من الوصف في القصة يدل على أنه لم يكن بعيداً عن ذلك العصر اه .

\*\*\*

وموضوع مقامة ( ابي المطهر ) أن رجلاً يدعى ( أبا القاسم البغدادي ) كان في اصفهان فزار مجلساً لبعض كبرائها وكان في المجلس طائفة من أهل الفضل والادب فأخذوا يداعبونه . ويستنبشون دقائمه وهو يطرفهم بكل مستملح عجيب من نكته ونوادره . لا سيما تفضيل ( بغداد ) على بلدهم ( اصفهان ) وانها كانت أرفع شأنًا . وأنصر عمرانا . وأكثر استجماعاً لمرافق الحياة . وبلينية العيش .

وكان ابو القاسم هذا أدبياً عجيباً في بلاغته . وقوة عارضته . غزير المادة في اللغة والادب والشعر وصناعة الانشاء والنقد في صوغ الكلام وحوكه . ولكنه ويا للأسف كان ماجناً خليعاً مفرطاً في السخف . فلم يكن يتحاشى ذكر شيء منه في ذلك المجلس . وكان يدور الكلام بينه وبين القوم بشكل المحاوره والسؤال والجواب . ولقد طال ذلك الحديث بينهم وامتدّ النفس فيه فكان كآباً استغرق نحو مئة وخمسين صفحة متوسطة القطع .

\*\*\*

اراكم أيها السادة قد ظمتم الى سماع شيء من تلك المقامة . فدونكم منها ما يسهه الوقت . ويليق بمجلسكم الكريم .  
نذهب اولاً الى اصفهان وندخل مجلس ذلك العظيم الاصفهاني . لكننا نعد في معزل عن الجماعة كي لا تقع علينا عين ذلك الماجن البغدادي فيرشقنا بحصاته . ويصيبنا شيء من أذاته التي كانت تصيب الحاضرين . ولم يسلم منها ربُّ الدار المسكين .



يجري ذكر أصفهان . فيذمها ( ابو القاسم البغدادي ) فيقول له : الآخرون  
( يا ابا القاسم ! قد أسرفت . بعض هذا !! ) فيقول لهم :  
أحاكمكم الى شاهد منصف : الى السمع . فأتكلم أولاً في الأسياء . الى أن  
نصير الى حقائق المعاني . فنتكلم فيها .

ثم يشرع يذكر لهم أسياء أماكن في بغداد : مثل ( الرصافة ) ( درب الريحان )  
( سوق العروس ) الخ . ثم يقارنها باسياء أماكن في أصفهان : مثل ( كورسان )  
أي المقابر ( موشكاياذ ) أي موضع الفار . ( كوي كدائي ) ( درب الصم ) . ( كوي  
كوران ) ( درب العمي الخ :

ثم يهيج شوقه الى بغداد فيقول : هل أرى والله دجلة مشحونة بالمرابك  
والزوارق . مخفوفة بالقصور والجواسق . يرتفع ما بينها أصوات الاغاني . وخفقان  
النبايات والسواني . واصوات الملاحين . وزعقات المؤذنين . إن رأيت تر والله  
جمالاً وكالاً . وتسمع من ألحانها الشجية سحراً حاللاً :

( لعمرى لقد فارقتهم غير طائع ولا طيباً نفساً بذاك ولا مقر )  
( أو قائلته ماذا نأى بك عنهم ؟ فقلت لها : لا أعلم لي . فاسألني القدر )  
ثم يصف خيل بغداد فيقول وفيه المبالغة :

( مشترف الهادي كأن أذنه تصغي الى سر حديث السماء )  
( فلم يكن يسرج الا اذا وضعت في حاركة سلماً )

ثم يصف النرس من خيل أصفهان فيقول : قد نفخ التبن بطنه : فهو كالغرارة .  
تسبقه عند الركض الحماره . ويفزعه صوت الفارة . وإما مهزول كالألف عجماء .  
او كالشن البالي دنفاً . يعثر بالبعرة . ونقيده الشعرة . قدأ كل الجرب جلده .  
وحص ذنبه وناصيته .

( عظامه قد ظبرت كلها كأنها من حطب يابس )

ووصف الحمار من حميرهم فقال : أسود مثل النقس . كالقربة البالية او زرق  
الدهس . إن وقفه راكبه على جماعة أدلى . وان تركه أدبر وتولّى . وإن أمسكه

أَتعب يديه • وان حرَّ كة خلع رجله • من مَعْرَزٍ نخديه • وان غفل عنه قام •  
وان سَلَم على مسنقيلٍ جثا تحته ونام •  
ثم قارن بين الدور والاثاث والحُصُر والثيراب والطيب في البلدين • فقسال عن  
أصبهان : وفتيانكم بالابراء وعمائم القطن السكّلية • تُعلّق في أهدابها خيوط خضر  
وحمر • واهل السوق : لو عُصر قميص أحدهم يخرج منه جرّة دهن •  
ووصف الخوَّان وصحافه فقال لأهل اصفهان :

ولا أرى بين يدي أحدكم خوَّاناً قوائمه من خلنج<sup>(١)</sup> خراساني • بلا وصل  
ولا كسر • كأنه طبق منشور • او قطعة بأور • او ثوب وشبي • يشتغل الانسان  
بالنظر اليه • عن الاكل عليه • فوقه رُغفان مجبوزة من دقيق ( فائق الهويدي )  
و ( الطنيسيري ) طحن ( العروب ) • أبيض فيه صفرة • عجينه مثل الكعك • يمتد مثل  
الكنْدُر<sup>(٢)</sup> و يلتزق بالاصابع • يشرب المكثوك منه دجلة • خبزه بصرة تحت الاضراس •  
ويتعلّك حتى يوجع الفك عند مضغه • النظر اليه يشبع • والتممة منه تبلغ القلب —  
وسكاريج<sup>(٣)</sup> : فيها الجبن الدينوري الحرّيف الذي يفتق الشهوة • ويجرك المعدة •  
وزيتون دقوقي<sup>(٤)</sup> مدخن • مخلوط باللوز المقشّر والصعتر • نشطر الزيتونة على  
الرغيف فتملؤه زيتا • ويتدحرج كأنه بنادق عنبر • وجبن رومي مقلو • تدمع  
عين آكله من حرافته • حتى كأنه فارق أحبابه • ابيض مشرب صفرة • أملس •  
حديث • تأكل القالب منه برغيف • لا ينفخ ولا يعطش • ولا تشم له  
سهوكة<sup>(٥)</sup> • ينقي المعدة • ويلحس البلغم لحسا • وباذنجان مخال بماء حب الرمان •  
بصرع بمحوضته الطير من جو السماء • ويقلع من المعدة الصفراء • وأشم رائحته  
من فرسخ • يُضرس قبل أن يؤكل • وصدور البط بماء التفاح • وماء حب الرمان  
والتوت الشامي • وارض بلبن حليب • قد ترك فيه الزعفران • ورصع بالحمص •  
وذراً عليه سكر مدقوق • وقطائف لطايف • مقلوة مغرقة في الجلاب • منضودة  
في جامات البلور المخروط • والصحون الصيني الملوّنة •

(١) ضرب من الشجر (٢) هو الحصابان (٣) صحاف المشمّيات (٤) نسبة الى

(دقوقا) وهي بلدة بين ايربل وبغداد (٥) رائحة كريهة •

و يُرفع الطعام و يأتي بعده فراش متهلل الوجه • نظيف الثياب • حسن الشائل •  
خفيف الروح • بيده خلال سلطاني مقوّم • كأنه مداري<sup>(١)</sup> الفضة • من عمل  
( نجاح الاسود ) • فيناول الجماعة منه بتلطّف •

ثم وصف الطست والابريق والمنديل الذي يتمسّح به وصفا عجيبا ثم قال :  
هذه أوصاف موائد العراق التي ما أرى والله شيئا منها عندكم : انما ارى مائدة  
بلا خلّ ولا بقل • كشيخ بلا فهم ولا عقل • مبسوطة على سفرة رويد شتية • بساط  
الارض أنظف منها • عليها عوض البوارد<sup>(٢)</sup> باذنجان بسته • شلجم بسته • خيار بسته  
فتا بسته • زعرور بسته • أحرق الله بسته • فكم بسته ؟ ! أما الشواء في مائدتك  
فهو والله قلوب الحاضرين •

وأرى قدورا تطبخ بلحم البقر الغلاظ • لا ينفخ لحمها باليدين • يأخذ أحدكم  
قطعة اللحم بيده • ويجذبها باسنانه • فترشش على وجهه ولحيته وثيابه • مزوج ذلك  
اللحم بمرق • يجري عليه الزورق • نفوص يد الانسان فيه الى المرفق • حتى يجد اللحم •  
مما يأكله الوقادون والزبالون • محتوماً ذلك كله بالعنب الاسود • ويجلاوة مدلوكة  
باليدين • يأتي بعد ذلك قروي سوادى<sup>(٣)</sup> كهل • في قدّ الجمل • بلحمة شمطاء  
كثّة • وحالة رزية رثة • بيده أقطاع حطب • بناولهم للتخلّل • ثم يسوقهم الى  
صحن الدار • ويجمعهم لغسل الايدي • على بالوعة تُخشّم والله الأُوف من روائح  
القاذورات المجموعة فيها الخ •

ولا أرى في فواكهكم عنبا رازقيا كأنه مخازن البلور • او ظروف النور •  
( ورازقي مُحطّف الخصور كأنه مخازن البلور )  
( قد مُلئت مسكا الى الشطور وفي الاعالي ماء ورد جورى )  
( لو أنه ببقى على الدهور قرط آذان الحسان الحور )  
ولا رمان مرمر • كأنه صرر • قد مُلئت بالجواهر • أو الياقوت الأحمر •

(١) جمع مدرى سن من عاج او فضة يختص به الشعر وهو غير المشط ذي  
الاسنان الكثيرة (٢) المشيبات والمقبلات (٣) منسوب الى السواد اي  
بلاد الفلاحين •

ولا مشمشاً كأنه زقاق ذهب . قد حُشيت عَسَلًا . ولا الكهثرى الشامي . والسلطاني .  
والزرجون والنهاوندي الخ .

انما أرى ساف أمرود . وبهم رود . ونار مرود . وسلم رود . قد أوجعني  
والله الرود . مما أكل النمرود الخ .

ثم ذكر مجلس الشراب . فقال : ما أرى والله لكم مجلساً مسجوراً بالنند : فروأخه  
تبلغ الهواء . وتعبير الى دور الجيران . ولا منارة ملوكية . يزهر سراجها بخمسة  
فتايل . بزيت شدي . لا تُشم فيه زعارة ولا مرارة . يصلح للقصور المطجئات .  
والقلايا المحرقات .

ثم وصف الندامى والخمور . فقال عن نبيذ أصفهان : انما أرى نبيذاً أسود كالديس  
أو النقس : ( في لون زنجي ونكهة أبحر ) .

( إذا صب مسوده في الزجا ح فكأس النديم به محبرة )  
ثم وصف الساقى فقال :

( يديرها ساق له رُكبة كأنه محلج نَدَاف )

( في يده باطية ضخمة كأنها مغرأة إسكاف )

وربما كان الساقى شيئاً أبيض الرأس والحية . كأنه بعض المؤذنين أو احد  
الحجاجامين . طعم الكأس من يده طعم الزقوم . والهفاه ! سقى الله ديارات كسندر<sup>(١)</sup>  
ومنازل كسرى وقيصر :

( وسلام على مواخير بصرى وأوانا والقنص والبردان<sup>(٢)</sup> )

( ليت شعري مذغبت عنها على كم . قرر البائعون سعر الدنان ؟ )

قال : ولا أرى في جلسائكم رجلاً ظريفاً . مستطاب النوادر . حلواً في القلوب

(١) كورة بين البصرة والكوفة (٢) الثلاثة أسماء دساكر ومواطن لهو في

ضواحي بغداد ويشبه تشوقه هذا تشوق ذاك الذي قال :

( ليت شعري متى تحب بي الند ساقه بين العذيب فالصديبون )

( مُحَقَّباً ذكرة وخبز رقاق وحباقاً وقطعة من نوب )

و ( الحباق ) جرزة البقل .

وانما أرى ظفيساً<sup>(١)</sup> بارداً • منفيهاً منقترأ يشق الكلام : إما في عويص اللغة •  
او يتبظرم بعلل النجو • ساط الله عليه العلل • ولا أقاله منها • تشبى في الحلق •  
وشوك بين الأخص والنعل •  
ثم ذكر المغنين : فقال لاهل أصفهان : لا أرى والله في مجالسكم مطرباً معرباً :  
يقول الشعر الفصيح • ويكسوه اللحن الصحيح • مثل قوله :

( يانسيم الشمال من نحو بصرى      بأبي أنت لانسيم الجنوب )  
( انت لما اعتلت داويت جرحي      يانسيم الصبا بعرف الحبيب )  
( فتماثلت من ضنى كان بيكي      كل يوم علي منه طيبي )  
( يا فتاة شبايها أمتع الله به      حسنها عدو مشيبي )  
( انما أنت ظبية في كناس      ليس ترعى سوى ثمار القلوب )  
( انما أنت شمس دجن على طا      قة آس مغروسة في كثيب )  
( انني لله وارحمي ضرر صب      ورت الضرر فيك عن أيوب )  
( وعمري بالكافيا يوسف الحسن      أما تشفين من يعقوب ؟ )

ثم وصف مغنيات بغداد ثم قال : هذه أحوال لا أراها باصفهان • انما أرى  
قردة كأنها مسورة<sup>(٢)</sup> عرضية • أو غول طامع من بركة • شعر كالعين  
المنفوش • ووجه كالميت المنبوش • شعرها فضة • وثغرها ذهب • كأنها  
طاقة نرجس !!!

فيقال له يا ابا القاسم! أين يذهب بك ؟ فيقول أخطأت أو أصبت ؟ فيقال وكيف  
أصبت ؟ فيقول نعم : رأسها أبيض • ووجهها أصفر • وساقها أخضر • أأعجبكم  
هذا ؟! ما من شيء والله حسن محمود • إلا وفيها منه شبه أو معنى موجود : لها من  
البدر كفته • ومن الورد شوكته • ومن الحمار نهفته • ومن الطاووس زعقته •  
( ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها      وإن عاجته كان فوق الحاجر )

تحت حاجبين يسج منها غرائر • ويعقد شعرهما ضفائر •

(١) اي قدراً نجساً (٢) اي مخدة طولها وعرضها سواء •

( ترى شبيهاً تحت القناع كأنه جدابيل ليف في هدية حجاج )  
 ثم قارن بين غلمان الخدمة هنا وهناك فقال : في غلمان أصفهان : وانما ارى والله  
 دُبًّا في طول المنارة . وعرض الغرارة . قد خرج عن حد الاعتدال . وذهب  
 ذات اليمين وذات الشمال . بارد ثقيل . كأنه روثة فيل . عابس كأنه عض على  
 بصلة . أو أكل فجللة . بوجه قطير . كأنه أسعط بالخردل . جهم كأنما نضح  
 وجهه بالخل . له وجه كأنما تبرقع بالخنادس . أو كُسي قشور الخنافس . او حش  
 والله من أيام المصائب . وليالي النوائب . وسوء العواقب .  
 ( خلقتة حجة اهل الزندقة ضارت به اقوالهم محققة ) الخ

( ذو صورة شوهاء ان لم تكن قرداً ففي قلبه مفرغة )  
 ( ثلاثة ليس لها رابع هذا الفتى والحش والمدبغة )  
 اتين والله من هدهد ميت . في جورب عفن . أثقل من هم الدين . وامر  
 من وجع العين . كأنه صورة على باب حمام ؟ . سطل دمشقي عروته منه ؟ الخ .  
 ثم عاد الى وصف مغنيات بغداد . وذكر طرف من نوادرهن . وحسن اجوبتهن .  
 فقالوا يا ابا القاسم ! لو تفضلت ببعض تلك النوادر لكنت قد أتممت الانس  
 باحاديثك . فيذكر لهم على سبيل المثال ( زادمهر<sup>(١)</sup> ) جارية ( ابي علي بن جمهور )  
 وكان ابن جمهور هذا متزوجاً بابنة عم له . فكان منها بين جمرتين : تحرقه هذه بنارها .  
 وتلذعه تلك بأوارها . فأسكن ابنة عمه واسط . وجاريتته داره في البصرة . وذهب  
 هو الى بغداد . وبغداد جنة الموسر . وعذاب المعسر . وأقبل على اللهو ومواصلة  
 السرور . فضجرت زادمهر . وكتبت اليه كتباً من البصرة : وهاكم نموذجاً منها :  
 اخبرني على من تركتني في دارك المشؤومة بالبصرة ؟ . عولت بي على ضياعك  
 الخراب . او على وكلائك السفل . والله ما أشبهه دارك الا بدير هرقل<sup>(٢)</sup> وانا

(١) اي بنت الشمس وهي كلمة فارسية . (٢) وهو الذي قال فيه الشاعر ايضاً :

( أولى الامور بضبعة وفساد امر يدبره ابو عبّاد )

( وكانه من دير هرقل مُفلت شرس يجر سلاسل الاقياد )

محبوسة فيه كبعض الخنازين . لا يرجع عليّ شيء إلا من أجرة دورك . خمسة وثلاثون درهماً في الشهر . لو شربت بها فؤة أعا ما كفتني : يا ابن جمهور! عليك بفلانة وفلانة اللواتي يشهنك . ويفخرن بك و يقطن : كذا عند ( ابي علي ) تاجر السلطان العظيم الجليل . أنت يصلح لك مثل الحمارة البلهاء ابنة عمك : تكسر الجوز على رأسها ولا تجسر تكسك . فهي تظن انك الوزير ابن الزيات . او ابراهيم ابن المدبر . فأما ( زاد مهر ) التي تدقّك دقّ الكشك . وتهينك هوان الكتان . فليست من امثالك .  
خأصني الله من ذنوبي كما خأصني منك ومن رؤيتك :

( انا في نعمة ببعدهك عني . اكّد الله نعمتي بالدوام )

وحياة أفك المعوج . وحلك المذّاب . وشوابيرك <sup>(١)</sup> المحذّفة . لأ كافينك صاعاً بصاع : فلا تمضي شهور حتى ييجي مغموطاً مدهوناً . أضع يده في زعفران على الكتاب ووجهه بالكتاب اليك . ويحك يا ابن جمهور كأنّ ملحك على ركبتيك <sup>(٢)</sup> . نسيتني واشتغلت عني . ابعت لستك العزيرة نفقة . واحملها اليك الى بغداد . حتى لا يضيق صدرها . واشترلي بجيائي عوداً بحاشية ساج . منقوشاً بعاج . ويكون ظهره دبباج . حتى اجي أغني به . . . الخ .

ثم جعل يسمي جوارى بغداد المشهورات واحدةً واحدةً . ويذكر شيئاً مما كن يغنين به من الشعر . فيطرب لساعين شعراء بغداد وادباؤها . مثل ( ابن الحجاج ) و ( ابن نباتة ) وغيرها . ثم يقول : فلو ترون كيف كان يطرب ( ابن غيلان البزاز ) على ترجيعات ( ريحانة ) جارية ( ابن اليزيدي ) اذا غنّت :

(١) مقلوب شوارب وهي لغة عامة بغداد في ذلك الحين . وعامتنا اليوم يتلاعبون بالالفاظ كذلك فيقولون : تحشّر به واصله تحرش به ويقولون : ريقان مكان يرقان . و ( رقعه كف ) مكان ( قرعه كف ) ومعلقة مكان ملعقة وهكذا .

(٢) كناية عن قلة الوفاء فان الركبة لا تمسك الملح ومنه قوله الآخر :

( لا تلبها إنيها من نسوة ملحها موضوعة فوق الركب )

( أعط الشباب نصيبه مادمت تُعذّر بالشباب )

( وَأَنْعَمَ بِأَيَّامِ الصَّبَاِ وَأَخْلَعَ عِزَارَكَ فِي التَّصَابِي )

فيقول له قائل : أيش كان يعمل ابن غيلان اذا سمع هذا الغناء فيقول : ننقلب  
حماليق عينيه . ويسقط مغشياً عليه . وهات الكافور . وماء الورد . ومن يقرأ في  
أذنه آية الكرسي . والمعوذتين . ويرقيه بشراهما مراهيا . أيش يعمل ؟ هكذا يعمل  
يا بارد ؟

أو لورا يتم طرب ( ابن غسان النصراني ) اذا سمع حباابة جارية ابي تمام الريني  
وهي تغني :

( وحياة من أهوى لاني لم اكن أبداً لأحلف كاذباً بجمياته )

( لاخافن عواذلي فيني لذني ولأسعدن أخي على لذاته )

فيقولون له : هذا ابن غسان زيادة !! اي رجل كان يا ابا القاسم ؟ فيقول :  
هذا ابن غسان كان فتىً مليحاً . ظريفاً . حسن الادب . محمداً فيما بين الاطباء .  
وهو الذي يقول في ابي مضر العاقل . وقد عاجله من علة فلم يقض حقه :

( هب الشعراء تعطيمهم رقاعاً مُزوّرة كلاماً فيني كلام )

( فلم صفة<sup>(١)</sup> الطيب تكون زوراً وقد أهدى الشفاء من السقام )

وكان آخر امر المسكين أنه غرق نفسه في ( كرداب كلواذا ) وذلك لاسباب  
اجتمعت عليه : من صفّر اليد . وسوء الحال . وجرب أكل بدنه . وعشق  
حرق قلبه . حتى جرت الى نفسه حينها بما اقدم عليه .

ولا يزال ابو القاسم يذكر المغنين . ويعدد الادباء الذين كانوا يطربون بغنائهم  
حتى يختم هذا بقوله :

ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين . والاغاني من الرجال والصبيان  
والجواري والحرائر لطلّ وُملّ وكننت كالمزاحم لن صنف ( كتاب الغناء والالخان ) .  
ولعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد أحصيت انا وجماعة في الكرخ  
اربعمائة وستين جارية في جاني دجلة . وعشر حرائر . وخمسة وسبعين من الصبيان .

(١) يريد بصفة الطيب ما نسميه اليوم ( وصفة ) أو ( راشته )



يجمعون من الحذق والظرف . ما يفوت حدود الوصف . هذا سوى من كنا لانظفر بهم . ولا نصل اليهم لعزيمهم وحرسهم ورقبائهم . وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب الا اذا نشط في بعض الاوقات <sup>(١)</sup> .

ثم يطلب ابو القاسم من صاحب الدار ان يهيء له طعاماً . وقبل القيام اليه يلعب بالشطرنج مع بعض الحاضرين فيجري بينهما وهما يلعبان كلاماً لا يمكن ان نفهمه نحن اليوم لانه يتعلق بكيفية لعب الشطرنج في ذلك العهد . وقد استغرق وصف ذلك نحو ست صفحات من الكتاب .

ثم يقومون الى المائدة فنقدم اليهم ألوان الطعام واحداً واحداً . وهو يصف كل ذلك . ويورد ما شاء وشاءت براعته من النكت والنوادر . وفي خلال ذلك يذكر الطبّاخ . وما يجب ان يجمعه من الاوصاف فيقول :

والله لقد رأيت ببغداد في دور بني معن طبّاخاً حبشياً اسمه ( نارنج ) ما اظنّ أنّي شاهدت مثله : كان والله عنوان النعم . وترجمان المروءة . وطيب الشهوة . أحذق من رؤي من اهل صناعته . وارهفهم سكيناً . واعدلهم تقطيعاً . واذكاهم ناراً . واطههم أيزاراً . كأنّ الموائد التي يعبّئها . والثرائد التي يتنوّق فيها . رياض مزخرقة . او برود موفّقة . كأن لا يجمع بين لونين . ولا يوالي بين طعمين . يخالف بين طعام الغداء والعشاء . ويباعد بين ألوان الصيف والشتاء . يكنفي باللحظة . ويفهم بالإشارة . كأنه مطّاع على ضمير الضيف والمضيف . كأن والله يطبخ ما يوقظ شهوة النعمان والثكلان والمغموم . وكان إذا فرغ من إعداد الطعام يقال له ( يا نارنج الى أي شيء تحتاج ؟ ) فيقول : الى قوم جياع .

ويجري على المائدة ذكر اثنين من فضلاء بغداد . فيُسأل عن رأيه فيها وأيهما

(١) وذكر القاضي ابو علي المحسن التتويحي المتوفى سنة ٣٨٤ في كتابه (النشوار) كلاماً عن عمران بغداد فقال : أحصي ما يزرع وينفق على أهلها من صنف الخس فوجد بخمسين الف دينار . فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة صنف واحد من صنوف البقل بخمسين الف دينار !!! .

افضل؟ فيقول: بينهما من البعاد • ما بين النجاد والوهاد • ما بين الناهق والصالح •  
والناقص والفاضل • ما بين اللؤلؤ والمرجان • واللفت والبادنجان • من يسوي بين  
رجل اغزر من البحر • واوضح من الفجر • وبين آخر ابيس من القفر • واوحش من  
القبر • ذا والله اخف من النسيم • وذا أثقل من مئة اللثيم • ذا أخشن من الخناجر  
على المناخر • وذا أحسن من المهاجر في المعاجر • ذا ساعد السعود • وذا ساعد النابج  
ذا والله أندى من القطر • وذا أجمد من الصخر • ذا أعز من التبر • وذا أذل من  
البعر • ذا عود شقي لمواضع السجود • وذا عود • نجير لحش اليهود •  
ثم يقومون الى مجلس الشراب • فتصف الرياحين • ثم الفواكه • ثم القناني •  
فيسأله واحد يا ابا القاسم! وهل تعرف شيئاً من السباحة؟ فيقول يا أحمق! وسوادى  
لا يحسن أن يركب البقر؟ وتركى لا يحسن أن ينزع في القوس؟ انا والله اسبح من  
الضفدع • ومن الثنين أعرف من السباحة انواعاً لم يحسنها قط سمك ولا بط:  
اعرف منها الشق والموزون والمقرقص والذرع والغمر والاستلقاء والشكبي •  
والطاووسي والعقري • وكنت أستاذي في جميعها ببغداد (ابن الطوا)  
و (الزنابيري) •

ثم يسألونه عن السفن والملاحين • فيعدد لهم انواعها • ويصف لهم ملاحاً سمعه يوماً  
يخاطب رجاله اثناء الاستعداد للسفر: فذكر من ملبسه وادوات سفينته واصطلاحات  
مهنته ما لا يتسع الوقت لذكره بل لانفهمه لو سمعناه •  
ثم سأله سائل عن داره فأجابه: ويحك! أيش تعمل بداري؟ هي في سكة الجوهرى •  
دار أسست على غير التقوى بحمد الله •

(فان ترد دار الخنا والجوب ومعدن العصيان والذنوب)

(وموطن العادات والعيوب فاعل اليها تحظ بالمطلوب)

ثم يأخذ في فنون من الحديث • ويسلك منه مذاهب مختلفة • حتى يسمع حديثاً  
لبعض الخاضرين فيعجبه ويقول: ذا كلام كبرد الشراب • وبرد الشباب • قطع  
الزهر • وعقد السحر • حسن الدباجة • صافي الزجاج • هو كالبشرى بالولد الكريم •  
الى سمع الشيخ العقيم •

ويلتفت الى آخر يتكلم . فيدم كلامه قائلاً : ذا كلام أثقل من الجندل . وامر  
من الخنظل هذيان المحموم . وسوداء المهوم . بمثله يتسلى الاخرس عن كآبه .  
ويفرح الاصم بصممه . كلام تنعثر الاسماع من حزونته . وتنجير الاوهام  
من وعورته .

ثم يمدح بعض الحاضرين فيقول : شجرة طيبة أصلها في الماء . وفرعها في السماء .  
احلى والله من الوبل . في زمن المحل . الخلق وضيء . والخلق رضي . والفضل  
مضيء . محاسن انا والله منها في روضة وغدير . بل في الجنة وحرير .  
ثم يلتفت الى آخر فيدمه قائلاً : كالكمأة لا اصل لها ثابت . ولا فرع ثابت .  
لو قذف والله الليل بلوؤه . لطفئت أنوار نجومه . هو في العين قذاة . وبين النعل  
والانمخ حصاة . الخمس يطلع من جبهته . والخل يقطر من وجنته . ثم يخاطبه  
قائلاً ( رجزاً ) :

( يارفسة البغل على الطحال ياصفقة بالنعل في القدال )

( يالسعة الزنبور في المآقي ياغدوة البين على العشاق )

( ياجعة الحرة بالطلاق يانهشة الافعى بلا ترياقي )

( ياقبح شيب لاح في نصول ياكل شيء وحش مهول )

( ياشوكة في قدم رخصة ليس الى إخراجها من سبيل )

( يا حيرة المكروب في امره ويا صعود السع عند المغيل )

( يانهضة المحبوب في غفلة يؤذن فيها باقتراب الرحيل )

( يارجعة المحروم من سفرة لم يحظ فيها بنوال المنيل )

( بل يا كتاباً جاء من مخلف للوعد مشحوناً بعذر طويل )

( يادبلة في القواد قد تغلت من أسف قاتل ومن كمد )

( ياورماً في المعى يدل على برد مزاج الطحال والكبد )

- ( يا قرحة في ناظره غلطوا عليها بالترور )  
 ( فتسلخت مع ما يليها في الجفون من البثور )  
 ( يا غمة الكناس من شم الزرائر<sup>(١)</sup> والعبير )  
 ( يا سفرة في دجلة والريح تلعب بالجسور )  
 ( يا جلسة في شمس آب على الصخور بلا حصيد )  
 ( تحت السما والشمس تو قد نارها حرّ الهجير )  
 ( يا كلّ شيء متعب متعقد صعب عسير )  
 ( يا شؤم بخت شقية قد عمّرت عمر النسور )  
 ( شقّ القوابل صدعها عن تسعة مثل البدور )  
 ( حتى إذا شبوا لها وتلاحقوا مثل الصقور )  
 ( وقعت عليهم شيرة<sup>(٢)</sup> بالطول في يوم مطير )  
 ( فرائهم ولحومهم في الدار تجرف بالمرور )

يا أول ليلة الغريب . اذا بعد الحبيب . يا يوم الاربعاء في آخر صفر . يا أثقل الكابوس في وقت السحر . يا وجه المستخرج<sup>(٣)</sup> في يوم السبت . يا إفطار الصائم على الخبز البحت . يا أثقل من طفيلي يعربد على الندماء . ويقترح انواع الغناء . ويتشهى بعد أكل الغداء . طالباً الوان الصيف في الشتاء . يا أشد على الاحرار من جفاء الحجاب . وعبوس البواب . وسوء المنقلب والاياب . يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد . وضجرة المستمع الى المغنى البارد . يا أكره من هجران الصديق . ومن النظر الى زوج الأم على الربق :

- ( حويت الشؤم حتى الك - ف عن صنعك قد نذبو )  
 ( وحتى السحب ان جاور بها لم تمطر السحب )  
 ( وحتى لو صحبت الوح - ش لم ينبت له عشب )  
 ( متى سميت إنسانا فان الناس قد سبوا )

(١) الذرائر الطيوب والعطور . (٢) اي صخرة وقد تقدم القول على هذه الحكمة

في فاتحة المحاضرة . (٣) هو المحصل اي الجاني وبالتركيبه (التحصلدار) .

و يذكر أبو القاسم أصدقاءه فيسأله أحد الخاضعين كالمستمنز: ومن هم أصدقاؤك؟  
 فيقول - وقد جن جنونه - وتوقدت بالغضب عيونه : «والك! أصدقاؤي أكثر من خوص  
 البصرة . و بلوط الجبل . و خردل مصر . و عدس الشام . و حنطة الجزيرة . و شوك القاطول  
 و حنطة الموصل . و نبق الاهواز . و زيتون فلسطين . و الك! أصدقاؤي » سخطة ابن  
 ابي البغل « و « موسى ابن سلحة » و « جعيف بن الكلبة » و « كردويه بن وردان »  
 و « عاقول الارمني » الخ .

ولك ! أتعرفني ام لا ؟ انا الموج الكدر . انا القفل العسر . انا الباقعة الشاطر .  
 انا قلاع القناطر . والله اني اضحك في جيبي و انسك حتى تعفن . أقطع رأسك  
 و اجعله زرق قميصي . استنشك فلا اعطسك الا في الجحيم . و ابلعك فلا الفظك الا  
 على الصراط المستقيم .

عندها ضحك الحاضرون ضحكا عاليا . ثم خافوا ان يغضب ابو القاسم و يبادرهم  
 بالسباب . ففضلوا الرحيل . وابتدروا الابواب .

\*\*\*

انتهى ايها السادة ما استحسنتم عرضه عليكم من عبارات هذه المقامة . و مختلف اساليبها  
 في الانشاء و حسن التصرف و البراعة في التفنن . و أرى ان هذا التذنب في النقد هو  
 الذي أجاد فيه من المعاصرين العلامة احمد فارس في كتاباته لاسيما كتابه ( الفارياق )  
 وكذلك ابراهيم بك المويلحي في كتاباته لاسيما كتابه ( ما هنالك ) وهو ابو محمد  
 بك المويلحي صاحب الكتاب الخيالي المشهور الذي سماه ( عيسى بن هشام ) وربما سبقهم في  
 هذا المصنوع الفاضل احمد فواد المصري صاحب ( جريدة الصاعقة ) و لا يصح ان نغفل  
 هنا ايضا ذكر الكاتب المصري المعروف في دمشق ( محمود بك زكي ) فان هؤلاء في عصرنا  
 الحاضر يشبهون في طريقتهم في النقد - ابا المطور الازدي صاحب هذا الكتاب . وهذه  
 الطريقة و صنفوا بها ( ابا محمد الاعرابي ) المعروف بالاسود الذي تصدر في القرن  
 الخامس للرد على العلماء و الاخذ على القدماء قال ياقوت عنه : كان علامة نسيابة عارفاً  
 بايام العرب و اشعارها لا يقنعه أن يرد على اهل العلم رداً جميلاً انما يجعله من باب  
 السخرية و التهمك و ضرب الامثال . فالكتاب على هذه الطريقة يستعمل الكتابات و الامثال

والنفنن في الوصف والتشويق في الكلام مفرغاً كل ذلك في قالب التهكم بخضمه  
والتججيل له .

والمعري في رسالة الغفران أسلوب في النقد التهكمي يشبه أسلوب (حكايبة ابي القاسم) .  
من ذلك قوله يصف كتاب (التاج) الذي وضعه ابن الراوندي معارضاً به القرآن —  
واما تاجه فلا يصلح ان يكون نعلاً . ثم قال : ( وهل تاجه الا كما قالت الكاهنة :  
أف وتف . وجورب وخف . قيل وما جورب وخف ؟ قالت : واديان في جهنم اه .  
ويعني المعري ان ما ذكره ابن الراوندي في كتابه التاج مختلق وصرف للحقائق عن  
وجهها كما فعلت الكاهنة مذ زعمت ان ( الجورب والخف ) هما واديان في جهنم .  
وزعمها كذب صراح . ( المغربي )



## الكتب والمطالعة (١)

اثنى على الانسان حين الدهر لم يكن فيه يعرف الكتابة ولا يفنقر اليها لاقتنصاره على بساطة العيش واكتفائه ببعض اشارات والفاظ للدلالة على ما يريد من المعاني . ثم لما تحسنت احوال معيشتة وارتقت شؤونه الاجتماعية شعر باحتياجه الى نقل معانيه من مكان الى آخر وتدوين افكاره واعماله وحوادث حياته ليطلع عليها من يأتي بعده واشتدت به الحاجة والحاجة ام الاختراع فاخترع الكتابة في زمن مجهول لم يستطع العلماء ان يتوصلوا الى معرفته مع كثرة البحث والتنقيب .

وكانت الكتابة في اول امرها صورية اي قائمة بصور تدل على المعاني ثم تحولت على توالي العصور الى صوتية اي قائمة بعلامات تدل على الصوت البشري . اما الصورية فكانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها الصور تشابه مصوراتها مشابهة حقيقية كصور الرجل والمرأة والطفل والحمل والكلب والذئب والزهرة والشجرة والسكين والفأس وغيرها للدلالة على هذه المذكورات بعينها .

والثانية ما كانت فيه الصور تشابه مصوراتها مشابهة مجازية كصورة رأس رجل على بدن اسد للدلالة على الشجاعة . وصورة امرأة حاملة يدها حمالة للدلالة على الوداعة . وصورة ريش الطاووس في الخط الهيروغليفي للدلالة على الصدق .

والثالثة ما كانت فيها الصور غير مشابهة لمصوراتها وانما هي كنايةات عن المعاني التي يراد التعبير عنها كصورة الطائر صاعداً او نازلاً للدلالة على الصعود او النزول . وصورة الساقين للدلالة على المشي او الركض وصورة العين والماء بقربها للدلالة على البكاء . فهذه الصور الحقيقية والمجازية والرمزية توصل الناس الى التعبير عن النوات والمعاني والعلاقات التي بينها . ولكنهم وجدوا ان هذا التعبير قاصر كثير

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ السيد انيس سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي في ٢٧

تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م .

الغموض والالتباس فحاولوا ان يجدوا طريقة اسهل واوضح منه وما زالوا يعملون افكارهم حتي تيسر لهم الانتقال الى الكتابة الصوتية او اللفظية . وهذه ايضا كانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها كل صورة او علامة تدل على كلمة كاملة فاستلزمت ان تكون العلامات فيها كثيرة على قدر كلمات اللغة كما في الخط الصيني والخط المكسيكي .

والثانية ما كانت فيها كل علامة تدل على مقطع واحد كما في الخط الحبشي والمراد بالمقطع حرف متحرك او حرفان اولهما متحرك والثاني ساكن فقلَّ فيها عدد العلامات بحيث لم يتجاوز خمس مئة علامة كانوا يكتبون بها كل كلمات اللغة كما تبين من كتابات قدماء الاشور بين والبابليين .

والثالثة ما كانت فيها العلامات تدل على ابسط الاصوات البشرية لاعلى المقاطع وهذه العلامات صارت حروفاً سمي مجموعها بحروف الهجاء او حروف المباني وهي التي نستعملها اليوم . وبواسطة الكتابة الصوتية وتسطير الحوادث واسماء محدثيها وزمن حدوثها ابتداء عصر التاريخ البشري الحقيقي وكان لهذا النوع من الكتابة شأن عظيم في تمدن الجنس السامي مدة اربعين قرناً . اما الحروف الهجائية فلا يعلم بالتحقيق اسي الشعوب اخترعها فقد قيل ان مخترعها المصريون وقد عثر من عهد قريب على كتابات ترجح هذا الرأي وقيل الكلدانيون وقيل الهنود وقيل العرب وقيل الفينيقيون والقول الاخير هو المرجح عند الاكثرين لان الفينيقيين هم الذين نشروها في الشرق والغرب فانهم كانوا اشهر امة باتساع متاجرهم وطول اسفارهم فاشاعوا استعمال هذه الحروف بين العبرانيين والعرب والهنود ثم حملوها الى اليونانيين فشاعت عندهم ثم انتقلت الى الرومانيين والاسبانيين والسلاف القدماء والجرمانيين وغيرهم وكان لها شأن عظيم في تمدن الجنس الآري مدة ثلاث آلاف سنة .

اما المواد التي كانت القدماء يكتبون عليها فكانت مختلفة باختلاف الشعوب والازمنة والامكنة والاحوال فالمصريون كانوا يكتبون الحوادث على صفحات الجبال وحجارة الاهرام وغيرها ولما اشتدت حاجتهم الى الكتابة وشعروا بصعوبة النقش في الحجارة اخذوا البردي المعروف بالبايبروس ( وهو نبات كان يكثر في المستنقعات



على ضفتي النيل وفروعه ) وطالجه بما يجعله صالحاً للكتابة وكتبوا عليه ما شاؤوا .  
والاشوريون كانوا يكتبون حوادثهم على الواح من خزف قبل ان يشوى ثم يشوونه  
لبقى متيناً على ممر الادهار . واهل الهند كانوا يكتبون شؤونهم واغراضهم على نسج  
من حرير . والصينيون كانوا يطبعون كتبهم على قطع كبيرة من الخشب يصورون على  
اوجها الحروف بالنقر . واهل المكسيك كانوا يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على  
منسوجات قطنية مصبوغة بالوان مختلفة مرسومة عليها احرف وعلامات غريبة . قال  
احد المؤرخين « لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات  
ورسوماً وصوراً في المنسوجات وجلود الحيوانات وقشور الشجر وسجلات قديمة فاتفقوا  
غير مبقين على شيء منها ويطن انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى  
حل رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها وكيف وصلت الى العالم الجديد » .  
واليونانيون والرومانيون والعبرانيون كانوا يكتبون الحوادث على الرقوق المتخذة  
من جلود الحيوانات وبقيت الرقوق تستعمل للكتابة بعد ظهور الورق النباتي بقرون  
عديدة وفي مكاتب اوربة وسجلات وعقود واحكام وغيرها كتبت على الرق بعد القرن  
العاشر للميلاد . ويقال ان رق الغزال لا يزال مستعملاً عند بعض الفقهاء لهذا العهد .  
اما العرب فكانوا يكتبون على عسب النخل والواح العظام وبعض انواع الحجارة  
المصقولة التي كانوا يجدونها في بوادهم ( وعرب وادي الفرات وبلاد اليمن كانوا  
يكتبون على الحجارة الصلبة ايضاً ) . ولما انتشروا في البلاد في عهد الخلفاء الراشدين  
اخذوا عن اهلها اساليب الحضارة واحتاجوا الى التبسط في الكتابة فكتبوا في بغداد  
على الحرير وفي مصر على البردي ثم استخدموا الجلود بعد ترقيقها ثم لما طابح التاليف  
والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضافت الرقوق عن ذلك اشار الفضل  
ابن يحيى بصناعة الورق وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذها الناس  
من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت  
وكانوا يسمونه بالكاغد على ما ذكره ابن خلدون ثم سمي بالقرطاس ثم شاع اسمه  
المستعمل اليوم وهو الورق وما الورق في الاصل الا اسم لما يخرج غالباً على الاغصان  
ويكون للنبات بمنزلة الرئة للانسان .

قال احد علماء العرب : « الورق لم يوجد في الكلام القديم بل هو اسم جلود رفاق يكتب فيها وهو مستعار من ورق الشجر » . وقد كثر استعماله وانتشنت له معامل في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتشرت صناعته في الشام وشمال افريقية وانتقلت منها الى بلاد الغرب فضربت فيها اطنابها وارنقت فيها ارتقاءً باهراً لهذا العهد . وقد نظر بعضهم في معامل ورق الارض فوجدها نحو اربعة آلاف معمل يصنع فيها كل سنة نحو الف الف وسق انكليزي من ورق الخرق وورق التبن او ببس العشب وغيره و ينفق نحو نصف ذلك في المطابع و ينفق من هذا النصف نحو ثلاثمائة الف وسق مطبوعاً جرائد مختلفة والنصف الاخر ينفق في اعمال ارباب الحكومة والمدارس والتجارة وغيرها الا ان الفضل في ادخال هذه الصناعة الى بلاد الغرب راجع الى مستنبيها الاولين وهم العرب كما كان الفضل في ادخال الحروف الهجائية اليها راجعاً الى الفينيقيين سكان هذه البلاد الاقدمين .

واول قلم كتب القدماء به هو الازميل الذي كانوا ينقشون به ما يريدون كتابته نقشاً في صفائح الحجر والخزف والمعادن ثم استعملوا اقلاماً محددة الرؤوس من الحديد والنحاس والفضة والعاج وكانوا يكتبون بها على صفائح الرصاص والخشب والشمع ولما أبدلت تلك الصفائح بالرقوق المصنوعة من جلود الحيوانات والقراطيس المصنوعة من البردي واوراق الشجر أبدلت اقلام المعدن باقلام القصب ولم تزل مستعملة في الشرق الى هذا اليوم . اما اهل الغرب فأبدلوها باقلام من ريش الاوز ثم باقلام معدنية ثم نفننوا فيها نفنناً بديعاً حتى اخترعوا آخر اقلام الحبر وهي التي يوضع الحبر فيها فيستغنى بها عن الدواة وقد ساهم بعضهم الاقلام المدّادة اي ذات المداد وهو الحبر . وكان حبر القدماء ماء الصمغ والفحم او الكّتن وهو (لصغ الدخان) قيل ان كتبة اليونانيين والرومانيين كفرجيل وزينفون كانوا يكتبون رواياتهم وقصائدهم بذلك الحبر .

وكانت الكتابة شائعة بين الامم الشرقية القديمة في وادي النيل ووادي الفرات وسورية وبلاد العرب والصين والهند وغيرها وذكرت في اقدم اسفار التوراة وهي

اسفار موسى الكليم وسفر ابوب الصديق باسلوب يدل على انها كانت معروفة منذ زمان قديم .

واقدم الخطوط التي اكتشفها علماء الآثار الخط المصري المعروف بالهيريوغليفي والخط الكلداني المعروف بالاسفيني او المسماري والخط الحميري المعروف بالمسند اما الخط الحثي فهو من نوع الهيريوغليفي الا ان معناه لم يكشف الى الآن .

واول من عني بجمع الكتب سرجون الاول الذي انشأ مملكة بابل القوية قبل المسيح بنحو اربعين قرناً وكانت ظهيراً للعالم فجمع كتب العصور الخالية ونقحها ووضعها في المكاتب العظيمة التي شادها او كبرها وهي اقدم المكاتب واثمنها . وذكر ديودورس المؤرخ الصقلي ان احد ملوك المصريين من الاسر الاولى انشأ مكتبة في قصره بمدينة طيبة عاصمة ملكه وكتب فوق بابها « هنا دواء النفوس » .

وفي عهد ملوك الاسرة السادسة في مصر قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة كان احد كتاب الدولة يفتخر بانه تولى ادارة الكتب في المكتبة الملكية وطلب الى ذويه ان ينقشوا ذلك على قبره ثنوهاً بفضلهم واحياءً لذكوره . وقد عمت العناية بالكتب اكثر الشعوب القديمة كالاشوريين والفينيقيين والحثيين والبرانيين والعرب والفرس والهنود واليونانيين والرومان وغيرهم وبواسطتها حفظت اقوال الفلاسفة في كل العصور فمن المكاتب القديمة المشهورة عند اليونان مكتبة اثينا التي احرقها دارا ملك الفرس حينما اجتاح بلادهم وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس .

ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات . ومكتبة اريسوطاليس التي التي استولى عليها تيوفراستس واشتراها بطليموس فيلادلفوس ونقلها الى الاسكندرية عاصمة ملكه . وكانت مكتبة الاسكندرية اشهر مكاتب العالم بلغ عدد مجلداتها سبعمائة الف مجلد على رواية وتسعمائة الف مجلد على رواية أخرى .

ومن عجيب ما روي عن بطالسة مصر انهم كانوا ينتسخون كل كتاب يصل اليهم على نفقتهم يأخذون من كل اجنبي يدخل مصر كتبه وينسخونها بكل ضبط ويعطونه نسخها ويضعون الكتب الاصلية في مكتبة الاسكندرية المار ذكرها ويدفعون الى صاحبها مالا يرضيه . وكان العرب من اشد الامم الشرقية ولوعاً

بالكتابة وجمع الكتب فتركوا آثاراً كثيرة من كتاباتهم في ارض بابل كشرائع حمورابي الذي نشأ الامبراطورية البابلية القديمة (نحو ٢٢٥٠ ق م) وكانت هذه الشرائع منقوشة بالحرف المساري على مسلة من الحجر الاسود الصاب وهي من اقدم الكتابات التي وصلت اليها واقدم الشرائع المعروفة لهذا العهد. وكذلك تركوا آثاراً من كتاباتهم في بلاد اليمن وغيرها مما لا نطيل باستيفائه .

ولما توفرت لديهم الاسباب المادية والعقلية ابدعوا في التصنيف واغربوا في التأليف واولعوا بجمع الكتب وتطلبها من كل حدب وصوب واول من اعتنى بذلك الخلفاء الامويون بدمشق فأنشأوا المكتاب وانتقوا عليها الاموال الطائلة ووقفوا لها الاوقاف الكثيرة فانصب اهلها على العلم فافلحوا ونبغ منهم عدد وافر من العلماء الاعلام . ثم جاء بعدهم الخلفاء العباسيون فلأولاً باعداد بجزائن الكتب النفيسة وتقلوا الى اللغة العربية كثيراً من كتب اليونانيين والهنود والنرس وغيرهم فازهرت فيها اشجار التمدن وايضت اثمار الحضارة . ولولا عنايتهم بجميع مصنفات اليونان والسريان وترجمتها لما بقي منها بقية في الشرق كله الا ما كان في كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق من الكتب اليونانية والسريانية فان المسلمين لم يمسوها عند فتحهم المدينة . ولما حول عبد الملك بن مروان الكنيسة الى جامع جعل هذه الكتب في قبة مقام النبي يحيى (يوحنا) فبقيت محفوظة لم يفقد منها شيء الى ان فتحها الالمان باذن السلطان عبد الحميد وقيل انهم نقلوا كثيراً من كتبها الى برلين .

ولم يكن الخلفاء بالاندلس اقل عناية بجمع الكتب من العباسيين بل جمعوا منها مئات الالوف . قيل ان عبد الرحمن الاموي حشد في قرطبة من افرقية وبلاد فارس ومصر والافاق العربية نحو اربعمائة الف مجلد وقيل ستائة الف مجلد كتبت اسمائها في اربعين مجلداً وكان بالاندلس عدا هذه المكتبة سبعون مكتبة عامة وكان فيها ايضاً مكاتب خاصة بعضها كبيرة جداً . قيل ان احد علماء الاندلس رفض دعوة سلطان بيجارا له لان حمل كتبه كان يقتضي اربعمائة حمل ولعل في ذلك مبالغة غير ان فيه دليلاً على كثرة كتب ذلك العالم واتساع مكتبته وهو رجل واحد فقط فما اكثر عدد الكتب التي كانت عند باقي الناس في قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس .

وكان في مكتبة الفاطميين بالقاهرة مئة الف مجلد وقيل مئتا الف مجلد وفي قصر  
الخلافة اربعون خزانة فيها من الكتب انفس النوادر واثنان الذخائر وكان الخليفة  
الفاطمي يتردد على المكتبة العامة فيجي اليها راكباً ثم يترجل عندها ويدخل غرفها  
فيطالع ما يشاء ويجول بين المطالعين ينقد شؤونهم ويلاطفهم فكان احسن مشجع  
على مطالعة الكتب باقواله ومثاله . وكان بين بغداد والقاهرة مسابقة علمية ادبية اذ  
كاننا نباريان الى العلم وتنافسنا في اقتناء الكتب المفيدة استئثاراً بالفضل . ومما  
يروى ان ابناء العراق اوفدوا رجلاً الى مصر فانفق مع احد علماءها على ابتياع عشرة  
آلاف مجلد من نفائس كتبه العربية وهي ثلث مجموعته . واتصل الخبر بوزير مصر  
الافضل فاستكبر الخطب واستنكره وقال كيف تحرم مصر ذخائرها وهل يصح انتقال  
كنوزها الى غيرها ونحن احق بها واهلها اعرف الناس بقدرها ثم بعث من ماله  
اغراض الى العالم المصري بحملة الثمن الذي ساومه عليه رسول العراق ونقل الكتب  
الى خزائنه وكتب عليها القابه . وكان في مكتبة ابي الفداء المؤرخ الشهير سلطان  
حماد مالا يزيد عليه من الكتب المختلفة النفيسة وكان في خدمته نحو مئتي عالم وفقه  
واديب وفيلسوف و كاتب . وكان في مكتبة آل عمار في طرابلس نحو مئة الف  
مجلد وقيل ثلاثة آلاف الف مجلد ولكن ذلك مما لا يصدق . وبالجملة كان في كل  
البلاد الشرقية والغربية العربية مكاتب عامة ومكاتب خاصة حوت الوف الاولوف  
من الكتب النفيسة ايام كان اقتناء الكتب يستلزم النفقات الطائلة لصعوبة نسخها  
قبل اختراع فن الطباعة فاين ذهبت تلك النفائس ! . يجزئنا ان نقول ان اكثرها  
ذهب طعمة للنار وان كثيراً منها نقل الى مكاتب اوربة وبعضها لانعلم اسماءها ولم يبق  
في بلادنا الا العدد القليل . ومن ذلك ما في دار الكتب في مصر ودار الكتب بالاسنانة  
ودار الكتب بدمشق وما في بعض المكاتب الخاصة كمكتبة احمد تيمور باشا ومكتبة  
احمد زكي باشا بمصر ومكتبة الاستاذ السيد محمد كرد علي بدمشق ومكتبة الاستاذ السيد  
عيسى المعلوف بزحلة وبعض مكاتب في بيروت وحلب وغيرهما من مدن سورية .  
اما الغربيون فعنايتهم اليوم بتأليف الكتب وجمعها اوضح من ان توضح ففي  
فرنسه فقط ثلاثون الف مكتبة واقلا تخلو مدينة فيها من مكتبة او مكتبتين وفي مدينة

باريس وحدها عدد الكتب اربعة اضعاف عدد السكان . وعدد الكتب في برلين مضاعف عدد سكانها وعدد الكتب في لندن مساو لعدد سكانها اويزيد قليلاً . وقد عم الولوج بجمع الكتب كل الاقطار الغربية فلا مملكة فيها ولا مدينة ولا قرية خالية من الكتب وقد اصبح جمع الكتب فرضاً على كل مهذب والمكاتب من لزوميات القصور الفخمة فكل قصر لا توجد فيه مكتبة كبيرة يحسب ناقصاً اهم الرياش والندخائر والنفائس ولم يقنصر الغربيون على العناية بجمع الكتب الغربية بل عنوا ايضاً بجمع الكتب الشرقية ولا سيما العربية فقد زينوا بها مكاتبهم وطبعوا كثيراً من نفائسها النادرة وحرصوا عليها اكثر من حرص العرب في هذا العصر على ما عندهم من آثار اجدادهم . ولم يزل اغنياؤهم يهبون الاموال الطائلة لنشر الكتب وتأسيس المكاتب في اوطانهم وغيرها تعميماً للعلم . ان كارنيجي وحده أسس في سنة واحدة باميركا ٧٥٠ مكتبة وزاد عليها مثل هذا العدد في السنين التالية لها . :

واعظم مكاتب الدنيا اليوم مكاتب لندن وفيينا ورومية وبرلين وبطرسبرج وستوكهولم والاسكوريال في مدريد . واغنى المكاتب بالمخطوطات القديمة مكتبة الفاتيكان في رومية ثم مكتبتنا باريس ولندن .

والذي ساعد الغرب بين على زيادة نشر الكتب فن الطباعة التي بواسطتها امكنهم ان يطبعوا في ساعة واحدة ما لا يمكن نسخه في شهر بل في سنة . ومن يقدر ان يحصي الكتب التي تطبع كل سنة في انحاء العالم . ففي بلاد الانكليز وحدها طبع في سنة واحدة اكثر من مئة الف الف مجلد . واذا كان نشر الكتب والمجلات والجرائد هو مقياس العمران فالبعد بين عمرانهم وعمراننا شاسع جداً ولكن العمران لا يقاس بكثرة المطبوعات وان كانت احدى مقوماته بل بمقومات أخرى تفوقها شأنها اهمها التربية التي تثقف العقول وتهذب الاخلاق .

وهنا لابد لنا من السؤال لماذا عني العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً بتأليف الكتب وجمعها في المكاتب الخاصة والعامة وظهرت هذه العناية من ملوك الارض وعظماؤها ورجالها ونسائها كبنت الملك العادل وغيرها ممن لايسعنا ذكرهن في هذا المقام . والجواب لانهم عرفوا قيمتها وشدة الاحتياج اليها فانها هي الاساس الذي

تشاد عليه قواعد الصلاح والركن الذي به ثبوت دعائم الاصلاح والسبيل المؤدي الى الخير والنجاح والمرقاة الموصلة الى ذروة الفوز والفلاح والمصاييح التي تُنضح بها الرموز والآثار والمفاتيح التي تُنفتح بها الكنوز والاسرار بل هي محنطات عقول الحكماء ومرآئي تصورات الشعراء وخزائن آراء العلماء وسجلات اقوال الخطباء واثار افكار العقلاء وحافظة احكام الدنيا والدين وعلوم الاولين والآخرين .  
فلا غرو ان اولع بها اهل الذكاء والفضل وآثروها على كل قنية فاخرة وحلية ثمينة .

قال كنفوشيوس الحكيم الصيني كنت لفرط رغبتني في طلب المعرفة بالدرس والمطالعة انسى جسمي فلا اطلب له طعاماً ولشدة سروري بالوصول اليها اسلو احزاني فلا احسبها موجودة بل اني ادركني الكبر وحلّ بي الهرم ولم احسب لهما حساباً . وقال شيشرون الخطيب الروماني ( غرفة بلا كتب جسم بلا روح ) وقال المنبي الشاعر المشهور :

اعز مكان في الدنيا ظهر سايج وخير جليس في الزمان كتاب  
وقال آخر :

حبيبي من الدنيا كتابي فيليس بي الى غيره ما بي اليه من النقر  
وقال آخر :

اذا غاص في بحر التفكير خاطري على درة من معضلات المطالب  
خفضت ملوك الارض في نيل شهوتي ونلت المنى بالكتب لا بالكتائب  
وقال آخر :

لنا جلسة ما نمل حديثهم الباء مأمونون غيباً ومشهدا  
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتاديباً ومجداً وسؤودا  
فان قلت اموات فلم تعد امرهم وان قلت احياء فلست مفندا

وقال الجاحظ : من كلام طويل في وصف الكتاب « هو الجليس الذي لا يطرئك والجار الذي لا يستبطئك والصديق الذي لا يقلبك والمستريح الذي لا يؤذيك والرفيق الذي لا يملك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق

ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق يطيعك في الليل طاعته في النهار وفي السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم الذي ان افترقت اليه لم يحقرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة . ولا اعلم نجاجاً في حداثة سنة وقرب ميلاده ورخص ثمنه . يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن ائمان العقول الصحيحة ومجمود الازهار اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمعه كتاب . ولولا الحكم المخطوطة والكتب المدونة لبطل اكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر» .

وقال فنلون : « لو وصعت تيمان ملوك اربعة كلها عند قديمي بدلاً من كتي لرفضتها » .

وقال كارليل الكاتب المشهور : « اهم ما يصنعه الانسان في الدنيا وابقاه واثمته هو الكتب » .

وقال مكولي الكاتب الانقصادي المعروف : « أفضل ان اكون فقيراً في كوخ وعندي كثير من الكتب على ان اكون ملكاً في قصر بلا كتب » .  
وقال ادورد كبن المؤرخ : « أفضل كتي على كل كنوز الهند لان التلذذ بها بهجة حياتي وتاج مجدي » .

وقال ملتن الشاعر : « الكتب ليست جهاداً بل اجسام ذات حياة . فانها حياة مؤلفها والمذكورين فيها فن يتلف كتاباً كن يقتل نفساً بل قد يكون اعظم اثمناً لان من الناس من في قتلهم راحة للعالم ولكن اتلاف الكتاب المفيد فيه ضرر للعالم » .  
وقال تيلر : « الكتاب دليل الشباب الى سبيل الصواب وساوة الشيخوخة عن قوة الشباب » .

وقال هرشل الفلكي ما معناه : « ان غاية ما أتمناه في هذه الحياة واطلبه من ربي في الصلاة ليكون لي ينبوع سرور وهناء وترساً يقيني سهام البلاء وسيفاً اغلب به جيوش الازراء كتاب ينفعني في السراء والضراء ويرافقني حيث اشاء » .  
وقد شبه بعضهم الكتب بالاساتذة وشبهها بعضهم بالاصدقاء والحق انها افضل



من الاساتذة والاصدقاء باعتبارات كثيرة لا يتسع الوقت لبيانها وهي افضل من كل ما يقنيه الانسان من التحف والطرائف والجواهر والنفائس حتى قال بعضهم انها الغنى كله وتمتاز على كل ما يخلفه الانسان من الآثار الدالة على عظمته وقدرته كالمهاكل الجميلة والمدن الحصينة والقلاع المنيعه وغيرها مما يبقى قروناً عديدة شاهداً بمجد من بنوه ولكنه يفقد رونقه الاصيلي على تمادي السنين بل قد يزول ولا يبقى له اثر . وكم من مدينة تهدمت وقلعة دُكت وهيكل اصبح ركاماً مر كوماً .

اما الكتب النفيسة فاذا لم تسها يد الانسان بالاذى بقيت قروناً عديدة برونقها وجمالها وفائدتها وتأثيرها في نفوس قارئيهـا . وهي خير ميراث يتركه العلماء للجنس البشري وافضل واسطة لحياء الذكر الى الابد .

ان هوميروس وارسطو وافلاطون وسقراط والتمنيي وابن سينا والفارابي وغيرهم من الشعراء والحكماء بقي ذكرهم حياً ما دامت كتبهم بين ايدي الناس . والملوك والعظماء الذين لم يتركوا اثرأ نافعاً قد باد ذكرهم . ان الكتب تُتجدد وتُتعدد بالنسخ والطبع على توالي العصور كلما نفذت نسخها الاصلية . ومع ذلك تبقى قيمتها وفائدتها كما كانت في عصر مؤلفيها بخلاف الآثار القديمة فان قيمتها تزول بتجديدها فتحسب مزورة وكفى بذلك دليلاً على عظمة شأن الكتب وامتيازها على كل مصنوعات الانسان .

وهنا وصلنا الى القسم الثاني من موضوعنا وهو المطالعة التي هي الغاية العظمى من تأليف الكتب وجمعها . ان كثيرين يرغبون في اقتناء الكتب وجمعها اما بقصد المتاجرة او بقصد المفاخرة فهؤلاء لا يستفيدون منها علماً ولا ادباً فلا ينالون الغاية من وضعها مثلهم الا كمثل من يملك مزرعة واسعة ولا يندوق شيئاً من غلاتها او يجمع مالا كثيراً ولا ينفق منه فلساً على قوته فيموت جوعاً واهراؤه مملوءة قمحاً وصناديقه طائفة ذهباً . ان المطالعة ضرورية لتغذية العقل كما ان الخبز ضروري لتغذية الجسد فكل الناس مفتقرون الى المطالعة لانماء عقولهم بالعلم وحياء نفوسهم بالادب والفضيلة فالذي لم يتيسر له التخرج في المدارس في صغره يستطيع ان يكتسب بالمطالعة ما خسره من الفوائد بعدم دخوله المدارس . ومن الحماقة ان يتخذ عدم درسه في الصغر حجة لعدم المطالعة في الشباب وما بعده من اطوار الحياة بل احرى بذلك ان

يكون حجة للمطالعة لتدارك ما فات . والذي وفق الى دخول المدارس في صغره ونال حظاً صالحاً من العلم لم يزل محتاجاً الى زيادة المعرفة والحكمة وتوسيع المدارك ومن الخطأ الواضح بل الغرور الفاضح ان يكتبني الكتاب والخطباء والمحامون والاطباء وغيرهم من ارباب الصناعات والفنون بما حصلوه في المدارس ويهملوا المطالعة النافعة بحجة انهم قد اكملوا دروسهم ونالوا شهاداتهم فلم يتبق بهم حاجة الى المراجعة او الدرس ولذلك يهملون الكتب ويستخفون بالمجلات ولا يباليون بتوسيع معارفهم حتى تتناقص رويداً رويداً وتضمحل في النهاية فيعجزون عن القيام بوظائفهم ويخسرون كرامتهم ومنزلتهم بين العلماء ويفقدون ثقة الناس بهم لان الطيب الذي لا يكتسب في كل يوم معارف جديدة ولا يقف على سير الطب الاكتشافات المتعلقة به لا يلبث ان يصبح دجالاً والمحامي الذي لا يطلع بالمجلات الحقوقية ولا يطلع على القوانين والزيادات والتفاسير الجديدة لا يلبث ان يصبح محتالاً لانه لا يكون له غرض سوى كسب المال فيقبل كل دعوى وهو يجهل نتيجتها . والجهل قد يكون سبباً للاحتيال على الرزق لان من جهل صناعةً وادعى العلم بها واتخذها وسيلة للكسب كان خليقاً بان يسمى محتالاً . اما العالم بصناعته الذي يأخذ اجرتة بحق علمه فلا لوم عليه .

ان الذين اشتهروا بالعلوم والفنون وحازوا قصب السبق في ميادين الفضل لم يبلغوا ما بلغوه من الشهرة والنفوق الا بكثرة المطالعة وتكرار المراجعة لا بما حصلوه في المدارس فقط ولا بمجرد الذكاء الفطري .

قال احد الخطباء : « ينسب الناس الي ذكاء ممتازاً والحقيقة اني لست اوفر ذكاء من غيري وانما انا رجل مجتهد في انفسان صناعتي فاذا أردت ان اخطب في موضوع ما طالعت كل ما وصلت اليه يدي من الكتب المتعلقة به وملاأت ذهني بكل حقائقه واحظت علماً بكل تفاصيله فيأتي خطابي محكماً . فما يسميه الناس ذكاءً ممتازاً وحقاً عظيماً انما هو ثمر درسي ونتيجة تعبي واجتهادي .

وقال الشيخ ناصيف اليازجي في خاتمة مقساماته : « اني قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم اذ لم أقف على استاذ قط في علم من العلوم وانما تلقيت ما تلقفته بجهد المطالعة وادركت ما ادركته بتكرار المراجعة .

وقال الاستاذ ابراهيم الحوراني في آخر حياته : « ما زلت منذ حدثني أُطالع وتعلم الى هذه الساعة فاستفدت من تعليم نفسي اضعاف ما استفدته من معلمي » .  
 وينتج من ذلك ان المطالعة ضرورية لانماء القوى العقلية وتهذيب الاخلاق  
 الغريزية واكتساب الفضائل النفسية ومعرفة الحقوق الاجتماعية والتأهب لاعمال  
 الحياة الجوهرية . ولا تكون المطالعة نافعة الا اذا روعيت شروطها وهي :

(١) : الرغبة الشديدة في الحصول على المعرفة الصحيحة والارادة الثابتة في  
 طلب الوصول اليها فمن لم يرغب في المطالعة ولم يقصد الاستفادة بكل قواه لم يمكنه  
 الحصول على العلم ولا النجاح في طلبه لان الرغبة القلبية هي سر النجاح في كل عمل  
 يعمل المرء عقلياً كان او يدوياً وكل الذين نجحوا في العالم وبلغوا درجة سامية في  
 الصناعة او العلم كانوا من الراغبين في ما اشتبهوا به . ان الرغبة في الشيء تهون  
 الصعوبات الشديدة وتقرب المسافات البعيدة وتجعل المستحيل عند بعض الناس ممكناً  
 عند غيرهم . فمن اراد ان يتعلم لغة تعلمها ولو كان شيئاً طاعناً في السن ومن رغب في  
 اتقان علم اتقنه ولو كان فقيراً سيء الحال .

اما الذين لا يرغبون في المطالعة فلا يمكنهم ان يستفيدوا شيئاً ولو قرأوا الوفاً  
 من الكتب ودخلوا أعظم المدارس .

(٢) : الاقتصار على الكتب الصالحة المفيدة لان مطالعة الكتب الرديئة  
 ليست عديمة النفع فقط بل هي كثيرة الضرر ويجزئنا ان نقول ان هذه الكتب  
 منتشرة انتشاراً تصعب ازالته ومنها الكتب الكفرية التي تفسد الايمان وتعود الى  
 التعطيل . والكتب المحوذية التي تفسد الاخلاق وتعلم الخلاعة والسفاهة والكلام  
 البذيء . والكتب الخرافية التي لا تتضمن غير الاوهام والخزعبلات والسفاسف  
 والحكايات الكاذبة التي لا يسلم بها عقل . والروايات الغرامية الخيالية التي تضع  
 الاوقات بتلاوتها ويكتسب مطالعوها منها العادات السيئة والاخلاق الذميمة  
 كالاحتيال والمبارزة والانتحار وطلب المحال وغير ذلك من الامور التي يكثر ورودها  
 في تلك القصص . فكل هذه الكتب وامثالها لا تجوز مطالعتها لانها تفسد المبادئ  
 وتحشو الدماغ بالاوهام وتعود الى أعظم الرذائل والخسائر المادية والمعنوية فيجب على

العاقل ان يتعد عنها ولا يسمح بدخولها البيت ووضعها بين ايدي الصغار ولا يقرأها ولا يسمعها بل يمزقها او يحرقها .

ويا ليت الحكومة تهتم بهذا الامر كما تهتم بامر الصحة فتمنع طبع هذه الكتب ونشرها وبيعها وتعاقب مؤلفيها وناشريها وبائعيها كما تمنع الدجالين من ممارسة التطيب والعطارين من بيع السموم وتعاقب بائعيها .

ان اختيار الكتب النافعة لا يقل خطورة عن اختيار الاصدقاء الصادقين فكما انه لا يحسن الاعتماد على صديق الا بعد اختباره وتحقق صدقه ووفائه كذلك لا يحسن الاعتماد على كتاب الا بعد تحقق نفاسته وفائدته . ان انفع الكتب هو الذي يترك في نفوس قارئيه افضل تأثير صالح ويفعل في الحياة العقلية ما يفعله نور الشمس في الحياة النباتية والحيوانية فينبه القوي والمدارك وينمي العواطف والسجايا ويحسن الاخلاق والمبادئ .

اننا في عصر كثرت فيه الكتب المفيدة المزلفة باللغة العربية والمترجمة من اللغات الغربية فضلاً عما كان عندنا من الكتب الادبية والعلمية القديمة فلا يصعب علينا وجدان ما نحتاج اليه من المواضيع المختلفة واختيار احسن الكتب التي تبحث عنها . ومما نفيد مطالعته المجالات العلمية كالمقنطف والحلال وغيرها ومن كان ضليعاً من لغف اجنبية كالفرنسية والانكليزية والالمانية استطاع ان يجد ما لا يحصى من الكتب والمجلات النافعة التي تشمل على احدث الاكتشافات العلمية وافضل الاختراعات العصرية . ويحسن بالراغب في المطالعة ان يستشير اهل الفضل ليرشدوه الى الكتب والمجلات الغزيرة الفوائد فيكون على بينة من نفعها قبل ان يقرأها ولا يبادر الى قراءة اي كتاب كان لبدته وحسن ظاهره فما كل جديد حسن الظاهر بنافع . وما اكثر الذين تحدد لهم الكتب بحسن ورقها وجمال تجليدها وطول عناوينها فيضيعون اوقاتهم بتلاوتها ويتناولون السم من دسمها وهم لا يشعرون .

(٣) : مراعاة الميل الخاص والدوق والحال والسن في ما يختار من الكتب النافعة فبعضهم يميل الى التسريح ولا يستفيد من العلوم الرياضية وبعضهم يحب الرياضيات ولا يميل الى العلوم الطبيعية . وما يناسب البسطاء لا يناسب الاذكيا

وما يفهمه الكبار لا يفهمه الصغار فيجب على كل راغب في المطالعة ان يبتار من الكتب الجيدة ما يلائم ذوقه ويناسب حاله ودرجة فهمه لان الكتب كالأطعمة منها ما هو لذيد الطعم سهل الهضم كثير الغذاء ومنها ما هو تافه عسر الهضم قليل الغذاء وكذلك العقول كالمعد منها ما هو قوي بهضم كل نوع من الطعام ومنها ما هو ضعيف لا بهضم سوى اللبن والحكيم من اختار لنفسه ولأولاده الاطعمة التي تناسب اذواقهم وتلائم معدتهم ومن فعل خلاف ذلك خسر الفائدة المطلوبة وعرض نفسه وأولاده للأمراض القتالة .

(٤) : عدم الاقتصار على نوع واحد من الكتب لان الانسان يحتاج الى معرفة اشياء كثيرة لا شيء واحد فقط فيجب على المطالع ان يجتهد في معرفة كل ما يمكنه من العلوم وبعبارة أخرى ان يعرف شيئاً من كل علم فيطالع كتب الفلسفة العقلية لمعرفة حاجات العقل ومرقياته وكتب الفلسفة الطبيعية لمعرفة سنن الكون ونواميس الطبيعة وكتب التاريخ لمعرفة احوال البشر وكتب حفظ الصحة لمعرفة قوانين المعيشة الصحية وتجنب اسباب الامراض وكتب المنطق والبيان ليحسن التعبير عن افكاره بجلال وقوة وبالجملة يجب ان يلم بما يمكن الالمام به من المعارف المتنوعة وان كان اختصاصياً بنوع واحد منها .

(٥) : تخصيص وقت كاف للمطالعة ولو ساعة كل يوم وهذا لا يصعب على من يريد ان يجد وقتاً وان كانت أعماله كثيرة تستغرق معظم أوقاته لانه اذا اراد تخصيص ساعة للقراءة استطاع ان يختلسها من وقت فراغه او وقت راحته او وقت زيارته او وقت نومه او وقت طعامه او من مجموع هذه الاوقات كلها . والغرض من تخصيص وقت كاف كل يوم للمطالعة المداومة عليها لكي ترسخ فوائدها في العقل فاذا قرأ الانسان خمس ساعات في يوم واحد ثم أهمل القراءة شهراً او اسبوعاً نسي ما قرأ وأضاع فائدته ولكن اذا اعتاد ان يطالع كل يوم صباحاً قبل ان يذهب الى عمله فصلاً من كتاب علمي او ادبي او اجتماعي او تاريخي استنار عقله ونهبت افكاره واغنتت نفسه وأصبح قادراً على القيام باعماله بكل نشاط وترتيب ونجاح لانه قد استمد من معاني ذلك الفصل ومن روح مؤلفه الشريفة قوة معنوية عجيبة ترافقه كل ذلك

النهار . فكما انه لا يجوز للمرء ان يخرج من بيته باكراً بدون ان يتناول طعاماً يقوي جسده كذلك لا يجوز له ان يخرج من بيته بدون ان يتناول طعاماً عقلياً يقوي نفسه .

(٦) : قصد الاستفادة فلا فائدة من المطالعة بقصد التسلية او النوم او الجدل او الانتقاد او الاعتراض ولا بقصد التسليم الاعمى بكل ما يطالع ولست اعني بذلك انه لا تجوز المطالعة بقصد التسلية على الاطلاق فان في التسلية احياناً فائدة ولكنها اذا كانت هي الغاية من المطالعة انشأت البلادة ومنعت من الاستفادة ولا انه لا يجوز الانتقاد بناتاً لانه اذا روعيت قواعده افاد فائدة عظيمة وانما اعني ان تكون غاية المطالع الاولى ان يستفيد مما يطالعه علماً او أدباً او تاريخاً او غير ذلك من الفوائد الجوهرية فان لم تكن غايته الاستفادة اضع وقته سدى او ربما اضر بنفسه وبغيره اذ يتمرن على المماحكة والمجادلة ويقوده الغرور الى مجادلة من هم اوسع منه علماً واغزر فضلاً تبيحاً بما توهمه في نفسه من قوة الحجة وبلاغة المنطق وبراعة الانشاء .

(٧) اتباع الترتيب اذ لا فائدة من المطالعة بدونها ونعني بالترتيب ان يقرأ المطالع الكتاب الذي يختاره من اوله الى آخره على التوالي فصلاً فصلاً ويقرأ الفصل من اوله الى آخره سطرًا سطرًا بالتأمل والانتباه فيجد لذة عظيمة وفائدة جسيمة . اما الذين يقرأون بضعة كتب في وقت واحد قراءة بلا ترتيب مقتصرين على بضع صفحات من كل كتاب وبضعة اسطر من كل صفحة فلا يجدون فائدة ولا لذة لانهم لا يفقهون شيئاً مما يقرأونه لعدم ارتباط المعاني التي يقفون عليها بعضهم ببعض وما مثلهم الا كمثل من يجبط في الظلماء خبط عشواء فلا يرون السداد ولا يهندون الى المراد .

(٨) : فهم الالفاظ والمعاني التي يعثرون عليها في الكتب التي يطالعونها لان فائدة المطالعة لا تتوقف على كثرة الكتب التي تقرأ بل على فهم ما يقرأ منها كما ان فائدة الطعام لا تتوقف على كثرة ما يؤكل منه بل على ما يهضم منه وربما حصل ضرر من كثرة القراءة بدون فهم كما يحصل ضرر من كثرة الأكل بدون هضم . فخير للانسان ان يقرأ قليلاً ويفهم من ان يقرأ كثيراً وينسى لعدم الفهم .

(٩) : وعي الفوائد التي يفهمها المطالع في ذهنه او كتابتها في دفتر خاص حتى يرجع اليها عند الحاجة لان الذهن قد لايسع كل ما يعثر عليه القارئ في اثناء مطالعته فاذا لم يدونه في مذكرة تحفظ عنده اضاع تعبهُ بالمطالعة وتسر عليه التفتيش عما يريد في الكتب التي كان قد قرأها . الا ان الاعتماد الكثير على المذكرات يضعف الذاكرة فلا يحسن الاكتفاء بها بل يجب الاعتماد التام على الذاكرة لانها هبة ثمينة تقوى بالاستعمال كسائر المواهب فلا يجوز اهمالها ولا عدم الثقة بها الا اذا كانت المواد المطلوب حفظها فوق طاقتها فينبغي ان يستعمل المذكرات . ومما يفيد المطالع ان يدون ايضاً كل كلمة او عبارة لم يفهمها لكي يبحث عنها في مظانها ويقف على تفسيرها فنتم بذلك الفائدة التي يتوخاها .

(١٠) : استيفاء البحث عن الموضوع المراد العلم به في الكتب المختصة به وذلك بالابتداء من النقطة المركزية فيه وتتبع كل الفروع المتصلة به والاحاطة بجميع اطرافه فاذا اراد المطالع ان يبحث عن قطر من الاقطار كسورية مثلاً وجب عليه ان يطلع على مصورها (خرائطها) و يقرأ تاريخها في كتب متنوعة بحيث يحيط علماً بمدنها وقراها وسهولها وجبالها ووديتها وانهارها واجناس سكانها والدول التي تعاقبت عليها ومذاهب اهلها ونوع حكومتها والنهضة العلمية فيها وآثارها القديمة وصادراتها وغلالاتها وسائر ما يتعلق بها وباقليمها وشعوبها القديمة والحديثة وعددهم واديانهم وعاداتهم وعلومهم وصناعاتهم ولغاتهم في كل الادوار التاريخية وحينئذ يستطيع ان يكتب مقالة وافية عن سوريه او يلقي محاضرة ممتعة في تاريخها واذا اراد ان يعرف ترجمة احد العظماء او الشعراء كابي العلاء المعري مثلاً وجب ان يبحث عنها في تراجم الشعراء الموجودة بين يديه ويتبع اقوال المؤرخين وغيرهم ممن ذكروا هذا النابغة العربي المشهور في كتاباتهم ويقابل بين تلك الاقوال ويحصيها ثم يستخرج منها ترجمة صحيحة لذلك الشاعر الحكيم . وجملة القول انه يجب على الباحث عن المسائل التاريخية او العلمية او اللغوية او غيرها ان يستوفي بحثه ويتبع كل التفاصيل المتعلقة بموضوعه بالندقيق والتحقيق الى ان يمتلي عقله به فيحصل على الفائدة التي يتوخاها . ولا بد من الاعتدال في المطالعة وتجنب الافراط فيها الى حد نسيان الطعام واهمال شروط

الصحة كما كان كنفوشيوس يفعل . فان اجهاد العقل وتحميله فوق طاقته وعدم الاعناء بالجسد مما تضع به فائدة الدرس فليحذر طلاب العلم ومحبو المطالعة من ارتكاب هذا الخطأ .

اما الفوائد الناشئة عن المطالعة القانونية فكثيرة اذكر بعضها :

(١) : تسهيل الوصول الى معرفة الحقائق المتنوعة من كل المباحث والتدرج في مراتب الحضارة واجتناء ثمار العلوم بدون مشقة فلا يحتاج الانسان في هذه الايام الى السياحة حول الارض لمعرفة احوال الاقاليم والممالك والبلدان وغيرها ولا الى بناء المراصد واقتناء المراقب ومراقبة النجوم لمعرفة علم الفلك ولا الى بناء السفن وقطع البحار لمعرفة علم الملاحة ولا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة التي تستغرق السنين الطوال لمعرفة العلوم الاخرى بل يمكنه ان يجد كل ما يريد من هذه المباحث وغيرها في الكتب المختصة بها فيقف على افكار الحكماء المتقدمين والمتأخرين والعلماء المحققين والشعراء المفلحين والنوابغ المخترعين والسياح المكتشفين وهو جالس في غرفته لا يبرح مكانه فيكون كل يوم من حياته بمثابة اعوام وكل عام بمثابة قرون كأنه وجد منذ وجود الانسان الاول ولم يزل حياً لهذا العهد وكأنه خالط كل الامم ورأى كل البلدان وجالس كل العلماء وسمع كل الخطباء وعاش في كل عصر وسكن في كل مصر وكل ذلك بتعب يسير ووقت قصير فما اعظم فائدة المطالعة وما اجمل من يستخف بها ويهملها .

(٢) : تثقيف العقل وتهذيبه وتمرينه وشحذه لان القوى العقلية كالنباتات التي تحتاج الى التشذيب لزيادة نموها واثمارها ولا شيء يهذبها مثل المطالعة فالتاريخ يملأ العقل حكمة ودربة واختباراً والرياضيات تقوي الادراك والاستدلال والحجة والطبيعية ترقى الافكار والشعر يرقق الشعور والمنطق والبيان يعصمان عن الخطأ في الذهن واللسان .

تحسين الاخلاق فلا شيء يمنع الانسان من فساد الاخلاق بعشرة الارباء ويصون فيه الفضيلة مثل المطالعة لانها تزجره عما ينهك القوي وتغله عن البطالة والملاهي التي هي اصل المعاصي وتمنعه من التهافت على اللذات المحرمة والاعمال المنكرة



وتكسبه الفائدة واللذة معاً فيعيش مبتعداً عن الرذائل متمسكاً بالفضائل طيب السريرة  
مدوح السيرة .

(٤) : توفير المال لان الانصباب على المطالعة يمنع الانسان من اتفانق دراهمه في  
غير وجهها ويعلمه قيمة الوقت وطرق الاقنصاد وبعده عن المبذر ين اخوان الشياطين .  
قال احدهم : « ان لم يكن اشغالي بالعلم قد زاد دخلي فانه لاشك قد ساعدني على  
الاقنصاد في نفقاتي لان انصبابي على المطالعة منعي من تبذير دراهمي بما لاخير فيه » .  
(٥) : الابهاج ففي حالة الحزن او المرض او التعب او الشيخوخة لاشي يعزي  
الانسان ويخفف عند الآلام ويعينه على احتمال الاسقام ويسليه في بلائه ويسعده  
في شقائه مثل المطالعة فانها الوسيلة الوحيدة التي بها يذخر الشاب كنوز العلم الثمينة  
الى زمن الشيخوخة ولا شي يحسبه الشيخ اكبر داع الى الشكر مثل تعوده المطالعة  
واعظم موجب للاسف خسارة الشيخ هذه النعمة .

(٦) انشاء محبة الوطن وجعل ابنائه اكثر استعداداً لخدمته فالذي يطالع اخبار  
المخلصين لاوطانهم الباذلين نفوسهم في سبيل تعزيزها وترقيتها يتولد في قلبه الحب  
لوطنه ويتأهب لخدمته بما يذخره من المعرفة التي ملأت عقله وأثرت في نفسه وهاجت  
خاطره ونهته الى الواجب ودعته الى العمل فما اعظم الفوائد الناجمة عن المطالعة الحققة  
وما اجبل الذين يهاولونها مع كثرة انتشار الكتب ورخص اثمانها وسهولة الحصول عليها  
وخفة حملها بالنسبة الى ما كانت عليه في الازمنة السالفة . ان الشاب يقدر اليوم ان  
يشترى كتاباً يقضي بمطالعة شهر أو ثمن علبه لفائف للتدخين او ثمن (اوقية شكولات)  
وهذه نعمة لم يعرفها المتقدمون فقد كانت الكتب في اول امرها باهظة الاثمان ونادرة  
كل الندر . قيل ان الملك الفرد بذل ولاية عظيمة في مجلد واحد . وبيعت مقالة  
واحدة بمئتي غنمة واربعين مد حنطة . وبيعت نسخة من الكتاب المقدس باربع مئة  
ليرة انكليزية فليعتبر المستحقون بالكتب والمطالعة من شبان هذا العصر الذين يؤثرون  
زجاجة من الراح على لسان العرب والمصباح ولا بدلي في الختام من ذكر بعض مبادئ  
عملية وهي :

(١) : على الآباء ان ينفقوا جزءاً من دخلهم في ابتياع الكتب والمجلات

والجرائد المفيدة ويضعوها بين ايدي اولادهم ليعتادوا التلذذ بقراءتها من الصغر وتصبح ملكة فيهم زمن الشيخوخة وقسماً كبيراً من مطالب حياتهم . ان اكثر الآباء مقصرون في هذا الواجب فاذا دخلنا بيوت اهل دمشق ولاسيما الاغنياء وجدنا فيها رياضاً فاخراً وتحفاً ونفائس متنوعة ولم نجد في اكثرها كتاباً مفيداً ويندر ان يوجد فيها مكتبة على حين ان الكتب من لوازم البيت الضرورية كالطعام والاثاث .

(٢) : على رؤساء المدارس ومعلميها ان يجيبوا المطالعة الى تلاميذهم ويربوا فيهم الميل الشديد اليها ويشجعوهم عليها ويساعدوهم على فهم ما لم يفهموه مما يطالعونه ويسهلوا لهم الحصول على الكتب النافعة ويهتموا بانشاء مكتبة كافية في كل مدرسة . ان اكثر معلمي المدارس لا يهتمهم سوى قبض الرواتب وقضاء ساعات الدروس بالحكايات التافهة وربما تدمروا بحضور التلاميذ من قلة الرواتب وعدم فائدة العلم فيغضوا اليهم المدرس والتحصيل وولدوا فيهم الكسل والاهمال .

(٣) : على العلماء والاغنياء ان يتعاونوا على تأسيس مكاتب جديدة وجمع كتب مفيدة لكل الطبقات في احياء المدينة ليحني فوائدها العامل والناجر والموظف والشاب والشيخ في اوقات فراغهم بدلاً من ان يدخلوا بيوت القهوة ويقنلوا اوقاتهم بلعب النرد وغيره . ان الحانات والملاهي وبيوت القهوة في دمشق تعد بالمئات ولكن المكاتب تعد على الاصابع . واللوم في ذلك على العلماء والاغنياء الذين ينفقون الاموال الطائلة على لذاتهم ولا يجودون بالقليل من ثروتهم لعمل مفيد للجمهور . ان بعض الشبان الاغنياء النجباء اظهروا رغبة في معاضدة العلماء ونشيط الكتاب فليت الباقين يقنطون بهم فتصبح دمشق زاوية بعلومها كما هي زاوية بحداثتها .

(٤) : على الحكومة ان تشجع الشعب على هذه الاعمال وتمدله يد المساعدة كما فعلت الحكومة المنندبة اذ هنت مبلغاً كبيراً من المال لمكتبة بيروت الكبرى وكافلت الحكومة الوطنية بامدادها المجمع العلمي بشيء من المال لاقتناء ما يحتاج اليه من الكتب لفائدة الذين يقصدون المطالعة في المكتبة العامة وهذا مما استحققت عليه الثناء الطيب . الا اننا نرجو منها ان تزيد الاهتمام بهذا الامر الحيوي لكي نثعدد المكاتب العامة وغرف

القراءة في البلاد السورية فان في تنوير الازدهان وتعليم الجهال ترقية للبلاد وتقليلاً  
للمجرائم واسعاداً للامة .

(٥) على الشبان الذين لم تمكنهم الاحوال من دخول المدارس والطلاب الذين  
نالوا حظاً صالحاً من العلم ان يثابروا على المطالعة في بيوتهم وفي المكاتب العامة وغرف  
القراءة كلما سئمت لهم فرصة لكي ينشأوا رجال فضل وادب ويخدموا بلادهم وامتهم  
احسن خدمة ويعيدوا الى وطنهم ما كان له في سالف الازمان من العز والعمران بفضل  
انتشار العلم والعرفان والله المسؤول ان يهديهم واياتنا اقوم سبيل وهو حسبنا ونعم  
الوكيل .

بني العرب زبدوا علمكم ما اسنطعتم لكي ترجعوا انجد الاثيل الى العرب  
ولا تهملوا الكتب التي جل نفعها فافضل ما يعلي مطالعة الكتب

انيس سلوم



## صناعات دمشق القديمة (١)

تمهيد — ما هي الصناعة ؟ — الصناعة عند القدماء — كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟ — صناعة السيوف — القيانة وسبك الحديد والفولاذ — القاشاني — الميناء — الفسيفساء — الترصيع او التنزيل في المعدن والخشب — نقش البيوت والجدران — النسيج او الحياكة — الزجاج — البناء — الوراقة وما يتعلق بها — الصناعات الأخرى — الختام .

### تمهيد

بزراعة وصناعة وتجارة تجدد البلاد تقدماً وفلاحاً  
اركان عمران فشيدها صرحها وخذ العلوم لنيلها مفناحا  
لاخفاء ان اسباب المعاش او العمران هي الامارة والزراعة والصناعة والتجارة  
وقد افاض كثير من مؤلفي الافرنج والعرب في اخص تلك الاسباب التي هي بعد  
الامارة وكان ابن خلدون الملقب ( سبنسر العرب ) بمباحثه الفلسفية والعمرانية  
والتاريخية في مقدمة الدين حضوا على انقان هذه الاركان وتوطيد دعائمها لرفع شأن  
البلاد مما لا محل الآن لتفصيله .

على انني افردت الصناعة من بين تلك الاسباب الآت لما كان لها من الشأن  
العظيم والقدر الجليل في هذه المدينة العريقة في القدم والشهرة . فكانت اعمالها  
ذائعة في الخافقين واتصلت بالاندلس واوربة والعجم حتى اغنتها بنفائسها . وملاّت  
خزائن متاحفها بذخائرها فضعف شأنها عندنا على اثر ما انتابنا من النكبات والغزوات

(١) محاضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف التي القاها في ردهة المجمع في ٢٢

كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

والفواجع الطبيعية الى ان جدد بعضها في القرن الماضي وبقي الآخر منخبطاً عن درجته الأولى ولكنه يبشر باستعادة النهضة في ظل الحكومة وعنايتها ان شاء الله .

### ماهي الصناعة ؟

الصناعة هي كل ما اشغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه . فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان بنحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينها . فقال الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لا تحتاج اليها . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صناع السيدن بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة .

واسم الصناعة عند الاوربيين مشتق من كلمة ( Industria ) اللاتينية ومعناها ( العمل مطلقاً ) ثم خصصت ومنها اخذت اسمائها في لغاتهم . فالصناعة والعلم متلازمان لا ينفك احدهما عن الآخر والصناعات التي أسست على مبادئ علمية اشتهرت بدقتها وفوائدها .

ولقد قسمت الصناعات الى ضرورية وغير ضرورية فالضرورية قسيمان منها ماهي عامة الفوائد كالزراعة والبناء والخياطة والحياكة والنجارة . ومنها ماهي شريفة بموضوعها وخاصة بفوائدها كالتوليد والكتابة والوراقة والطب والغناء والموسيقى . ومنها ماهي ممتنة كبعض المهن التي يضطر اليها بعضهم ليرتزق منها ولا يأنف من ممارستها . وكلها في نظر العمران ضرورية له ونافعة وبدونها تكون الاعمال ناقصة وما احسن قول الشاعر :

وليس على عبد نقي تقيصة اذا صحح التقوى وان حالكا وحجم

### الصناعة عند القدماء

لقد نظر القدماء الى الصناعة نظرة غريبة فألهوها واعتقدوا انها هبطت عليهم من العالم الآخر فأله المصريون الحراثة وعبدوا العجل ايبس . وفعل كثير من الامم التي عاصرتهم او جاءت بعدهم مثلهم بتكريمها وعدها من مواهب الالهة . ولاسيما

اليونانيون فانهم عدوها موهبة من ائنة او مينرفه الهة الحكمة فاشتهروا بالصناعات والفنون . بخلاف الاسبرطيين الذين شغلتهم الحروب عنها فلذلك كان فلاسفة اليونان مشهورين بصناعات وفنون بدیعة وكذلك حكاء الرومان فوضع كل من سولون اليوناني ونوما الروماني المشترعين دستوراً لامتيهما بشأن الصناعات وانظمتها . فارتقت في ايامها الى عصر الاسكندر المكدوني بنحو ثلاثة قرون قبل الميلاد المسيحي .

وكان الفرق بين اليونانيين والرومانين ان الاولين اعنوا بالفنون فارتقت في عهدهم . ولكن الرومانين اشغلوا بالحروب مئات قرون كان الارقاء فيها هم الصناع فلم يتقنوها إلا ان الحروب آفة الصناعات فاحتاجوا الى صناعات الشرق النفيسة . ولا سيما صناعات الصين والهند وما اتصل بها وانقل عنها الى بقية الاقطار الشرقية وعرف العرب كثيراً منها ولا سيما في هذه الحاضرة العريقة في القدم وعنها نقل أسرى الصليبيين وتجار سواحل البحر الرومي الاوربيون كثيراً منها الى بلادهم . فاشتهر من القدماء المصريون بفن الخراثة ونسج القطن والكتان للكهنه وغيره لغيرهم والنقش وعمل الزجاج والبناء والتعدين والادوات الخرفية والمعدنية وهندسة المياه وفتح الترع والتخيط وجرا الاثقال وغيرها .

وعرف البابليون بالنسج والتطريز والحفر والصياغة والحجارة الكريمة والتمثيل والنقش على الغضار ( الأجر ) .

والفينيقيون بالنقش والحفر وعمل الطنافس ونسج الحرير والابنية العظيمة المتينة والتعدين وصنع الارجوان وبناء السفن وعمل الزجاج والنجارة .

والصينيون بالخرف المنسوب اليهم وتربية دود الحرير والوراقة والتعدين والاسلحة وعمل الحجارة الكريمة والبناء وكفي بسورهم العظيم شاهداً على براعتهم به .

والهنود بالنسجة الرقيقة والصناعات المتقنة ولا سيما الاسلحة والفولاذ المشهورين الى اليوم باسمهم ولا يزال فولاذ بنجوب من بلادهم مميّزاً على غيره ولا سيما نوابض ( زنبلكات ) الساعات .

فانتقلت هذه الصناعات الى الامم الأخرى فاقتبس اليونان من صناعات المصريين البناء والنحت والنقش ومن الفينيقيين الزجاج والملاحة والارجوان . واخذ العرب

عن الصينيين الابرّة المغناطيسية وعن العجم الورق والقاشاني الى غير ذلك مما ستراه مفصلاً في ما يأتي :

وكل من طالع الياذة هوميروس كبير شعراء اليونان المنقولة الى العربية يجد فيها وصف المناضد المتحركة • والحداد هيغتت اله النار • ومعادن قبرس الحديدية • والحدادة • وكوب نسطور والخراطة وصبغ العاج والبرفير • وصياغة الفضة في صيداء والنجارة وعمل المركبات والصيقله والغزل والنسج الفينبقي وبناء السفن واشباهاها حتى انه صورها بقله العسال وصفاً كأنه يمثلها بمنقاش المصور • فمن ذلك قوله يصف هيلانة تطرز بابرتها :

وجدها بالصرح نسيج ثوبا بجواشي البرفير والارجوان  
وبرأس الخياط ترسم فيه واقعات ابلت بها الفتات

ومن ابداع اوصافه تصويره لترس اخيل من موشحة قال فيها :

اودعه نقشاً به تحارُ لحسنه الانظارُ والافكارُ  
فالارضُ والسما والبخارُ منهن لاحت فوقه الآثارُ  
وساطع الشمس وثم البدرُ

فذكرني جمال هذا الوصف بقول المعتمد بن عباد ملك الاندلس يصف مجناً ابيه ترساً فيه كواكب فضة وقد امره ابوه المعتضد بذلك فابدى وهو :

مجن حكي صانعه السما لتقصر عنه طوال الرماح  
وقد صوروا فيه شبه الثريا كواكب تقضي له بالنجاح  
ولو انفسح لي الوقت لسردت كثيراً من اوصاف الصناعات عند الافرنج والعرب •

كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟

لما احتك العرب بمجاورهم ومحاربيهم من الامم استفادوا منهم صناعات كثيرة برعوا بانقانها فوق ما كان عندهم من الصناعات الوطنية في العراق وبلاد العرب والاقطار الاخرى التي تفوقوا فيها ومن أقدمها بناء السدود مثل سد العرم وطبع السيوف

اليمانية وبناء القصور وعمل الاسلحة والخزف والقاشاني والزجاج وبناء السفن والنسج والحفر والنقش وعمل الورق واشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر فنشير الى اهمه .  
ولما كانت دمشق وما يجاورها من ايام الجاهلية وما بعدها قطباً لرحلات الاقوام ومحطاً لرحالهم ومقراً لهم اجتمعت فيها الصناعات المختلفة وترقت بحسب الحاجة اليها بل تفوقت بها على غيرها لاسباب كثيرة أهمها رواج سوقها واثقان آدابها ووضع انظمة لها وروابط وثيقة العرى . وانحصر كثير منها في أسرار خاصة كتمت أسرارها واحتكرت آثارها فألف بعض العلماء في كشف تلك الاسرار كتباً بينوا فيها غش الصناعات وحيل اربابها على اختلاف عملهم وتزويرهم وتقليدهم للشيء الطبيعي بالصناعي وتلاعبهم بالموازن ونحو ذلك . منها كتاب ( كشف الدك وايضاح الشك ) لابن شهيد المغربي . و ( ارخاء الستور والكال في كشف الدكات والحيل ) لسعيد النيسابوري وهما مخطوطان . و ( المختار في كشف الاسرار ) للشيخ عبد الرحيم الجويري الدمشقي وهذا طبع في دمشق منذ اربعين سنة وغيرها .  
والصناعات الدمشقية اصول تعرف بالشد لها آداب وانظمة وموظفون بقواعد معلومة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف . وقفت على وصف اهمها في بعض التعاليق والمخطوطات الموجودة في خزائني وغيرها وطالعت مقالة فيها لرصيفي الياس بك القدسي الدمشقي مطبوعة في اعمال مؤتمر ليدن ( هولندة ) الذي عقده المستشرقون سنة ١٨٨٣ .

فمن كل هذه المصادر استفدت انه كان للصناعات رئيس أعظم يسمى شيخ المشايخ وكان هذا المنصب يتوارثه سادة بني العجلاني<sup>(١)</sup> الحسينيون من آل البيت النبوي الكريم خلفاً عن سلف وصاحبه يعين المشايخ لاكثر من مائتي حرفة في المدينة ويفصل الخلافات ويحسم المشاكل التي تقع بين ارباب الحرف أمراً وناهماً ومقاصاً للمخالفين . وبالجملة فانه الحاكم العام الذي لا ينتخب بل ينال منصبه

(١) قال المحبي في ( خلاصة الاثر ٤ : ١٥٤ ) : « السيد محمد العجلاني شيخ مشايخ الحرف الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع . وكان صاحب هذا المنصب قديماً يعرف ( بسطان الحرافيش ) ثم كني احتشاماً بشيخ المشايخ » اه .



بالارث عن اسلافه ولا يعزل ولا يترك منصبه الا بالموت او الاستقالة وبقيت سلطته هذه مرعية الجانب الى ان اعلن السلطان عبد المجيد العثماني التنظيمات الخيرية فبقي له من وظيفته التصديق على نصيب شيخ الحرفة الذي ينتخبه معلوما واحترام نسبه الشريف وشخصه الجليل . ويشارك شيخ المشايخ النقيب وينوب عنه . والجوايش ينفذ الاوامر . وادابهم مع آداب المعلم والصانع والمبتدئ وشد الصانع حتى يصير معلماً هي آداب مرعية تقال فيها ادعية وتؤخذ عهود غريبة الاسرار كثيرة التفصيل لا يسمح المقام باكثر من الاشارة اليها ولكنها تدل على احترام الصناعة كما احترامها القدماء وترقيتها بهذه الاصول المتبعة .

فأهملت بكساد الصناعات وكثرة المصادر وبقيت بعض آثارها في قليل من الاسر مثل بني القصار الذين يبيضون الثياب قبل صبغها فلم آداب خاصة بهم يحافظون عليها الى يومنا . وبني الحصري الذين يصفرون الحصر وبني المنجد ونحوهم .

### صناعة السيوف

افق ذكر اليمنين بصناعة الشفار والنصال . وكذلك الهنود فليل سيف يمان وحسام هندي وهندواني او مهني . فلما قدمت قبائل اليمن الى مشارف الشام نقلت معها تلك الصناعة فانتشرت وانقنت فليل لسيوفها المشرفية والشامية . ولما اكثر الحديد في سورية وجبال لبنان كداريا والفرزل ودوما والشوير ومشغرة عمل منها الفولاذ وطبعت منه السيوف المحددة والشفار المجوهرة . وكان الفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الالومين والسلكا ينقل من الهند الى بلاد الشام منذ زمن بعيد فيتخذ للشفار والنصال والجوارح .

فاشتهرت مصانع دمشق بعمل القواطع كالشفار والنصال والسهام والحراب والمدى وكانت هذه تخرج من بين أيدي الصياغلة شديدة الصلابة مرهنة الفرار كثيفة مرنة ذات فرند او جوهر بديع التلوين والرسوم يغطي سطوحها الصقيلة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء وبيضاء فضية اللون متحاذية او متقاطعة ذات اشكال مختلفة . فمنها ما هو كالالياف المتعارضة في زوايا كثيرة . او كالعقود

المنظمة او كالعناقيد المنضدة . ولقد اكتشف الدمشقيون اسرار هذه الصناعة منفوقين فيها حتى أغلقت عن سواهم فلم يهتدوا اليها حتى يومنا مع كثرة تفننهم وتجاربهم ومهارتهم .

واما هذا الجوهر الدمشقي او الفرند او الاثر فهو طرائق السيف التي هي على سطحه شبه الغبار او كمدب النمل . وقد امتاز على الجوهرين العجمي والهندي بروائعه وتموجاته وعدم تطرق الصدا اليه ولينه . فلذلك لا تقبل السيوف الدمشقية الكسر عند الضرب بها مثل غيرها . وسمي جوهرها الحناوي او الحنوت . واتخذ الدمشقيون لكل نصل كتلة واحدة من الفولاذ . واما الاعاجم فيتمخضون له اكثر من كتلة . فتميز النصل الدمشقي بثبات جوهره وتحسينه عند تخضيره اي احماؤه بالنار . او عند تطريقه . وبالتحليل عرف ان فولاذه كان ممزوجاً بمعدن آخر يسمى التيتان او الحزوم وهو موجود الآن في نواحي دوما . ومنه اخذ ابراهيم باشا المصري كميات لمعمل الاسلحة عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣٠ .

فلذلك اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صقلها ومرونتها ومثانة فولاذها . وكانت صناعتها مشهورة بزمان الرومانين وفي عهد العرب . ومنها انتقلت الى طليطلة في الاندلس ومن هذه الى ميلانو في ايطاليا . وفي المتحف البريطاني وغيره سيوف دمشقية بديعة الصنع وفي متحفنا بعضها ايضاً .

وصارت الناس تنغالي بالسيوف وبقيّة الاسلحة كالنصال والحرايب والسهام والمدى والدروع والخوذ والبنادق الدمشقية حتى ان السلطان بپرس البندقاري لما اراد تقديم هدايا سياسية لباراق سلطان المغول في تركستان اختار الاسلحة الدمشقية لنفاستها ورونقها وندزتها .

وقال الجوالقي في المغرب : وبصرى موضع بالشام وقد تكلمت به العرب واحسبه دخيلاً ونسبوا اليه السيوف فقالوا : سيف بصروي . وقال الحصين بن الحمام :

صفايح بصري اخلصتها قيونها ومطرداً من نسج داوود محكما

ومن آثار هذه الصناعة النفيسة اسلحة وادوات وصفها بريس دافين

( Prisse d'Avennes ) في كتابه الافرنسي ( الفن العربي ) ( L'art Arabe )

صفحة ٢٨٠ بما معر به :

« اسلحة طومان باي الاشرف اعني خوذته ونبله وخنجره وفاسه وجوكانه (ايه عصاه المعوج ) ودبوسه بتاريخ سنة ٩١٧ هـ و٩٢١ هـ مصنوعة من الفولاذ الخراساني ومرصعة بالذهب ترصيعاً دمشقياً بذوق لطيف جداً . فالخوذة شكلها شرقي ايه مستديرة وهي من الفولاذ الدمشقي ضاربة الى السواد ومرصعة بالذهب ترصيع دمشق وأطال في وصف اجزائها وسلاسلها وشعارها والآيات القرآنية والعبارات الدينية التي على عصابتها مثل : لا اله الا الله . وعظمة عرشه تمتد على كل الكائنات ولا يمكن لحكومة ان تغيرها . ثم ادعية أخرى مثل امنح النصر للمؤمنين الحقيقيين الخ . والدبوس كانت قبضته موشاة بالخممل القرمزي وعلاقتها فولاذية مرصعة بالذهب بالصناعة الدمشقية . ثم تطرق الى وصف درع لرأس الحصان مصنوعة من فولاذ دمشقي مرصع بالذهب بالصناعة الدمشقية . » اه

وبقيت هذه الصناعة رائجة الاسواق بديعة الطراز الى ان غزا تيمورلنك ( الاعرج الحديدي ) سورية ودخل دمشق سنة ٨٠٣ هـ ( ١٤٠٠ م ) فسبى كثيراً من صناعاتها والماهرين في غيرها فتصوحت ازهارها وذوت نضارتها منتقلة الى بلاد فارس مزهرة فيها . ويقال انه اسر مائة وخمسين الفا من دمشق بينهم الاطباء والصناع والبنائون والحاكة والتجار وارباب الصناعات الاخرى ولا سيما الصياغلة المشهورين الى سمرقند فبنوا في بلادهم مصانع خراسان الشهيرة واشتهرت بصناعاتها .  
ومن الصناعات التي تحفظ اليوم اسم دمشق « صناعة السيوف الدمشقية » في مدينة فاس المرأ كشية في المغرب .

اما اصناف السيوف الجيدة الفولاذ المشهورة فمنها اليمنية والهندية والسليمانية والدمشقية والخراسانية وتتميز سيوف اليمن بخرها وثقوبها ونقوشها ولكنها لينتة الغرار تنفلل سريعاً بخلاف الدمشقية فانها صلبة المضارب لينتة الشفار حتى يمكن ليها بسهولة دون ان تنكسر ولا تزال آثار صناعة السيوف باقية في اسماء بعض الاسر الدمشقية

مثل بني السيوفي والصيقل والسكاكيني وجوهر وبولاد . وفي مجلة المشرق مقالة مفيدة في السيوف الشرقية المجوهرة ( ٥٧٧:٣ و ٧٠٠ )

ويظهر ان القدماء الفوا في الجوهر والصيقل فذكر ابن ابي اصبيعة في تاريخ الاطباء رسالتين للفيلسوف الكندي الشهير (الاولى) في المعادن والجواهر وانواع الحديد والسيوف وجيدها وموضع انتسابها . و ( الثانية ) في ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا نثلم ولا نكل . ولا نعلم محل وجودهما الان . ومن الطف ما وصف به العرب جوهر السيف ما نظمه اسحاق بن خلف كما قال المبرد :

التي بجانب خصره امضى من الاجل المتاح  
وكأنا ذر الهباء — عليه انقاس الرياح

ومثل ذلك قول عبد الله بن المعتز العباسي :

وجرد من اعماده كل مرهف اذا ما نصته الكف كاديسيل  
جري فوق متنيه فرند كأنا ننفس فيه القين وهو صقيل

### القيانة وسبك الحديد وعمل الفولاذ

القين الحداد الذي يشغل بالمبرد ويعرف عند عامتنا بالبندقجي والقردهجي والقرداحي وصنعتة القيانة المعروفة عندهم بالقرده .

ولقد اشتهر الدمشقيون بهذه الصناعات واستخرجوا المعادن الحديدية من جوار دمشق كما مر ومن مشارف حوران ولبنان والقلمون . ولا تزال آثار خبث الحديد الذي تسميه العامة ( الكشته ) تدل على اماكن المسابك وكذلك اسم المسبكين الجواني والبراني في دمشق . وكانت تقطع اشجار السنديان لتذويب الحديد واستخراج الفولاذ فتعرت الجبال من حلاها النباتية وبقيت جرداء الى يومنا ومن التسميات بهذه الصناعات اسماء بيت بولاد وابي حديد والحداد . ولعل اسم قرية حلبون قرب دمشق من اليونانية بمعنى الفولاذ لاستخراجه منها .

ومما يروى ان أسرة الحدادين التي كانت مشهورة في اذرع ( حوران ) منذ القديم بهذه الصناعة نبت بها حوران فتنفرت في مطاوي القرن السادس عشر في

بلاد الشام ونقلت صناعتها اليها وفي دمشق اشغل ابناؤها بعمل البنادق او البواريد فصادرتهم الحكومة وفرروا الى جبل القلمون ولهم بقية في دير عطية و ببرد وكان احدهم المسمى عبوداً قد اشتهر بعمل البنادق المتقنة فنسبت اليه وقيل لها (العبودية) وكذلك اشتهر بعمل الاجراس الحديدية فنسبت اليه ايضاً وقيل لها (الاجراس العبودية) و بقي حدادو دير عطية يشغلون البنادق سرّاً بعقود تحت الارض الى زمن قريب .

ومما يتعلق بالحدادة عمل ادوات كثيرة كان لها في دمشق شأن كبير مثل عمل الابر والمسلات والقبابين ولا تزال سوق الابارين خارج باب الفرج تدل على ذلك ومثلها سوق المرادية لعمل المرادن وهي قضبان حديدية لدواليب الردن المتخذ للنسيج . وسوق الحدادين ايضاً .

على انه لما جلب الحديد السويدي من اسوج واشتهر استعماله بطل استخراج الحديد لوطني الذي كان شائعاً هنا وفي انحاء سورية ولبنان ولهم في اعداده طرق جميلة ونفنيات عديدة لا محل لتفصيلها الآن .

### القاشاني

وهو نوع من الخزف الصلب المموه بالوان واصباغ بديعة ونقوش رائعة منسوب الى بلدة قاشان على ثلاث مراحل من اصفهان في بلاد فارس . قال ياقوت في معجم البلدان : منها تجلب غضائر القاشاني والعامية تقول القاشي اه . وعامتنا اليوم نقول القيشاني .

وهذه الصناعة اتقنها البابليون وعرفها الكنعانيون كما دلت الآثار وناولها الفرس واليونان والرومان واتصلت بالعرب في صدر الاسلام وتدرجوا بها فانقنوها في بلاد فارس وزين الملوك الاخمينيون قصورهم بنقوشها الرائعة التي توجد بعض قطع منها في متحف اللوفر الباريسي . وابدعها في بلاد فارس ابنة اصفهان ولاسيما في زمن الشاه عباس الاول . وفي قونية وبورصة آثار القاشاني السلجوقية . وبتحف الاستانة ناووس بابلي مطلي بميناء اخضر . وانتقلت هذه الصناعة الى دمشق

وعرفت فيها بصناعة ( الغضائر القاشانية ) ومن الواحها المؤرخة قبرية في بيت انطون افندي ميخائيل السيوفي في دمشق بتاريخ ١٢٥٩ هـ ( ١٢٦٠ م ) .

والقاشاني صنمان صنف بسيط من الخزف المزوج بالحديد يحمر عند شيه ويموه بمركب قصديري ابيض سميك . وصنف من مواد انقى اذا شوي ابيض و صلح لصبغه بالوان شفافة رائعة تأخذ بمجامع الابصار .

ولقد كانت في دمشق معامل كثيرة لهذه الصناعة النفيسة منها ما اكتشف امام الباب الشرقي خارج السور سنة ١٨٨٢ م اذ حفر هناك الطبيب النمسي اورديشيانو قبلاً واستاش دي لوري الاثري الافرنسي نزيل دمشق الآت اخيراً فوجدوا معامل له وآثاراً منه .

ومما عرف من هذه المعامل مصنع بين آخر القيمرية واول الجورة من احياء دمشق فيه اجران حجرية لسحق الزجاج والتويه به وله نوافذ لخروج الدخان عند ايقاد النار للتدوير والشي . وقد بقيت فيه قطع قاشانية بيعت منذ ربع قرن او اكثر وكذلك ظهرت آثار معامل في محل بيت المرحوم جبران اسبر حيث الآن مشغل في الآسية بجوار الكنيسة المريمية والدار البطريركية الارثوذكسية .

وقرأت في ديوان العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المخطوط انه ارخ عمارة مدرسة في القسطنطينية بناها الوزير ابراهيم باشا فجاء من قبله رجب آغا القبيبي الى دمشق ليأخذ منها معلمين يصنعون له القاشاني وطلب من النابلسي عمل تاريخ يكتب على القاشاني لسنة ١٠٩٢ هـ ( ١٦٨١ م ) فنظمه واخذوه معهم وهذا يدل على بقاء هذه الصناعة في ذلك العهد مشهورة .

وقد فقدت هذه الصناعة منذ قرن ونصف . وفي المعامل التي اكتشفت امام الباب الشرقي في حديقة الطبيب النمسي ما يدل على ترك العمال اشغالهم فجأة وتخريب أتاتين الشي بحادث نجائي لعله بالزلزلة العظيمة التي ارتجت منها اعطاف دمشق مراراً في سنة ١٧٥٩ م و ( ١١٧٣ هـ ) فهدمت ماآذنها وقوضت كثيراً من ابنتها فتترك العمال اعمالهم وطمروا المحل .

ومن اسباب انقراض تلك الصناعة ايضاً انحصارها بأسر خاصة فنقلص ظلها

بها . وفي حلب الى اليوم اسرة القاشاني التي يقال انها انحسرت فيها هذه الصناعة  
ثم انقرضت الصناعة وبقيت الاسرة جاهلة اسرارها منسوبة اليها بالاسم فقط . وربما  
كانت منسوبة الى بلدة قاشان المذكورة او الى الاتجار بالقاشاني .

ولطالما نفاست الدمشقيون باثناء هذه الآثار الفاخرة فعملت منها الصهاريج  
والسلسبيلات والبازهنجات والقمام والزهريات والقلل<sup>(١)</sup> واشباهها . ورصفت بصفائح  
جدران البيوت ومرافقها حتى انها بعد حادثة سنة ١٨٦٠ م صار السكان ينتزعونها  
من البيوت ويستعيضون عنها بالرخام فانقلت تلك الالواح النفيسة الى اوربة وقل  
وجودها عندنا ولا سيما بعد تكرار الحرائق والتدمير .

وكان اشهر قاشاني في الجامع الاموي في دمشق وفي جامع المسجد الاقصى في  
القدس الشريف . ففقدته الاموي بالحرائق المتوالية عليه . وتجد في بعض المساجد  
والحمامات والبيوت آثاراً نفيسة منه اهمها ما في جامع الشيخ محيي الدين بن العربي الذي جدده  
السلطان سليم الفاتح العثماني وفي حمام القاشاني المصفحة جدرانه بالواحه وقد حول الان  
الى سوق . وفي التكتين السليمية والسليمانية . وفي قاعة القاشاني التي بناها البطريرك  
مكار يوس ابن الزعيم في دار البطريركية الارثوذكسية فاحترقت سنة ١٨٦٠ م . وفي  
سلسبيل جامع الدرويشية المؤرخ في سنة ٩٨٢ هـ ( ١٥٧٤ م ) وفي جامع سنان آغا في  
المناخلية . وفي دار اسعد باشا العظم . وما في متحف الوطن من بقاياها المختلفة الاشكال  
وبعضها نفيس عليه كتابات ومنها ادوات كالمرايا وغيرها . وكلها بديعة الالوان  
والنقوش والطرز .

ومن قرأ وصف الرحالة والمؤرخين للجامع الاموي الكبير قبل ان نكبت بالحرائق  
الكثيرة ولا سيما الاخيرة منها . عرف ما كانت عليه من الرؤء النادر والزخرف  
النفيس .

( ١ ) الصهاريج البرك والجرات في وسط الدور . والسلسبيلات هي المياه التي تحصر  
بانبوب للاستقاء . والبازهنجات هي انايب كأنبوب المدخنة او البخيري تستعمل للتهوية .  
والقمام آنية لرش ماء الورد في الحفلات ونحوها . والزهريات او ان لزراع الزهور او  
وضعها فيها . والقلل جمع قلة وهي الجرة العظيمة .

واشتهر الاندلسيون بمعاملهم القاشانية في مدينة مالقة سنة ١٣٥٠م ومنها نقلت الصناعة الى ايطالية فعرفت اولاً في فلورنسة ثم اشتهرت بها مدينة فاينسة فنسبت القطع القاشانية اليها فقبل المألقي (Mayolca) والفاينسي (Faiences) واقتبسها منهم الفرنسيون ونفوقوا في معامل مدينة (روان) ثم اقتفى اثرهم الالمان والانكليز .

ووصف ابن بطوطة وغيره من المؤلفين والسياح هذه الصناعة وذكر الادريسي خزف دمشق المطلي بالميناء .

ومما عرف من آخر اسرار هذه الصناعة انه كان يعمل آجر مختلف الاشكال والحجوم والزوايا مجبول من الرمل الابيض والجص مفرغ بقوالب حسب الحاجة فيكتب على سطوحها آيات واشعار وترقم نقوش معدنية وصور بمواد ثابتة . وبعد ان تجفف يذر عليها مسحوق الزجاج الدقيق جداً او تظلي به ممدوداً عليها بسائل غروي وتشوي في وطييس (نور) معد لها فيذوب الزجاج ويغشي تلك السطوح بطبقة رقيقة مناسبة لماعة تشف عما تحتها من الالوان والاصباغ .

### الميناء

الميناء كلمة فارسياتها ( مينه ) اي جوهر الزجاج وهي ( أكاسيد ) معدنية تصير بمادة زجاجية وتظلي بها الاواني المعدنية والادوات لاطهار رونق نقوشها وجمال رسوما . فهي في المعدن كالقاشاني في الخزف ولذلك يسمى القاشاني بالميناء أحياناً .

وصناعة الميناء عرفها الطورانيون ونفوقوا فيها واشتهرت في اشور ومصر وفنيقية ثم في الصين والهند قبل الميلاد بقرون . ثم عرفها الفرس ونقلها عنهم البزنطيون والدمشقيون وتجروا بها من فارس ثم اتقنوا عملها ولكنها لم تكن من صناعاتهم الوطنية الشائعة مثل غيرها ونقلها الصليبيون في القرن الحادي عشر للميلاد الى اوربة فبلغت كمالها عندهم في القرن السادس عشر المسيحي .

ولا يزال اهل الهند وفارس والارناؤوط ولا سيما الشركس منفقين فيها الى



يومنا حتى يقال ( ميناء شركسية ) وهي من الطبقة الاولى من الصناعات الاخرى عند غيرهم .

وكان الفرنسيون يتغالون باقتنائها فذكرها المؤرخون كثيراً في زمن الصليبيين . وقال المؤرخ راي : ان المسيو ( بيو ) وجد سنة ١٨٧٢ م انقاض معمل لهذه الآنية قرب مدفن اللاتين في دمشق .

واشتهرت معامل جزيرة ميورقة في الاندلس بهذه الصناعة قبل اشتهار اوربة بها . وعنما عرفه الصليبيون منها نقلوا صناعاتها الي بلادهم واثقوها .

### الفسيفساء

ان كلمة فسيفساء يونانية اما تعريب ( بسببوس — Psipsos ) او من كلمتين ها ( بسفي — Psifi ) اي قطع و ( ذوتو — Zoto ) بمعنى مرتبطة . فيكون معناها قطع صغيرة مرتبط بعضها ببعض وقد عربتها العرب بلفظ ( الفسفس ) . قال ايمن بن خزيم في بشر بن مروان :

وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كالأمل تاجها بالفسفس  
فسماؤها ذهب واسفل ارضها ورق تلاًلاً في البهيم الخندسي  
ومنها كلمة ( الفص ) و ( الفصوص ) للقطع الصغيرة العظمية ونحوها . وتعرف ايضاً بالزليج ومنها قال الاسبانيون ( Azulejo ) ويرى دوزي في تكملة المعجمات العربية انها محرفة عن لازورد الفارسية ومنها الواح القيشاني ( فاينس ) وهي ملونة ومطلية بالرونق ( الفرينس ) . والخزفيون كانوا يعملونها الواحاً مطلية اسمها ( Zelis ) تُخذ تغشية الجدران الداخلية ذات لونين ابيض واسود<sup>(١)</sup> ( اه ) .

اما الافرنج فيسمونها موزاييك ( Mosaïque ) نسبة الى ( موزه ) الهة الفنون ومنها اسمها في اللغات الاوربية .

والفسيفساء افلاذ مربعة غالباً من الزجاج الملون او الذهب او الحجاره الرخامية ونحوها ترصف على الجدران والسموك ( السقوف الداخلية او الطوانات ) وارض

(١) راجع تكملة المعجمات لدوزي ( ١ : ٥٩٨ ) .

البيوت ونحوها بطبقة من الجبص ( الجفصين ) فتؤلف اشكالا هندسية رائعة من نقوش ورسوم وكتابات .

ولقد عرف هذه الصناعة الاشوريون والبابليون والفينيقيون وزينوا بها قصورهم ومعابدهم ثم عرفها اليونان والرومان فنفوقوا بها ورسفوا بها جدرانهم واراض قصورهم . واشتهر بها البزنطيون وهم الروم الذين كانوا في الأستانة فلا عجب اذا سموها بلغتهم . ولقد عملوا الفسيفساء البلورية مثل القاشاني وهي نقوش من الزجاج الملون والمذهب ترصف على طبقة من الجبص

ونقلوها الى دمشق ايام اسنقدم الوليد بن عبد الملك الاموي اثني عشر الف صانع منهم لبناء هيكل رامون او المشتري بعد تقضه وتحويله الى كنيسة ثم الى الجامع الكبير المنسوب اليهم فزينوا بانواعها جدران الجامع وسموكة حتى كان آية في الابداع والاثقان وبقيت الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . مع ما نلهاها من الحرائق مرارا كثيرة . ولقد وصف ابو الفداء ملك حماة المؤرخ تأثير حريق سنة ( ٤٦١ هـ ١٠٦٨ م ) في الجامع فقال : « فأتى الحريق على الجامع فذثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال النفيسة » . ووصفه ابن جبير الكنتاني الرحالة بقوله : « وانزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء وخطت بها انواع من الاصبغة الغربية قد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببديع الصنعة المعجزة وصف كل واصف نجاء يغشي العيون وميضاً وبصيصاً » .

وقال الجاحظ في وصفه : « وهو مبني على أعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر وفي قبليه القبة المعروفة ( بقبة النسر ) ليس في دمشق شيء اعلى ولا ابهى منظراً منها » .

وقال الرحالة ابن بطوطة : « انه زين بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها انواع الاصبغة الغربية الحسن » .

وانفق على الجامع أموال كثيرة لعمل هذه الفسيفساء وغيرها من الزخارف والبدايع والروائع فقال الامام عمر بن عبد العزيز : « اني ارى في اموال مسجد

دمشق كثيرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما انا مستدرك منها فيرد الى بيت المال لكنت انزع الرخام والفسيفساء وانزع هذه السلاسل واعيد بدلها حبلاً « . فلما جاء وفد ملك الروم ودهش من محاسن الجامع ونقوشه قال عمر : « اني ارى مسجدكم هذا غيظاً على اعدائكم وترك ما هم به » .

وبعض الفسيفساء باقية في قبة الجامع الاقصى في القدس الشريف وفي كنيسة بيت لحم الكبرى وفي قصر الحمراء في الاندلس لان عبد الرحمن الاموي ملكها أخذ صناعات الروم الى قرطبة لتزبين مسجدها وهو من الاثقان بمكان سام . ومنها مخطط ( خارطة ) مادبا في فلسطين ونقوش قصر جرش . ومساجد القاهرة وفارس والهند وسورية وفلسطين .

ومما بقي من الفسيفساء بعض قطع في الجدار الشمالي من حرم الجامع الاموي في دمشق وبعضها غشي بالكلس . وانفس ما هو باق منها برونقه القديم ما ازدانت به قبة الملك الظاهر ببزس البندقداري من الداخل ومعظمها من الحجارة المذهبة الملونة البديعة الاشكال والهندام تمثل اشجاراً وابنية وأشكالاً هندسية ورفوماً رائعة .

قال المسيو غوستاف لي بون الفرنسي ( Gustave le bon ) في كتابه ( حضارة العرب ) ما مر به محصلاً : « فضل العرب النقوش القاشانية على الفسيفساء في اول عهدهم بالخراف . فاستعملوا نوعين من الفسيفساء . ( الاول ) ما كانوا يرصفون به ارض الغرف واسفل الجدران الرخامية والآجرية بالوان كثيرة وحجوم مختلفة . و ( الثاني ) ما كانوا يعشون به الجدران ولا سيما جدران المحاريب وهذا من الطرز البنظي الذي اقتبسه العرب عن صانعيه » اه .

وعلى عهد السلطان سليمان القانوني العثماني استعيض عن قطع الفسيفساء باقاشاني المحلي بالمناء . وبقيت هذه الصناعة في دمشق الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . وكتب المستشرق رينو الفرنسي ( Reinaud ) المتوفى سنة ١٨٦٧ م رسالة في ( فن الفسيفساء عند العرب ) ضمنها فوائد جديرة بالمطالعة .

وقد اندثرت هذه الصناعة في سورية واستعيض عنها بالفسيفساء المعدنية او الخشبية المعروفة بالتطعيم والترصيع . وهي مشهورة بتفنن فيها صانعوها .

### الترصيع او التنزيل في المعدن والخشب

روي المؤرخ هيرودوتوس ان مخترع هذه الصناعة غلوسهوس من ساقص وقيل اصلها من الموصل انتقلت الى سورية لكثرة نحاسها القديم واشتهرت بها دمشق . حتى اوصلها دمشقيون الى اقصى درجة من الكمال .

وصناعة الترصيع او التنزيل هي نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر واسمها الافرننجي (Damasquiné) والايطالي (Damaschina) الى يومنا . وهي نسبة الى دمشق لانهم اخذوها منها لتزيين ادواتهم واوانيهم واسلحتهم . وطريقة عملها : ان تحفر اثلام عميقة او اخاديد في المعادن ثم تحشى باسلاك ذهبية او فضية وهذا انحر انواع الترصيع وأجودها .

و يوجد ترصيع آخر بسيط يكون سطحياً اذ يحمي المعدن الى ان يزرق ثم تحفر فيه خطوط دقيقة بسكين ويرسم الشكل المطلوب بمنقش حاد يعرف بقلم الحفر ثم يمد خيط ذهبي او فضي ويثبت في الثلم باعثناء بألة نحاسية . واما النقش فيتم بمنقش حاد يحفر اشكالاً هندسية ورسوماً وصوراً تبقى فارغة الاثلام ومعظمه على النحاس

وكانت صناعة النحاس والترصيع بالغة حد الاتقان في زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري في تضاعيف القرن السابع للهجرة والرابع عشر للميلاد فنسبت اليه وقيل لها ( الصناعة الظاهرية ) وفي متحفنا العربي الدمشقي قنديلان عليها تاريخ سنة ٧٢٥ هـ ( ١٣٢٤ م ) من هذا النوع البديع مع الاغطية المحرمة المعروفة ( بكسر جفت ) ومع الزجاج الذي يستصيح به وكلها من الصناعات الدمشقية المنقنة .

ولقد وصف المسيو بريس دافن ( Prisse d'Avennes ) الفرنسي في كتابه ( الفن العربي ) الذي مر ذكره بعض ادوات من هذه الصناعات مثل كاسات الصفر اي النحاس الاصفر وآنية الشبه اي البرونز المغشاة بالنقوش الرائعة والكتابات العربية . وقال : ان أسراً خاصة كانت هذه الصناعات منحصرة بها فننقن عملها للخلفاء والسلاطين والامراء في دمشق ومصر والموصل . وكانوا يصنعون الاباريق والفسوس والاقسداح والمصابيح مزينة بالرسوم واوراق الشجر والدوائر الهندسية

المتشابكة التي يسميها الافرنج باسم ( الصناعة الدمشقية ) اي ديماسكينه ٠٠٠ وقال انهم كانوا يحفرون اسماءهم على صناعاتهم في القرن الثالث عشر للميلاد ٠٠٠ ونقلت هذه الصناعة الى ايطالية في القرون المتوسطة .

وذكر ترصيع الاواني بخيوط ذهبية وفضية وتغشية الخشب البسيط بخشب نفيس كالجوز وغيره مما يعرف لعهدنا « بالتلبيس » او « التفشية » عند ارباب هذه الصناعات .

ثم قال : ولقد رحلت أسر دمشقية الى ايطالية وتديرت بيزه وفلورنسه وجنوى والبنديقية . واشتهرت فيها معاملها حتى تفوقت بها على معامل بغداد وصقلية ( Sicili ) . الى ان قال : ان اتخاذ تلك الاكواب المنقوشة في الخفلات كان للتنافس بهذه الصناعة الرائعة ٠٠٠ ولكنه انتقد الكتابات المتشابكة التي كانت كلها ادعية لا يمكن حل الغازها « انتهى قول دافن .

ومن الآثار الباقية من هذه الصناعة الدمشقية ما في كاتدرائية بايو ( Bayeux ) وهو قنديل مرصع ومنزل بالفضة . وعلى قبر السلطان بيبرس الثاني قنديل شبيهي اي برونزي مذهب مزين وهو بغاية الاتقان عمله احد خاصة ذلك السلطان تذكراً له . وفي بعض الجماع الصناعية في اوربة جام من الشبه « البرونز » الدمشقي المرصع بديع الصنع والنقش .

وبما ان هذه الصناعة تعلق بالنحاس ايضاً رأيت ان اقول كلمة في تعديسه من مناجم كثيرة حول دمشق . منها مدينة كلشيس او خلقيس وهو اسم يوناني بمعنى مدينة النحاس وتسمى اليوم « عنجر » في اول وادي الحرير المؤدي الى مدينة دمشق هذه بطريق الشام القديم وقرب عنجر قرية « جرن النحاس » . وكذلك في محال أخرى آثار معادن نحاسية عدت قديماً .

وفي دمشق سوق النحاسين المسمى قديماً ( البريص ) التي ربما كانت تحريف ( باراديسوس ) اي الفردوس . ولعل اسم برزه منها ايضاً . وتوجد اسماء أسر كثيرة منسوبة اليه منها بيت النحاس على اختلاف مذاهبها ومواطنها واصولها . ومما رواه المؤرخون : ان علي بن عريف النحاسين الدمشقي طنج ادوية مع

النفط في قدور من النحاس حتى صارت كأنها حمرة نار وخرّب بها الابراج التي صنعها الصليبون من خشب وحديد مغطاة بجلود مطلية بالخل حتى لا تنفذها النيران . وكان كل منها يسع نحو خمسمائة من الزراقين والنفاطين وذلك في حصار عكاء سنة (٥٨٦ هـ ١١٩٠ م) .

وكان النحاس يصنع سكباً او طرقاً وتعمل منه ادوات كثيرة لا يزال بعضها في المتاحف والبيوت والجوامع والكنائس . وفي متحفنا الدمشقي امثلة كثيرة منها . ومن معامل النحاس ما اكتشف في بيت سكر في محلة باب توما عند ترميمه اخيراً .

### نقش البيوت والجدران

هي صناعة شرقية قديمة اشتهر بها الفرس والبرزنطيون فشاعت في مصر وسورية ونقلها السلجوقيون الى بلاد أخرى . ولكن الدمشقيين تفوقوا فيها فزخرفوا بيوتهم باصباغ والوان ورسوم دقيقة بدیعة واشتهر بها الاندلسيون في قصورهم المشهورة . وكانت تحتاج الى الذهب فاشتغلت به أسرة خاصة في دمشق تعرف ببني الذهبي الى يومنا لانها كانت تُنجز بالذهب وانواعه من محلول ومسحوق مما يصلح للدهان والنقش لتزيين الجدران والاشخاب بالنقوش والكتابات وكانت صنعتهم ايضاً التذهيب به .

ولقد فقدت هذه الصناعة منذ أقل من قرن ولها بقية صالحة عندنا وعرف بعض الذين مارسوها بالقاب الدهان والنقاش والمراش والذهبي والرسام والمصور ومن بقاياها الماثلة لنا اليوم ما في الدار العظيمة في البزورية . وغرفة حماة العظيمة ايضاً . وفي بعض البيوت مثل الغرفة التي يبدا آل مردم بك قرب سوق الحميدية في زقاق الفخر الرازي المسماة ( خركاه ) وهي لفظة فارسية بمعنى المثلثة سميت بذلك لتثلثها ومثل بيت القوتلي وشمايا الاسرائيلي وبيوت أخرى معروفة وبعضها مرت عليه ثلاثة قرون وهي لا تزال برونقها وروائها الجميل . ومن هذا النوع نقوش سقف الجامع الاموي الحديثة بعد تجديده على اثر احراقه الاخير فبعضها قديم الطراز

والآخر عجمية واحدها ما في موقف ( محطة ) السكة الحجازية في آخر شارع جمال  
باشا الى جنوبي المرجة الغربي .

ومما يتعلق بهذه الصناعة التجارة لعمل الابواب والنوافذ والخزائن وما شاكلها  
كما يدهن وينقش ويحصى بزخرف نفيس . ولقد اشتهر بها كثيرون فنسبوا اليها  
وقيل لهم بنو النجار وهم من طوائف واصول مختلفة حتى لا يكون احدها من انساب  
الآخر .

واشتهر منهم بدر الدين بن حسام الدين التبريزي المعروف بالحسن الجوهري  
الذي صنع القاري الثلاث العظيمة التي فوق محراب الجامع الاموي الكبير بالمقصورة .  
كان في زمن السلطان سليم العثماني الفاتح ومن استقبله عند دخوله هذه الحاضرة .  
وهو من سلالة المنلا محمد الشهير بشيخ زاده الذي جاء من جهة اصفهان الى دمشق  
سنة ( ٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م ) وحمل معه جواهر ومعادن فلقب بالجوهري وبقي الاسم  
منعاقباً في سلالة كما ذكر الشيخ حسن البوريني في تاريخه من مخطوطات خزانه مجمعنا  
العلمي الدمشقي .

ونشأ بين المسيحيين أسرة بني النجار واصلها من بني البلدي فنسبت الى صناعتها  
النفيسة واشتهر منها وهبه النجار والد المرحوم صفرونيوس مطران طرابلس للروم  
الارثوذكس وله اعمال في القواطع ( الايقونسطاسات ) الكنسية منها قاطع  
كاتدرائية الروم الارثوذكس في بيروت وهو من خشب بديع ونقش رائع وتلوين  
ياخذ بمجامع القلوب وهندسة انيقة وقد كتب عليه اسمه بتاريخ سنة ١٧٨٣ م .  
ومثل ذلك منابر وقواطع كثيرة في كنائس لبنان ودمشق وسورية وفلسطين ومصر  
ونحوها .

ولا تزال بعض الدور الدمشقية عند جميع الطوائف من هذه الصناعات الانيقة  
التي اهملت منذ نصف قرن . وفي متحفنا اشياء منها . ومن ذلك التعشبة بصفايح الجوز  
الخشبية وللمدشقيين ثمنينات بديعة فيه وفي نقوشه .

\*\*\*

## النسيج او الحياكة

اشتهرت دمشق قديماً بالنسيج الى ان فتحها العرب فحاكوا اقمشتهم على طراز ساساني فارسي اوقبطي او رومي فكانت ترقم عليه صور الطرائد والوقائع والفرسان والقناص وما يتعلق بها و يضاف اليها من الرسوم البديعة والرقوم الجميلة . واشتهرت بلاد فارس بعد ذلك بالاطلس والقטיפفة ( المخمل ) والدباج الحريري الموشى فصار يرقم بصور الاثمار والازهار والحقول المدبجة بالالوان والحيوانات السارحة في الغابات والحدايق وكلها من المشجر الغريب الهندسة والاشتباك فسماه الايطاليون (Damasco) لانهم اول من تناولوه عن الدمشقيين فسموه باسمهم ( الدمشقي ) ومنه اسمه الافرنسي (Damas) والانكليزي (Damask) .

اما كلمة ( ديماس ) للنسيج القطني المعروف فارجح انها مأخوذة من هذه الكلمة . او انها يونانية من (انديما) بمعنى كساء او ثوب . واول من اخذها الى اوربة الهولنديون ونقلت الى انكلترة سنة ١٥٧٢ م من هولندة .

واري ان كلمة دمشق ودمقاس ودمقاس التي أطلقت على الحرير المنسوج ربما كانت محرفة عن كلمة دمشق هذه . وقيل انها معرب (دمسه) اي الحرير الابيض بالفارسية . ومن الالفاظ التي قال البرنقاليون انها عربية الاصل (Adereçar) وهي تقرب من كلمة طرز او درز ومعناها عندهم الوشي .

ولقد اشتهر الوشي والدباج في زمن الدولة الاموية وثفاخر به ملوكهم حتى روي انه كان عند هشام بن عبد الملك اثنا عشر الف قميص موشي واتخذ معاوية بن ابي سفيان ( دار الطراز )<sup>(١)</sup> في قصره المعروف بالخضراء<sup>(٢)</sup> لنسيج الحرير

(١) كان (ديوان الطراز) و (صاحب الطراز) المسميات بزمن الفاطميين (دار الكسوة) و (صاحب الكسوة) من شعار الملوك لعمل اثواب الخلفاء .

(٢) لا يزال محل هذا القصر اي دار الخلفاء الامويين في جنوبي الجامع الاموي الى الشرق يعرف بمصبغة الخضراء الي يومنا وكان فسيحاً تحديق به ابنة الامويين التي ادخل بعضها في دار اسعد باشا العظم عند تشييدها .



المطرز ووشى الثياب الملوكية المذهبة وبقيت دكاكين البزازين الى زمن ابن بطوطة وما بعده فذكرها في شوارع دمشق . وكانت على عهد الصليبيين حافلة بالانوال التي تنسج الحرير وانواعه البديعة . ولقد ذكر الشريف الادريسي رواجه في البلدان البعيدة في ايامه وما كان له من المقام الرفيع والمحاسن الرائعة .

ووصف بريس دافن الافرنسي الانف ذكره هذه الصناعة في كتابه ( الفن العربي ) بما ملخصه معرباً فقال : ان النسيج الدمشقي باقية آثار روايته وبدائع زخرفه في المتاحف فصنع اولاً على اطرزة مختلفة مزركشاً بصور الطرائد والحروب ولكن الفرس تطرقوا الى رسم الاشخاص فيه اه .

وذكر كثير من مؤرخي العرب وكتبة التراجم ما كان للنسيج من المنزلة . فقالوا : ان العناية اسم قماش حريري نسب اليه بعض العلماء لاشتغالهم به وكذلك الحرير فقيل العناية والحريري . وذكروا ان بني الفلاقنسي في دمشق منسوبون الى بلدة فلاقنس من نواحي حمص اذ جاء جدهم السيد محمود منها الى محلة القيمرية بنسج الالاجه واشتهرت فيها صنعته ونشأ من حفده السيد احمد الكاتب الشاعر في القرن الثاني عشر للهجرة . واشتهر كثير من العلماء بنسج هذا القماش ومنهم احد الامراء الخرافشه في دمشق فلقب بالحريري .

وكانت الاسر الكثيرة تنسب الى صناعات النسيج وما يتعلق بها مثل الفتال والرباط والطباع والرسام والمطرز والطرز والعقصاد والغزال والغزولي والقطان والحلاج والكتابة والحائك والكتاني والمنير ومسديه والخوام والطوا . وبعضها ينسب الى آلات النسيج مثل النويلائي والمكوكجي والمشاطي .

ولقد جلب معهم كثير من الوزراء العثمانيين الذين تولوا دمشق خياطهم وخدمتهم وارباب بعض الصناعات التي كانوا يحتاجون اليها وتديروا دمشق ونشروا فيها صناعات جديدة تركية او وطنية نسب بعضهم اليها مثل الترزبي والفرا والفرايه وكركر وكركجي والزنانيري والكبراني .

ومما يتعلق بالنسج الصباغة ولقد اشتهرت بها هذه الحاضرة منذ القديم ومن اشهر مصابغها مصبغة الخضرا محل دار معاوية الاموي كما سبق . والى الصباغة نسب بنو

الصباغ . ومنها القصاره واليهما نسب بنو القصار . ومنها طبع القماش او الطباعة واليهما نسب بنو الطباع والبصجي .  
ومما ضربت به هذه الصناعة سبي تيمورلنك لكثير من نساجيها ومع ذلك فقد بقيت الى عهد قريب بغاية الائتقان ولطالما كانت شائعة في انحاء سورية حتى ان كثيراً من تماثيل التدمريات في دار التحف العربية عندنا نرى في ايديها المغازل والغزل وهما شارة هذه الصناعة عند النساء الشرقيات .

### الزجاج

نقلت هذه الصناعة من صور الفينيقية الى دمشق الارامية فأنشئت فيها المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية ولاسيما في زمن الصليبيين ولقد قال ابن بطوطة لما نزل دمشق مانصه : « وفيها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتابين وصناع اواني الزجاج العجيبة » . وقال الرحالة بوجبومي سنة ١٣٤٦ م : « انه رأى معامل الزجاج في دمشق تشتغل على طول الجامع الاموي » .  
ومن ذلك الزجاج الملون المتخذ للقاري وله بقايا في بعض الدور القديمة . ونقلت هذه الصناعة الى الاندلس مع الدمشقيين واشتهرت بها مرسية ومالقة والمرية .  
ومن اشهر في دمشق من الزجاجين ابو اسحق ابراهيم بن محمد النحوي الملقب بالزجاج لانه كان في اول امره يخرط الزجاج فنسب اليه واشتهر بالادب وتوفي سنة ٣١٦ هـ ولما صحبه ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق النحوي البغدادي نسب اليه لا الى الصناعة فقبل له ( الزجاجي ) فتأمل الفرق في التسمية .  
ولقد ضعف شأن هذه الصناعة فجددت منذ نحو اربعة قرون بعض التجديد اذ جاء نفر من ( بني الدالي ) من خليل الرحمن في فلسطين المشهورة بزجاجها فجددوا معالم الصناعة وهم المعروفون اليوم باسم بني ( القزاز على لغة العامة في لفظ الزجاج ) في محلة الشاغور .

### البناء

اشتهر الشرقيون بالبناء وهندسته فتميزت كل أمة فيه بمزايا خاصة منها الطراز

الساساني واليوناني باشكاله الثلاثة الدوري واليوني والكورثي . ثم وجد في بزنييه الشكل البزني . واخذ العرب طرازاً من الساساني والبزني اشتهروا به فجاءت ابنتهم بينهما وتميزت القناطر العربية بشكل نصف قوسين والقوطية بنصف دائرة . وعرف العرب بعقودهم المستطيلة وتزيين القباب باشكال هندسية مجسمة فبنوا قبابهم مئمة الاضلاع ثم مربعها ثم ذات ست عشرة ضلعاً فانقلوا تدريجاً من المربع الى المدور وكانوا لا يخفون بالتزيين الخارجي ثم مالوا اليه بعد زمن ومن مميزات الشكل ( المقرنص ) مثل ما هو فوق مدخل الظاهرية في دمشق وغيرها من الابنية القديمة . واما الكتابات على جدران الابنية فكانت بالكوفي والنسخي والمشبك على ابواب المدينة والسور والقلعة وابراجها والابنية الأخرى كالمساجد والمدارس فمنها ما هو آيات قرآنية كريمة ومنه وصف اوقاف كانت للجوامع والمدارس فنقشت اسمائها واما كتبها ومقاديرها لتحفظ من عبث الايدي بها . وذكر ابن طولون الصالح في ( رسالة المزة ) المخطوطة : انه عندما يبطل الحاكم طرح ضريبة على الناس ينقش ذلك في الجامع والقلعة ودار السعادة اه . وكانت تنقش اسماء البانين ايضاً والمهندسين ونحو ذلك وقد جمعت كثيراً من هذه الكتابات لانشرها . وقد نشر كثير منها في كتب الافرنج ورحلاتهم ولا سيما بالالمانية ولكنها لا تخلو من مزلق ومغامز ولهم في هندسة ابنتهم اشكال كثيرة مختلفة (١) .

ولما امتزج السوريون بالعثمانيين اقتبسوا شيئاً من طرازهم . وشاع في اوربة الطراز القوطي مقنّباً من الطراز العربي في الاندلس .

ومن أعجب الهندسة القديمة هيكل رمون ( محل الجامع الاموي الآن ) بزمن الاراميين ثم الرومانيين واسواق دمشق بزمن الرومانيين والكنيسة المريمية بزمن اليونانيين والجامع الاموي ودور الامو بين والمدارس والقلعة وبعض القصور بزمن العرب وعلى بعضها اسماء مهندسيها مثل ابراهيم بن غنائم المهندس على باب الظاهرية وهو دمشقي . وكان لبعض ملوك دمشق شعار ( رنك ) خاص مثل ( صورة الاسد )

(١) بين المسيوغايه في كتابه ( صناعات العرب ) اختلاف هذه الاشكال بين

دمشق وبغداد وحلب والبصرة وغيرها .

للملك الظاهر بيبرس البندقداري • وزهرة الزنبق بين اسدين لنور الدين الشهيد وغير ذلك مما نواه في خارج الابنية الباقية وفي داخلها • والآخر ذهب بندهاب المباني منذ عهد العباسيين الى ايامنا بالتخريب والاحراق والزلازل والاهمال •

وكان نحت التماثيل معروفاً لان مؤرخي الروم ذكروا تماثيل كثيرة بديعة النحت والرواء في قصور الخلفاء بدمشق والعراق ومصر والاندلس ولقد اشتهر الدمشقيون بنحت الحجارة ونقشها وتصويرها ولم سوق تدعى ( سوق النحاتين ) الى عهدنا •

ومن بديع الابنية المتأخرة طراز التكتيتين السلمية والسليمانية وفيهما القاشاني النفيس والنقوش الرائعة • وكذلك ابنية سنان باشا ومراد باشا من حكام هذه المدينة ومنها قبة باب البريد • والقاعة المنجكية التي وصفها الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط في خزنة مجمعنا العلمي العربي الدمشقي بقوله : انها ليس لها نظير بناها امير الامراء محمد المنجكي في دارهم لصيق الجامع الاموي من الشرق •

وفي الصالحية ( بسفح جبل قاسيون ) في باب السوق المواجهة لجامع الثابتية محلة ( بين المدارس ) وعلى ابوابها نقوش عربية بالحجر ذات رونق واثقاف وداخلها غرفتان الى الشرق وفيهما مدفن • وقبة محصنة بنقوش رائعة • واما التي على يسار الداخل فهي بديعة النقوش والكتابات محصنة الجدران قد اقتلع من جدرانها كثير من قطع القاشاني الثمينة ونقوشها على علو نحو مترين وهي من أهم آثار دمشق الداخلية في نحو سنة ( ٨٠٠ هـ ١٣٩٧ م ) وقد زرتها مع رصفائي اعضاء المجمع العلمي اول مرة ( في شهر حزيران سنة ١٩١٩ م ) وحرصنا الحكومة على تنظيفها وحفظها لتكون مباءة للسياح وروام الآثار • ومن تلك المباني دار اسعد باشا العظم قرب الدار الخضراء التي كانت قصر الخلفاء الامويين وكان الاز فيها اي رئيس البنائين والعملة معظمهم من مسيحيي دمشق • قال الشيخ احمد البديري الملاق في تاريخه المخطوط ما محصله بلغته الاصلية : جاء محصل من قبل السلطان لتحصيل المال من سليمان باشا العظم • فأرسل خلف المعامرية ( اي البنائين ) الذين عمروا السرايا وكانوا نصارى وكان معلم نصراني يقال له ابن سياج فأمر القبيجي اي المحصل بتعديبهم ٠٠٠ الخ وكان المعلم يطلق على رئيس البنائين • وفي ذيل القرماني من

مخطوطات خزانة مجمعنا : ان بانيه انفق عليه اربعمائة كيس والكيس خمسمائة غرش اجرة العمال . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من بساينه وارزاقه . وبقى العمال يشغلون في دار الحریم سنين وما كملت . وعدد العمال من غير ضبط ثمانمائة . وحاصل الامر نقلوا عن ساح في البلاد ورأى ابنتها ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراية الملك المعظم اه .

واخبرني احد المعمرين من بضع عشرة سنة اخباراً غريبة عن بناء هذه الدار وما جرى للبنائين الحلبين الذين اسنقدوا لمساعدة الدمشقيين وغلبة الدمشقيين اياهم بفن الهندسة البنائية . . . . وان اجرة المعلم اليومية كانت نحو عشرة قروش واجرة الفاعل نحو ثلاثة . وهذه الدار جامعة لاخر فنون الهندسة والصناعات الدمشقية فهي احسن مثال لها وعندني وصف لها قبل خرابها الاخير . وكذلك كانت القيسارية العظمية المعروفة ( بخان العظم ) .

ومن محاسن الابنية الدمشقية ايضا قاعة في زقاق الفخر الرازي من دور آل مردم بك الان بدیعة الهندسة والنقوش في السمك والجدران من نوع ( الخركاه ) اي المثلثة واصحابها لآل الكيلاني المشهورين في دمشق وحماه . الى كثير من امثلة البناء الدمشقي في بعض الدور الباقية على روتقها القديم واكثرها روم فنقد طرازه . وعندنا اسر باسم البناء والنحات والحفار والدهان والرسام والنقاش تدل على صناعات البناء وما يتعلق بها .

ومما يدخل في صناعة البناء هندسة المياه وتوزيعها في الاقنية الخلوة والمالحة الى الطوالع ( اي محل توزيع مياه القنوات ) والبيوت والمجاري بطرق فنية ولها مخططات ( خارتات ) لمعرفة توزيعها واصلاحها . ولقد ذكر التاج السبكي في كتابه ( معيد النعم ) شروط صاحبها . والذي يقسمها يعرف بالفرضي واشتهرت اخيراً اسرة آل الشطي الدمشقية بتقسيمها وعندهم اصول توزيعها والذين يتعاطون امرها يقال لهم القياطي ( واراها تحريف القناياتي ) والشاوي .

## الوراقة وما يتعلق بها

ان صناعة الورق تناولها العرب عن الفرس كما يظهر من اسماء كثير منها مثل الكاغد والمهرق . فعرفوها اولاً واتخذوا الورق من الحرير ثم من القطن وانشأوا له المعامل الكبيرة في هذه المدينة وعنها نقلت الى الاندلس واوربه . ولقد كان عند المؤلفين وراقون وهم الذين يستحضرون الورق و يصفونه بمصاقل من العاج ويقطعونها اذا لم يتخذوه مدرجات صفحات صفحات ثم يعدونه للنسخ ويصنعون الحبر بالوانه الثابتة الجميلة ولا سيما الاحمر والاسود والصفدي وهو اكثرها شيوعاً وقد يكتبون بالاصفر الزعفراني . و يبرون الاقلام ويرسمون النقوش فينسخون الكتب بخطوط مختلفة اهمها النسخي وهو المعروف عند النصارى بالكنسي لأن كتب الكنائس تنسخ به ويجلدونها بانقان و يبيعونها . فالوراقون هم الكتبة اليوم . ولهم بهذه الصناعة اعمال بدیعة تدل على حسن ذوق ودقة تفنن وكثير من اعمالهم في دور الكتب ولا سيما الظاهرية .

ومن الكتب المؤلفة بهذا الفن ( نظم تدبير التسفير ) في صناعة الكتب اي تجليدها و ( عمدة الكتاب ) في صناعة الحبر والاقلام والخط للامير المعز بن باديس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وقيل انه الف باسمه فقط و ( رسالة في صناعة الاحبار ) و ( النجوم الشارقات في عمل الليقات ) لمحمد بن ابي الخير الحسيني و ( رسالة في الخط وبري الاقلام ) لابن الصائغ و ( الاقلام القديمة ) لابن الدالي وصف فيه مائة وخمسين قلماً اي نوعاً من الخط و ( شرح ابن وحيد على منظومة ابن البواب ) في صناعة الخط و ( مقدمة في صناعة الخط ) لابي علي بن مقلة مخرومة الآخر و ( ارجوزة لمحمد بن حسن السنجاري ) في الخط ايضاً وكلها في الخزنة التيمورية في القاهرة عدا رسائل أخرى فيها وفي غيرها ومنها ( تنويق النطاقه في علم الوراقه ) لابن مسك السخاوي من اهل القرن الحادي عشر للهجرة .

ووصف مؤرخو اليونان الورق الدمشقي القطني المعروف عند الافرنج باسم ( كرتاداماسينا Carta Damascena ) وانتقلت صناعته الى شاطبة وبلنسية وطليلة

في الاندلس ومن معاملها المشهورة انتقلت الى اوربة كما ذكر سيديليو . ووصف ابن بطوطة الرحالة سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد في دمشق .

وكان اسرى الصليبيين يرقى بهم الى دمشق فيشتغلون في معاملها الصناعية . وقد نشرت جريدة الف باء بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م . ان جد الجنرال غوابه الافرنسي نقل الصناعة من دمشق الى فرنسه في ذلك العهد على اثر اطلاقه من اسره في الحروب الصليبية سنة ١١٤٧ م واسس لها معامل في بلاده ووقفن الافرنسيون بالورق .

وسنة ١٣٣٩ م احترق في شرقي الجامع الاموي سوق اللبادين وسوق الوراقين . وقال ابن طولون الصالح مؤرخ دمشق في رسالته في ( المزه ) ما نصه : « وكانت سوق الكتب في دمشق تحت شبك المدرسة الفاضلية بالكلاسة » اه وقوله يدل على ان اسواق الوراقية كانت حول الجامع الكبير .

ولقد اشتهرت دمشق بدور كتبها الكثيرة ومخطوطاتها النفيسة وخطاطيها المئتمنين ووراقيها البارعين ولن تزال اثار الوراقية عندنا ولا سيما في كتب الظاهرية فضلاً عما نقل منها الى مكاتب اوربة والاسنانة ومصر .

ومن اشتهر من الخطاطين المتأخرين المقدسيون ذكرهم الشيخ حسن البوريني في تاريخه بقوله : « منهم الشيخ ابراهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتغالى بتمتها الناس لاسيما اهل دمشق وذلك لحسن الخط ودقة الضبط وقد كتب منها ما يزيد على مائة مصحف . ومنهم الشيخ خليل وعندى مصحف مسجع كتبه بخطه سنة ٨٠٩ هـ » انتهى قول البوريني .

ومن عرفناهم من الخطاطين بين المسلمين بنو الحموي وفي مكتبتي نسخة من المقامات الحريزية بديعة الخط والضبط والنقش والتذهيب صغيرة الحجم كتبها احمد بن محمد بن عبد الله الحموي الدمشقي سنة ١١٤٨ ( ١٧٣٥ م ) .

ومن الخطاطين المسيحيين في دمشق بنو عطايا الاطباء وفي الظاهرية كتاب ( تذكرة داود البصير ) نسخة ميخائيل بن يوحنا بن عطايا الطبيب الشامي سنة ١٠٨٢ هـ

في ٨٨٠ صفحة بقطع نصف كبير . ومنهم بنو صروف وجبارة واليازجي والميداني وغيرهم ولهم مخطوطات بديعة في خزائن مختلفة احرزت بعضها .

### الصناعات الأخر

وهناك صناعات احتاج في وصفها الى مجلد كبير فاجتزئ بالاشارة اليها :  
 منها ( السباق والفروسية والمراحة والمسايفه ) = اشتهرت هذه الالعب منذ القديم واولع بها الامويون حتى ان هشام بن عبد الملك كان في مربطه اربعة آلاف فرس اشتهر كثير منها بالسباق الذي كان يقوم في الميدان الباقي اسمه الى عهدنا في الغرب الجنوبي من مدينة دمشق ومن خيوله المشهورة بالسباق ( الزائد ) وذكر المسعودي : « ان رصافة الشام كانت مضمار السباق وكانوا يخرجون الى الحلبة باوقات معينة ويجيزون السابق ولا سيما في زمن الخليفة معاوية ابن ابي سفيان » وما لطف قول المعري في السباق :

اذا وفي الانسان لم يخش حادثاً وان قيل هجم على الحرب اهوج  
 وان بلغ المقدار لم يخج ساجج ولوانه في كبة<sup>(١)</sup> الخيل اعوج<sup>(٢)</sup>  
 فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة فافضل ما نلت اليسير المروج

واشتهروا بترويض الخيول والفروسية وعمل السروج وما يتعلق بها وصانعها السراج والعامية نقول السروجي والدكيجي لما تحت السرج . وفي التواريخ أمثلة كثيرة تدل على عنايتهم بها . وكذلك التمرن بفنون الحرب والمسايفة ( اللعب بالسيف ) والمراحة ( اللعب بالرمح ) والمثاقفة ( لعب الحكيم ) . وما يحضرن في من ذلك ما رواه الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط وهو : « ان الحافظ الثاني امر جميع العسكر الدمشقي بالخروج الى الميدان الاخضر في الجانب الغربي منها وان يحمل كل منهم بندقية المكحلة لانها سلاح ممالك آل عثمان . وان يرموا البندق على الغرض

(١) الكبة بالضم جماعة من الخيل . والكبة بالفتح افلات الخيل على المقوس  
 ( خيط السباق ) للجري او للحملة والصدمة بين الخيلين (٢) هو الفرس المطهّم المعروف عندنا بالكحيلان .



فأحرز الجائزة كنعان بلو كباشي الجر كسي وهي عشرة دنانير من الذهب . فلما تم ضرب البندق امر بلعب الخيل في الميدان فاصطفت الخيل فريقين فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير ملء كفه دراهم « اه .

وقال احمد البديري الخلاق في وصف احدى الحفلات : « وركب أهل الملاعب والاغوات والشربجية والا كابر والانكشارية ومثلوا شجعان العرب بملاعبهم وحرركاتهم » وكذلك وصف شمس الدين بن طولون الصالحى مثل هذه الثارين والالعب مفصلاً في الجري على الخيل ورمي النشاب من على ظهورها وما اشبه ذلك <sup>(١)</sup> ، والاولجاقى من يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة عند العرب .

ومنها (عمل الآلات الفلكية) = مثل المزاويل اى الساعات الشمسية والساعات الاخرى والارباع الفلكية والاسطرلابات ونحوها . فاشتهرت دمشق بساعاتها وبسكوماتها وبقيّة هذه الآلات التي صنعها كثير من سكانها . ومن ساعاتها القديمة واحدة عليها عصافير من نحاس ووجه حية وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة ثم تجدد تلك الحركات على هذا النمط كلما تجددت الاوقات .

ومن تلك الساعات ما وصفه الرحالة والمؤرخون ولا يزال (باب الساعات) في الجامع او باب الزيادة دالاً على ذلك وهو الذي ذكر ابن بطوطة انه عن يمين الخارج من باب جيرون محدثاً عنها وكذلك ابن جبير فانه وصفها بدقة . وذكر ابن ابي اصيبعة : ان مهذب الدين احمد بن الحاصب الدمشقي كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع في دمشق . وقال : ان فخر الدين الساعاتي هو الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق وفي متحفنا بعض آلات منها صنعت في دمشق . الى غير ذلك من الاعمال الهندسية . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة (كتاب علم الساعات والعمل بها) وهو في الساعات المائية وفيه رسوم ألفه في القرن السادس للهجرة الشيخ رضوان بن محمد الخراساني وعندي مؤلفات فيها .

(١) راجع هذا الوصف في مجلة مجمعنا العلمي العربي « ٢ : ١٤٩ » .

ومنها (صك النقود) = وهو قديم وعرفه العرب في زمن الامويين . وذكر ابن عساکر ان رجلاً اسمه دواس رثى يده التي قطعت لضربه دراهم زغلاً . وآخر ما عرفنا من امر صك النقود ما رواه احمد البديري انه سنة ١١٥٧ هـ بطلت الفلوس الرملية التي كانت ضرب الشام . وقال في محل آخر : ان كل ٢١ فلساً رملياً بمصرية . وذكر ايضاً تشهير بعض الذين زيفوا الفلوس الرملية .

ومن النقود المضروبة في دمشق ما هو محفوظ في متحفنا العربي : مثل قطعة فضية باسم المعتصم بن هرون الرشيد صكت سنة ٢٢٦ هـ وقطع فضية ونحاسية مختلفة منها ما صك باسم محمود بن زنكي سنة ٥٧٠ هـ وصلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٨٦ هـ والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محمود زنكي سنة ٥٩٦ هـ وقطع أخرى كثيرة في زمن الدولة الاتابكية وغيرها .

ومنها (الغناء والموسيقى والضرب على الآلات) = لقد عرفت هذه الفنون منذ القديم في دمشق كما تذكر التواريخ اخبارها من ذلك ما ذكره الكتيبي في (فوات الوفيات) من ان ابن المسجف الدمشقي قال يصف (الكمال) وضربه على القانون :

لو انت أبصرت الكمال وجسه أوتار قانون له في المجلس  
لرأيت مفتاح السرور بكفه - اليسرى وفي اليمنى حياة الانفس

وقال الشيخ حسن البوريني في تاريخه : انه حضر بعض المجالس وكان فيها عواد يقال له (سالم) وله عبد اسمه (سرور) يضرب بالدف ورووي عن جمال الدين ابن فرفور انه كان موسيقياً خطاطاً . وقال عن نسبه عبد الرحمن بن فرفور : انه كان عارفاً بالنغمة باصطلاح الموسيقى حتى انه كان يخلو بنفسه ويدفع عنه الوحشة بصوته الرخيم .

ومنها (استنطار العطور) = وهي صناعة قديمة لكثرة ما في دمشق وغوطتها من الياحيز والنباتات . ولقد وصف شيخ الربوة الدمشقي<sup>(١)</sup> : طرق استنطارها في قرية (المزقة) قرب دمشق حيث كثرت معاملها وصور المقاطر (الكركات) والانايق والقرعات . وأطال في ذكر طرق الاستنطار بها في عصره اي القرن

(١) راجع (نخبة الدهر) طبع اوربة صفحة ١٩٤ .

الثامن للهجرة ووصف الرياحين وانواعها . ومما قاله عنها : « ويحمل الورد المستخرج بالملزة الى سائر البلاد الجنوبية كالبحر وما وراء ذلك . ويسمى هناك الزهر . ومما ارخوه : انه كان لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى ( شور الزهر ) طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم . وذلك سنة خمس وستين وسبعمائة وهذا لم يسمع بمثله » اه .

ومن اسماء المشتغلين بهذه الصناعة الى الآن بنو الزهر او الزهوراتي والعطري اما بائع العطور والمتجر بها فيسمى العطار .

قلت هذا وصف اهم صناعات دمشق وقد بقيت هناك صناعات آخر كإدارة المطاحن المائية والحمامات والمدارس والمستشفيات والتعليم والجراحة والطب والكحالة والصيدلة والدباغة وعمل الادوات والحلويات . الخ مما يملأ مجلدات فاجتزأت عن وصفه الآن لضيق المقام .

ولا تزال اسماء أسر كثيرة تدل على هذه الصناعات الى يومنا لانها اشتهرت بها مثل الطحان والبرك والحمامي والمدرس والمعلم والجراحي والحكيم والطبيب والكحال والصيدلي والدباغ والحلواني والسكري او السكاكري . وفي كثير من الصناعات مؤلفات ورسائل احرزت بعضها لا محل الآن لوصفها .

### الختمام

لقد راجت مصنوعات دمشق كما رأيت في مطاوي هذا البحث رواجاً غريباً وكانت دور الخلفاء الامويين مصانع لها وكذلك دور من جاء بعدهم من الملوك والامراء والاعيان الى ان ضربت الصناعات بالكساد فكثرت عليها الضرائب ونافستها المدت الاخرى ولا سيما تدمر وصور وحلب . وانتقل صناعتها الى بلاد اخرى وسبي الحاذقون منهم الى اقطار بعيدة . وتشتت شمل الاسر في النكبات الطبيعية كالزلازل . وفي الحروب الداخلية . والمصادرات والمهاجرة والتجارة الخ . وبالتالي كان انحصار بعضها في أسر خاصة وكنتم اسرارها بين عمال معروفين

غير متجاوزة الى غيرهم من اهم اسباب انقراضها كما كانت هذه الشؤون في القديم من اهم ذرائع ارتقائها .  
 فسبحان من يبدل الاحوال ولا يتبدل . على ان النهضة الحديثة في استعادة بعضها وانشاء معامل لها منذ نحو قرن قد بشرت باستئناف تجديدها .  
 وارجى ذلك البحث الى محاضرة ثانية في ( صناعات دمشق الحديثة ) ألقيا عليكم في فرصة قريبة وفيها التفصيل السكافي عن اصولها وطرق تجديدها وتحسينها . ولا سيما الشد الذي هو من اهم اسباب نجاحها . والسلام خير ختام .

عيسى بكندر  
 المؤلف



## صفحة من تاريخنا الاجتماعي<sup>(١)</sup>

أيها السادة !

موضوع محاضرتي اليوم ( صفحة من تاريخنا الاجتماعي ) . وقد أردت بقولي ( صفحة ) ان البحث فيها يقتصر على وصف حالتنا الاجتماعية في بعض أزمنة التاريخ اي في خلال السنة الواقعة بين ( ٢٥٠ ) و ( ٣٥٠ ) للهجرة اعني قبل الف سنة من وقتنا الحاضر .

و اردت بقولي ( تاريخنا ) أموراً وحوادث كانت تقع في بغداد بين رجال الطبقة العالية من وزراء وقضاة وعلماء واعيان .

اما قولي ( الاجتماعي ) بعد قولي تاريخنا فلاجل صرف الذهن من اول الأمر عن تاريخنا السياسي الذي انما يتضمن ذكر اخبار الملوك وقيام الدول والمنازعات حول العروش . وما يثور بسبب ذلك من الحروب .

وهنا موضع العتب على كتابنا او مؤرخينا العرب الذين كانوا اذا كتبوا في التاريخ شحنوا المجلدات بما ذكرنا من اخبار الحروب والملوك . حتى كأن الملوك هم البشر . واما الأمم فقطعان بقر .

فكتباب تاريخنا لم يصفوا لنا كيف كانت أصول الادارة في الدول الاسلامية ولا طرائق تأليف مجالس الحكم . وضبط الأمن . وجباية الاموال . ولا أنماط التربية والتعليم في المدارس . ولا طرز المعيشة العائلية والتدبير المنزلي . ولا طرُق المعاملات المالية وتوزيع الثروة واساليب التجارة والزراعة . ولا غير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية التي يتألف منها تاريخنا الاجتماعي .

(١) للاستاذ المغربي القاها في ردهة الجمع العلمي في ١٥ كانون الاول

وانكم لتعلمون ان هذه الابحاث والموضوعات هي المادة التي تُنألف منها كتب  
المطالعة ثم تُعطى الأحدث والطلاب فيدرسونها ويستفيدون منها عقلاً وتجربة .  
وان مكتبتنا العربية لفي حاجة الي أمثال هذه الكتب المفترغة في قالب كتب المطالعة  
الافرنجية المعروفة باسم ( Lecture ) .

ومن مواضع الاسف اننا نرى المتعلمين من شباننا ملين بالشؤون الاجتماعية عند  
الاوربيين وبسيرها في كل دور من أدوارهم التاريخية أكثر من معرفتهم ذلك عن  
أمتهم العربية :

فهم يعرفون ان اهل المملكة الفلانية الاوربية في عهد ملكها الفلاني في  
قرنها الرابع عشر مثلاً — كانوا يفعلون كذا . أو كانت عاداتهم كذا . او حالتهم  
العائلية او المعاشية كذا . بينما هم اذا سُئلوا عن الحالة الاجتماعية في أحد عصورنا  
التاريخية قالوا ان السلطة فيه كانت بيد الدولة الفلانية . أو الأسرة الفلانية .  
وقد جرى من الحروب في ذلك العصر كيت وكيت .

وليس هذا وحده كل ما يلزم من التاريخ لابنائنا وطلاب مدارسنا كالأينجي .  
وقد يستثنى من كتب التاريخ عندنا ما كتبه ابن خلدون في مقدمته . والمقر يزي  
في خططه . والقلقشندي في كتابه ( صبح الاعشى ) . وعبد اللطيف البغدادي فيما  
وصف من الآثار . ومواطن الاعتبار .

بل ما بدر بنا أن يكون لعلمائنا السالفين اشباه هذه المصنفات الممتعة في وصف  
احوالنا الاجتماعية ثم أبادتها التعصبات الدينية . والحروب الطائفية . وما بقي منها  
انقل الى مكتبات اوروبا . وخزائن علمائها المستشرقين .

وقد انتبه هؤلاء العلماء المستشرقون في المدّة الاخيرة الى ما ينقص مطبوعائنا  
العربية الحديثة من المصنفات في تاريخنا الاجتماعي فأخذوا ينبشون تلك المصنفات  
من مكائنها ويطبعونها ويعلقون عليها شروحا وهوامش ممتعة جداً . وقد جدّاب  
مجمعنا العلمي الى مكتبته طائفة من هذه الكتب . أذكر منها عجائب الهند للراميرمزي  
ونشوار المحاضرة للقاضي ابي علي الحسن النخعي وطوق الحمامة لابن حزم  
والموشى لأبي الطيب محمد بن اسحق وكتاب الولاة والقضاة لابي عمر الكندي

ولا نُنسوا (مقامة ابي القاسم البغدادي) لابي المطهر الازدي التي كانت موضوع محاضرتي السابقة .

اذن يحسن بنا ان نخفف لهجة اللوم والعتاب على أسلافنا : فانهم رحمهم الله تركوا لنا ثروة عظيمة من التأليف في كل فن من فنون العلم والادب . لكننا نحن أحفادهم أضعنا الثروة . وقصرنا في حفظ التركة .

قلت ان موضوع محاضرتي التاريخ الاجتماعي لكن لا تحسبوا انني سأخوض من هذا التاريخ في قواعده التي وضعها علماء الاجتماع . ولا في نظرياته الدقيقة التي كثر الخصاص حولها بين أفلاطون وأرسطو وشيشرون في التاريخ القديم . وبين مونتسكيو وسبنسر ونيتشة وشوبنهاور في التاريخ الحديث . لا أخوض في ذلك كله اذ هو من دروس طلاب الجامعات العالية . وليس هو من مواضع المحاضرات العامة . وانما سأخطئ تلك القواعد والنظريات العقلية الى وقائع وجزئيات تاريخية جديدة لم تتناولها الافواه بعد : يلتذ بها محب التاريخ — وكلكم ايها السادة تحبون التاريخ — فنقارنون بينها وبين ما يقع من اشباهها في زمننا الحاضر . كما يستفيد منها اخواننا الصحفيون والكتّاب الاجتماعيون وطلاب المكاتب العالية من حيث يرون فيها مادة لمقالاتهم . ونموذج اجتماعية يستشهدون بها في مباحثهم ومناظراتهم . هذه الاخبار والحوادث التي أروها لكم منسقة على هذه الصورة هي مفهوم كلمة « المحاضرة » اي هو معناها الذي كان يفهمه علماء الادب . عندنا معشر العرب : فمحاضرات الراغب الاصفهاني . وحسن المحاضرة للسيوطي . ونشوار المحاضرة للقاضي ابن علي الحسن النونخي — لم نسم كذلك الا لأنها جمعت أخباراً مختلفة نفيد القارئ . وتلذذ السامعين . وها انا في محاضرتي هذه أخذو حذوهم . واسلك طريقته .

ومعظم ما أرويه لكم فيها مقتبس من كتاب (نشوار المحاضرة) للقاضي النونخي المذكور مع تصرف قليل أو كثير حسب ما يستدعيه المقام . طالت المقدمة فلنختصر بما مر . ولنقبل على الموضوع فنقول :

يؤلفون اليوم كتباً في وصف أحوال المدن وإحصاء ما فيها من آثار الحضارة ومقومات العمران لتكون دليلاً للسياح ومحبي الاستطلاع . ومن ذلك الكتب التي يصدرها ( محل بيدكر ) عند الأوربيين . وقد قلدهم فيها كتاب العرب وسموها ( دليلاً ) فيقولون : دليل الاستانة ودليل القاهرة . ويظهر ان العرب في العهد العباسي ألفوا مثل هذه الكتب : فان ( احمد بن الطيب ) ألف كتاباً عن بغداد وما فيها . وقد توفي أحمد هذا سنة ( ٢٨٦ ) هـ . وكذلك ( يزدجرد الكسروي ) فانه ألف كتاباً بأمر ركن الدولة ابن بويه وصف فيه ( بغداد ) في عهد الخليفة المقتدر المتوفى سنة ( ٣٢٠ ) وقد أحصى ما فيها من الابنية والشوارع والدروب والحمامات والسكان والسفن والملاحين وما يُنفق فيها من الخنطة والشعير وسائر الاقوات .

ومما ذكره على سبيل النموذج ان اصحاب المعابر كانوا يأخذون من الثلاثين في كل يوم ثلاثين أو اربعين الف درهم وهي تبلغ من تقود زماننا نحو مائتي الف قرش . والظاهر ان مرادهم باصحاب المعابر ارباب المكس الذين يقعدون على فوهات الطرق فيأخذون ( مروريه ) على الثلج الوارد الى بغداد .

وقد روا ما يأكله أهل بغداد من صنف الخس في زمن موسمته نحو خمسين الف دينار اي نحو عشرين الف ليره من تقودنا .

وأحصوا ما ينفقونه من سويق الحمص في كل سنة فبلغ نحو ( ٨٤٠٠ ) قفيز والقفيز اربعة ارطال او اكثر . فمجموع ذلك بالقناطير نحو ( ٣٣٦ ) قنطاراً من الحمص السويق .

والسويق دقيق الخنطة والشعير ولكن بعد تحميصها على النار : يضعه المسافر في جرابه فيسفه سفاً او يجدهه ( يخلطه ) بالماء او اللبن فيشربه أو يأكله . قال أعرابي : « السويق » عدة المسافر وطعام العجلان وبُلغة المريض .

ويظهر ان أهل بغداد في ذلك العهد اتخذوا سويقاً من الحمص كما سمعتم : فكانوا يحمصون الحمص ويطحنونه و يأكلون طحينه سفاً أو بصورة أخرى .

ونحن اليوم ليس عندنا من سويق الخنطة والشعير . ولكن عندنا من سويق الحمص كما كان يصنع أهل بغداد : فاننا نحمص الحمص ونسميه ( قضامة ) ثم نطحن



القضامة حتى تصبح ناعمة ونمزجها بالسكر وهذا هو السويق بعينه كما لا يخفى .  
 وجرى في بعض مجالس بغداد ذكر دخل دولة الخلافة العباسية وخرجها  
 والنقصان الذي طرأ عليها . فحدثهم القاضي ابو الحسن علي بن بهلول قال : اختبأ  
 في دارنا الوزير ابو القمح المعروف بابن حنزابه وكنيت يومئذ حدثاً صغير السن  
 فكان يناديني فتحدث ونلعب بالشطرنج . فجرى يوماً بيني وبينه ذكر الخليفة المقنندر  
 ونقصان دخله عن خرجه بسبب كثرة إسرافه وتبذيره . فشرح لي ذلك شرحاً  
 وافياً ( على أصول البودجه ) . ثم قال : ان مزارع عمي ومزارعنا كان دخلها يوم  
 صادرونا فيها مبلغ كذا وكذا ثم أخذ بالنقصان حتى بلغ ثلث ذلك المبلغ . قال ولو  
 مكنتوني من إدارة ضياعنا وحدها لعمرتها وعاد دخلها الى ما كان عليه . وان فرق  
 ما بين دخلها الآن ودخلها اذا سلوني اياها يعجز الدنيا كلها . وليست أملا كنا سوى  
 شقص يسير من الارض . فكيف لو كان للدنيا من مهم بعارتها كلها ؟ اه .

هذا ما قاله الوزير وهو مخفي خائف من الخليفة . وباليته يحيى اليوم فيرى بعينه  
 كيف تستثمر الدنيا وتستثمر . فيخف أسفه قليلاً على ما فاته من أمر عمارتها واستثمارها  
 بحسب طريقته الاقتصادية المدهشة .

وكانوا يحتفلون في أيام المواسم و'يقومون الزين والمورجانات لاسيما يوم النيروز .  
 واصل النيروز عيد للفرس قادم العباسيون والمصريون في الاحتفال له . وكانوا  
 يهدون فيه للخليفة النفائس والطرف كما يهدي بعضهم الى بعض . ويشعلون  
 النيران . ويضعون على شرفات الدور والقصور مجامر طين . ويأتون بحب القطن  
 ( اي جوزه ) فيشربونه دهن البلسان وغيره من الادهان الطبية الفاخرة . ويشعلون  
 هذه الحيات فنفوح رائحتها . ونثلاً في الظلمة أنوارها .

ولما حان زمن النيروز في بعض السنين أرسلت السيدة أم الخليفة المقنندر الى  
 عميلها التاجر ابن اسحق الشيرازي أن يشتري لها من الآفاق ألف شقة زهرية  
 خفاف جداً . وبعد طويل عناء في البحث عنها جلبت . فاستدعت الخياطين  
 الى القصر وأمرت ان يفضلوا من هذه الشقق أزراراً على هيئة حبات القطن

ويحشونها خرقاً ويخيطونها ويُسربونها دهن البلسان ويشعلونها مكان حبات القطن  
ومجامر الطين .

ومن جملة لهوهم في موسم النيروز اتخاذهم أعباباً بطول الصبيات يزبنونها بالخلي  
وفاخر الثياب . ويسمي المصريون اليوم لعبيهم هذه عرائس و يصنعونها من سكر .  
ويسمّون في بغداد هذه اللعبة (دوبار كه) وهي كلمة فارسية . واظن انها مركبة  
من (دوباره) حيلة مكر . و (كه) من كيهك وهو اللبس اي حيلة مستترة  
مغطاة بالثياب . ويُخرجون (الدوبار كه) وأمامها مشاعل النيران والطبول  
والزُمور . ومن اللطائف ان (عائدة بنت محمد الجهنمية) نظمت أبياتاً هجّت بها الوزير  
أبا جعفر البكرخي فشبّهته بالدوبار كه قصره وجمال ثيابه فقالت :

( شاورني الكرخي لما أتى النسيروز . والسن له ضاحكه )

( فقال ما نهدي لسطاننا من خير ما لكف له مالكه ؟ )

( قلت له : كل الهدايا سوى مشورتي ضائعة هالكه )

( أهد له نفسك حتى اذا أشعل ناراً كنت دوبار كه )

وهكذا كان اهل المناصب في ذلك العهد يتأنقون في الثياب ويقننون فاخر  
اللباس والرياش والاثاث ويسمّون ذلك مروءة .

وبالغ أحد اهل الانبار في اتخاذ الثياب فكان يضع كل ضرب من ضروب  
الثياب في صندوق : دراربع الدباج في صندوق والدراربع الدبيقية (١) كذلك  
والقمص والسراويلات والجباب والطيالس والعائم — كل ضرب في صندوق خاص .  
وكانت للانباري سرية تزوجها فلم تلد له . وكان له أبناء عم فلما مرض وأشرف على  
الموت أسرع فأخرجت من الدار جميع أمتعته وصناديقه سوى قليل منها تركته .  
لكنها نسيت صناديق السراويلات فلم تخرجها . ثم مات زوجها وجاء أبناء عمه فحتموا  
خزائن الدار بواسطة المحكمة . ولما انقضى العزاء فتحوها فوجدوها (أفرغ من فؤاد أم  
موسى) ولم يجدوا سوى صندوق السراويلات فرفعوا أمرهم الى القاضي (ابي جعفر  
البهلول) فأحضر الجارية (وافتمت الجلسة) فقالوا له : انت تعرف مبلغ عناية ابن

(١) نسبة الى دبيق قرية في مصر .

عمنا بالاثاث والرياش واللبوس فأين ذهبت كلُّها؟ ولما ذا لم يوجد من ثيابه الا هذه السراويلات الكثيرة؟ ولما ذا لم يوجد على نسبتها من الدراريع والجباب والطيالس؟ قال فأقبلت الجارية على القاضي محتدة كأنها أعدت الجواب وقالت: (أعز الله مولانا القاضي! أما سمعت ما حكاها الجاحظ من ان رجلاً كان يعشق الهواوين فجمع منها مائتي هاون. وابن عمهم كان يعشق السراويلات مثله) فضحك القاضي وانفض المجلس من غير شيء وكسبت الجارية الدعوى لقراءتها كتب الجاحظ.

أما الوزير (علي بن عيسى) فكان يتخذ من الملابس الأليق بالوقار والنقش وكان يجب ان يبين فضله في ذلك على كل احد. فدخل عليه يوماً القاضي ابو عمر وعليه قميص ديبقي فاخر. فأراد الوزير ان ينجله فقال له: (يا مولانا بكم اشتريت شقة هذا القميص) قال بمائتي دينار<sup>(١)</sup>. فقال الوزير ولكنني اشتريت شقة هذه الدراعة والقميص الذي تحتها بعشرين ديناراً. فأجابه القاضي على الفور: الوزير أعزاه الله يُجمل الثياب ولا يحتاج الى التأنق فيها. أما نحن فنجمل بثيابنا. ونأتنق فيها. والفرق بيننا اننا نخالط العامة وغيرهم ممن يلزم ان نقيم الهبة لنا في نفوسهم. والوزير لا يدخل عليه العوام. وإنما يخدمه الخواص الذين يعملون انه يترك التأنق بالثياب عن قدرة. فسكت الوزير مغلوباً.

هكذا كان شأن قضاتهم من حيث التجميل ومراعاة اخلاق العامة والمحافظة على الوقار والسمت: فقد حدث ابو الحسن ابن البهلول قال كنت وانا صبي اجيء لألعب بقرب جدي القاضي (ابي جعفر ابن البهلول) فيصبح علي. والسبب في ذلك انني كنت اذا دخلت عليه وهو مكشوف الرأس أخذ قلنسوته من خلفه ولبسها وجلس متوقراً علي. وسني اذ ذلك نحو عشر سنين. وبقى على تلك الجلسة الى ان انصرف. فأراه اذا بعدت عنه رفع القلنسوة عن رأسه ووضعها حيث كانت.

سمعت وقار هذا القاضي (ابي جعفر ابن البهلول) فاسمعوا مآثرته في الحق: دعت السيدة ام المتندر يوماً اليها. وكلفته احضار بعض سجلات المحكمة وحك احد الصكوك فابى عليها وقال: هذا والله لا طريق اليه أبداً ولو عرضت على السيف: انا خازن المسلمين على

(١) نحو مئة ليره من نقود زماننا.

ديوان الحكم : فيما مكنتوني من خزنه والا فاعزلوني وغيروا وبدلوا ما شئتم . واخذ السجل وانصرف وهو لا يشك انه معزول . فشكته السيدة الى ابنها الخليفة المقندر : ففي يوم الموكب سأله عن الخبر . فحكى له الواقعة وانه يفضل ان يعزل على ان يرتكب مثل هذا العمل . فقال المقندر ( مثلك يا ابا جعفر من يقاد القضاء . أم على ما انت عليه . بارك الله فيك . ولا تحف ان يثلم ذلك عرضك عندنا ) ثم عادت السيدة فتذمرت امام ابنها من القاضي فقال لها : ( الاحكام مالا طريق الى اللعب به . وابن البهلول مأمون عندنا محب لدولتنا . وهو شيخ دين مستجاب الدعوة . ولو كان ما طلبته منه شيء يجوز ما منعك اياه ) فسكتت على مضض لكنها عادت فحدثت به رئيس كتائبها وكان شيخاً صالحاً . فلما سمع منها ما فعله القاضي بكى . وقال لها ( الآن علمت ان دولتكم تدوم اذا كان فيها مثل هذا القاضي الصالح الذي يُقيم الحق على السيدة أم الخليفة ولا يخاف لومة لائم<sup>(١)</sup> .

و بقدر اتساع دائرة الحضارة في ذلك الدور كانت دائرة الحرية الفكرية والدينية متسعة : فكان اهل كل مذهب يناضلون عن مذهبهم . ويعقدون المجالس في المساجد لنصرتهم وتأبيده . وكانت تكثر بسبب ذلك المنازعات بينهم . وتتحول الى فتن أحيانا كمثل ما كان يقع بين الحنابلة والشيعة : فان الشيعة كانوا يجتمعون في الحائر لندب الحسين فكان الحنابلة يثورون ويمنعون الناس عن المضي الى الحائر .

وكان قوم يعتصبون لسيدنا علي وآخرون لسيدنا معاوية . فاعنتم الفرصة صديقان أعميان من الشحاذين فكانا يقعدان على جسر بغداد : هذا في طرف . وذاك في طرف . ويتسولان ويتوسلان باسم الصحابين الجليلين علي ومعاوية . فكان يتعصب لكل واحد منها فريقه . وتتساقط عليها الدراهم . وفي المساء يجتمعان ويتسلمان غلة يومها وهكذا .

اما المعتزلة فكان لهم شأن ونفوذ يومئذ : منهم وزراء وقضاة وأمرء وكانوا يشتهون على القصاص أكثر من ما يروون من الاساطير . كما يشنعون على الذين يصدقون

(١) وفي تمام الخبر ان السيدة ام المقندر كانت تجهل أن ما كلفت به القاضي من

تغيير الصك وحكه حرام حتى أخبرها كاتبها بذلك فكيفت وارعوت .

بكل شيء مما لا يدخل تحت العقل . ويفتخرون بانهم هم لا يصدقون الا ما يؤيده العقل الصحيح . وكانوا يعجبون السادة الصوفية واهل السنة لكونهم يصدقون بالكرامات التي كانوا يسمونها ( المعونات ) : فإما لانهم يبتغون عليها باسم ( الكرامة ) او لان كلمة ( الكرامة ) لم تكن تولدت في أوائل القرن الرابع . وكانوا يفخرون بان فرقهم لا تعول على شيء من ذلك جميعه حتى قال أحدهم : ( إن من بركة مذهبنا أن صبياننا لا يخافون الجن ) وتباهوا بعجوز منهم كثيرة الصلاة والصيام وقيام الليل : كان لها ابن مسرف على نفسه في الليل و يتعاطى الكسب في النهار فكان يأتي مساء كل يوم بكيس دراهمه فيسبله الى امه ثم ينصرف الى الهوى . وكانت أمه تقوم طول الليل تُشجِد في الغرفة التي فيها الكيس . فعلم بقضية الكيس والصبي احد اللصوص فطرق العجوز ليلاً وانظرها لنام فلم تفعل . ثم اعياه الامر فعمد الى الخيلة وقتش في البيت عما يساعده على حيلته . فالتحف بازارابض وأوقد حجرة بخور ونزل في السلم وهو يتكلم بصوت أجش موهماً العجوز انه ملك سماوي . قال المعتزلي راوي الخبر . ولكن العجوز كانت معتزلية جادة ففطنت للخيلة فتظاهرت بالخوف وسألته من انت ؟ قال : ملك وقد جئت انتم من ابنك لعصيانه . فتضرعت اليه أن يرفق بوحدها . فقال لا بد من تأديبه : فانا اكنفي بأخذ دراهمه ليتوب قالت : لك ذلك ونُحِتَ له عن الباب حتى اذا دخل الحجرة او صدت بابها عليه فاسنغاث بها فلم تجبه وقالت انت ملك يمكنك ان تنفذ من السقف . واقبلت على صلاتها . وجعل طول الليل يستعطفها وهي لا ترق ولا ترحم حتى سلمته في الصباح الى الشرطة .

ولكن المعتزلة ما كانوا اهل جلادة في عقولهم الى هذا الحد كما كانوا يدعون : فانهم كانوا يعتقدون بالتنجيم والطالع . وقد نهى عنهما الشارع . وكان عالمهم ابو علي الجبائي يصدق المنجمين ويمارس التنجيم بنفسه . ومن الغريب ان احد<sup>(١)</sup> قضاتهم أخذ طالع مولده فعين سنة وفاته ويومها . وتنبأ للموت فنغص عيش اهله واصدقائه وتعبوا في صرفه عن هذه الفكرة الملعونة فلم يطعمهم حتى مات — كما رووا — في نفس اليوم . لكن من تأثير الوهم . لامن روحانية النجم . واعتقاد ذلك كفر لانه دين الصابئة عباد النجوم .

(١) هو القاضي علي بن محمد النوخى والد القاضي ابي علي الحسن النوخى مؤلف كتاب ( نشوار المحاضرة ) الذي لخصنا منه هذه الاخبار .

وكان المسلمون في ذلك العصر يعنونون فضل عناية بطلاب العلم : فكانوا يوازرورهم بانغداق الرزق عليهم ثم لما اشتدت الضائقة المالية أخيراً في بغداد وغلب الخجل على أهلها وتجارها حتى ان بعضهم كان يسمى الخجل ( احتياطاً ) وبعضهم يسميه ( اصلاًحاً ) وكانوا يتواصون به . و يحذر بعضهم بعضاً من الاتفاق — أمسكوا عن الاحسان الا قليلاً . وكانوا قبل ذلك اذا جاءهم أحد من اهل العلم ينحونه بالالف درهم معونة له على التحصيل .

قال احمد بن يوسف : قدم على بغداد شاب أردنا ان ترتبطه ليتعلم لجودة قر يخته <sup>(١)</sup> وكان يحتاج الى مئة درهم في الشهر . فكلمت ابن خفيف صاحب ديوان النفقات ورجلاً آخر من اصحابنا . فاجريا عليه مئة <sup>(٢)</sup> درهم في الشهر . فبقي يأخذها الى ان خرج من بغداد . قال : وشكا الي بعض الفقهاء ان الطلاب الذين يحضرون حلقة ابي الحسن الكرخي احتاجوا الى اكسية اذ قد قرس البرد . ففكرت فيمن اقصد ثم اجتزت في طر بقي بدار . فقال لي بعض من كان معي : هذه دار تاجر موسر من اهل الخير شاطبه . ولم اكن اعرفه . فدخلت عليه فقام واكرم وسألني حاجتي فذكرتها له فقال كم كساء تريدون ؟ قلت خمسين فحملها معي في الحال . ففرقتها على الطلبة . قال ثم نقلت الاحوال . وشحت النفوس بالاموال . حتى جاءني رجل من اهل البيوتات فشكا من حاجته ما أبكاني . وقال انت صلاح امره في نحو ثلاثين درهما . ففكرت فما عرفت احداً يعطينها اذا سألتها اياها . قال ولعل السبب في ذلك الشح كلب الزمان وقلة المال : فقد حسبت يوماً ما يملكه سكان ( درب مبرويه ) فبلغ اربعة آلاف <sup>(٣)</sup> الف دينار . أما سكان هذا الدرب اليوم فلا يوجد فيهم احد يملك وحده اربعة آلاف درهم اللهم الا ( ابو العريبان )

وكما كانوا مهتمون بطلاب العلوم وإدراك الرزق عليهم كانوا مهتمون بالاسارى الذين يقعون في بلاد الروم من وقت الى آخر . ومن طريف ما حكاه أسير مسلم عن

(١) يعني انه كان نابغة في الطلاب ولكنه فقير . مثله يجب الاتفاق عليه ليُنتفع بنبوغه (٢) نحو خمسين ريالاً مجيدياً من نقود زماننا (٣) اي اربعة ملايين دينار نحو مليون ونصف او مليوني ليرة .

نفسه قال : لما حملنا الى بلاد الروم مررت بنا شدايد واهوال فكنا لا نقدر ان ننام من شدة البرد حتى كدنا نلثف . ثم دخلنا قرية فجاءنا راهب باكسية وقطف ( حرامات ) ثقيلة دفيئة . فغطى جميع الاسارى . كل واحد بكساء . فسألنا عن السبب فقالوا ان رجلاً من تجار بغداد اسمه ( ابن رزق الله ) أرسل هذه الاكسية الى الراهب وسأله ان يغطي بها من يصل الى قريته من أسارى المسلمين . وضمن له في مقابل ذلك ان ينفق من ماله على كنيسة معينة في بغداد مادامت الاكسية محفوظة للاسارى فالراهب يعنى بالاسارى كما وصلوا الى القرية كما رأيت . قال الاسير فكنا نتمنى لو نصادف في كل قرية ما صادفناه في تلك القرية على يد ذلك الراهب . وكان كما الفخنا البرد تذكرنا ( ابن رزق الله ) واحسانه ودعونا له ونحن لانعرفه .

لا جرم ان هذا التاجر المسلم والكاهن المسيحي كانا مثالين حسنين لابناء ملتبيها في عمل البر والتسامح وحسن التفاهم .

وحدث القاضي ابن مكرم قال : دخلت على الوزير ( علي بن عيسى ) فرأيت مغموماً . قلت مالك ؟ نالك ما تكره من الخليفة ؟ قال الامر أشد . كتب عامل الثغور الينا يقول : ان أسرانا في القسطنطينية كانوا على احسن حال حتى تولى مملكة الروم شاب طائش فاضطدهم وأجاعهم وأعراهم . ولقد أحببت ان أجهز جيشاً ينقدهم فلم يطاوعني الخليفة المقتدر .

فقلت أصلح الله الوزير هنا رأي أحسن من هذا . قال وما هو يا مبارك ؟ قلت ان البطريرك الانطاكي وبطريرك القدس محترمان لدى ملك الروم وقولها نافذ عليه بحيث يجرمانه ويحلا نه ولا يمكن ان يجلس على العرش من دون موافقتهمما والبطريرك في عهدنا وبلادنا . فعرفها الخبر . وانظر ما يكون من جوابها . فقال قد سررت عن قلبي قليلاً جزيت خيراً . ثم اقترقنا وبعد شهرين طلبني فجئته وقد نسيت خبر الاسارى . فوجدته مسروراً فقال يا هذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني . قلت : وما الخبر ؟ قال كان رأيك في الاسارى أبرك رأي . وهذا رسولنا عاد من القسطنطينية . وأشار الى رجل في المجلس ثم أمره أن يحدثنا بما وقع : فقال اخذت رسالة البطريرك الى ملك الروم وقد كتبها له : « انك خرجت

عن ملة المسيح بما فعلته بأسارى المسلمين . فإما ان تكفَّ عن الظلم والاعنالك  
 وحرمنالك » . فلما قرأ الملك الكتاب حجبني أياماً ثم دعاني وقال ما بلغ ملككم من أمر  
 الاسارى كذبٌ . وها هم أدخل عليهم في دار البلاط وشاهد حسن حالهم . قال  
 فدخلتُ فاذا عليهم ثيابٌ جدد لكن وجوههم كأنها وجوه أموات . فقالوا نحن  
 للملك شاكرون . جزاه الله خيراً . ثم أشاروا لي برموز من حواجبهم ان الامر على  
 العكس . وانني إنما أشرت عن الاجتماع بهم ليرفها من حالهم . وسألوني من أين  
 علمتم خبرنا؟ فذكرتُ لهم ما كان من اهتمام الوزير ( علي بن عيسى ) فضجوا بالدعاء له .  
 وقالت امرأة كانت بين الاسارى ( إمض يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا  
 الفضل ) فلما سمع الوزير قول الرسول أجش بالبكا . وسجد لله شكراً .

\* \* \*

وكان المرشحون للوزارات والوظائف الكبرى يجتهدون في الحصول عليها ولكنهم  
 كانوا يتعرَّضون للاخطار بسببها : حتى كان العامل اذا عزل صادروه في أمواله .  
 وعدَّ بوه لاستخراجها منه . ولم يصف أحد هذه الحالة بمثل ما وصفها به ( ابو الحسين  
 ابن عياش ) مذحكي عن نفسه قال :

كان لي اختصاص بسليمان بن الحسن قبل ان يتولى الوزارة . فلما وليها قصدته  
 يوم الموكب . واذا ببابه عطاء المملكة محبوبون . فلما رأي حاجبه ادخلني على الوزير  
 وهو في حجرة خلوته . يريد الركوب الى المقنذر . فطاولني في الحديث الى ان فرغ  
 وشد سيفه ومنطقة وتبخر والقي عليه سواده <sup>(١)</sup> وخرج وانا معه . فتلقاه الناس بالتبجيل  
 وساروا خلفه واختلطت بهم . واذا واحد من اصدقاء ابي يجذبني من طيلسانى .  
 فالتفت اليه . فإشار علي ان اتبعه خارج الموكب . وقال يا فلان أفي بيتك خمسون  
 الف دينار؟ قلت لا والله . قال : أنقوى على خمسين الف مقرعة وصفعة؟ قلت  
 لا . قال : فلم تدخل الى الوزير وعلى بابه العطاء أمثال فلان وفلان محبوبون يتمنون  
 الوصول اليه . ثم تخرج معه من خلوته وليس معه غيرك وغدا اذا نُكب نُكبت معه

(١) سواده اي لباسه الرسمي و يكون اسود عادة لان شعار بني العباس السواد

وعنهم اخذه العثمانيون .



بداعي انك من خواصه . وليس معك خمسون الف دينار تفدي نفسك بها . ولا تطيق خمسين الف مقربة . فقلت : يا عم ! لم أعلم . انا رجل فقيه . ومن اولاد التجار ولا عادة لي بالتردد على هؤلاء العظماء . فقال يابني لا تعاود . فان هذا يجز عليك نقياً . قال فمن يومئذ جعلت أجنب الدخول على صديقي الوزير في مواكبه العامة . ولكن كانوا مع هذه المخاطرة في طلب المناصب لا يضيعون فرص الاستفادة وجراً المغانم .

ومن شواهد ذلك ان ابا بكر الشافعي كان من أخصاء ( علي بن عيسى ) الوزير فلما عزل عن الوزارة وتولاها ابن الفرات أمسك ابا بكر المذكور ونكل به . ثم عاد صاحبه علي بن عيسى الى الوزارة فكانت له عنده منزلة عظيمة بسبب ما وقع به من التشكيل . وجعل ابو بكر يستثمر تلك المنزلة . ويتوسط لدى الوزير بالشفاعات وتقديم رقايع أصحاب الحاجات . فكان يوقع فيها . ويغض عن كثرتها . الى أن قدم اليه يوماً رقايعاً كثيرة جداً أصبحت الوزير وظهير الضجر في وجهه . قال ابو بكر : فقلت له ( ايها الوزير ! اذا كان حظنا من اعدائك في ايام نكبتك الصفع . وحظنا منك في ايام وزارتك المنع . فمتى ياترى يكون النفع ؟ ) قال فضحك الوزير . ولم يعد يضجر منه . مها كثرت الرقايع .

وهكذا كان العاقل منهم يستفيد بجاه صديقه بعد ان يكون أخلص في خدمته . ومساعدته في نيل بغيته : فقد حدث ابن ابي عوف قال : اختبأ عندي ( عبيد الله ابن سليمان ) فمازحته يوماً قائلاً : خبي لي هذا المعروف الى وقت اننفع به . وبعد ايام استوزره المعتضد . فقال لي اهني اذهب اليه . قلت كلاً لا اطلب ثمن معروف صنعته . ولو كان في الوزير خير لدعاني اليه . فلما كان يوم الاحتفال بالخلع طلبني فدخلت عليه فقام اليّ وعاتقني أمام جمهور المحفلين وقال في أذني : هذا وقت ننتفع فيه بقيامي لك . ثم أجلسني على طرف الدست<sup>(١)</sup> فقبلت يده وهنأته . لكن لم ألبث ان رأيت حاجب الخليفة يطلبه اليه . فذهب . وامتدت اليّ عيون الناس وخاطبوني باجل خطاب ثم عاد الوزير ضاحكاً واخذ بيدي الى دار الخلة . وقال : ويحك يا فلان !

(١) الدست للوزير كالعرش للملك والمنبر للخطيب .

ان الخليفة استدعاني بسببك وذلك أنه كوتب<sup>(١)</sup> بجزير قياحي لك في مجلس الوزارة وقال لي: نتبذل مجلس الوزارة بالقيام لتاجر!! ولو كان قيامك لاحد عمال الاطراف لكان محظورا بل لو كان لولي العهد لكان كثيرا» فقلت اعرف هذا يا امير المؤمنين ولكن حكايتي مع الرجل مذ استترت بداره كيت وكيت . وقد قال لي وقلت له كيت وكيت . فقال اما الان فقد عذرتك واما بعد ذلك فلا تعاود . فقلت نعم وانصرفت . ومع هذا فقد بقي الوزير يحسن الى صديقه .

وكانوا يذهبون كل مذهب في الوصول الى أغراضهم من طريق الشفاعات . وأخذت كتب التوصيات . ولكن كان بعض المتهمين لا يبالي تزوير كتب على لسان الوزراء لاجل نيل الأمانة وقضاء الوطر . ورووا في ذلك حكايات عجيبة :  
منها ما حكاه القاضي ابو الحسن بن عياش . قال : رأيت صديقاً لي جالساً على زورق مربوط بجانب جسر بغداد على نهر الدجلة في يوم ريح شديدة . وهو يكتب فقلت له ويحك!! أفي مثل هذا الموضع؟ ومثل هذا الوقت؟ فقال أريد ان أزور كتاباً على رجل مرتعش الايدي . ويدي لا تساعدني . فتعمدت الجلوس ههنا لتتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجبي خطي مرتعشاً يشبه خطه .

ومع هذا التدليس والتزوير الذي كان يقع في تقليد الوظائف كان الوزراء وكبار القضاة يشددون في انتقاء العمال وابدلون الوسع في البحث عنهم : فكانت القضاة مثلاً لا يقبلون شهادة كل أحد . فهم يعينون من قبلهم اشخاصاً من كين لديهم . ويعلمون أنه من أراد ان يعقد عقداً من عقود المبيعات وسائر المعاملات فعليه ان يشهد احد هؤلاء : لئلا يشهد غيرهم فلا يكون من كى عدلاً . وتسمى هذه الطائفة المعينة للشهادة بالشهود والعدول . ولكن ما أشد عناية قضاة ذلك الزمن بانتخاب هؤلاء العدول .

قال ابو القاسم الهاشمي : قيل للقاضي ابو عمر شهادتي وأعلن اني من العدول . ثم بعد ذلك خلوت به مرة . فجاء ذكر الملاهي . فقلت : ان فلاناً يضرب بالرباب

(١) اي انه كان للخليفة في مجلس الوزير عيون وجواسيس ينقلون اليه الاخبار حتى خبره شاشة الوزير وحفاوته بصديقه . وكان هؤلاء الجواسيس يسمون (اصحاب الاخبار)

فصاح قائلاً : هو ذا تهزأ بنا! هو ذا نتمس (١) علينا! ما هذا الكلام؟ قلتُ ما الخبير  
 أيّد الله القاضي؟ قال : نقول (يضرب الرباب) كأنك لا تعلم ان الرباب يُجرّ  
 جرّاً ولا يُضرب ضرباً (يعني انك تظاهر أمامي بورعك وانك لاتسمع الملاهي) .  
 فخلقت له بأيمان مغالطة أني ما رأيت الرباب قط . فقال : ان هذا آفة وسبيل  
 الصالح ان يعلم طرق الفساد ليحتملها على بصيرة لا على جهل (٢) . قال فعدتُ الى داري  
 وقلت لسائس دابتي : وياك! اطلب لي رباباً . فجاء به فجره بين يدي . فاذا هو كما  
 قال مولانا القاضي . يجرّ جرّاً . ولا يُضرب ضرباً .

الى هذا الحدّ بلغ نظرهم في الامور . وودّتهم في ادارة الاعمال . فالحاسب (٣)  
 مثلاً كان يدور في الاسواق بنفسه ويهتم جد الاهتمام بايفاء وظيفته .  
 ولما تولى (ابو القاسم الجبني) الحسبة في البصرة قال المسنون من أهلها انهم  
 ما رأوا ولا سمعوا من بلغ مبلغه في ضبط العامة . ورفع الغش . ونفخ البضائع  
 والامتعة . وقد طالب الناس بمطالبات صعبة . فانتشر له حديث جميل في البلد .  
 وهبته في قلوب العامة . ومما انفق له ان اجتاز يوماً في بعض السكك . وبين يديه  
 أعوانه . وكان هناك مؤذن يؤذّن . فتصارخ الناس الجبني الجبني !! فتطدّع  
 المؤذن فراه فقال : ( الحمد لله الذي لم يجعل لك عليّ طريقاً ولا بيننا معاملة ) .  
 وأقبل على أذانه . لكن الجبني كان سمع قوله . فقال لرجاله خذوه الى الدار ( دائرة  
 الحسبة ) فضجّ المسكين وضجّ جيرانه . وذهبوا معه الى الدار . وقالوا للجبني : أمرت  
 بإحضار هذا المؤذن المسكين فاي طريق لك عليه ؟ فلم يرد عليهم . والنفت الى  
 المؤذن وقال : ( أريد أن تحلف لي انك لا تدخل المسجد بالنعل الذي تدخل به

(١) التلميس التلميس والخداع . (٢) على حد قول الشاعر :

(عرفت الشرّ لا لا - شر لكن لتوقيه )

(ومن لم يعرف الخ - ير من الشر يقع فيه )

(٣) وهو الذي يتولى الحسبة أعنى ملاحظة ما يقع في الاسواق من أمور  
 المبيعات والمكاييل والموازين والاسعار وحمل العامة على التزام الحدود الشرعية  
 والادبية وتشبه هذه الوظيفة قديماً أعمال المجلس البلدي اليوم .

الكثيف . وان لا تؤذن الا بطهارة — «ولا ننتزع الى الجيران من فوق المنارة» .  
فتضرع اليه المؤذن ان يعفيه من هذا الشرط . قال لا ! أو انك لا تؤذن . فما زال  
الجهني به حتى حلف . فلما اراد الانصراف قال له : يا شيخ أعلمت ان لي اليك طريقاً ؟  
وان بيننا معاملة ؟ فقال : أخطأتُ أيدك الله ولا أعلم هذا . فقال : لا تعاود  
الكلام فيما لا تحتاج اليه . فان الفضول مضرّة . والثرثرة معرّة .

نكن في مقابل هذه الشدة على الناس . والتشدّد في ضبط العامة نجد من وزراء  
ذلك العهد وكبرائه كرمًا وسخاءً وتواضعًا وحياءً : فقد وقفت يوماً امرأة في طريق  
الوزير (حامد بن العباس) وشككت اليه الفقر ودفعت اليه قصة (اي استدعاء) فوقع  
لها فيها بمأتي دينار . ولما ذهبت الى (الجهند) <sup>(١)</sup> انكر المبلغ واستكثره (لانه قريب من  
مئة ليرة وهي ترضى باقل من ذلك) وراجع الجيهند الوزير . فقال الوزير هو ما ذكرت .  
لكنني لما اردت ان اوقع لها بمأتي درهم جرى قلبي بمأتي دينار . ولن أرجع . فأعطها  
الدنانير . فأعطاها اياها . وبعد ايام رفع رجل الى الوزير قصة . يقول فيها : إني وامرأتي  
فقيران . ومنذ ايام جاءني امرأتي بمأتي دينار تقول ان الوزير حفظه الله وهبها اياها .  
واخذت من يومئذ تستطيل عليّ وتكبر وتقول انها هي غنية وانا فقير معدم لا أصلح  
لها بعلا وكلفنتي طلاقها إذ لم يعد يطيب لها العيش ولا العشرة مع مسكين مثلي .  
فان رأى الوزير ان يكتب الى القاضي يأمره بحلب زوجتي وزجرها والنصح لها بطاعتي  
فعل . فضحك الوزير ثم وقع له بمأتي دينار أخرى . وقال له الان صرت غنياً مثلها فلم  
يعد حاجة للقاضي . فاستلم الرجل دنانير الذهب . ثم ودع القوم وذهب .  
(المغربي)

—>ooc<—

(١) كلمة فارسية كانوا يريدون منها ما نريده نحن اليوم بكلمة الصراف

## مصانع الشام (١)

« منذ عرف التاريخ »

ان قطراً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكم عليه الحثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والنتر والجر كس ، وأعجب الفاتحون بجيراته ، واغتنبوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الاقطار والقارات ، فجعلوه محط رحالهم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لايسغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني . ان الشعوب التي انشأت مصانع البتراء « وادي موسى » وجرش وعمان ومادبا وبعبك وتدمر والرقة وأفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ذات معرفة بالهندسة لا تقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارخ الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتخريق بايدي المخربين من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

يتناول بحثنا الآن آثار الشام قبل الاسلام وبعده . ونعني بالشام ما عرفه العرب من البلاد الممتدة من عريش مصر الى نهر الفرات ومن سفوح جبال طوروس او الدروب الى البادية . وتنقسم هذه المصانع قسمين : مدني وديني فالمدني كالقلاع والحصون والابراج والمناور والمراصد والقصور والجسور والسكرور والاقنية والمواني والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والربط والخانقاهات والملاجي وما شاكلها . نتكلم على الهندسة المتبعة في هذا القطر السعيد اجمالاً بحسب ما انتهى اليها من كتابات العرب والافرنج . ولا نستنتج الا حيث يصح الاستنتاج ، وندعم القول بنصوص العلماء من اهل

(١) أقيمت في ردهة المجمع العلمي يوم ٢٩ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

الاخصاء في العاديات والبناء ، وتقف عند حد ما رسموه لانهم المرجع وعلى كلامهم الفتوى .

لم يحدثنا التاريخ والحثيون والاسرائيليون من أقدم الشعوب السورية انه كان لهاتين الامتين هندسة خاصة ، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم وليس فيه ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه ، بل هو محرف عن الطراز الاشوري تحريفاً مهزجاً . ولم يتمكن الاثريون الى اليوم من العثور على عاديات حثية حقيقية ليقفوا حق الوقوف على اصول هندستهم وبنائهم . وما اكتشف من هذا القبيل من الصور النصفية وغيرها لا ينم عن ذوق سليم ولا عن ابداع في حسن الهندسة .

ولقد انشأ الحثيون قلعة لهم على الفرات في كركيش ( جرابلس ) بقيت حسكة في حاق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ ق . م حتى استولى الاشوريون عليها وكانت هندسة مصانعهم على مثال مصانع الاشوريين والبابليين مقتبسة اقتباساً رديئاً لا تخلو من جفاك وسداجة .

وبنو اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطعمهم ، سوى آثار ضئيلة ساروا في صنعها على تقليد الاشوريين والمصريين ، وقلدوا المصريين في الاكثر لقرب فلسطين من مصر ، بل لان مصر استولت زمنياً على فلسطين . وأهم ما بقي من آثارهم معبدهم في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصناع والمهندسين من صور بمساعدة الملك خيرام سنة ١٠١٣ ق . م وقد حرق هذا المعبد فرم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ ق . م ولما عاد اليهود بعد اثنين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة وكانت دثرت محاسنه الاولى ثم وقع ترميمه في ادوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد باذى على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المقدوني في الشام ولا في زمن بومبيوس الروماني لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ان لا يقاتلوا الامم التي يدوخونها على اربابها . وربما اقتبسوا ممن غلبهم على امرهم عباداتهم من غير تكبير .

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد

نيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهرأ طويلاً . وقد قيل ان سليمان خزن من غنائمه لبناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة فُدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا الحديد والنحاس والخشب فكل بناؤه سنة ١٠٠٥ ق م وكان نخر أورشليم واجمل بناء في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي العمد فادار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل . والهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف تحيط به عدة دور منها دار الامم وهي الدار الخارجية ثم دار النساء ثم دار اسرائيل ثم دار الكهنة ثم الهيكل . وهدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد وكان غاصاً بالخشب الثمين الذي جيء به من ارز لبنان وغيره وموهاً بالذهب والفضة ومحلياً بالعاج والإحجار الكريمة وفيه من الاواني الثمينة والمدى والاحواض وادوات البيوت ما صح ان يعد حلاصة علم الفينيقيين بالصنائع والفنون النفيسة . والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل ولا غرو فمدينة صور مسقط رأس أقليدس المهندس كما ان دمشق مسقط رأس بولودر المهندس الذي اقام عمود تراجان في رومية وبني جسراً هائلاً على الدانوب ( الطونة ) . هذا مع انه لم يشتهر الفينيقيون بانهم عنوا بالبناء والهندسة عنائتهم بالرمح والكسب وارتباد القاصية ، وكانوا كالاسرائيليين والكنعانيين والحثيين ينقلون هندسة مصانعهم عن الاشوريين والمصريين . ولقد اعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي اقامها الفينيقيون في شواطئ يونان وايطاليا وصقلية وغاليا وابيريا وافريقية ، بيد ان هذا الشعب لم يخلف من آثار مدينته ادنى ما خلفته الشعوب القديمة . وربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد حضارتهم ، اقل مما خلفته تدمر والبتراء . ولم يثبت ان بقي للفينيقيين معبد من معابدهم الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ .

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها فان الباقي من اساس حصن صور الذي اعجز اقتحامه قدماء الفاتحين كسراغون وبخنصر والاسكندر لا يدل

على كبير امرء ، وقد بنى الاسكندر بين البر والجزيرة فيها سدّه الغريب ، وكان بناء صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا عجب واغرب شأنًا منه » وقال ابن جبير : انه يضرب المثل بحصانتها وذلك انها راجعة الى باين احدهما في البر والاخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضي اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب ، اما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعًا منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحديق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالحصن . ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائمًا ولكن لا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين لانه اشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا ويونان القدماء . وهكذا يقال في اسوار بيروت وصيدا وجزيرة ارواد وحمريت ومعبد هذه على رأي رنان اقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي اما قبور الفينيقيين فهي اهم ما اكتشفت في بلادهم ، وكما نقرت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأُسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في حمريت هي اهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ولا تزال محفوظة في متحف الاستانة .

قلنا ان المصريين والاشوريين ادخلوا ايام استيلائهم على فينيقية عاداتهم واصول هندستهم ومصانعهم وكل ما هو من خصائص مدينتهم ، فكانوا اساتذة الفينيقيين ولكن هؤلاء لم يحسنوا التقليد ، وعلى عهد الاسكندر فقط دخل في البلاد روح جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية .

ولقد بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر وامتدوا في حفرياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدينية يعتقد بها سبقت الرومان واليونان ، وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لهم ان الببوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثوي وهو المكان المعصّد للضيف « السلامك » ودائرة الحرّيم شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد . وما قصر هر كان في عراق



الامير ، وحصون القدس ، و برج انطونينا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية .  
ونقل في فلسطين وشمالي غربي بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي  
يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها  
مثال من امثلة البناء الاشوري . وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن والاثريون  
يوالون حفرياتهم ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدينة اقدم امة نزلت  
الارض المقدسة .

\* \* \*

وأقيمت عدة انصاب في الشام لمالك الرومان منها ما عثر عليه الاثريون فقد ذكر  
وادنكتوت كتابة وجدها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب اقيم لاحد ملوك  
الرومان فيه « للملك اليوس قيصر ادر يانوس انطونينوس بهوس العاهل » ووجد مع  
كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اورليوس  
انطونينوس اغسطس قاهر الارمن والبرتبين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في  
سهوة الخضر من جبل حوران وأخرى في الشهبه المسماة فيليبولي نسبة الى الملك  
فيلبس العربي ووجد في السويداء ايضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمه للملك  
كومود اقامه له دوميتيوس بروكستر والى العربية ذكره جلب الماء الى المدينة  
وضواحيها سنة ١٨٧ ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير كتابة  
تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر  
كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيموس ساويروس برتينكس اغسطس  
اقام هذا النصب بومبايوس اينجيوس نذراً للمشتري .

وبعد فان البحث في مصانع الشام وحدها يحتاج الى مجلد قد يضطر مؤلفه الى ان  
يرمي الكلام على عواهنه لصعوبة الحكم على كل اثر بعينه ونسبة كل بناء الى الامة  
التي اقامته وكل واحدة منها تركت على الاغلب اثرًا مغلداً متلداً نفاخر به . فالطرق  
الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها وطريق مادبا  
الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش - وادي موسى والطريق الملبط  
شرقي صرخد الممتد الى العراق وكان يسمى بالزصيف هي من الآثار المهمة كالمعسكر

الروماني في أذرح قرب معان وآثار قنوات وشببة وسالة ودامية العليا ولبن .  
عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ومنها الهياكل  
الجليلة والدور الفخمة والاندية والمجالس والقصور والحمامات والمسارح والمدافن  
والمسلات وقد رأى فيها دوماً فسكي آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية  
والسورية . واهل البتراء عرب من النبط شيدها حوالي القرن السادس ق م  
وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد .  
ومن اجمل ما في وادي مومى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم نقرت في الصخر  
وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . ومن مفاخرها الملعب العظيم المنحوت في الصخر قطره  
١١٧ قدماً وفيه ٣٣ صفاً من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين ولكن  
الملعب الروماني في عمان اي ربة عمون هو اكبر الملاعب في الشام وهو مركب من  
ثلاثة مراتب جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد والمرتبة الوسطى اربعة  
عشر صفاً من المقاعد والمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفاً من المجالس وهو يسع اربعة آلاف  
ناظر ايضاً . وفي اسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأسود والنمورة والتاسيح .  
ويرد تاريخ ارتقاء جرش الى القرون الاولى للمسيح وتاريخ بنيتها الى امبراطرة القرنين  
الاول والثاني وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة .  
وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب وعمدها الماثلة  
للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة اقدم وملاعبها وهياكلها وساحاتها  
وحماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها .  
وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة  
مدينتي عمان وجرش بالشام ملعبين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ،  
وبعض بناء ابوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة  
نصف دائرة مقطوعة بجائط وذلك الخائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير  
فانه مدرج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية اوسع من السفلى ،  
وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك وكل درجة وعليها مرتبة من الناس وكلهم  
ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يجيبون عنه ولا يجيب عنهم في ذلك

المجلس وكانما هو ليوم الحكم العام فقط ، وبالقرب من هذا الملعب ايضاً ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل متهن بكرة وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة وكانما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وبباب البريد بدمشق اهـ» .

وذكر بعض الاثريين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة حتى اصبحت في اوائل النصرانية احدى المدينتين اللتين جمعنا بين تجارة اوربا وآسيا واعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليه السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل سورية بناها الآلهة قال المعري :

وقد كان ارباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن  
وقال النابغة الذبياني :

الاسليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدها عن الفند  
واخيّس الجن اني قد امرتهم يبنون تدمر بالصفايح والعمد  
وقد كان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جارتين من حجارة من بقية  
صور كانت هناك فمر بها اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر اوس الذي في البصرة  
فنظر الى الصورتين فاستحسنهما فقال :

فتاتي اهل تدمر خبراني  
قيامكما على غير الحشايا  
فكم قد مرّ من عدد الليالي  
وانكما على مر الليالي  
وقال محمد بن الحاجب يذكرها :

اتدمر صورتاك هما بقلبي  
افكر فيكما فيطير نومي  
غرام ليس يشبهه غرام  
اذا اخذت مضاجعها النيام

اقول من التمجيد اي شيء  
 امُلكتنا قيام الدهر طبعاً  
 اقامها فقد طالب القيام  
 فذلك ليس يملكه الانام  
 كأنهما معاً قرنان قاما  
 ألجها لدى قاض خصام  
 يمر الدهر يوماً بعد يوم  
 ويهضي عامه يتسلوه عام  
 ومكثتها يزيدهما جمالاً  
 جمال الدر زينه النظام  
 وما تعدوها بكتاب دهر  
 سجيته اصطلام واخترام

وقد اقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة  
 بعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات ولا شك في ان الحرس الروماني كان  
 في بعضها وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيش  
 البادية و بعد ان فتح الزباء اوزينب اوزنوبيا سلطانة تدمر المشهورة القطر المصري  
 عمرت الابنية التي جلبت اليها الامن من اقطار الارض ولا سيما اليونان وما كان من  
 الامبراطور اورليانوس الروماني الا ان داهمها سنة ٢٧٢ وخربها وبعث ابنيتها وقوض  
 هياكلها ودك اسوارها وهدم قلاعها فاصبحت كأن لم تغن بالامس الى ان جاء  
 بوستينيانوس سنة ٥٢٧ فجدد بناء الاخربة وشيد ابنية اخرى فيها وجعل لها سوراً ثم  
 سطت عليها الزلازل كثيراً وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد  
 على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من  
 التماثيل والانصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة وقد كان لهؤلاء  
 الرومان اغراب كما قال الثعالي في خرط التماثيل والابداع في عمل النقوش  
 والتصاوير حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئاً الا الروح ثم  
 لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامات  
 وضحك الخجل وبين المتبسم والمستغرب وبين ضحك المسرور وضحك الهازي فيركب  
 صورة في صورة وصورة في صورة . او كما وصف الارجاني شبذير وعلى مثل هذه  
 التماثيل يصدق وصفه :

ومن كل انواع الانام مصور  
 ومجلس انس بفسح الطرف ملؤه  
 شباب وشمط يرحون وشيب  
 قيان تغني وسطه وشروب

وصرعى وقنلى في قتال عساكر  
فمن جانب اصحمت نصب مدامة  
خليطات هذا للقراع معبس  
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم  
وكل يعانى شغله غير انه  
ملاعب فيها الملك رام بطرفه  
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم  
فلولا مكان الدين قل لفقدهم  
ملوك اقاموا ما اقاموا اعزة  
وخيل للراني ليذكر عهدهم  
خيال لم يهدى الى كل امة  
تحول حصون دونهم ودروب  
ومن جانب اصحمت تشب حروب  
يصول وهذا للسمع اطروب  
يبين لنا بشر بها وقطوب  
على فمه دون الكلام رقيب  
وكل ابن دنيا ان نظرت لعبوب  
زمان اكل للانام شروب  
بكاء لنا في اثرهم ونحيب  
وقد شعبتهم بعد ذاك شعوب  
خيال لعمري ان رأيت عجيب  
لقصده اعتبار ان رآه ليب

\*\*\*

وان بقايا هيكل الشمس او المشتري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح  
او البهو الكبير الماثلة الى اليوم في قلعة بعلبك لا كبر دليل على ارتفاع الهندسة حتى  
في العصور التي سبقت الرومان واليونان . وفي بعلبك هيكلان كبيران طول اصغرهما  
٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها  
٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ  
قطر الواحد منها ٧ اقدام وعلوه من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض  
الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ قالوا وكانت هياكل بعلبك تضاهي  
هياكل اليونان بعظمة بنائها ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة .

قال شيخ الربوة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من  
كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش اجنحته وفي  
اربع قرن السقف اربعة اصنام واسماؤها ودّ وسواع ويعوث ويعوق ويقطع الحجارة  
حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروك الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله مثال للناس يعني ان من  
هنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقلعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الجبلى —

و بالحصن ايضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع  
ودوره نحو ذراعين واكثر وعددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق  
العتبات البناء المحكم اها . وان آثار بعلبك بما فيها من العمدة الضخمة ومنها من النوع المعروف  
بالحبيب الذي جلب من بلاد السودان على ما يظهر وما جاء عليها من القرون ولم تنته  
تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان ويايدي مئات الالوف من العملة  
المتخزين الملتعبدين وكهذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان .

ويصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في اهرام  
مصر انها صيرت على عمر الازمان بل على عمرها صبر الزمان ، فانك اذا تجررتها وجدت  
الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد افرغت عليها بمجهودها  
والانفس النيرة قد افاضت عليها اشرف ما عندها لها ، والمملكات الهندسية قد اخرجتها  
الى الفعل مثلاً هي غاية احكامها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتجرب بحالم ونطق  
عن علومهم واذهانهم وترجم عن سيرهم واخبارهم . او ما قاله في براني مصر : فالحكاية  
عن عظيمها واثقان صنعتها واحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش  
والتصاوير والخطوط مع احكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر .  
ومن اجل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها	فئنة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار	لاناس ملء الزمان كبار
البستها الشموس نفويف در	وعقيق على رداء نزار
وتحلت من الليالي بشاما	ت كئئبيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع	شربتها ظوامي الانوار
زدها الشيب حرمة وجلالاً	توجتها به يد الأعصار
رب شيب اتم حسناً واولي	واهن العزم صولة الجبار
معبد للاسرار قام ولكن	صنعه كان اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب	فيه تمثيل حكمة واقنذار
صنعوا من جماده تماًرأ يج	خي ولكن بالعقل والابصار

وضروباً من كل زهر انيق لم تفتها نضارة الازهار  
وشموساً مضيئة وشعاعاً باهرات لكنها من حجار  
وطيوراً ذواهباً آيات خالداً الغدو والايكار  
في جنان معلقة زواه بصنوف النجوم والانوار  
وأسوداً يخشى التحفز منها ويروع السكوت كالترار  
عابسات الوجوه غير غضاب باديات الاياب غير ضواري  
في عراقينها دخان مثار وبالحاظها سيول شرار  
تلك آياتهم وما برحت في كل آت روائع الزوار  
ضمها كلها بديع نظام دق حتى كأنها في انتشار  
في مقام المحسن يعبد بعدال يعقل فيه والعقل بعد الباري  
منتهى ما يجاد رسماً وابهى ما تحج القلوب في الانظار

هذا اجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ومن أم آثارها انطاكية التي بناها انطيوخوس واكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ ق م وكان فيها عجائب من الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان ان تعمل مثله في ارضها ولولا ان الزلازل تحيبتها في ادوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة . وكانت انطاكية عاصمة الشرق ايام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل انطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والاقنية ودور التمثيل يبكي لبلد انفتت الآفات السماوية والارضية على تحريمه ولم يبق من عظمتها التار يخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية او اليونانية بحيرة قدس او خزائن حمص وقناة سلمية وجسر قنوات و آثار سبسطية ومنها مصانع حلب وهي صورة تامة من نشوء الهندسة وقد غنيت هذه المدينة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية وما برح معظمها بحاله . ومن أهم ما في شمالي سورية ملعب أفامية ( قلعة المضيق ) وملعب دفنة وكان فيها معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان ونصب فيها برياكسيس المهندس الاثيني تمثالاً للرب

اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة وهو قابض بيده على قيثاره وقد صورت صورته على نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرها من الارباب . ومن اهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمد وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوانيت وكانت مقسوماً الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والمعجلات والرصيفان بجانبه للدهابين والجائين والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً .

ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران واحصن مدن باشان ومعقل الرومان شرقي الاردن شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة وكان طولها داخل السور كما قال بورتز ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ومحيط بالسور ربض كثير المباني ومحيطها خمسة اميال لها سور عالي الجدران وثيق البنيان وقلعة للاحصن منها في عامة بلاد الشام ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رجة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح وركام الانقاض وبيوت الاقدمين وقوس نصر اقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية وفيها مشيدان وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً ففي كل مدينة ساحة عامة ( فوروم ) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابول او معبد المشتري وجونون ومينرفا ( ربة الحكمة والفنون والحرب ) وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة وفيها اسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات اقنية لا تزال ترى



الى اليوم آثارها ومراحيض عامة وخاصة . واما كفن للاستحمام فيها مغاطس باردة  
وحارة وبهوت للتعريق وقاطات للرياضة والمحادثة ومماش للذخه وافران واقواس  
نصر وابواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في اكثرها مصاطبها المدرجة  
ومساكن خاصة .

ومن أهم الآثار في سورية جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها  
القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونيه والثانية القناة الكبرى التي كانت  
تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القلعة  
بالقرب من بيت مرعي في لبنان وهيكل افقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق  
مزرعة كفر ذيبان في سفح جبل صنين وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل  
بزيزا وناوس في جهات اميون قرب طرابلس وتمثيل كثيرة مبعثرة وفي البتروان  
حصن منبع وملعب . وفي بيروت مسرح ومن قلاعهم قلعة صربا وفقرا ويحضور  
ومن اجمل حماماتهم حمام شهبه الذي يذكر بخرائبه الضخمة كما قال ري بحامات  
كارا كالا في رومية وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية  
قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

\* \* \*

لما انتشرت النصرانية في هذه الديار اخذ من دانوا بها في بناء الكنائس والاديار  
على اسلوب الابنية القديمة ومالت الهندسة السورية الى السداجة واجتنب كل زينة  
زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة وجمال الحجم وترتيب الاجسام .  
وقد نشأت بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد في الشام هندسة متينة راقية  
مختلفة عن الهندسات الاخرى تعرف حالتها من خرائب المدن العديدة في سورية  
العليا وحوران . قال جلابرت : ومن المصانع المنوعة في الهندسة السورية شيناث  
يلفتان النظر خاصة وهما البيع والابنية ذات السطوح وكان المهندسون السوريون  
فيها عالة على الشرق ويسترشدون باراء مهندسي فارس وقد أثرت الهندسة السورية  
اذ ذلك في هندسة كثير من الامم ولا سيما في بيزنطية واخذت بيزنطية من سورية  
او من طريق مصر عن سورية اصول كثير من الابنية . وقال ايضا والحق يقال

ان في سورية الوسطى مجالاً واسعاً للابحاث العلمية ودرس الغاديات فان فيها ما لا يحصى من الابنية العادية كالهياكل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والاندية العمومية من اواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد ولاكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها وهذه الآثار تنوأل سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سباق متواصل لما وجدت عشرة اعشار من السنين خالصة من آثار او آثار حمة ومجل رأي بوتلر احد اعضاء البعثة الاميركية التي بحثت في آثار سورية الوسطى بين عامي ١٨٩٩ - ١٩٠٠ بعد معاينة كل هذه الآثار المتعددة واتخاذ اقيستها وتدوين رسومها انه كان لاهالي شمالي سورية الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي اشاعه الرومان في سورية وهو بناء قد يدعى بالطرز السوري لا اثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية وهذه العلاقة أبين وأظهر في اول استعمالها ثم امتزجت به على توالي الاجيال عناصر شرقية حتى نجم اخيراً عن اختلاطها طرز مركب شاع في القرون الاخيرة . واذا حولت رائد البصر الى الجنوب وامعنت النظر في ابنية حوران وجدت طرائقها البنائية مختلفة اختلافاً عظيماً عن الهندسة الشمالية نعم ان فن البناء الروماني ليس يمتثل على ابنية تلك الانحاء الا ان آثار نفوذ الفنون البنائية الشرقية اوفر واعظم وبذلك قد تألف طرز وطني سبق عهد دخول حوران في اقليم سورية مع مباينة للطرز اليوناني الذي ادخله السلوقيون .

\*\*\*

عدّ ابن خردادبة من عجائب البنيان ملعب فاميه وتدمر وبعلبك ولد وباب جبرون قال والروم نقول : ما من بناء بالحجارة ابهى من كنيسة الرها ( اورفة ) ولا من بناء بالخشب ابهى من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء بالرخام ابهى من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهى من كنيسة حمص . وبيعة القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثنتي عشرة ساعة وفي

اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تحترق منها المياه وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المخزوع . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطرايبها اي صوامعها وكانت في الشام اديار كثيرة ذكر بعضها ياقوت منها دير باعنتل من جوسية على مرحلة من حمص وفيه عجائب منها أزج - بيت بني طولاً - فيه صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر وصورة مريم في حائط منتصبه كما ملت الى ناحية كانت يمتها اليك . وبظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد وكان له من الارتفاع في كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة . وكان دير مران المطل على دمشق من جهة حدائق الصبار مبنياً بالجص واكثر فرشته بالبلاط الملون وهو دير كبير في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني وفي الجبل المشرف على كفرطاب قرب معرة النعمان دير آخر اسمه دير مران وبقرب المعرة دير النقيرة . ودير مار مارون شرقي حماة وشيزر كان ذا بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة كان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم .

قال ابن بطريق : ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسكنون فيها . وفي الشام اديار وبيع كثيرة لم يحدث التاريخ عنها الا اجمالاً . ومن اهم الكنائس كنيسة القيامة بالقدس وكنيسة بيت لحم ومنها كنائس الناصرة وفي لبنان اديار كثيرة قديمة واقدمها على الغالب لا يرتقي الى اكثر من مائتي سنة تراها كما قال لامنس اشبه ببيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها وليس لها طرز هندسي وكان للبنان في القديم طريقة هندسية لبناء كنائسه الا انها دثرت والنقوش والتصاوير فيها كلها من الشكل البيزنطي . وقال ابن الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طرق مستقلة عن النماذج اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة وانشأ المهندس السوري يرفض استعمال الملاط بين الاحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لجة بين اجزائها واستعاض عن الاجر المألوف على عهد الرومان واليونان

بالحجر النخيت وبني الكنائس ذات قباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي بحج  
بجرائها العظيمة اليوم الاثريون وعنها اخذ بناء الكنائس الرومانية .  
ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير  
في القرون السادس ان لها عند الروم في دمشق شأنًا عظيمًا وليس بعد بيت المقدس  
عندهم افضل منها وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير امرأ عجيبًا أُهبت الافكار  
وتستوقف الابصار ومرآها عجيب . وليس في دمشق الآن كنيسة اقدم من ستين  
سنة لانها حرقت كلها في حادثة سنة ١٨٦٠ م وكذلك لا ترى في حلب كنيسة  
يرد عهد بنائها الى اكثر من خمس وسبعين وفي الشام اديار كثيرة وبيع مثل اديار  
جبل الكرمل والطور واريج وطبرية ودير الروم والروس وكنيسة الامان في  
القدس ودير صيدنايا ومعلولا في جبل قلمون وكلها حديثة الا قليلاً ليست ذات شأن  
مهم وكذلك الحال في اديار شمالي الشام وسواحلها .

\*\*\*

كان العرب قبل الاسلام يختلفون الى بلاد الشام ينزلونها ويحجرون مع اهلها  
ويقنون المزارع والقرى فيها بل كان النبط وهم عرب هم الذين انشأوا آثار جرش  
والبتراء والغسانيون واليهيم نسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان  
ابن المنذر في السويداء وفي حارب . وبني جفنة اول ملوكها جلق والقرية وعدة  
مصانع وبني ابنه عمرو دير حالي ودير ايوب ودير الدهناء وبني ثعلبة بن عمرو عقبة  
وصرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء وبني جبلة بن الحارث من ملوكهم  
القناطر واذرح والقسطل وبني الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء -- الحفير في  
البلقاء ومصنعه بين دعيان وقصر ابيرو وبني المنذر بن الحرث صربا ورزقا قريباً من  
الغدير وبني جبلة بن الحرث قصر حارب وكان منزله بحارب ومحاربا زمنه وبني  
الايهم بن الحارث الاديار دير ضخم ودير النبوة وسعف وبني عمرو بن الحارث قصر  
الغضا وصفاة العجلات وقصر منار وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب  
عين اباغ واصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك لحم خربها  
وكان الضجاعم قبل الغسانيين ملوك الشام وهم عرب ايضاً . وحكم النوحيون شمالي

سورية قبل ان يجيئها جيوش العرب بقرون ولم نعرف للضجاعم والنوخين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميذع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . قال البكري : ان اهل ثلاث بيوتات من العرب كانوا يتبارون في البيع وزمها : آل المنذر بالحيرة وعتات بالشام وبنو الحارث بن كعب بنحيران ويعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه وكانوا يجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب . وقد نسب دوسو عدة ابناء في سيف البادية الى العسائين . كتب ايليا بطريرك بيت المقدس الى انسطاس ملك الروم قد بعثت اليك بجاعة عبد الله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صير بريتنا مدين واعمرها وهو نجم فلسطين . وفي سنة احدى وعشرين من ملك يوستينيانوس الملك ثار بفلسطين اهل السامرة وهدموا الكنائس كلها واحرقوها وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فاعاد يوستينيانوس الكنائس وكتب الى عامله في فلسطين ان يعفي اهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبنى بيارستاناً للغرباء في القدس

قال هوار : « ان القوافل عند عودتها الى الحجاز من سورية وقد سرحت الطرف في المصانع العظيمة على العهد الامبراطوري كانت نقص احاديث عجيبة مما رأت فأشرت النفوس تلك القصص وكانت منها ان اشوا في صحاري شمال بلاد اليمن جنات النعيم وارم ذات العماد الغربية وقد بنيت في غالب الظن على مثال دمشق وتدمر وبعليك » . على انه من الثابت انه كان لحمير سكان اليمن الحضراء هندسة مهمة قبل العهد الامبراطوري فان قصر عمدان في صنعاء من اعجب القصور انشاء ازال ابن قحطان بامر اخيه يعرب عشرين طبقة بعشرين سقناً بين كل سقف عشرين ذراعاً وجعل فيه مائة مسكن وكان اعلى غرفه ممرداً بالزجاج وقد بني على اربعة اوجه وجه احمر ووجه اصفر ووجه ابيض ووجه اخضر وقيل بني في داخله قصر على سبعة سقوف بين كل سقنين منها اربعون ذراعاً وجعل في اعلاه مجلس بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانه تمثال اسد من شبه كاعظم ما يكون . فالامة التي تبني هذا كانت لها ولا جرم عناية بلغة بالبناء وبراعة في

نقتديرها وهندستها وسواء اخذت العرب عن سورية الهندسة واخذ السور يون عن  
عرب الحيرة واليمن فان المهم ان يعرف ان العرب ليسوا كلهم بادية بل كان منهم من  
يشيد المدن امثال اليمانيين والى اليوم ظاهرة آثارهم البديعة على الانحطاط الذي طرأ  
على ذلك القطر العجيب بعاديته وخيراته .

جاء العرب المسلمون الى الشام ولم يكن لهم هندسة خاصة واخترتوا باديء بدء  
ان يسكن جيوشهم في الخيام وكان جمهور من الروم في دمشق تخلوا عن دورهم ولحقوا  
بهرقل فنزلها الفاتحون ثم اخذوا في كل بلد ينزلونه يرمون ماعور من بنائه وربما بنوا بالمدر  
اي باللبن والطين اولاً ولكن عادوا الى استعمال الحجر فقد روي ان عمر بن الخطاب  
رضي الله عنه لما بلغه ان سعداً واصحابه بنوا بالمدر كتب : اكره لكم البنين بالمدر  
فاما اذا فعلتم فعرضوا الحيطان واطيلوا السمك وقاربوا بين الخشب وقد كان لبعض  
الصحابه الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في انحاء المدينة مثل دار ابي  
عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز  
الازدي ووابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري  
ووائل بن اسفح وهبار بن الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس ويزيد بن نبيشة  
وعبد الله بن عامر الى امثالهم ولا نعرف الامكان دار ابي عبيدة وكان في محلة  
حجر الذهب اي المحلة التي تعرف اليوم بالبيمارستان وكانت اجمل حي في دمشق وقد  
اقام بعضهم مساجد في جوارهم . وكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق وينصب  
الابنية والاروقة والفساطيط قال اليعقوبي كان معاوية اول من بنى وشيد البناء وسخر  
الناس في بنائه ولم يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء لقبة  
خضراء بناها عليها عرفت الدار بها وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا :  
ما احسن ما بناها للعصافير وفي رواية اما اعلاه فللعصافير واما اسفله فللنار فهدمها  
وبناها بالحجر . والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الثالث بدليل ما قاله ابن واضح من  
ان في دمشق خضراء معاوية وهي دار الامارة . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب  
من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعمين  
الف دينار واشترى منه اربع ضياع باربعة اجناد الشام اختارهن فاختر من فلسطين

عمواس ومن الاردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص دير ركا .  
 وقد بنى الامويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنهادار عمر بن عبدالعزيز  
 مكان المدرسة السميساطية الآن ودار هشام مكان تربة نور الدين وقصر سليمان بن  
 عبد الملك مكان سقاية جيرون ودار مسلمة بن هشام بباب البريد قال الذهبي بنى سليمان  
 ابن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان  
 لعاتكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الحايبة بدمشق وقال ابن عساكر  
 كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن  
 عبد الملك بن مروان وقد بنى الامويون قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون  
 جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها اثر ولا خبر .

وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تنكح في البنائيات والعمائر لزيادة  
 رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسنات وذلك لان الخليفة كان يرغب في  
 البنائيات وانقاف المصانع وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على  
 دين ملوكهم .

قال احد المؤرخين وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء  
 عمر الضياع ووضع النار في الطرقات واعطى الجزين وافردهم وقال لا تسألوا واخدم  
 كل مقعد خادماً واعطى كل ضرير قائداً وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد  
 والزيادة فيها وتسهيل الطرق وحفر الانهار وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها  
 المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من اجرى على القراء وقوام المساجد الارزاق .  
 كان الامويون اذا ارادوا اقامة بناء عظيم تقدم مملكة بيزنطية الصنائع والرسوم  
 التي يراد النقل عنها . ذكروا ان الوليد لما اراد في القرن الاول ان يعمر جامعي بيت  
 المقدس ودمشق استقدم روماً من القسطنطينية للقيام بهذا الغرض فبدأت الهندسة  
 العربية بالانتباس عن الامم الاخرى فلم تأت بابداع جوهرى في مبادئ البناء  
 وقد استخدم العرب باديء بدء من المهندسين وارباب الصنائع من وجدوهم في البلاد  
 التي افتتحوها فكانت أسلوب البناء الاسلامي في اول الامر سورياً في الشام  
 وقبلياً في مصر .

قال سنيوبوس لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن ما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات الجوامع والقصور . وقال احد علماء الافرنج ان التقليد في الحضارة الاسلامية محسوس بهدانه تقليد غير اعني لان تأثيرات الاساتذة الاقدمين لا تمتنع من البحث العلمي والاختراع الحديث كما ان مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن ولطافة الابداع والاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها ولم يخلف العرب في النقش ولا الرسم آثاراً خارقة للعادة وما بقي مع هذا من آثارهم وعادياتهم الحجرية وانواطهم المنقوشة وعاجهم ومجوهراتهم يشهد باستهعدادهم الفني اه . وقال هوار : كان بدخ ملوك المسلمين من البويعي للصناع ان يرقوا الاساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن اجدادهم شفاهاً فجددوها ونفثنوا فيها فارتقت مع عدة اشكال قديمة بعضها من اصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والاخر ساساني من احلاف الدولة الاخمانية او اشوري او بابلي فارتقت عدة فروع من الصنائع الاسلامية وهي ليست من اصل بيزنطي ولا فارسي .

ولقد تفنن العرب في التزيين الجميل في كل اجزاء البناء . وحسن الصناعة عند العرب يبدو في جوامعهم . فان ما يتجلى على الجدران والسقوف من ضرب الزخرف والخطوط المتلوينة قد دعا الافرنج الى تسميته باسم ارابسك اي النقوش التي تمثل النباتات والاشجار ونسبها للعرب حتى ان حروف الكتابات التي زبرت على الاجمار والعاديات تشبه صورة من صور الزينة اكثر مما تدل على اصل من اصول الخط . ولم يكتفوا بتصوير الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك في الجوامع الاموي بل صوروا البلدان والاقليم .

\*\*\*

ومن اهم الآثار التي نتم عن ذوق عربي في هذه الديار المسجد الاقصى وقد جرى ترميمه في اوقات مختلفة والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم



يدل على ما كان هناك من فكرة وقادة و يد صناع . وقد غشّى الوليد قبة الاقصى  
بالخماس اخذه من كنيسة في بعلبك وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته  
وكان صناع هذه القبة من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الاتصى مقتبسة  
اذاً من الهندسة اليونانية وممزوجة بأشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدرين اي المهندسين مع  
ما بعث اليه من المفصص اي الفسيفساء والذهب قال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه  
حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروى ابن شداد : ان الوليد اقتلع من  
كنيسة انطاكية عمداً عجيبه من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى  
ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان تقول انه جمع اجمل ما في  
الهند وفارس وآثينة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بحالها  
كما كانت يوم كونها بعة او معبداً للصابئة . ومساجد الشام ومصر مبنية على  
شكل الكنائس التي قال المؤرخ اسابوس انها ذات افنية راروين وفساقي  
ومساكن للقسس .

رلقد بلغ من ثفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه  
ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي  
كانت منقصة كلها وان الرخام كان في جدرانه الى نامات وفوق ذلك كرمه عظيمة  
من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحجر والزرق والبيض وسقنه مقرنص  
بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة . وقد أنفق فيه خراج الشام سنين  
وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان خراج  
الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان  
الوليد اخذ ربع اعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفاً يستعين  
بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي والجامع جامع دمشق احسن شيء للمسلمين  
اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن اعجب شيء فيه تأليف الرخام الجزع كل  
شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم  
صنعة . وقال المقدسي : رأى الوليد الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بعباً حسنة قد

أفتن زخارفها وانتشر ذكرها كلقامة وببعة لد والرها فاتخذ للمسلمين مسجداً في دمشق  
شغلهم به عنهن وجعله احدى عجائب الدنيا .

ومما رواه صاحب مطالع البدور ان اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق و يبنون فيها  
وفي معالماتها من حوران وغيرها البنائيات الغربية العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه  
السلام بمدة نحو من ثلاثمائة سنة فنصرت اهل الشام على يد قسطنطين بن قسطنطين  
الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم وبنى لهم هذا الملك التي نسب اليه الطائفة الملكية  
منهم كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بنى في زمانه اثنتي عشرة الف  
كنيسة . وقد غلب حب البناء على بني امية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل  
الخلافة الرملة وهو انشأ مسجداً جامعها ونقل الناس اليها من لد وكانت المدينة التي  
ينزلها الناس فاخذ يهدم منازلهم بلد البنين بالرملة وعاقب من امتنع من ذلك وهدم  
منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انتقلوا وخرّب لد .

دخل المأمون مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكرم فازدادوا عجباً  
فقال المأمون لهما : اي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فاننا نضعه في  
قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول وهذا بجاله مع طول الزمن كأن  
الصانع فرغ منه الآن . فقال المأمون : ما أعجبني هذا . فقال يحيى بن اكرم الذي  
عجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلها . فقال المأمون : كلا  
بل العجبي انه بنى على غير مثال شوهد .

ومع ان تلك الاثار الجميلة في الجامع ذهبت في الحريق الاول سنة ٤٦١ هـ ثم  
الحرائق الخمس التي حدثت في اوقات مختلفة وآخرها سنة ١٣١٠ هـ فقد بقي في الغالب  
سوره الاول . وصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الاموي فقال انها من اعظم  
ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية وهياكلها الهائلة البنين وقال انها مستديرة كالكرة  
وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد يعطف  
كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها  
وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب مننظم بعضها ببعض  
قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين

بديعة القرنصة وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطر . قنطرة لا تثقلها الفيلة فضلاً عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفترط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه .

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عمر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على اسلوب جميل لم يسبق اليه . قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستيناس وبنى موضعها المسجد الاقصى وندق في تميته واكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والايحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا احسن منه لا جامع دمشق ولا غيره . وروي ابن العديم ان جامع حلب كان بضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وان سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنيق في بنائه لبضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق .

\*\*\*

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار محصنة حيطانها وسقوفها وفيها ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ثم ادخلت داراً اخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر واذا ووصائفها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد وان ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته . ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال انها دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على ظنفسه حمراء وعليه ثياب حمر من الخنز وقد تضخخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في اوالي ذهب يقلبه بين يديه فنفوح رائحته وفي المجلس جار يتان لم ير مثلها قط . والله اعلم اكان ذلك حقيقة ام خيالاً . وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرن السابع اي لولا دخول العرب

الفاتحين لبلغ السور يون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم وان امتزج بها شيء من هندسة الامم الاخرى فرداً عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة دمشق لم تمس حاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبهمتهم . قلنا ولو لم يُعف بنو العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه احسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها لان الامو بين كانوا على الاغلب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها وحمياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور وقصر المشتى والزيزاء والفدين والازرق والاغدف والبخراء والابيض والقسطل والرصافة والزيتونة والجابية وحوارين والصنبرة ودابق وبطناب حبيب وأياير في البلقاء وشمالي سورية وشرقها وبني هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال انطاكية وبعض هذه القصور لاتزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً واخر بوا ايضاً قصور الامو بين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير وقصري هشام في الرصافة وابقوا في الغالب على قصر خناصر من ارض الاحص امير بن عبد العزيز لانهم احتراموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين اتوا عليها كلها والغالب ان بعض الابنية لم تعور كثيراً ورممت فاطلق عليها اسمها الاصيلي ونسبت الي بانيتها الاول .

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يميمتوا ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك هم في الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام ( الحصون ) التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا ( يعني العباسيين ) بناء مدن الشامات ( قد تسمى الشام بالشامات ) اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنعة يعتد به في الشام لتحكم على عظمتهم

وكان من أهمها قناة قرية منين التي جرها المأمون إلى معسكره بدير مران في جبل قاسيون . وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لأن الطريق من منين إلى قاسيون يجتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر . وقد بنى للمتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر وفي سنة ٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها اما المنغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فاننا لانعرف عن آثارهم كبير امراً أيضاً ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فانهم آثروا ان يجعلوا مصانعهم في مصر مقر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ اموالهم .

ومن اجمل ابنية دمشق دير مران كان عامراً الى القرن الثالث وكان فيه قصر فخارويه وفيه قنل وللشعراء فيه قصائد جميلة . ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومناير وقنوات واجرى الفوارة التي في جبرون . وذكر انه وجد في تذكروته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار امراء الدولتين النورية والصلاحية ( ٥٨٤ ) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمة ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقراسنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية اليوم .

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في سورية حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهت اليها تراجم بعضهم وقليل من اعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابني ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كانت رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها فاحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكورة وعرض عليهم

ذلك فقييل لاهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء وقيل ان كان عنده احد علم هذا فعنده فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى انهضه اليه فلما صزر اليه وذكر له ذلك قال هذا امر هين عليّ بفلق الجميز الغليظة فصفا على وجه الماء بقدر الحصن البري وخطب بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ثم بنى عليها بالحجارة والشيد وجعل كما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشند البناء وجعلت الفلق كما ثقلت نزلت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك وكما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخطبه به ثم جعل على الباب قنطرة فالمرآكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صوراه . قلنا وبني احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

ومن المهندسين الذين رأينا اسماءهم مكتوبة على المصانع التي عمرها ابراهيم ابن غنائم المهندس الذي بني القصر الابلق في الميدان القبلي بدمشق وهو قصر عظيم مبني من اسفله الى اعلاه بالحجر الاسود والاصفر بتأليف غريب وإحكام عجيب بناه الظاهر بپيرس البندقداري وعلى مثاله بني الناصر محمد بن قلاوون القصر الابلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي ابلق دمشق دركاه<sup>(١)</sup> يدخل منها الى دهليز القصر وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن المؤزر بالرخام المنفصل بالصدف والفض المذهب الى سقف السقف وبالدار الكبرى به ايوانان منقابلان تطل شبابيك شرقيها على الميدان الاخضر وغربيها على شاطيء واد اخضر يجري فيه نهر وله رفارف عالية تناعي السحب تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة

(١) الدر كاه البهت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعنى الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدر تجاري القني والابنية واخذوا البركار ايضاً كما اخذوا الشاذروان للفوارة تشتمق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والخر كاه والبيارستان والخانقاه وكثيراً غيرها ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية .

سُمي بالقصر الابلق لكونه مبنيًا بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السلمانية قامت على انقاض ذلك القصر . و ابراهيم بن غنائم هذا هو الذي هندس ايضاً المدرسة الظاهرية بدمشق ونقش اسمه على يسار الداخل من الباب في الزواية الشمالية هكذا « عمل ابراهيم بن غنائم المهندس » . ولا تزال اسماء بعض المهندسين ظاهرة في بعض آثار طرابلس على عهد المماليك منهم المعلم محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي . ومن بلغنا خبره علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف المهندس بنى للملك المظفر في حماة ابراجاً وطاحوناً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

وصف بهاء الدين الموصلی قصر الابلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق قد شام في غمده مشهور غمدان، واسبل على ابوان كسرى ستر النسيان، بهير الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في اقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار برکه لتميز ناظره ، يتكسر جمعه على شاذرواناته مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابه الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والباغم واللافظ والطاعم به الطباء الاوانس ، والمها الكوانس ، اقطاره عريضة طويلة لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليلية ، اخرجت خمائله الأيك والغصون ، ولاذ القائف بالسلون عن اقتفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه ، وادر كه الاعياء فسكن باقصاه ، وشاهد الشقراء ترح في ميدان وادبها فاراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باب .

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس والمرة وبلبك وغيرها واخذوا ينشئون فيها المدارس

والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور كانت منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء هذه المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها ولما ولي العادل ازال ما بناه نور الدين وبنائها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنايات المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القيرري في صالحة دمشق وهندسة مدرسة الصهبية في حلب وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال ومن اطرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتوح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحصل لكل طاق . من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديلاً امامها فيمد الساكين فيها يده ويجنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومنازلها حسنة وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من احسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف انواعه كما قال ابن الاثير فخر المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى دمشق وغيرها وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار ولما تسلمها نقي الدين عمر حصن قلعتها وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والفرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة .

\*\*\*

وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي اجمل مدينة في العالم بل اغنى مدينة احرق تيمورلنك بعض احيائها ومدارسها وغرمها ملايين من الدنانير وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام افردها ابن عبد الهادي في رسالة



كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحتها وناهيك ببلدة فيها هذا  
القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل بن منقذ الكسائي  
يوم كان لنا القدح المعلى في العمار :

واذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها ان تقبلا  
ان كنت لا تستطيع ان تُمثل الفر - دوس فانظرها تكن متمثلا  
واذا عنان الالحظ اطلقه الفتى لم يلق الا جنة او جدولا  
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكل  
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذنباً او مجدلاً او موثلاً  
او شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزئاً ومفصلاً

ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليهازكا الاعور ودار حاجبه فيروز  
ودار سيم الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق . قال ابن الجوزي :  
هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوفاً  
من الناس . وقصر بطناس في حلب كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن  
السادس . وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمار في فتننة القرامطة  
سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء  
ما لم ير مثله وهو احسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤتين  
كانتا منظرين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكاننا من أعجب البناء .  
احرقها المصريون لما حاصروا دمشق . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس  
في الاسلام قنطرة احسن منها ويقال انها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال  
ابن القلانسي من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ومضاء  
همته ومستحسن ابتدائه ما احده من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة  
بدمشق الاوسط منها وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها انشيء ذلك  
في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدثه على قضية اخترعها وبنية اقترحها  
وصفة آثرها نجاءت في نهاية الحسن والطيبة والتقويم والاعتدال .  
من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابكية والايوبية مثل حماة

فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر وكان الصيت لمحص دونها فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة والقصور الفاتقة والمسكن الفاخرة وفي جوامعها اثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على انقاض الكاتدرائية القديمة ومنها ما حرق وخرب واستعيب عنه مكاناً آخر مثل طرابلس في سنة ٦٨٨ فتحت طرابلس واخرب سورها وكان من الاسوار العظيمة وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة مايورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع اذرع وفي مواضع عشر اذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والاسواق الحسنة . وقال آخر وبقاعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جلييلة . وكانت منبج ذات مدارس وربط عليها سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما اصبح الآن كالقري مثل قيسارية التي قال فيها المقدسي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها ومثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين ابوابها ساعة على السائر .

وقد انشأ جامع طرابلس الاشرف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ على عهد حكومة عز الدين ابيك الخزنه دار وازهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسندمر الذي بني القلعة وحماماً وسوقاً وانشأ فيها مجاري المياه الغربية في تقسيمها الى جميع طبقات الدوز ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً اجمع من رأوه انه ما عمر مثله في البلدان وعمر قيسارية ووظاحوناً وانشأ لماليكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ومنها ما يطلع الى اعلاها وتجري في طباقها وعمر ايضاً بعض القلعة واقام ابراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس - قاله النويري .

في بر الشام كثير من القلاع من ببناء القرن الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد . قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بني حسان ابن مسمار الكلي قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الامير الاجل مقدم العرب عز الدين نجر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر وذكر عليها اسمه ونسبه ومثل قلعة حلب وان كان تاريخها يرد الى ابعد من هذا القرن والمهم من انيتها بدأ في عهد الاسلام .

وكذلك قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من ببناء تاج الدولة نش سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار امارة وسكنها ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان دكوا الخضراء وقصور الأئمة وبين تخرب القصر في بعض فتن الفاطميين .

وفي سنة ٦٩١ كل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء في قلعة دمشق فجاءت في غاية الحسن والسكال والارتفاع وانشي فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر وجاء في غاية الحسن . وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الواقعة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد نامت قيامة حربها حتى قلنا أزفت الأزفة وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون : ( ليس لها من دون الله كاشفة ) واستجليت عروس الطارمة عند زفتها وقد تجيزت للحرب ولم ترض بغير الارواح مهراً وقد عقدت على رأسها تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وادارت على معصمها الابيض سوار النبر وغازات بجواب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميتها بالنبال واهدت الى العيون من مكاحل نارها الحلالاً كانت السهام لها اميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بان الطارمة عالية وتالله لقد حرس بقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاسحار وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم نتم اعينهم عن الاوتار فاعيد رواسيها التي كالجبال الشامخة بمن اسس المحجوج واحصنها قلعة بالسما ذات البروج .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن بني عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة  
ابن منقذ فراها وقد تهدمت ونغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الايات :

احذر من الدنيا ولا تغتر بالعمير القصير  
وانظر الى آثار من صرعتنا منا بالغرور  
عمروا وشادوا ما ترا من المنازل والقصور  
وتحولوا من بعد سكنها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقراض يهوت الناس  
فخرت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ وكان أسامة فد غرّم عليها اموالاً  
عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطيف وصح فيه قول القائل الحجر  
المغصوب في البناء اساس الخراب وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة .

ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الجركسية دار السعادة وكانت مكان دائرة  
المشيرية امس ودار حكومة دمشق اليوم . ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على  
مثال قلعة دمشق . وهي اقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في ادوار  
مختلفة دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف  
تيرون وهونين وتبنين وكوكب وعجلون وقاقون والصيبية والصلت والمارونية وبيت  
لاها وحصن ابي قيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهبون  
وبغراس ودر بساك ودر كوش واسفونا وبسرفوت وبلاطس وحصن الاكراد وشيزر  
والمنيطرة والشعر وبكاس وارسوف وبيت جبرين وحبرون وارتاح والاثارب وبارين  
وبارة واعزاز وصرفند وعدلون و برج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات  
وحلبا وعرقة وبرزيه وخناصرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات  
والكهف والعليقة والخوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة  
الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة  
وحمص وعكا والكرك والشوبك وصرخد وصفد وشميميس . ومعظمها نناطح السحاب  
بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب :  
ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها الغامة عمامة ،

وانملة ، اذا اخضيبها الاصيل كان الهلال لها قلامة . ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد نقرط بالنجوم ، ونقرط بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ورسا اصله الى التخوم ، تحال الشمس اذا علت انها ننقل في ابراجه ، ويظن من سها الى البها انها ذبالة في سراجه ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمى متبرجات بوجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من نجمه ، وحوله كل شامخ تهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الريح حسرى اذا تعرقلت في هضابه ، تحقق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من المهاجر ، ويحيل الفكر صورة الترقى اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الالهة الا باوصافها .

وبدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يجتاحها ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر اذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى ما فوقها وما دونها وعدتها تزيد على عشرين الف حجر لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بنيانه الا باربعة دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها انوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكس واحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه وصاحبه باوثق واصلب من جرمة واوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه »

وكثيراً ما كان سلاطين هذه الديار منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى اواخر عهد المماليك يفتربون الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها لئلا يعود اعداؤهم فيستولوا عليها وينقدموا في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنيان القديم ويعمروا به بناءهم الحديث ولهذا امثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة . فقد ذكر الامام الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحام على الرخام ونقلوا منه احمالاً الى منازلهم بالشام « فشوهوا وجوه الاماكن ومحووا سنا الحاسن » وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجزاء الاجزاع مرصعة وبالوان الرخام مجزعة واجناس تصاويرها متنوعة ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها وشوهوا اعلامها .

وذكروا ان سيبي كافل الشام في الدولة الجر كسية لما اراد بناء جامعه في باب الجابية بدمشق خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناه « جمع الجوامع » ولما ارادوا في اواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قلعها . وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة وانشأ معاوية قبله البريد . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية دار ياليصطاف الفقراء الى جانب الاغنياء ردار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلامات وسمها دار العدل كان يجلس فيها لنصل الخصرمات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع ( على اليطاني ) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . وما كان في قم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للاعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد في البلاد من ابراج حمام الزاجل لنقل الاخبار في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين المائلتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناه المؤمن فدر في جملة ما دثر . وما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال بل كان له رسم قديم .

\*\*\*

دخلت سورية في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما طرابلس وصور وانطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على الشام زمن توفرت المهم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين فان كل مستعمرة تجارية في المواني البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات ومن ذلك العهد يرد تاريخ الكنائس الكثيرة وبعضها عظيم

ثم القلاع التي غصت بها البلاد وهي احسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى . وانشاء الكنائس في الشام يرد الى عهد قسطنطين في سنة ٣٣٠ م فكثرت بكثرة عنايته ورفعه من شأن الكنيسة وقال فان برشم ان على طرابلس صبغة المدن الايطالية اثرت فيها منذ الحروب الصليبية كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى على جميع المواني البحرية في سورية وكان للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا اسبق ام الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب والعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية وكان عدد الصليبيين من جمهوريات ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم قال الاثري فان برشم : لما كانت سواحل سورية محط رحال الصليبيين ونقطة حركاتهم الحربية تشعبت ابنيتها بالروح الايطالي خصوصاً لان الطليان كانوا اذ ذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنساوي . ومن هذه المدن ما اثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ومنها ما هو باق مثل انطاكية وبيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتجلى الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في ابنيتها وهندستها ولا تزال قلعة الحصن او حصن الاكراد والكرك كما يدعونها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ناطقة بلسان حالها بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة .

قلنا فاذا كان الطليان يبيعون هندستهم في البناء ونقشهم ورسمهم من الامم الغربية حتى اليوم فاحر بهم ان يبيعوها من اهل القرون الوسطى هنا . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وارواد وصور وصيدا ودير البند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في البلاد التي احتلوها .

قال رنان الظاهر ان البنائيات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكلمين . وان البنائيات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسويين وفرسان الاسبتالين وكثيراً ما كانت تأثر هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت

البلاد خاصة بها — تعدل ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت اهم هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعة بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس ببعة هي اجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

وتجلت الهندسة الايطالية في الابنية الحديثة التي أنشئت منذ ستين سنة في بيروت ولبنان وطرابلس وحيقا ويافا وصيدا وغيرها من مدن الساحل فان معظمها من الطراز الايطالي لا تحوي شيئاً من روح الهندسة العربية الا كونها نامت في صميم بلاد العرب . لا جرم ان علاقة سورية بايطاليا اقدم من الاسلام . علاقتها ببلادنا منذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

\* \* \*

برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه احوال اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار وتقنية القنيّ وسدّ البثوق وثنضيد المساكن ولولم يبرعوا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يهبرنا اليوم مع علمنا بقلّة الآلات المحركة في عهدهم وفقدان وسائل الفنّين . ولو كان مؤلفو التراجم يعنون باخبار المهندسين والفلكيين والكياويين مثلاً عنايتهم بالنقاط اخبار الشعراء والمتأدبين والمتزهدين لجاءنا منهم سلسلة طويلة وعلما من اسباب تفننهم وعلومهم الشيء الكثير وما ندري ان كانت هذه الموضوعات افردت بالتأليف فضاعت في جملة ما ضاع في الفن في بغداد ودمشق وغرناطة .

لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتقاء البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة كما كانت بنوافذها وابوابها الحجرية . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور وان هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة



ومنه مثال حي من مدارس المذاهب الاربعية ودور القرآن والحديث والمستشفيات والرُّبُط وغيرها في دمشق . وعن هذا المثال نقل الأُمويون أسلوبهم في بناء البيوت بقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس اقتبسوا أسلوب بناء الدور من دمشق على ما يظهر كأن لا تكون الدار اكثر من طابقين احدهما شتوي وهو الاعلى والاخر صيفي وهو الادنى والدار مدخل او دهليز يتصل بفناء واسع فيه حوض ماء وفي صحن الدار اشجار وازهار وفوارات . قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفى بطيقان للتهوية ولها فناء داخلي تحف به زخرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة او حوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثالا في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في ابنيتها على الحجر غالباً . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وازقتها غامة واكثر اسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس ان اكثر ابنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها اصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها وان كانت الرخام بها اقل وانما هو احسن انواعاً قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بسايتهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب اجلّ بناءً لعنايتهم بالحجر فدمشق ازين واكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل الا انه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره واشرف دورها ما قرب واجل حاضرتها ما هو في جانبها اه . قلنا وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير اما كن بيوتهم فقد كانوا اصطلمحوا على ان الاطراف منازل الاشيراف قال المجتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاطراف تلتقى منازل الاشراف  
ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية والربوة والشرف الاعلى الشمالي  
والشرف الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً انيقة ينزلها القضاة والحكام وكبار ارباب  
الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى  
نحكم على ما عمله الدمشقيون واسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي  
الاولى وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ونقول كاتب جلي : انه كان في  
المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف  
لا سيما ابنية البرامكة وآثارهم فانها لم تزل باقية الى هذا العهد ( القرن الحادي عشر )  
وروى الظاهري : ان دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة  
على المدينة بها تخت الملك مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً :  
ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا  
في القرن العاشر .

وآثار العثمانيين في هذه العاصمة التكيثان السلمانية والسليمية والجامعان السنانية  
والدرويشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولم مثل ذلك في حلب ومنها  
المدرستان البديعتان مدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنيم الاثرية  
ان عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وما عدا الجوامع  
الكثيرة مثل جامع الاطروش والطون بغا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة  
— وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت  
بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من المخازن والخانات والحمامات  
والدور والسلسبيلات . وفي هذا المستشفى افاريز ونقوش من اجمل مانقش النقاشون  
تزينه فجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها  
العسكري والديني والمدني وكلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان  
يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي سورية اه . ومن اجمل آثار  
الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب  
ست سنين وهي ابنة ابي بكر بن ايوب الملك العادل ولو كتب البقاء على الاقل للقصر

الذي بناه بقرية بطياس من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالي بني حمدان وقصر سيف الدولة بن حمدان الذي بناه بالحلمة من ضواحي حلب وثنائها في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك . او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم . ويقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب . وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كفل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحلبي الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبال الجسر القديم مما يلي قبله على هذه الصورة مكتوب: الامير ادوار قيصر مارقوس اورليوس انطونيوس الحلبي السعيد اغسطس كبير الجرمانين الحبر الاعظم قطع الجبال المشتملة على نبر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الانطونياني وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما صلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة ( نصباً ) من حجر كبير على صورة الكلب وقيده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه تقيراً لاجل الطعام .

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت بعد ان لم يبق في السواحل مثل هذا النهر بغير جسر وكان عمراً مرة فاقام سننين فاخذ السيل ثم عمّر ولم يبق الا بعض الشتاء لضعف الاساس اتدبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال الاحلية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال الثقيل ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وكذلك جسر الظاهر برقوق الذي بناه على نهر الأردن اي الشريعة وطوله مائة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه

السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بني سلطاننا برقوق جسراً بامر والانام له مطيعه  
مجاز في الحقيقة للبرايا وامر بالمرور على الشريعة  
وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوقاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواساً  
يحملون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين  
و يؤمن من حرقه .

\*\*\*

من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى القرن التاسع والعاشر  
والخادي عشر والثاني عشر ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم فمنها القاعة  
المشهوره بباب جيرون وباب السلسلة انشأها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات  
الفائقة بدمشق فانه تأنق في عمارتها بالقاشان والرخام وعمر القصر المعروف به في  
الوادي الاخضر (١٠١١) ومنها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقبول سنة  
١٠٠٢ بقريه قب الياس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال  
الحبي لم يرسم مثلاً جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني ونقل لها الرخام  
من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة . وفي سنة ١٠٣٤  
بني الامير منذر بن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد التنوخي سرايا عظيمة في قرية عبيه  
في الشحار من الغرب في لبنان وبقى مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان  
البنائون من اسلامبول . وامر الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١  
بعمارة قاعة معظمه داخل دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال الحبي على اسلوب عجيب  
ووضع غريب . وقال المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير نجر الدين المعني يجب  
البدخ والرفاهية و تنظيم اصطبلاته و يطرته حتى اصبح مضرب الامثال في ذلك وعمر  
في بيت الدين قصرًا ملوكياً وجاب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال  
بعض المؤرخين جر الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب  
نهر الصفا الى منزله في بيت الامير من بعد ثلاث ساعات وغرّم على ذلك زهاء مائتي  
الف درهم وكانت جميع اهل البلاد تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة

بغير اجرة اكراماً له ومدة العمل اثنتان وعشرون شهراً وعمر الامير بشير بايعاز من والي بييدا جسراً على نهر الدامور في طريق صيدا الى بيروت فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فاقمه في شهرين وغرّم عليه نحو مائة الف درهم ومن الابنية التي اشتهرت في عصرها قاعة حسين بن قونق في صالحية دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ وكان يضرب بها المثل وهي على الارجح في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوت الامير المنصور الشهابي امير وادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على اسلوب متقن محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليها الرخام من بلادهما قال المحبي : ولعمري انهما ابدتا ونوعا واجادا في صنعها .

وذكر المؤرخون ان الامير نضر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب ولعلمهم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضاً انه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا اصحاب طرابلس فاحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسّم هكذا : وحق زمزم والنبي المختار لاعمر ك يادير بحجر عكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمر وبنى جميع الدور القديمة في دير القمر ووزع في جدرانها من حجارة عكار وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الخرج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن . ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باشا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشائها سنة ١١٦٣ وانتهت سنة ١١٧٤ قيل ان ما انفق عليها اربعمائة كيس كل كيس بخمسة مائة قرش وهذا اجور العملة واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه عدا من سخرهم للبناء من الناس وكان عدد العملة ثمانمائة قيل ان داخل الدار اما كن عديدة لانتسبه الواحدة الاخرى وجميعها بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم ونقل بعض السائحون ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والردهات والابهاء والفساقي والفوارات والحمام من العطف ما هندس المهندسون في

ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماه وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة . والنقوش وانواع الزينة فيها فارسية فاستدل من ذلك ان النقاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي ومن اجمل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة اكثر من اليوم . ودار اسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورممتها وجعلتها متحفاً وداره في حماه اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً . ومن اجمل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابته» وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه ومن اجمل آثار ذلك القرن جامع الجزائر في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذلك القرن . وسراي بيت الدين انشئت في اوائل القرن التاسع عشر ومهندسوها ايطاليون والبنائون دمشقيون وحلبيون واتراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممزج بالطرز الايطالي . ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الهلالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا . فان هذه القصور مثال من فنن اعيان ذلك الزمان في تيجيد بيوتهم وحسن هندستهم . وقد تبين مما سلف ان الهندسة في الشام اصبحت في القرون الاخيرة سورية عربية وانت اذا شاهدت ماشادوا ونضدوا ونقشوا ورصعوا رأيتهم يبنون كما قيل بناء الجبابرة وينقشون نقش الصياغ .

وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام تراها طرزاً طليانياً في الاكثر قد لا ينطبق مع روح البلاد ومصطلحها في اشادة البيوت منذ القرون الاولى وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس ويافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن وما دور بني سرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيزية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرهما وبعض الدور المحدثه في دمشق الامثال منها ومن اهم ابنية الشام المحدثه دير الكازانوف في الناصرة ودير الالمان ودير الروس في القدس ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ومحطة السكة الحجازية في دمشق ومحطة سكة بغداد في حلب وغير ذلك من القصور الخاصة

والفنادق والمدارس والملاجئ والميآتم والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها ومن اهم دور القرن الماضي في دمشق دار القوتلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني ويسرع البلى الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منهما على الاغلب واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها ننبو عنه العين والزخرف في داخلها قال البحري :

وتأملت ان تظل ركابي بين لبنان طلعا والسنير

مشرفات على دمشق وقداع - رض منها يباض تلك القصور

ومع ان المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة فان القوم يستسهلون او يسترخسون البناء بالخشب واللبن او الحجر الاسود الناري فيبنون به كما يبني اهل حمص . واجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب ولم يزل بناء بيت المقدس - كما قال القاضي الفاضل - من الرخام الذي يطرد . واؤه ولا ينطرد لألاؤه قد لطف الحديد في تجزيعه ، ونفنن في توسيعه ، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيده ، فما ترى الامقاع كالرياض لها من يباض الترخيم رقرق ، كالأشجار لها من النبت اوراق . وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها ايدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت الى الترميم بطاريء طرا عليها .

قلت في الشام قصور افراد الناس من التجار والصناع والزراع كما تشهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد كانوا يفنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب الدولة او من كان يعد في جملتهم وكان سائر الناس يحاذرون ان ننشأ لهم شهرة في الثروة والثروة تجلي في الدار والفرش والدابة واللباس فيتظاهرون بالنقر ليخجوا من محالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل شيء عليهم وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات . ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذاك الغني المحروم . والناظر الى مدارس دمشق وصالحيتها وهي لا تقل عن زهاء ثلثائة مدرسة

ومدارس حلب وهي تربو على مئة يدرك انها من عمل السلاطين والعمال وقليل من  
التجار واهل الخير وكان منهم من يتوخى منها ان تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا  
منها اذا صودرت املاكهم . وقل ان رأينا جماعة انفقوا على اقامة عمل من هذا القبيل  
ينفخر به اللهم الا قليل من المساجد ولو فعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين  
ولما استصفيت واستحل هدها او تغير معالمها من لا يخافون الله ولا عباده ولجأت ممثلة  
العظمة الحقيقية في الامة . انشأ المسلمون هذا القدر من المدارس في اكبر مدن  
القطر دع مدارس حماة وطرابلس وبعليك والقدس والمعرفة ومنج بدأوا في القرن  
السادس وانتهوا في القرن التاسع فجاء من بعدهم من يسفها واحدة تلوا الاخرى فتداعت  
واكلوا او قافها فاخرجوها عن الغاية الشريرة التي وضعت لها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقنر العرصات

هكذا كان حظ المدارس والجوامع فما بالك في غيرها من المصانع . وكم ادر كنا  
وادرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته  
وكم من كتابة تاريخية عفي اثرها جهلاً وغباوة . اجتاز القاضي ابو يعلى المعري ببلدة  
شيات ظاهر معرفة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمرها به موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شيات فراغني به زجل الاجار تحت المعاول

ثناؤها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل

انثلفها شلت يمينك خلفها لمعتبر او زائر او مسائل

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل

وبعد فقد علمنا بما مر بنا من العبران الشام لا يحفظ آثاره وبنيها الا يوم نشأ  
فيه ادارة للعاديات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد  
قاحت نطت بالبقية الباقية من اعمال الغابرين وخدمت احباب الآثار وغلاة الهندسة  
من المحدثين . واهم من هذا ان يتربى في الامة الذوق في الجمال وينتشر العلم  
بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة  
بطابع الاجداد والاجيال وعندئذ يصبح الشام كله متحفاً نفيساً دونه اجمال المتاحف  
وانغم بيوت المفاخر والمآثر .

محمد كرد علي



# فهارس كتاب المحاضرات

« الجزء الاول »

## الفهرس الاول في اسماء المحاضرات

	صفحة
	الفاتحة ٠
معلقة طرفه بن العبد	١
الحسبة في الاسلام	١٧
الوبالة ( الملاريا ) وكيفية الوقاية منها	٢٥
الجباية في الشام	٣٨
القضاء في الاسلام	٧٤
العلم	١١٢
الحقوق المدنية في العالم القديم ومنابعها الثابتة	١٣٠
حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها	١٤٠
أحجية بن الجراح	١٦٧
كيف تحقق الآثار التاريخ	١٧٨
العمل بالعلم	٢٠٠
ارتباط البلاد على اصول الاتحاد	٢٢١
طرفة أدب من آداب العرب	٢٣٧
الكتب والمطالعة	٢٥٩
صناعات دمشق القديمة	٢٨٠
صفحة من تاريخنا الاجتماعي	٣١٣
مصانع الشام منذ عرف التاريخ	٣٢٩

❖ الفهرس الثاني في اسماء المحاضرين ❖

انيس سلوم	صفحة ١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩
سعيد مراد الغزي	١٣٠
عبد القادر المغربي	١ و ١٦٧ و ٢٣٧ و ٣١٣
عارف النكدي	٧٤
عيسى اسكندر المعلوف	١٤٠ و ١٧٨ و ٢٨٠
فارس الخوري	٢٢١
محمد كرد علي	١٧ و ٣٨ و ٣٢٩
مرشد خاطر	٢٥

—❖❖❖—

❖ الفهرس الثالث في موضوع المحاضرات ❖

اثرية فنية	( ١٧٨ و ٣٢٩ )
اجتماعية	( ٣١٣ )
ادبية علمية	( ١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩ )
ادارية	( ٢٢١ )
اقتصادية	( ٣٨ )
تاريخية	( ١٤٠ )
تاريخية ادبية	( ١ و ١٦٧ و ٢٣٧ )
حقوقية	( ١٣٠ )
صحية طبية	( ٢٥ )
صناعية	( ٢٨٠ و ٣٢٩ )
قضائية	( ٧٤ )
مدنية	( ١٧ )
هندسية	( ٣٢٩ )

\* اصلاح أم الخطأ المطبعي \*

صواب	خطأ	سطر	صفحة
المتجرد	التجرد	١٨	٨
لا ينفذ	لا ينفذ	٢١	١٠
أخمل	أخمل	١٠	١١
المصمّد	المصمّد	١٩	١١
هم	فهم	١٢	١٣
غاب وجه الحجر	غارة وجه الحجر	٢٤	٣٠
صيفي	صيفي	١٥	٧٨
٠٠٠ من ادعى	واليمين على ادعى	١	٧٩
واجتهاده	واجتهاد	١	٨٢
المذاهب	والمذاهب	٨	٨٣
رضيتها	رضيها	٨	٨٣
يرجع	٨٤ السطر (٢) من الحاشية <sup>(١)</sup> يشرح		
ومع هذا فقد قضي عليه في خصومة	ومع هذا في فقد قضي عليه خصومة	١٧	٩٣
ملجم	ملجم	آخر سطر	٩٥
الحق الالهي	او الحق الالهي	١٤	١٠٠
بين المنازعين	بين امر المنازعين	آخر سطر	١٠٢
ضرب للاول	ضرب الاول	٢٢	١٠٣
نفي	في	٧	١٠٥
لا يكون الاقرار بالاكراه مداراً	لا يكون مداراً	١٦	١٠٦
واوجبوا التبرئة في	واوجبوا في	٢٤	١٠٦
يجلس	يجلس	٥	١٠٨
يقام الحد	يقام له الحد	٢٤	١٠٨
جمع	جميع	١	١١٣

صواب	خطأ	سطر	صفحة
مناب	منا	٢١	١١٥
مكائن	يكن	١٤	١١٦
من	تمن	١٥	١١٦
والحديد اقل من	والحديد من	٢٢	١٢٤
علمهم	عليهم	٢٣	١٢٦
ونشط	ونشيط	٢	١٢٨
يرسلون	يراسلون	٢٣	١٢٨
بروشيموس	بيروسيوس	قبل الاخير بسطر	١٨١
ما علاقة الآثار	ما علامة الآثار	١	١٨٢
شؤوننا	شؤونها	٨	١٩٩
حلية	حيلة	٤	٢٠٢
يكونوا	يكون	٢٢	٢٠٥
الغريبين	الغريقين	١٩	٢٠٦
لاخالفن	لاخافن	١٠	٢٥٢
حين من الدهر	حين الدهر	١	٢٥٩
بجمع	بجميع	١٢	٢٦٤
وما مثلها	مثلها	١٩	٢٦٩
المؤلفة	المزلفة	١٢	٢٧٢
بعضها	بعضهم	١٨	٢٧٤
عنه	عند	٨	٢٧٧
وهبت	وهنت	٢٢	٢٧٨
ابن عربي	ابن العربي	١١	٢٩١
لقصره	مصره	٩	٣١٨

هذا عدا حروف وتقط ساقطة او زائدة مما لا يخفى امره عن اللبيب .